تاريخ الإنسان الطبيعي

يبحث في نشوء الانسان وترقيه
منذ اصبحت الكرة الارضية صالحة لظهوره عليها حتى عصرنا الحاضر
مع بيان الاحوال التي تقلب فيها ، والتغيرات التي طرأت عليه
وتاريخ الخلقات الشاذة التي تخلقت بها بعض افراده

وفيه ٣٦ رسماً

بقلم

الياس الغضبان

حق الطبع محفوظ

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

obeikandl.com

تاريخ الإنسان الطبيعي

obeikandl.com

يا ناظرا يمحي بصيرة نبصر لا تغتصم بكيانه جسم فانه
فدفائق القرطاس تبقى بعدما تفنى دقائق هيكل الانسانه

الياس الفضبان .

Sabbagh

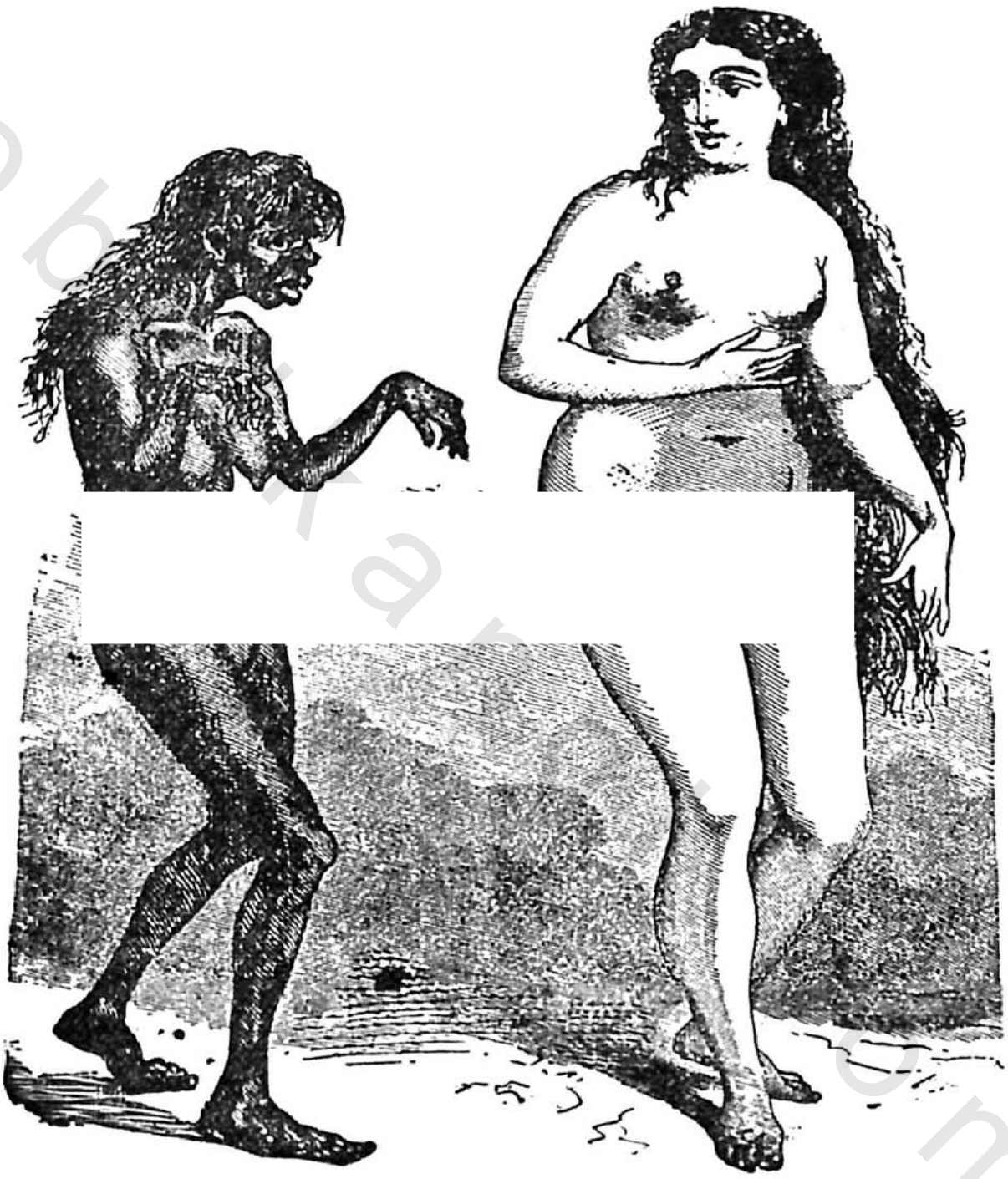

الرسم ١
الشكل البشري الاصلي
(او انثى الهوتنتوت)

الرسم ٢
الشكل البشري المرتقي
(او الانثى القوقاسية)

obeikandl.com

خطبة الكتاب

لا شيء اخلق بالانسان معرفتهُ ، من اطلاعهِ على تاريخ طبيعة جنسه . ولا علمَ الزم اليهِ فهمهُ ، من المامهِ بمبدأ نشوئهِ ووقوفهِ على خصائص جسمه . بل لا بحثَ اجزل فائدةً لهُ ، من بحثهِ في الاسباب الباعثة على ترقّي ذرّيتهِ او تسفل نسله . بحيث انهُ يستدل من ذلك على بعض سنن الطبيعة ونواميسها . ويزيح النقاب عن جانب من خوافي امرها وغوامض اسرارها . اذ تتجلى لناظريهِ السبيل التي انتهجها الكون في باديء بدء ، حتى توصّل الى النقطة التي هو قائمٌ فيها . والمرقاة التي تدرج الانسان بها ، حتى بلغ الدرجة التي نشاهدهُ مستوياً عليها . والعوامل التي اثّرت في طبيعتهِ ، حتى اوجدت في مجموعهِ انواعاً واصنافاً ، اصبح فيما بعد كل فريقٍ منهُ منتسباً اليها

فتاريخ الانسان الطبيعي هو العلم الاولى بالانسان مطالعتهُ وصرف الذهن اليه . اذ انهُ فضلاً عن ايقافهِ المطالع على حقيقة

طبيعتهِ ونظام تركيبه . فهو ما خلا ذلك الذريعة التي بواسطتها تتجافى المدارك مواطن الاوهام وربوع الخيال . والمشكاة التي بها يستنير العقل وتنقشع عنهُ سحب الجهل وغشاوة الضلال . بل هو المرآة التي تعكس للمتبصر ادوار الحياة وصور الاجيال . لا بل المرقاة التي يرتقي بواسطتها البشر بالجسم والعقل الى منازل الرفعة وذرى الكمال

ناقي منا نظرةً على التاريخ فنشاهد الامة اليونانية لم تبلغ في زمانها الغابر تلك المرتبة السامية ، الاَّ عندما تحدّت سير النواميس الطبيعية ، وسنّت لشعبها شرائع ونظاماتٍ لا يجوز للفرد منها ان يهملها او يتعدّى حدودها . حتى بلغت بقواها المادية والعقلية مرتبةً تفوق مراتب الامم المعاصرة لها . وكان منها الابطال الاشدّاء ، والفلاسفة الحكماء ، والشعراء البلغاء ، والعبقريون الاذكياء . وبذلك تسنّى لتلك الامة الصغيرة ان تخضع الممالك العظيمة لها وتجعلها تحت سيطرتها وفي قبضة كفها

وكذلك تتسفل الامة لعدم مراعاتها النواميس الطبيعية فيما يختص بالبيئة والغذاء والتناسل ، واستسلامها الى العادات والملكات المضنية المهلكة . حتى يرسخ فيها الانحطاط المادي والعقلي وتستحكم حلقاته . وذلك بطريق الوراثة الطبيعية التي هي العامل الاكبر على تسفّل النسل ، مثلما هي الذريعة الوحيدة لتحسين الخلف وارتقاء الذرّية . وذلك نظير القبائل السافلة التي يوجد منها في كل قارّة من قارّات المعمور ، والتي يسمونها بالنوَر والغجَر وما هو على

شاكلته . فلو راعى هؤلآء القوم النواميس الطبيعية وألمّوا بنظامها وحقيقة امرها . لارتقى بذلك تركيبهم ولم يستمرّوا على تلك الحالة من الدناءة والانحطاط

ومن ثمَّ يتسبب وجود الهُوَل اي شواذّ المخلوقات في عالم البشر ، من معاكسة الطبيعة في نظامها ، ومخالفتهـا في اثنآء تأدية اعمالها . بحيث لم تُراعَ اصول الوراثة الطبيعية ، او ان يطرأ في الغالب على عمل التلقيح او الحمل حادثٌ ما يخالفُ لهُ فيؤخّر سيرهُ او يضرّ بحركته . حتى يتشوّه تكوّن التصوير وتتخاذل تراكيبهُ وهو في احشآء امه . الى ان يأتي الى هذا العـالم بذلك المنظر المخالف للخلقـة البشرية . الامر الذي كان غالباً في الامكان ملافاتهُ ومنع حدوثه . لو راعى الوالدان القانون الطبيعي ولم يخلاّ بنظامهِ وشرائعه

على انهُ اذا كانت جميع العلوم واجبةً لترقية الانسان وتوسيع دائرة معلوماتهِ ومداركه ، وكانت العلوم الطبيعية جملةً احق بالاسبقية ، فتاريخ الانسان الطبيعي هو الاولى بسبقها والتقدم عليها

اولاً : — لانهُ هو التاريخ الذي يبحث في اصل ومبدأ الانسان من وقت ظهورهِ على وجه الغبرآء حتى عصرنا الحاضر ، وما طرأ على مجموعهِ من التغيّر والاحوال التي ادّت الى تباين انواعهِ وتعداد اصنافه . وكم جازت عليهِ ضروبٌ من التقلبات والحوادث حتى بلغ فريقٌ منهُ الى مرتبةٍ من الارتقآء المادي والعقلي التي تقرب من مراتب الكمال

ثانياً : — يكشف لنا الغطآء عن كثيرٍ من الحوادث الطبيعية الغير المألوفة والخارقة العادة . ويوضح لنا تعليلها ويأتي على تبيان مسبباتها . بعد ما كان جهلنا بها يضطرنا الى تحكيم الوهم وتوسيط الخيال في تأويل مبدأها ، والوقوف على حقيقة امرها

ثالثاً : — ينير ابصارنا ويجلي بصائرنا بايقافهِ ايانا على نواميس التكوّن البشري ومبادئهِ الثابتة المؤيدة بالحس والمشفوعة بالبرهان . فضلاً عن تدريبهِ العقل منا على النظر الصحيح والحكم الصائب حتى لم تعد توثر بهِ وتتحكم باميالهِ ورغائبهِ ضلالة المضلّين ومخرقة الكهان والمشعوذين

رابعاً : — يوضح لنا الطريقة التي يجب علينا ان نبتغيها ونتحدّى سبيلها ليأتي خلقنا صحيح التركيب حسن البنية . قد توفّرت فيه القوى المادية والعقلية وهي التي يكون بها اهلاً لتحصيل الرفعة وبلوغ النجاح وسبباً يتحسن بهِ النسل وتنتفع منهُ الانسانية

فيتضح مما تقدم وسواه ، ان تاريخ الانسان الطبيعي هو العلم الذي لا يجوز للانسان ان يهملهُ ويستخف بشأنه . بل الاوجب على الناشئة ان ترتاد نجعتهُ وتورد شرعتهُ وتتبارى في حلبة السباق اليه . وذلك لتنير بضيآئهِ بصائرها وتوسّع نطاق مداركها ، وتجعلهُ مقياساً امام اعينها تجري بموجبهِ وتهتدي بهديه ، وتردّ اليهِ ما اختلف عليها من غرائب الخلق وشواذ البشر

﴿ العلم سلّم الارتقآء ﴾

يجيل المرء طرفهُ بين جدران معاهد كتبنا العربية فلا يقع نظرهُ الاَّ على مؤلفاتٍ تختص بالأدب والشرع واللغة، وقليل من العلوم الطبيعية التي قدم عهدها وانتقض حكمها ولم يعد يفيد كثيراً إلفات النظر اليها والبحث فيها . اما ما كان مختصاً بالعلوم الحديثة والمباحث العصرية المعمول بها والمعوّل عليها، وعلى الاخص الطبيعية منها. فانك لا تكاد تسمع لها ذكراً ولا تجد لها اثراً . مع انها هي الكنانة التي نرمي بسهامها انصار الشعوذة ومريدي الجهل، والخزانة التي يستعان بمحفوظها على تفريج ازمة العلم وضيق دائرة العقل

نسمع بعض المنشئين يملأون الصحافة جلبةً وجعجعةً بتطلبهم من اولياء الامر ان تدرّس العلوم في مدارسنا باللغة العربية . وذلك ليكون نشر التعليم اعمّ ونفعهُ اتمّ . ولا نعلم اذا كانوا يجهلون او يتجاهلون ما يجب لهذا المشروع من المؤلفات العربية العديدة التي يستحيل الامر بدونها ولا يمكن الاستغناء عنها . فكان الاولى بهم ان يتطلبوا اولاً ايجاد المحراث قبل التماس البذار، ويحثوا ارباب السيطرة واولياء اليسار على ترغيب المعرّبين والمؤلفين والاخذ بناصرهم . لتتسنى العدّة المقتضية للشروع في هذا العمل، وبذلك تتحقق

امنيتهم المنشودة ويجنون ثمار النفع المنتظر

ولما كان العلم ليس هو مخصصاً بقبيلةٍ او امةٍ ، بل هو مشاعٌ بين الجميع يتيسر لكل طائفةٍ من البشر ان تقتبسهُ من جارتها او البعيدة عنها ، اذا رغبت فيهِ وتوخّت منهُ فائدتها . وكانت اللغات متباينة التعبير مختلفة الفهم بين القبائل والامم . وان كل قبيلةٍ قد دوّنت علومها ومعارفها بلغتها . فكان لا سبيل الى نقل علمٍ او فنٍّ او اختراعٍ من امةٍ الى سواها الاَّ بواسطة الترجمة والنقل . الامر الذي جعل العرب قديماً ان يكونوا مدينين بعلومهم وحضارتهم الغابرة الى تلك الفئة من النقلة والمعرّبين الذين عاصروا الخليفة ابا جعفر المنصور ، والرشيد ، ثمَّ الخليفة السابع عبد الله المأمون . وهم نظير جرجيس بن بختشوع ، وعبد الله بن المقفع معرّب كتاب كليلة ودمنة ، ويوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق ، وثابت بن قرَّة ، ويوحنا بن البطريق ، وامثالهم الذين نحوا منحاهم وعملوا نظيرهم

وكذلك تستمر اوروبا مدينةً ايضاً بعلومها ومدنيتها الى تلك الفئة من النقلة والمترجمين وهم نظير قسطنطين الافريقي ، وجيرار الكرموني ، والاشبيلي ، وسمعان الجنوي ، ومخائيل سكوت الانكليزي ، وغيرهم اولئك الذين عاصروا ألفونس ملك قشتاله ، وفريدريك الثاني صاحب المانيا وايطاليا وامثالهما . . . وهم الذين قاموا بترجمة علوم العرب واليونان ونقلها الى امهات لغات اوروبا . فكانوا هم الشهب الباعثة على ضياء هذه الحضارة الغربية التي نقتبس الآن من شعلتها

ونستضيء بنورها

وبالنظر الى امتنا العربية الحاضرة فانهُ ليس بالامكان ان تخطو خطوةً واسعةً في ميدان العلوم العصرية والمخترعات الحديثة الاَّ بواسطة الترجمة والنقل. فهي لم تزل حتى الآن في المهد وفي اول دورٍ من ادوار الحياة العلمية. الذي لم يتيسر لها بلوغهُ الاَّ عندما اعتنى بعض المتخرّجين من مدارس الاجانب في سوريا والاميرية في مصر بتعريب بعض مؤلفات الفرنجة وكتاباتهم. لاسيما وان العالم الكبير والفيلسوف الخطير في عصرنا هذا ما اقتصرت جلّ كتاباتهِ على الترجمة والنقل وهذان هما الاساس لهذه النهضة الاخيرة التي نراها قائمة بين ظهراني قومنا الناطقين بالضاد

ولقد كانت زعماء النهضة في جميع الممالك لا يكتفون بما عندهم من العلوم والمعارف بل انهم كانوا يضيفون الى معلوماتهم ما يقتبسونهُ من الغير بواسطة ترجمة مؤلفاتهم المفيدة ومكتشفاتهم النافعة. ومما نشاهدهُ دائمًا انهُ لا يظهر كتابٌ مفيد في احدى اللغات الاجنبية الراقية حتى يُترجم في اسرع ما يمكن الى سواها. وانهُ في نظري ان كل من ينقل علمًا الى لغة قومهِ لا عهد لها بهِ، هو افضل من كثيرين من ارباب التآليف الواهنة الذين يتصدّون لعملٍ لم تتوفر لديهم العدَّة المقتضية له

وعليهِ فلا سبيل الى بثّ روح العلوم العالية والمبتكرات العصرية في جسم الامة العربية لترقيتها الى مصاف الشعوب الحية والامم الراقية،

الاَّ بالاعتماد باديء بدء على التعريب والنقل . وبذلك تكثر المؤلفات العلمية وتتوفر موادها وتتسع دائرتها . فوقتئذٍ ينقطع خلفنا عن التعريب ويأخذ بمبادي التأليف كما فعل نظير ذلك العرب والافرنج لما استكملت لديهم عدة التأليف وآنسوا من انفسهم الكفاية والاقتدار

﴿ موضوع الكتاب ﴾

كانت تشتدُّ فيَّ الرغبة ويستفزّني الميل من يومٍ الى آخر لان اخدم ابناء جلدتي الناطقين بالضاد بكتابٍ علميّ غزير المادة كثير النفع ، يستجلب انظارهم ويستهوي افئدتهم لمطالعتهِ والوقوف على جليل مباحثهِ وغريب محتوياته . ذلك لعلمي بان قرآء جيلنا هذا قلما يحوّلون انظارهم نحو المصنفات العلمية ويهتمون بمطالعتها . وعليهِ اخذت ابحث واتحرّى عن كتابٍ علمي يحوي المزيتين ألا وهما النفع والفكاهة . الى ان وقفت على هذا المؤلف الجليل وهو تاريخ الانسان الطبيعي لعظيمٍ من علماء الفرنسيس وهو المسيو دوبي . فآثرت تعريبهُ لما توخيتهُ فيهِ من المباحث الجليلة والفوائد الجمة التي ترقّي فكر المطالع وتوسّع دائرة معلوماتهِ ومداركه

يأخذ هذا التاريخ مبدأهُ بتكوّن الارض وما توالى عليها من

التقلبات والانفعالات ، الى ان ظهرت فيها جراثيم الحياة الاولى ، الى يوم ما اصبحت صالحةً لانتاج الانسان الاول . ثمَّ ما تقلّب على هذا الانسان من الادوار ، وما تعاقب عليهِ من الاجيال ، وكيف ان اختلاف الاقاليم والبيئات اثّر مفعولها في تراكيب جنسهِ فاوجد فيهِ انواعاً واصنافاً اصبحت تتميز فيما بينها باللون والرسم . ثمَّ تأتي بعد ذلك الشواذّات المختلفة والخلقات والمزايا الغريبة التي تخلّق بها بعض الناس واتفق حدوثها في الجنس البشري ، من يوم ما اصبح الانسان يدوّن الاشياء التي تقع تحت نظرهِ او تخطر في فكره . ثمَّ بعد ذلك الكيفية التي يتكوّن بها الانسان والادوار التي تتقلب فيها حياتهُ طي الرحم وفوق البسيطة . الى غير ذلك من المباحث السامية والمطالب المفيدة المفصّل عنها في جدول مواد الكتاب

ولما كانت اللغة العربية مفتقرةً الى كتابٍ كهذا يبحث في تاريخ الانسان الطبيعي ، وليس في مؤلفات علماء العرب ما يقاربهُ او ينحو منحاه . ذلك لانهُ لم يصل الينا كتابٌ عربيّ يحتوي على العلم الطبيعي بحقيقة امرهِ ، وان كل ما وقع نظرنا عليهِ من مؤلفات اسلافنا علماء العرب هو انهم قد ادرجوا بعض مسائل منهُ في كتب الفلسفة وعلم الكلام لكنهم لم يتجاوزوا في ذلك حدود النظر والقياس . فرأيت ان اقوم بتعريب هذا المؤلف خدمةً لابناء اللغة العربية . وقد ذيلت اكثر مواضيعهِ بالاراء والحوادث العلمية التي خطرت لي او عثرت عليها في اشهر مؤلفات علماء العرب . مقتصراً في ذلك على

ما كان منطبقاً منها على الآراء الحديثة المعوّل عليها عند علماء هذا العصر

ولقد تحرّيت في التعريب المحافظة على نص المؤلف غاية المستطاع مع مراعاة حسن الاسلوب في الانشاء ، ليكون ذلك اسهل منالاً على المطالع واقرب الى فهمهِ وارسخ في حافظته . اما ما كان مختصاً بتعريب المصطلحات العلمية فالذي وجدت لهُ مرادفاً في العربية عربتهُ بمرادفه . والذي لم ارَ لهُ ما يرادفهُ ، او ان لفظهُ الاعجمي اكثر دلالةً على مسماهُ ابقيتهُ على عجمته . ورأيت ايضاً ان اوجز في ذيلهِ بشرح بعض الاسماء زيادةً في الايضاح وذلك ما يعسر فهمهُ ، وليس لاكثر المطالعين غنى عنه

وعليهِ ازفّ اليوم الى قرّاء العربية كتاباً خطيراً وسفراً جليلاً ، قد جمع علماً وفكاهةً . يلتمسهُ العاقل المستفيد لعلومهِ ومباحثه . والعامّي الساذج لقصصهِ ونوادره . فعسى يشفع نفعهُ لدى المطالع عما يتخللهُ من الهفوات ، والكمال المطلق في عالمنا هذا من رابع المستحيلات

الياس انطون

القاهرة في اول اكتوبر سنة ١٩٠٩

الفصل الاول

﴿ في تكوّن الارض ﴾

ان الزمن نظير الفضآء لا يمكن ان يحدهما حدٌّ . ونظيرهما الطبيعة هي ايضاً سرمدية لا نهاية لها

اما الفضآء فانه مقرٌّ لشموس وسيارات وكواكب تتجاوز دائرة الحصر والتعداد وجميعها خاضعة لتلك القوة الدافعة التي بواسطتها تجول متنقلة في مناطق الافلاك الخاصة بها . لا سيما وان علم احصآء الكواكب يشرح لنا مبيناً انهُ في نقطةٍ واحدةٍ من نقط المجرّة تتزاحم آلاف من النجوم وان تلك النجوم تبعد ماية الف مليون مرة بعد ارضنا عن الشمس . ولما كانت المسافة بين الكرة الارضية والشمس هي ٣٤ مليوناً من الاميال . فلهذا يجب علينا ان ندع الارقام الحسابية جانباً ونعتمد في الحساب على اوضاع علم الجبر . ذلك لان المسافة التي تحول بيننا و بين تلك النجوم اذا ما ادرجنا الارقام التي تحصر مقدار بعدها عنا ربَّ انهُ يتعذّر على المرء تصديقها . هذا فضلاً عن ان المجرّة التي تراها انظارنا ليست هي وحدها الكائنة في

ذلك الفضاء الشاسع بل يوجد خلافها كثير من النجوم التي لا يتوصل الى مرآها منظارنا . وأيضا خلافها فيما ورآئها وهلمَّ جرًّا . . . . . حتى يجوز لنا والحالة هذه ان نصف هذا الفضاء السحيق بالغير المتناهي

أما الطريقة الوحيدة التي بموجبها تقابل على وجه التقريب اتساع المسافات الفلكية فهي الدورة السنوية التي تجتازها الارض والتي تقدّر بثمانية وستين مليوناً من الاميال . وعليهِ لما تبلغ كرتنا الارضية احد طرفيّ دورتها لم نزل نحن نرى النجوم الاكثر قرباً منا في ذات مسيرها وبنفس حجمها نظير ما كنا نراها من الطرف الآخر . مع اننا نكون قد اقتربنا من تلك النجوم ٦٨ مليوناً من الاميال وهي مسافة دورة الارض

إلاَّ أنهُ اذا اخذ الانسان يتأمل في تلك المسافات الغير المتناهية نشاهدهُ يسقط في الحيرة من فرط التعجب والاندهال ويحني رأسهُ معترفاً بقصورهِ ومقرًّا بخلوّهِ من الاسباب الكافية التي توصلهُ الى ان يحدَّ مسافات الكون و يضبط مقدارها

أما القدرة التي اختصت المادة الهيولية بالقوة وايدتها بالنظام والنواميس وهي التي ملأت الفضاء بهذهِ الاجرام التي ليس لها تعداد فضلاً عن رسمها لكلٍ منها خطة غير قابلة التغيير والتبدُّل . تظلّ مداركنا بالنظر الى هذه القوَّة التي لم نعرفها والى هذا المهندس للكون العظيم قاصرةً عن تكييفهِ والالمام بهِ . حتى اذا ماسمت هذه المدارك العقلية تائهةً بتصوراتها بين تلك الاجرام السماوية تصادف في اثناء تجوُّلها

حاجزاً غير قابل الاجتياز قد كتبت عليهِ هاتان الكلمتان « إيمان وارتياب »

على اننا لانودّ ان نقف عند مسألةٍ مرتاب في امرها ولا تقبل الحل والتفصيل . بل اننا نذهب ورآء خطة اكبر العلمآء مقتفين اثرهم في اقتصارنا على مسألة تكوّن كرتنا الارضية من الجهة الجيولوجية . وذلك باعتمادنا على هذه المبادئ الاساسية وهي : من أي مادة تكوّنت كرتنا الارضية ؟ وكيف انقضت في الفضآء ؟ وما هو عمرها ؟

أما العلم فلم يستطع حتى الآن ان يحلّ لنا هذه المسائل الخطيرة ولم تتوصل العلمآء سوى الى قياسات افتراضية . ذلك لان علم الفلك وان كان حسابهُ هكذا عجيباً ومدهشاً غير انهُ لم يبلغ حتى الآن الاّ الى بعض قياساتٍ لا تتعدى الحدّ الرياضي

نرى الفلاسفة القدمآء والمتأخرين قد انقسموا الى مذهبين فيما يختص بالموضوع الذي نحن بصددهِ . فالبعض منهم يعتقدون بان التكوّن ما هو الا صنيع الارادة الربانية . والباقون بدون ان ينكروا الوجود الصمداني يحسبون التكوّن نتيجة ضرورية لداعي استحالة المادة على انهُ بقطع النظر عما يحول دون المذهبين من الغوامض . إنّ مذهب الفريق الاول يوقف وثبات العقل عند حدّ مشارق الانوار أما مذهب الفريق الثاني فانهُ بعكسهِ يفتح مجالاً واسعاً لمباحث العلم والعلمآء . وهؤلآء على الغالب لا يتوصلون الى شيء . ولكن يستمر بحثهم واجتهادهم نتيجةً لا تقبل الردّ على ما بلغ اليهِ اجتهاد مدارك

العقل البشري

يعتقد البعض من اصحاب المذهب الثـاتي بوحدة التكوّن وبسيرهِ المتدرج من المعدن الى النبات . ومن النبات الى الحيوان وهم يصعدون رقياً في مرقاة التكوّن مبتدئين باول درجة تختص بالمخلوقات الاكثر بساطةً ويتدرّجون بعـد ذلك تباعاً الى الاكثر منها تركيباً حتى يبلغوا الدرجة العليا التي يستوي على عرشها الانسان سلطان الخليقة

والبعض من الطبيعيين يعتقدون بالتكوّن الذاتي [1] من انواعٍ مختلفة في اكثر جهات المعمور . وهم ينكرون وحدة الاصل لسلسلة مجموع المخلوقات الحية . أما نحن فلا نتبع من هذين المذهبين المختلفين الا ذاك الذي يمثل لنا الكرة الارضية شعلةً من نار في بدء ولادتها محاطة بالهواء الملتهب وهو المذهب الذي سنعوّل عليهِ في بحثنا الاتي

ذهب كثيرٌ من الفلاسفة الى ان تلك الاجسام المشتعلة التي تدعى شموساً هي علة كيان عالمنا الحالي . وبالنظر الى ناموس هـذا الاشتعال تقذف هذهِ الشموس بلا انقطاع كتلاً محترقة لاتلبث حتى تقع في الموقد الذي خرجت منهُ . ثم تقذف بها ثانيـةً وكذلك ينتهي الامر على اتمادي بحدوث تلك الرغوة النارية التي نلمحها في دائرة الشمس بشكل سفع . لا سيما وان هذه السفع تطول أو تقصر مدتهـا

(١) وهو مبدأ بعض الطبيعيين الذين يعتقدون بحدوث نبات او حيوان بدون زرعٍ سابقٍ لهُ

بالنظر الى النار المشتعلة التي احدثتها اذ يستمر وجودها حتى يتسنى لتلك النار قوةٌ كافية لتذويبها . الاَّ انهُ قد يتفق حدوث دافع يحدث من دورة ذلك الجرم الشمسي على محورهِ . فاذ ذاك تفلت منهُ تلك الكتل متفرقة وتحدث لها في الوقت عينهِ دوائر مخصوصة تدور عليها بلا تغيير ولا انقطاع . وهكذا كان مبدأ تلك الاجرام السماوية التي لا بدَّ من انها صدرت عن كوكبٍ اصلي هو علة وجودها ومبدأ تفرعها وعليهِ يمكنا ان نتبع العلوم الطبيعية مسترشدين بها عن تلك الاجرام الفلكية ونسير خطوةً فخطوة في إثر كرتنا الارضية لنستدل منها على الادوار المتباينة والتقلبات المتوالية التي طرأت عليها وحدثت فيها

لما قُدّر لتلك الكتلة النارية ان تنفصل عن الشمس مندفعةً في جوف الفضاء اقتضى لها ان تأخذ بالبرود شيئاً فشيئاً لداعي ما تفقدهُ من الحرارة بالتشعشع العظيم والمستديم الذي يحدث عنها . وانهُ بالنظر الى القواعد الطبيعية ان الاجزاء التي بردت لا بدَّ من انها تجمدت . وكذلك طفق الماء يتكوَّن على سطح كرتها وفي كل يوم كان يزداد ثقلا وامتدادًا حتى توصل الى ان يحيط بمجموع الابخرة الملتهبة ويقضي عليها . لا سيما وان هذا الماء المتكوّن لا بدَّ من انهُ كان محتوياً على بذور ما تمّ حدوثهُ على الارض فلنأتِ الان على تفصيل هذا العمل العظيم الذي حصل في كرتنا الارضية

كانت المياه في الارض في اضطرابٍ مستمر ترتفع آونةً بفعل النار الداخلية وترتدّ حينا منحصرة بقوة تأثير الضغط النجمي . وقد

غطت سطحها رغوةٌ من بدة متكاثفة . وكانت المواد الحجرية والمعدنية التي في حالة الذوبان تتبلور على سطح الكرة وتكوّن ببطء قشرةً صلبة كانت في بادىء بدء رقيقةً جدًّا ثم أخذت تتكاثف بلا توقف ولا انقطاع . ولما كانت تلك القشرة في الاول ضعيفةً عن مقاومة الاضطراب والتمدد اللذين يحدثان في جوف الارض فكانت في غالب الاحيان تتشقق وتتكسر من فعل البخار الملتهب . ذلك لان النار كانت تشبُّ بعنف مندلعة اللسان من تلك المنافذ والشقوق فتذيب المواد المتبلورة التي تصادفها . وتكاس الصخور التي قرب عهد تحجرها . ثمَّ كانت تعود البرودة بعد ذلك الى سابق فعلها فيتجدد بها حدوث التبلور على اطراف تلك الشقوق والمنافذ . ويتهيي الامر بانسدادها وتكرار التحامها . ففي اثناء هذا الاضطراب والعراك المستديمين كانت المعادن مجدةً في سيرها متكيفة في تكوّنها والقشرة الارضية آخذةً بالتكاثف والتصلب .

ومجمل القول انهُ بعد زمن لا يمكن حدّهُ تقلبت فيهِ الارض من حالة الاشتعال المطلق الى حالة تتنقل بين التركيب والانحلال حتى رسخت اخيرًا في حالة التركيب وذهبت مستمرةً عليها . وقد تكوّنت من هذه التقلبات والانفعلات صخورٌ صوانية اصبحت بتكاثفها عظيمةً وتحوّلت في الحال الى سدودٍ انحصرت بها النار المركزية من كل جهة وجانب . وهكذا كان في اول زمن الكرة الارضية المسمى بعرف الطبيعيين زمن تكوّن الارض

على ان البرهان الاكثر اقناعاً والاقوى حجةً على وجود الكرة

الارضية في عصرها الاول في الكيفية السائلة هو تبسط قطبيها وانتفاخ خطها الاستوائي . بحيث انهُ لما كانت حركة دورتها قائمةً على كتلةٍ سائلة كان من الضرورة ان تتكيف بهذا الشكل . ولما كان لكل جرمٍ من الاجرام السماوية دورةٌ على محورهِ . فلهذا كانت جميعها تقارب هذا الشكل وتماثلهُ

ولقد عقب عصر التكوّن الاول عصرٌ ثانٍ يدعى بعرف الطبيعيين العصر النباتي وهو الذي في اثنآئهِ طفق النبات يظهر متكوّناً يوم كانت تغطي سطح المياه انواعٌ من النباتات ذوات التركيب الاكثر بساطةً وهي من اصناف الطحالب واشباهها . بحيث كانت الامواج تقذف بفضلاتها وتقاطيعها فوق الشطوط المنحسر عنها الماء فكانت هذه الشطوط بمثابة اراضٍ تتولد فيها ضروبٌ شتى من الطائفة النباتية . ولما صارت الارض اكثر عمقاً واصلح تربةً فوقتئذٍ طفقت النباتات تنبثق اغصانها وتشتدّ اصولها وفروعها . وقد انفرشت الارض ببسطها السندسية ورفلت بحلاها الخضرآء وقامت الاحراش والغابات متكاثفةً في جنباتها

ووقتئذٍ لم يكن يسمع في تلك البراري الواسعة والاراضي المقفرة غير دويّ العواصف وصفير الاعصار . اذ كانت تنتشر الحياة النباتية بقوةٍ فائقة وسكونٍ سائد في تلك الجهات التي انحسر عنها المآء . وبامتزاج الحرارة مع الرطوبة في هوآءٍ مشبع بالحامض الكربونيك كان ذلك اكبر وسيلةٍ لتنشيط نموّ النبات واكسابهِ قدًّا ضخماً . حتى ان

غالب النباتات النجومية كانت تفوق شجر الجميز بارتفاعها وكذلك كان الخيزران ينتصب متمادياً في البثوق حتى يتجاوز شجر الحور كما هو عليه اليوم . وكانت اشجار الموز والنخل ومجموع النباتات الفطرية التي تتوق الى وفرة الريّ هي اقدم نباتات الاعصر الاولى . بحيث كانت دوحاتها ترتفع الى الافق شامخةً بانفها وتناطح السحاب برؤوس اغصانها

ثمَّ بعد مدة مديدة ابتدأ العصر الحيواني بالظهور وهو الدور الثالث من ادوار سنة الارتقاء . فكانت المياه هي أيضاً مهد المخلوقات الاولى ذوات الحركة والانتقال [1] اذ ظهرت في بادىء بدء طائفة الحيوانات النقوعية وكذلك الزوفيت [2] ثم جاءت بعدها الحشرات فالاسماك فالدبابات فالطيور فالحيوانات التي تعيش في الهواء والماء واخيرًا الحيوانات ذوات الاثداء . وكل ذلك كان متسلسلاً صعدًا في سلم الارتقاء من الادنى الى الارقى ومن البسيط الى المركب . أما الانسان فلم يكن لوجوده اثرٌ إذ ذاك

وحدث في اثناء الدور الثالث انقلابٌ في الكرة الارضية يقرب من ان يكون عاماً . ذلك لان النار المشتعلة في الداخل لما باتت في ضغط شديد من جرّاء الطبقة السطحية التي غلظت وقوي ساعدها فلم

(١) ورد في الرسالة الثامنة من رسائل اخوان الصفا مانصهُ ان حيوان الماء وجودها قبل حيوان البر بالزمان لان الماء قبل التراب والبحر قبل البر

(٢) نوع من الحيوان لهُ شكل النبات

يكن يسهل تمزيقها على النار في جوفها . بحيث انهُ كان من دأب البخار الملتهب ان يلتمس لهُ مخارج ينفلت منها لينفتح أمامهُ مجالٌ لبركانات متعددة . لانهُ لم يكن اتساع المنافذ الارضية ومقدارها كافيين لانفراج الكمية الوافرة من البخار المضغوط عليهِ من كل جهةٍ وجانب

ولما كان التمدد الداخلي آخذاً ادائماً بالنمو والازدياد كان ذلك داعياً للهيجان والثوران . بحيث انهُ قد شخصت في دفعة واحدة في وسط المياه سلاسل من الجبال حسرت عنها المآء بشدة . وغرّقت بهِ اليابسة وبحينهِ بادت جميع المخلوقات الحية على التقريب في وسط هذا الانقلاب الهائل . وهذا هو عصر الطوفان الجيولوجي العام لان الفيضانات الاخرى التي اطلقوا عليها اسم الطوفان يلزمنا ان نعتبرها فيضانات جزئية تمَّ حدوثها بعد زمن مديد من ذلك الطوفان العام

أما اختلاف طبقات الارض والحصى المستديرة فوق سطحها والقطع الصخرية التي في غير مركزها الاصلي والعظام المتحجرة الموجودة في قنن الجبال وفي اعماق اللجج كل هذا أصدق شاهد واكبر دليل على ما حدث من الاضطرابات الجوية والانقلابات العظيمة في ذلك العصر الهائل

نرى الفلاسفة الطبيعيين الذين يعيرون جانب الاهتمام روايات القوم الدينية المتعلقة بامر التكوّن يوجهون افكارهم الى درس اسفار الطبيعة بحيث يرون ان تعاقب المخلوقات على الارض لا بدَّ من انهُ

قد تدرَّج كالنسق الآتي

ظهرت في الاوّل طوائف الحيوانات المائية واكثرها من ذوات الاصداف التي بادت من وجه الارض وبقيت متفرقةً في الاراضي الكلسية اذ تكوّن منها في بعض الجهات كثب عظيمة وفي غيرها طبقات رقيقة . ففي هذه الاراضي تشاهد منبسطةً بقايا حيوان الزوفيت المتولدة منها الاتربة المعدنية الكبريتية المنبثة في الطبقات الخزفية الاكثر قدماً . وتشاهد فوق تلك الاطراف انواعٌ لا تحصى من الاصداف تكوّنت الكثب الشطية منها . لا سيما وان انواعاً كثيرة من المرمر والصخور الكلسية ترجع في الاصل اليها . ثمَّ تُرى أيضاً في الاراضي المرتفعة عنها بقايا حيوانات اخرى ذوات تركيب ارقى كان ذلك السبب الوحيد في تأخرها عنها

انهُ عقبى احتراق شديد اصاب الكرة الارضية وعلى اثر ماتعاقب عليها من الطوفانات المهولة تفحمت النباتات التي فيها ومع مرور الزمن تحجرت وتحوّلت الى طبقات خشبية وفحمية متحجرة تسرَّبت منها كميةٌ وافرة من الحامض الكربونيك بواسطة التبخر وهي التي لاتلائم الحياة الحيوانية . الا إنهُ لما صفا الهواء الارضي على نوعٍ ما اجاز للحيوان ان يأخذ بالنمو والانتشار(١)

(١) من رأي المسيو ثيسون ان الهواء في الحالة الاولى كان مؤلفاً من الازوت وحدهُ فلما وُجد النبات اخذ يستخلص الاكسيجين من الطبيعة ويبثهُ في الهواء ثم استمرَّ يزداد عصراً بعد عصر الى ان صار الهواء

فوقتئذٍ ظهرت انواع تلك الحيوانات الضخمة الجثث التي يكتشفها علماء الطبيعة في يومنا الحاضر متحجرةً في جوف الارض وهي ذرّيةٌ قد انقطع نسلها . وانطفأت شعلتها واليها تنسب الافاعي الكبيرة والكثيرة الرؤوس والسمك التمساحي والحيتان العظيمة والماموث وطائفة اخرى من ذوات الجثث الضخمة التي هي من العالم الحيواني في ذلك الدهر

قال صاحب كتاب الدنيا الاولى (١) ان رسم قارة اسيا هو اثرٌ شاهد على حدوث الطوفان الجيولوجي . ذلك لان هذه القارّة قد تقطعت بعددٍ كبير من الثغور والخلجان من الشرق والجنوب في قطعةٍ تزيد مساحتها عن الف ميل . فهي تنطق بلسان تقطعها وتدلُّ بافصح بيان على جرف البحار لها اخصهُ تجاه الارخبيل البركاني حيث كانت تتراكم الامواج حتى تكاد تمس الافق و بتراكمها تمكنت من ان تبالغ هنالك في الجرف والتخريب . وما على المرء سوى ان يتصوَّر جبالاً من المياه تحولت فوق خليج بنغال وغمرت سهول الهند وفارس و بعد ماجوَّفت ارض بحر الخزر ذهبت وتبدّدت في بحر القوقاس . وكيما نزداد اقتناعاً بحدوث هذا الطوفان العظيم تكفينا نظرةٌ واحدة نلقيها على جغرافية الارض للاقرار بحدوثهِ غير مضطرّين الى متابعة الروايات النقلية ولا الى مطالعة شهادات سفر التكوين . ومع ذلك ان كتب الهند المقدسة والتي لباقي الشعوب الاسيوية العريقة في القدم نظير

صالحاً لتنفس الحيوان

(١) Le Monde Primitif

الويداس [١] . والكنجس [٢] . وسفر التكوين . وكتاب وثنية اليونان [٣] وكتاب الكلمة الحية [٤] ومجموع كتب الوثنية القديمة وما يتعلق بوصف الدنيا كل هذه جاءت متضمنة ذكر الطوفان ومؤيدة هذا الحادث ولم تضن علينا بذكر تلك النكبة الهائلة

على أن قسماً قليلاً من صغار المخلوقات الحية نجا من الطوفان الجيولوجي فاستأنف النمو والتكاثر . وما لبثت الارض حتى امتلأت بالنبات والحيوان واصبح التناسل يزداد في التنوع والاختلاف على مرور السنين والاجيال . لا سيما وانهُ كلما كانت تتكاثف القشرة الارضية كانت الحرارة تنقص من فوق سطحها والهواء يعتدل فيها مبرهناً عما طرأ عليها من الاصلاحات وماحدث في سماء جوّها من التغيرات وكل ذلك كان سبباً لتغير وسط تلك الاعصر وداعيا لهلاك وانقراض اكثر حيواناتها الضخمة

أما العظام المتحجرة التي وُجدت في تربة التكوّن الثاني فهي مدهشة للغاية باتساع احجامها وكبر اقيستها كما تقدم القول وقد بادت من وجه الارض هذه الحيوانات الضخمة وما شاكلها من الحيوانات البرية البحرية [٥] كما تُستخلف بسواها . وانَّ ما خلفها قفى اثرها وذهب

---

(١) كتب الهنود المقدسة (٢) كتب الصينيين المقدسة

(٣) الميتولوجيا اليونانية (٤) كتاب مقدّس مقتطف من بعض الكتب المقدسة التي للفرس والهنود

(٥) اي التي تعيش في البر والبحر

في سبيلها وما ذلك الا لتلقح التربة الارضية وتخصب ويصفو وسطها وينقى وتستعد لذلك الزمن العظيم وهو عصر نشوء الانسان

ولا بدَّ من انهُ قد تعاقبت بين هـذا الدهر الاخير والدهر الاول كرّات وكرّات من الاجيـال حتى إتلفت الاحوال المرتبطة باسباب التكوّن واصبح الوسط الاخير مناسباً لنشوء الالياف البشرية ذلك يوم تمخضت الارض فانتجت ذلك المخلوق الجديد وهو الانسان الذي هو أرقى ثمرةٍ توصل الى انتاجها اجتهاد القوة المكوّنة على وجه هذه الغبراء

كل ذلك جرى في الطبيعة تدريجاً من البسيط الى المركب ما زال يلتزم كل مخلوقٍ من الحيوان والنبات ان يمتثـل للشريعة الطبيعية الكبرى وهي سنة الاستحالة والتكييف . بحيث انهُ مما يستحيل ان ينشأ على الارض مخلوق باعضاءٍ كاملة وان كل مخلوق لا يبلغ تمام نموّهِ الا بعد تقلبهِ في ادوار الحياة وتدرجهِ في سلم النشوء الذي اختص بنوعهِ . ولهذا لم يستطع النوع الانساني دفعةً واحدة ان يبلغ هـذا الكمال الذي توصل اليهِ في يومنا الحاضر اذ ان الكمال هو نتيجة التدرّج في النشوء فلا بدّ من انهُ قد اقتضى لهُ تعاقب اجيـالٍ طويلة حتى توصل الى هذا الارتقاء العقلي والمادي . ومن ثمَّ لزمت لذلك جملة احوالٍ وتقلبات تتعلق بالبيئة والمكان والتي لم يتوصل العلم حتى الآن الى فكّ معماها وكشف حقيقتها

ولا شيء يشبه الطبيعة نظير ما تشبهها الصناعة فان كلتا الاثنتين

تنسجان على منوالٍ واحد وتسيران في الخطة عينها . ذلك لان الصناعة لا تعمل في بدء عهدها غير رسوم وقوالب متخاذلة الصورة والوضع . ثم تأخذ شيئاً فشيئاً في تحسينها وجعلها اقلّ تخاذلاً من ذي قبل . ولا تمضي عليها مدةٌ من الزمن لا يمكن حدها حتى يتوصل ذلك الفن الى الاتيان باشكالٍ بديعة ومصنوعات محكمة ومتقنة تقترب ماقلّ أو كثر من ذروة الكمال . وماعلى المرء إلاَّ أن يحسب مقدّرًا كم انهُ قد اقتضى لصناعة النقش من التجارب وكم اناسٍ من أرباب هـذا الفن نشأوا واندرسوا من أول عهد صناعة النقش المصرية حتى الزمن الذي نبغ فيهِ النقاشون المشهورون وهم الذين نحتوا تماثيل بعض الآلهة فاجادوا نحتها حتى طبقت شهرتهم اطراف المعمور

ونظير ذلك الطبيعة فانها شرعت في باديء بدء ان تجهز المواد المختلفة التي يلزمها ان تستخدمها لتركيب المخلوق الحي وابرازه من دائرة القوة الى حيز الفعل ذلك انهـا لم تستحضر لاول وهلة رؤوساً ولا اذرعاً ولا قوائم بل قد اهتمت باعداد اشكالٍ اقل تركيباً واوفر بساطةً وبواسطة التدرّج المتعاقب التي لازمتهُ واستمرّت عليهِ اضحى من الواجب ان تتوصل الى ايجاد تلك الكماليات . بيد أن تدرّجها هذا وان يكن غير قابل الادراك إلاَّ أن عمل الطبيعة البطيء والتدريجي يصبح بعد جملة تقلبات تتناوبهُ محسوساً لا محالة . ولهذا كان علماء الحيوان الذين يتأثرون سير الحيوان ويتبعون المرقاة التي تدرّج فيها يمكنهم والحالة هذه أن يعربوا عن كل خطوة خطاها الحيوان في سيرهِ

وعن كلّ درجةٍ صعد اليها في ترقيهِ . حتى يبلغوا أخيرًا الى آخر درجة تربع في دستها أسمى مخلوق على وجه البسيطة ألا وهو الانسان

وكذلك لم يتسنَّ للطبيعة ان تخرج الشكل الانساني الى حيز الفعل قبل أن أدخلت في جميع تراكيبهِ كل ما يلزمهُ لتكميل خلقتهِ وتمييزهِ عن باقي المخلوقات . ولكن من لنا بطرفٍ حادّ البصر يتوصل باشعتهِ الثاقبة الى ان يخرق جدار معمل الطبيعة ويقف على تجرباتها السابقة التي اجرتها والرسوم التي رسمتها حتى توصلت بنوعٍ خاص الى ان تطبع في كل مخلوق تبتدعهُ الصفة التي تحافظ على نوعهِ وتكثر من أمثالهِ . حتى جاء الانسان كما ذكرنا قبلاً وهو العمل الاخير والارقى من كل أعمال الطبيعة وهو نخبة صناعة التكوّن

على أنهُ ليست وحدة النوع في المخلوقات الحية في نظر علماء الطبيعة هي من قبيل القياس أو الافتراض إذ أن المادة الكامنة فيها القوة الحيوية المسببة لانتشارها ونموّها كانت المبدأ الاساسي لجميع المخلوقات المتفرقة على وجه الغبراء . وان هذه المادة الاولوية الصادرة عن قوة غير معروفة بعد ما طرأت عليها تغييرات لاعداد لها في تدرّجها المتعاقب من البسيط الى المركب توصلت أخيرًا الى ان تبلغ هذه الغاية وتظهر بمظهر الشكل الانساني . وعليهِ فالسياق الحيواني ماهو الاَّ سلسلةٌ عظيمة تبتدئ حلقتها الاولى بالزوفيت وتنتهي الاخيرة منها بالانسان البشري . بدون أن تقف في سيرها أو يتخلل تسلسلها قطع أو انفراج

اظهر علم تشريح المقابلة انهُ توجد في التسلسل الحيواني اواصر ترتيبية تماسك كل المخلوقات بها وان هذه الاواصر تقصر كلما اقترب المخلوق من الطائفة الاقرب مشاكلة لهُ . وبعكس ذلك أي بمقدار ما يبتعد المخلوق عن النوع الذي يقاربهُ بمقدار ما تطول تلك الاواصر بينهما . هذا ما خلا مبادئ التراكيب الحيوية فانها لم تزل واحدةً في ذاتها وتحافظ عليها جميع المخلوقات

لقد توصل أخيرا علم تكوّن الجنين وهو العلم المستنتج من مباحث عويصة وأعمال دقيقة الى ان يوطد على قواعد ثابتة ودعائم راسخة حركة البيضة أصل منشأ الجنين مبيناً أنَّ مرتبة كل مخلوق من العالم الحيواني مهما كانت لا يبلغ زمن نشوء عضلاتهِ التي يتكيف بها الاَّ بعد ان يجوز جميع درجات تركيب المخلوقات الادنى منهُ واذذاك تقف حركة الاستحالة ويبدأ المخلوق ان يلبس الاشكال المختصة بنوعه . فيستفاد من هذا العلم ان الانسان حتى هذه الحركة هو المخلوق الاكثر تقدماً والارفع مرتبةً بغنى تركيبهِ

أما النخاع الشوكي في الحيوانات الاكمل خلقةً فهو الذي يحدث الحركة العصبية في جميع اطراف الجسم ويكوّن مجتمع الحس في مقدم مخ الرأس . فالتركيب الحيواني اذا بلغ هذا الحد من التكميل فهو يولد فطرةً وميلاً غريزياً ويبدي فعالاً يستشفُّ منها على حياةٍ عقلية أقل أو اكثر قوَّةً

تأتي الحيوانات المتصفة بالفهم وهي التي دون مرتبة الانسان

اكثر حركاتها وفعالها بالسليقة أو بالتعوّد وهي قلما تنخدع إذ أنها تتبع الدليل الطبيعي الذي لا يضلُّ ابدًا . وهو ما يشير اليهِ المثل القائل « ان السليقة هي ضياءٌ للحيوان تهديهِ اكثر مما يهدينا العقل »

يُعدّ نشوء القوى الدماغية تدريجاً في عالم الحيوان من أعمال القدرة المبدعة الاكثر دهشاً والاوفر إعجاباً . إذ يُشاهد في ذلك نموّ خاصيةٍ عصبيةٍ متدرجة تأخذ مبدأها من اصغر انواع الديدان والهوام . وهذه الخاصية يزداد انتظامها كلما كانت في طائفةٍ من الحيوان اكثر تقدماً في التركيب . بمعنى أنهُ كلما ارتقينا في السلّم الحيواني نشاهد تلك الخصائص الدماغية تكبر وتتسع حتى تتوصل أخيرًا الى اكبر نشوئها واتساعها في الانسان وهو الاكثر ادراكاً من جميع المخلوقات

زعم بعض فلاسفة الاقدمين بان اول مخلوقٍ انساني وُجد في الارض كان خنثى أي حاوياً للتذكير والتأنيث معاً . وذلك باستنادهم على العلوم الوثنية الاولى التي تنعت الآلوهية بالخنوثة . ذلك لان اتحاد جنسي التذكير والتأنيث في شخصٍ واحد ما هو الاَّ اجتماع النطفة الملقحة والقوّة المولدة معاً . فاذا كان في مقدرة الطبيعة ان تركب مخلوقاً على هذه الصورة فهذا لا بدَّ من انهُ يُوجد من تلقاء ذاتهِ بدون ان يحتاج الى مساعدة تأثير قوّة التوليد . كما أن هذا الخنثى من المحتمل انهُ كان قالباً للجنس البشري . واصبح بانكساره علة وجود جنسين مختلفين ألا وهما الذكر والانثى

ذهب فريقٌ من الفلاسفة الذين يعتقدون بوحدة الاصل وبحدوث الارتقاء من جرّاء التعاقب في التسلسل الحيواني الى انّ اول مخلوق اتصف بالمنظر الانساني وُلد انثى وكان برهانهم على ذلك حركة البيضة البشرية واستحالتها المتتابعة في سياقٍ لا يحيد ولا يتغير. وعليهِ اذا كان التركيب الانثوي بالحقيقة هو أحطُّ من التركيب الذكري فبرهانهم على ذلك منطيقيٌّ بحتٌ لا يقبل الرد. لأن الانثى الاولى التي هي أحطُّ بكثير من المخلوقات التي قامت بتوليدها يصحُّ أن يقال عنها انها كانت رسماً مقدّماً لمستقبل النوع الانساني وهي التي لا بدَّ من أن تكون قد تلقحت من مخلوق طبقتهُ أدنى منها درجةً واحدة حتى اصبحت والدة الجنس البشري

وعلى هذه الكيفية جاء الانسان على الارض فوجدها مشحونةً بالحيوانات المتنوعة الاجناس فاضطرَّ اذًا الى أن يهتمَّ باخضاعها لهُ وبترويضها حسب اهوائهِ وبتسخيرها في خدمتهِ وقضاء حوائجهِ ومن هذا الحين يبتديء تاريخ الانسان الطبيعي. بحيث اننا نشاهد فيما يلي ان الجنس البشري لم يستمر على حالةٍ واحدة بل تفرّع منهُ جملة انواع. ونظرًا الى اختلاف الاقليم والعادات تباينت اشكالهُ واخلاقهُ باجلى صورةٍ ولم يعد في الامكان انكارها

ولكن في أي بقعةٍ ظهر الانسان الاول وأي سجلّاتٍ اولى بالمراجعة ليقف المرء على ارومة النسب البشري؟ هذا سؤالٌ اذا القيناهُ على الطبيعة لأعرضت عن الاجابة عنهُ ولم تنبث ببنت شفة

بشأنهِ . واذا اقترحنا بهِ على علم الجولوجيا لوجدناهُ لم يتمكن حتى الآن من كشف طلسمهِ وحلّ معماهُ . فضلاً عن ان المشترعين في قديم الزمن إذ لم يتمكنوا من كشف هذا الحجاب الصفيق عن ذلك السرّ الخفيّ عمدوا الى إشراك العزّة الالهية فيهِ مباشرةً واتخذوا ذلك أساساً لبناء تكوّن الارض . تلك قاعدةٌ حسنة بالنظر الى المؤمنين لكنها غير كافية لاولئك الذين يتطلبون براهين حسية ودلائل قريبة من الحسّ والادراك . وعليهِ فقد اقتضى لنا ان نستمدَّ من تلك الموارد القديمة قليلاً من الضياء لنرمي باشعتهِ سجف الظلمات الصفيقة المنسدلة فوق مهد اسرة الانسان الاول

يوجد بين كتب التكوين القديمة الافضل وضعاً والانسب سياقاً ثلاثة منها هي الأولى بان يستقصيها الباحث ويركن اليها في بحثهِ وتنقيبهِ . ألا وهي اسفار التكوين الهندي والصيني والعبري . لا سيما وان كلاً من هذه الكتب الثلاثة تشير الى تكوّن الانسان نظير ماتمَّ حدوثهُ اخيرًا في الارض . وذلك ما ينطبق على التعاقب الجيولوجي تمام الانطباق . ثمَّ انها تذكر ثلاثة فياضانات أو طوفانات تمَّ حدوثها فيها . لا سيما وان علم الجولوجيا يشير الى جملة طوفانات حدثت في اوقاتٍ متفاوتة بعد الطوفان الكبير . وهذه صخور جزيرة باروس المرمرية وبعض قطع متفرقة من تاريخ سنشونياتون (١)

(١) Sanchoniaton صاحب مؤلف في تاريخ فينيقيا لم يبقَ منهُ سوى بعض قطعٍ ونشأ في القرن الرابع ق.م.

و بيروز [١] وابيدين [٢] ومانيتون [٣] التي وصلت الينا تزعم مؤكدةً بان الشعوب في الاعصر الاولى كانوا يحفظون ذكرى الطوفانات الكبيرة التي حدثت في القارّات المسكونة وقضت بتخريبها ثمَّ نشاهد فيما يلي ان هذه الطوفانات في جميع كتب ديانات الامم كان المسبب لها والباعث عليها هو غضب الباري وقصاصهُ للبشر الذين ارتكبوا المنكر وعاثوا في الارض فسادًا . ولما كان الطوفان الوارد ذكرهُ في سفر الهنود هو الاكثر قدماً بالنظر الى العقل والنقل فيتضح لنا من ذلك ان باقي الطوفانات ما هي الا نسخةٌ محرّفةٌ عنهُ نورد نصها في السياق الاتي

القسم الاول

﴿ في الطوفانات المختلفة ﴾

انهُ مما لا ريب فيهِ ولا يقبل جدلاً ان طوفان الهنود هو سابقٌ على باقي الطوفانات ولقد ورد ذكرهُ في كتبهم وهو أن الجنس البشري اذ كان يزداد فسادهُ من يومٍ الى آخر ولم يقف في طغيانهِ وشرّه

(١) Bérose كاهن ومؤرخ كلداني نشأ في القرن الرابع ق . م .

(٢) Abydène مؤلف يوناني عاش بين القرن الثاني والثالث ب . م .

(٣) Manéthon كاهن ومؤرّخ مصري نشأ في القرن الثالث ق . م

عند حدٍّ ترآى لاله السماء فيشنو [١] ان يعاقبهُ ويقتصَّ منهُ . الا ان اميرًا واحدًا يسمى ساتياوراترا ظلَّ بريئاً من هذا الفساد فظهر لهُ فيشنو بهيئة سمكةٍ ووجه اليهِ العبارات الآتية :

« ان طوفاناً في ظرف سبعة ايام سيهلك جميع المخلوقات التي اهانتني . أما انت فتنجو منهُ وستكون في سفينةٍ متينة محكمة الوضع فخذ معك من الاعشاب الشافية وبزورًا على اختلاف اجناسها وادخل بلا خوفٍ في السفينة مع السبعة ريشي [٢] ومع نسائك واصحب بمعيتك من جميع الحيوانات واذ ذاك تشاهد الاله وجهاً لوجه وستجاب عن جميع السؤالات التي توجهها اليهِ »

وكان لما ابلغهُ هذه الكلمات غاب عنهُ ثمَّ انهُ بعد سبعة ايام خلت فاض المحيط وغطّى الشواطئ وغرِقت الارض بالامطار المتواصلة . وبينما ساتياوراترا يتأمل بقدرة الله وبما انبأهُ بهِ . ابصر فلكاً كبيرًا يسبح على الماء متقدماً نحوهُ فدخلهُ بعد ان قام باتمام التعلمات التي اوحى بها فيشنو اليهِ . وبعد ان انقطع الطوفان قتل فيشنو الشيطان واخفى الاسفار المقدسة وهي الويداس وعلَّم ساتياوراترا بالعلم الالهي ودعاهُ مينو السابع

أما — طوفان الكلدانيين — فقد تمَّ حدوثهُ في عهد الملك

---

(١) فيشنو هو الاقنوم الثاني من الثالوث الهندي

(٢) اسماء اشخاصٍ قديسين عند الهنود

العاشر ذيزوتروس . قال مؤرخو الكلدان ان ذيزوتروس كان متربعاً في عرش آردات لما ترآى لهُ في الحلم خرونس [١] واسمعهُ هذه الكلمات المخيفة

« ان فساد القوم هو الذي اثار غضبي عليهم وقد عزمت على معاقبتهم فجميعهم سيهلكون بالطوفان وستستثنى أنت وأسرتك من ذلك فاجمع الكتابات التي تبحث في بدء ووسط ونهاية الاشياء واذهب وادفنها في اسفل جدران مدينة الشمس المسماة سيسباريس ثمَّ ابنِ بعد ذلك سفينةً طولها خمسة استاد [٢] وعرضها ستادين وستنفرد انت فيها مع ذويك ثمَّ تستسلموا الى البحر »

ولما استيقظ ذيزوتروس قام بتنفيذ اوامر خرونس و بعد ان أعدَّ المؤن وجمع من كل اجناس الحيوانات سأل عن الجهة التي سيبحر منها . فاجابهُ خرونس من جانب السماء أن الطوفان قد وصل وغرَّق قسماً كبيرًا من الارض . ثمَّ انهُ لما انقطع الطوفان اطلق ذيزوتروس بعض العصافير واذ لم تجد لها غذاءً ولا مكاناً تستقرّ فيهِ لتستريح عادت الى السفينة . و بعد بضعة أيامٍ ارسل العصافير ذاتها للاكتشاف ثانيةً فعادت اليهِ هذه المرّة وقوائمها موحلةً وفي مناقيرها خضرةٌ ولما اطلقها المرّة الثالثة لم تعد ترجع اليهِ ففكر ذيزوتروس في أن بعض جهات الارض قد ظهرت وانقشع عنها الماء . فسير سفينته

(١) اي زحل

(٢) قياس بوناني يعادل مائة وخمس وعشرين قدماً

الى الامام وخرج منها مع فريقٍ من اسرتهِ الى أول جبلٍ استقرَّت بجانبهِ . ثمَّ سجد على الارض ونصب هيكلاً وقدّم فوقهُ محرقةً وبعدهُ غاب مع الاشخاص الذين كانوا بمعيتهِ ولم يعد يُرى لهم اثر . ولما استبطأهم باقي اعضاء الاسرة الذين ظلوا في الفلك طفقوا يستدعونهم بنداءٍ شديد فاجابهم صوتٌ من خارج الفلك بان يذهبوا ويستخرجوا الكتب المقدسة من الارض ويشخصوا الى بابل . ولقد نزل رفقاء ذيزوتروس الى ارض الكلدان واستخرجوا الكتب المدفونة تحت جدران سيسباريس (مدينة الشمس) وبعده توجهوا الى بابل ورمموا خرابها

أما — طوفان هيرابوليس — الذي نقلهُ لوسيانوس الكاتب فهو بنصهِ

« إن الجنس البشري العائش الآن ليس هو الجنس الانساني الاول فهو قد تناسل من شيت ديكاليون آخر اعقاب شعبٍ كافر وشرير أفسد الكرة الارضية . وان هذا الشعب العاتي قد تقاصص بنكبةٍ هائلة على ما اجترمهُ من المحارم والمفاسد . وذلك ان قسماً من المياه وفيرًا تساقط من السماء ففاضت بهِ الانهر وتمدّد البحر وارتفع الى درجةٍ غرقت بها الارض وهلكت المخلوقات الحية فيها ما عدا ديكاليون الذي وُجد بتقواهُ نعمةً عند الله . وكان ذلك بواسطة فلكٍ كبير نجا بهِ هذا التقيّ مع إسرتهِ من الغرق . فهو ما كاد يدخل الفلك حتى اختلفت اليه الخنازير والاساد والخيل والدببات ازواجاً ازواجاً . . . . وأيضاً جميع الحيوانات العائشة على وجه

الارض . فكان ذلك مما يدهش ويشهد للعزّة الالهية بالاقتدار والجبروت . بحيث انهُ قد عاشت جميع هذه المخلوقات المخيفة في الفلك ولم تلحق أقل ضرر بمضيفها ولا اعتدت على بعضها بعضاً . وكذلك مازال الفلك محمولاً على الامواج الى ان فُتحت بغتةً هوّةٌ عظيمة بقرب هيرابوليس فجرى ماء الطوفان اليها وانصبّ فيها . ولقد اعترف ديكاليون بهذه النعمة في جانب تلك الهوّة وبنى ذلك الهيكل الزائع الصيت قديماً الذي كانت التماثيل فيهِ تنضح عرقاً وتتحرّك وتتكلم وتأتي بالوحي

ثمَّ — طوفان العبرانيين — يزعم جملة مؤرخين ان هذا الطوفان هو نظير طوفان هيرابوليس في سوريا. ذلك ان متشرعيّ اليهود بنوا هذا الجزء من سفر التكوين من الكتب والمنقولات السريانية وقد خالفوا في النقل. إذ انهم كانوا متولين ارشاد شعبٍ مولعٍ بنوع اخص بالعجائب والغرائب. فاضطروا الى استعمال المبالغة وايراد ذكر الوحي متواترًا في اخبارهم . ويؤكد فريقٌ من المؤرخين ان طوفان العبرانيين ما هو الاَّ طوفان ذيزوتروس بعينهِ. وقد زعم بيروز المؤرخ ان الذي يدعوهُ موسى نوحاً هذا ما هو الاَّ نوّا الكلداني الملقب بجانوس

على انهُ لدى مقابلة هذه الاربعة طوفانات يتضح لنا جلياً لاول وهلةٍ انتساخ كل واحدٍ منها عن الآخر . ولاشك بان الطوفان الهندي هو اقدمها عهدًا والنسخة الاصلية لها

ثمَّ يأتي بعد هذا جملة طوفانات أُخر لم يزل التاريخ يذكرها

ويحفظ لنا زمن وقوعها . منها - طوفان جزيرة ساموتراس [١] الذي حفظ روايتهُ المؤرخ ديودور [٢] وهو بنصهِ :

« كان ميناء اوكسان [٣] في القديم مغلق الاطراف نظير البحيرات ففي اثناء النكبة التي طرأت عليهِ لم يعد كافياً ليسع مياه الانهر العظيمة التي كانت تنحدر اليهِ . فارتفعت مياههُ فجأةً وتجاوزت الشطوط وامتدت بسرعةٍ فوق سهول اسيا واحدثت ماندعوهُ اليوم بالبر وبونتيد . [٤] ولقد غرَّق هذا الطوفان قسماً كبيرًا من جزيرة ساموتراس التي كان الصيادون فيها يخرجون بعد زمن مديد بشباكهم احجارًا من المرمر منقوشةً وتيجان اعمدةٍ وقطع معادن ثمينة

ومنها - طوفان اوجيج [٥] - حدث هذا الطوفان في مقاطعة بويسي [٦] فقط وينسب فيضانهُ الى بحيرة كوبايس . وان اغسطينس اسقف هيبون تكلم عن روايةٍ قديمة تتعلق بهذا الطوفان تزيدهُ شهرةً وأهمية. مع ان تاريخ علم الفلك لم يحفظ ماهو شبيهٌ بذلك . فقد ذكر الاسقف المذكور ان فينيس (أي الزهرة) قد تغير في ذلك العهد لونها وصورتها وتباين حجمها واختلف سيرها

---

(١) جزيرة في البحر المتوسط على حدود الروملي

(٢) مؤرخ يوناني من صقلية (٣) ما كان يسمى بهِ في القديم البحر الاسود (٤) بحر مرمرا (٥) ملك قام في القرن التاسع عشر ق . م . وفي اثناء حكمهِ حدث هذا الطوفان الذي تسمي باسمهِ

(٦) مقاطعة من بلاد اليونان القديمة

ومنها طوفان ديكاليون[١] — ان ما احدثهُ هذا الطوفان من التخريب كان في سهول تساليا وهذه اكثر اتساعاً من سهول بويسي ولما كانت محاطةً بمنطقةٍ من الجبال لهذا لم يكن فيها سوى مخرجٍ ضيق جدًّا لينفلت منهُ الماء . قال هيرودوتس المؤرخ ان تساليا في الازمنة الاولى كانت بحيرةً كبيرة الاَّ ان نبتون إله البحر لما جرف نهر البينه بين الاوليمب والاوسا انصرفت جميع المياه منهُ . وان ديكاليون وامرأتهُ بيرحا قد أعادا تعمير البلاد

وقد اتفق للصينيين حدوث طوفان وذلك في عهد بيرون الصديق كما ان بعضاً من شعوب امريكا يحفظون لهم أيضاً ذكرى فيضان قديم يدعونهُ — طوفان الابالاش[٢]

وعليهِ فالاعتقاد بطوفان وبانقلاب عظيم حدث في الكرة الارضية يقربُ ان يكون عاماً عند كافة الشعوب . لاسيما وان هذا الاعتقاد المتفق عليهِ يؤيد المذهب الجيولوجي القائل بوجود الارض في حالة الذوبان في اثناء ولادتها . ومن ثمَّ أن روايات جميع الامم بما يختص بالتكوين قد اتفقت على ان الانجاد المرتفعة في اسيا كانت مهدًا لأسر الانسان الاولى . وان هذه الروايات تنطبق تماماً على القياسات الجيولوجية . ولما كانت النقط الارضية الاكثر ارتفاعاً هي في اسيا فلا

---

(١) ملك تساليا كان حكمهُ في القرن السادس عشر ق . م . وفي اثنائهِ حدث هذا الفيضان الذي تسمى باسمهِ

(٢) مقاطعة في الولايات المتحدة غنية بالفحم المعدني

بدَّ من انها هي التي انكشفت اولاً يوم اخذت المياه بالانسحاب . ولما كان هذا القسم من الكرة الارضية هو الافضل مناخاً والاصلح تربةً اقتضى ان يكون ايضاً هو الاوفر خصباً . بحيث أن القوى النامية فيهِ تفعل مفاعيلها بالاشد فكان من البديهي اذاً أن تكون تلك الارجاء مهد البشر الاوائل[1] فيستفاد مما تقدم ان فوق انجاد وجبال اسيا ولدت وتركبت أُسر الانسان الاول وبتناسلها ملأت جميع جهات المعمور

ولقد اصبحت الكرة الارضية في ذلك العهد الجيولوجي غير قابلة ان ترتجَّ ارتجاجاً عاماً . إذ كانت كثافة قشرتها كافيةً لمقاومة الصدمات العنيفة التي كان يثيرها تمددها الداخلي . الاَّ أنهُ مع ذلك لم تزل تتناوبها صدماتٌ وتشققاتٌ موضعية . وتطرأ عليها فياضاتٌ جزئية تأتيها متواترة . وسبب ذلك ثوران داخلها يوم كانت مجتمعات المياه يطفح غالبها ويفيض . والسهول تغطيها المستنقعات والاخاديد

---

(١) ورد في الرسالة الثامنة لاخوان الصفا ما نصهُ : ان الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها من الطين ذكرًا وأُنثى ثمَّ توالدت وتناسلت وانتشرت في الارض سهلاً وجبلاً . وبرًا وبحرًا . من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين والواضع الكينية من تصاريف الارياح موجودةٌ هنالك . والزمان ابدًا معتدلاً بين الحرّ والبرد . والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائمًا وهناك تكوّن ابونا آدم

بحيث انهُ قد ظلت تلك السهول مقفرةً زمناً طويلاً لا تصلح لسكن الانسان ولم يكن في امكان البشر وقتئذٍ ان يخصصوا لهم مقاماً مستديماً . بل انهم كانوا غالباً يلجأون الى الاكمات والمرتفعات ذلك لانهم كانوا في نزاعٍ دائم مع العناصر التي كانت تتهددهم . ولم يكونوا وقتئذٍ مدفوعين على المعيشة الاَّ بالغريزتين العظيمتين وهما اكثار النسل والمحافظة على البقاء . بحيث انهُ لم يكن للانسان في الازمنة الاولى ان يؤلف تلك الهيئة الاجتماعية التي توصل الى تأليفها فيما بعد . فهو كان بغريزتهِ شبيهاً بالبهيمة لا يختلف عنها سوى بهيئة وصفات اعضاء دماغهِ التكميلية . ذلك لان دائرة جمجمتهِ تفوق عما سواها ثماني عشرة عقدة . ومن هنا كان يُستدل على تعاليهِ على باقي عالم الحيوان وعما يكون لهُ من التقدم التدريجي بالصفات المادية والعقلية في مستقبل الايام

وعليهِ فكل رجةٍ وكل ثورةٍ بركانية اصابت الارض كانت تحدث فيها وهادًا وتفغر لججاً . وكانت جماعات الانسان التائهة على وجه الارض تهرب فرقاً من ذلك الاضطراب والثوران . ويذهب البعض منها ضحيةً في هذا السبيل . فالخوف الذي استحوذ على قلوب البشر في الازمنة الاولى هو الذي ولد الوساوس والاعتقاد بالاباطيل . لا سيما وان العبادة الاولى لم تكن الاَّ عبادة الجزع والغم . والصلاة الاولى التي رفعها الانسان نحو العلا هي لتسكن عنهُ قدرةً هائلة وغير معروفة

ثمَّ بعد جملة اجيال خلت اصبحت البحار محدودةً وتكوّنت طبقةٌ ارضيةمن حطام النباتات الشامخة حيث كانت تجتمع اقساماً وطباقاً وكانت مياه المستنقعات والاجمات المدفوعة بهذه الحواجز تجرف الارض وتختط لها فيها مجارٍ . وكانت مياه الامطار تتسرّب بين الاراضي الجديدة وتجتمع في أعماق مختلفة ومنها تنفجر العيون والينابيع . وقد كان الهواء يطيب والتربة تصفو وتجود . ففي تلك الاثناء ازداد عدد البشر وكثرت حوائجهم فاضطرّت الأُسر البشرية الى ان تنقسم وتتفرّق وتنزل من الجبال لتقصد اماكن اخرى طلباً للقوت الذي كان يقل من يوم الى آخر في الانحاء القائمة فيها . ولقد ابتدأت من ذلك الحين رحلات البشر الاولى التي بها عمروا الكرة الارضية وشغلوا اكثر مسطحها

فكان الانسان يمثل مخلوقاً متربعاً في أعلى السلّم الحيواني. الا ان تركيبهُ الطبيعي والعقلي لم يكن قد توصل الى كمال نموّهِ فاضطر الى ان يحتمل تغييرات واصلاحات مهمة طرأت عليهِ بعد زمن مديد . وكل ذلك تمَّ حدوثهُ تدريجاً ذاهباً في سلّم الارتقاء . ثمَّ انهُ بالنظر الى اقسام الارض المتباينة التي اتخذها موطناً لهُ . كان وجودهُ فيها مبرهناً عما للاقليم من التأثير الذي أوجد الميزة والاختلاف بين الجنس البشري

ولقد مرَّ بنا قبلاً انهُ بالنظر الى بعض علماء الجنين (١) أن

(١) Les embryologistes

اول مخلوق تردّى بالشكل الانساني وُلد انثى . لا سيما وان ذلك الرسم للانسان العتيد كان النقطة التي تدور عليها مباحث علماء طبيعة الانسان . فلم يبقَ علينا اذاً سوى ان نقرّر لونهُ الاول فلنرجع بذلك أيضاً الى أسفار التكوين القديمة

يزعم سفر التكوين الهندي بان الانسان الأول كان اسمر وزيتونيّ اللون . ويشير العبري الى أنهُ كان احمر . وينعتهُ الصيني باللون الاصفر المشرّب . وتوافق جميع هذه الروايات تمام الموافقة سنة الارتقآء التي لاتتغير . بحيث يستنتج من رواياتها ذلك المبدأ الذي يمثل الانسان الاول . مكتسياً باديم زيتونيّ اللون نظير مانشاهد اليوم قوم الهوتنتوت سكان أواسط افريقيا . والبايوس . وبعض اقوام متوحشة من سكان استراليا

على انهُ اذا ما وجهنا نظرةً الى الدرجة التي يشغلها الحيوان . تلك المجازية لدرجة الانسان نستدلّ منها على ان الانسان الاول لم يكن يختلف كثيرًا بالنظر الى تركيبهِ الطبيعي عن المخلوق الاوفر ارتقآءً في التسلسل الحيواني[1] ثم انهُ فضلاً عن رغبتنا في تجنب كل

---

(١) ذكروا ان اول من قال بتدرّج الانسان عن الحيوان هو ابن الطفيل ابو بكر محمد بن عبد الملك القيسي الفيلسوف الطبيب لهُ عدة مصنفات في الفلسفة والهيئة وهو صاحب الرسالة المشهورة في اسرار الحكمة المشرقية التي سماها بحي بن يقظان اودعها من اسرار العلوم والحكمة ما دلّ على غزارة مادتهِ وتبحرهِ في العلوم الفلسفية

مشابهة تؤلم الشعور لم نرَ مندوحةً من بلوغنا اخيرًا الى النوع الحيواني ذي الاربع ايدي

اظهر علم تشريح المقابلة اتصال نسبةٍ حسية بين سكان اواسط افريقيا قوم الهوتنتوت والقردة من نوع اورانغ اوتانغ التي يسمون واحدها انسان الغاب . وهي التي تسكن الاحراج العظيمة في الهند وافريقيا . لاسيما وان الهيكل العظمي والاعضاء البدنية والوظائف الحيوية كل هذه واحدة في الجنسين الاول والثاني (انظر الرسم الثالث والرابع [1])

أما الاختلاف الوحيد الفارق بينهما فهو في الزاوية الوجهية [2] فقط إذ ان هذه ناقصة من وجه القرود من ثمانٍ الى عشرة درجات .

وقيل ان هذه الرسالة للرئيس ابن سينا

ويوجد لابن مسكويه المتوفي في آخر القرن الرابع الهجري كلام وافي التفصيل عن مبدأ النشوء واتصال كل مرتبةٍ من مراتب النبات والحيوان بالمحاذية لها الى ان يبلغ ذلك الى الانسان وهو اسمى مراتب التكوين

(١) جاء في الرسالة السابعة لاخوان الصفا ما نصهُ : اما القرد فلقرب شكل جسمهِ من شكل جسد الانسان صارت نفسهُ تحاكي افعال النفس الانسانية

(٢) وهي زاوية تعمل من خطين الواحد يسحب افقيًا من اعلى الفك الى مقدم الوجه والثاني عاموديًا من اعلى نقطةٍ في الجبهة حتى يلاصق الخط الافقي

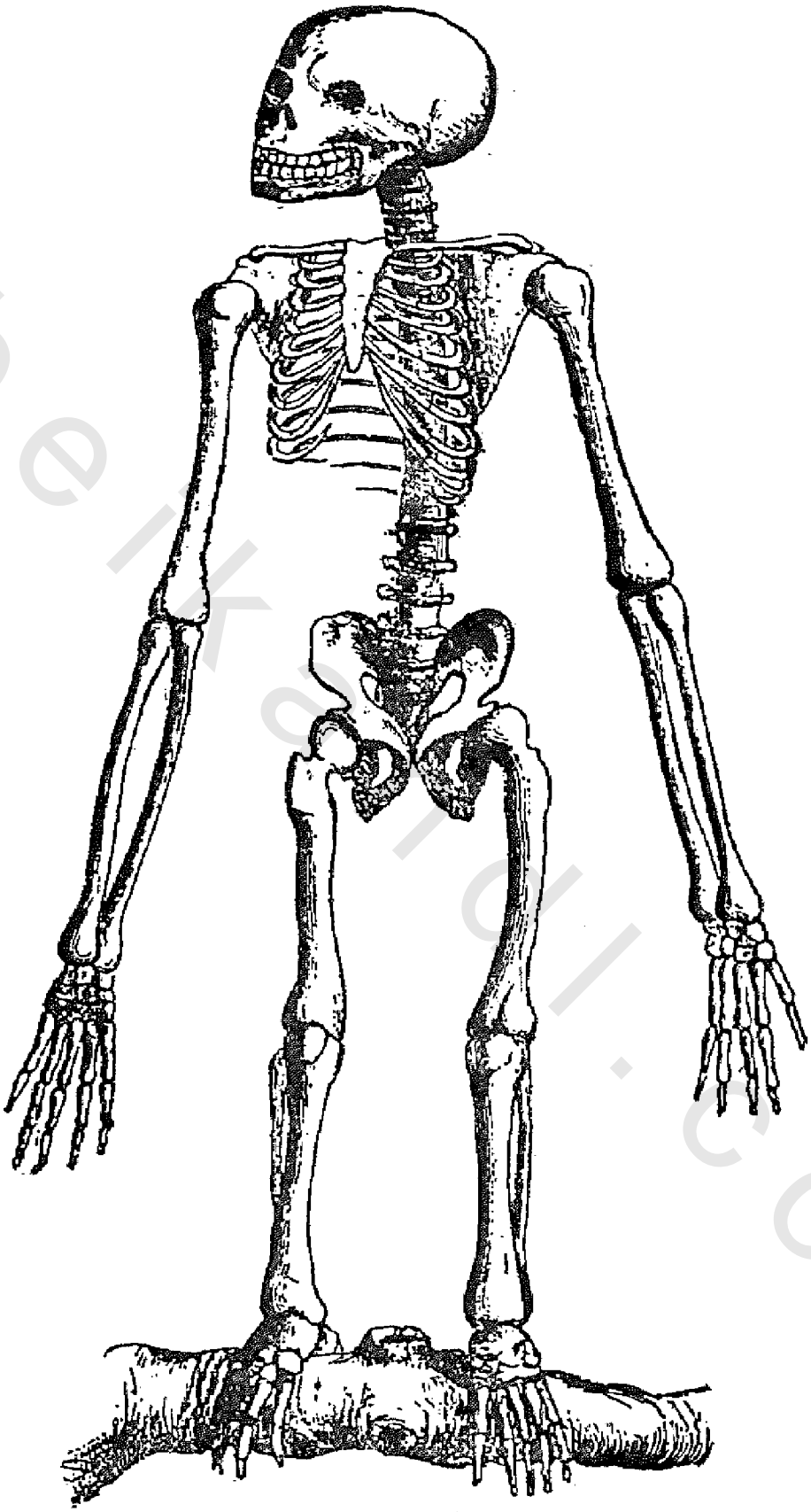

الرسم ٣

الهيكل العظمي للقرد من نوع اورانغ اوتانغ

obeikandl.com

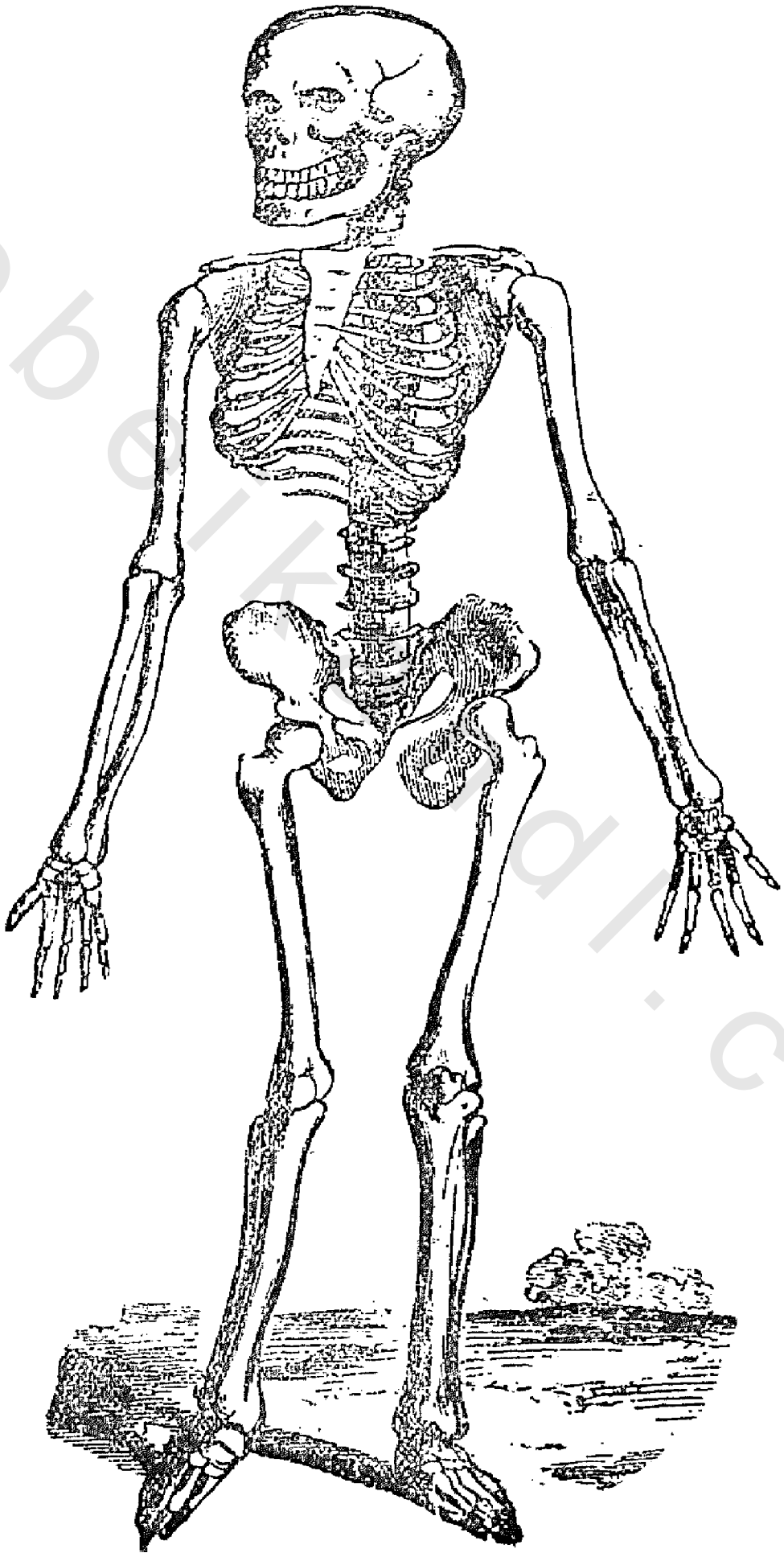

الرسم ٤
هيكل الانسان العظمي

obeikandl.com

أما الاختلاف الحاصل بزيادة طول ذراعي القرد وكبر ابهاميّ رجليهِ فهذا الاختلاف الاخير ما هو الاَّ ليسهل عليهِ استخدام الرجل في مقام اليد . وذلك سبب تسميتهِ بذي الاربع ايدي

وقد لاحظ العالم الطبيعي لامارك الشهير ان هذين الاختلافين الاخيرين كانا متأتيين للقرَدة من تعودها على التمرينات الرياضية التي كانت تدعوها اليها الحالة الوحشية وقد برهن بقولهِ هذا . وهو ان بعض اطراف الجسم عند فريقٍ من الناس تنمو أو تضمر نظرًا الى تعرّضها إما لعمل مستمر أو الى راحة دائمة . فضلاً عن أن الاعضاء الصوتية في القرَدة الكبيرة هي مشابهةٌ تماماً للتي للانسان . الا أن كيسين غشائيين قائمين في جانب حنجرة القرد يعارضان في تلفظهِ الكلم . ذلك لان الهواء الخارج من فتحة الحلق في حين تفريغ النفَس يدخل في هذين الكيسين ويُحدث صوتاً مستهجناً [1]

ولمَّا كان في استطاعة العلم اليوم ان يحثّ ركاب ابحاثهِ بحريّةٍ

---

(١) راجع مقالتنا بعنوان لغة القرود في مجلة الضيآء السنة الثالثة وجه ٦٨٥

ومما وصل الينا مؤخرًا ان استاذًا من جامعة شيكاغو وهو ريشار غرنر قد اقام مدةً طويلة في كوخٍ في احدى غابات الكنغو ليسمع حديث القردة ويتعلم لغتها . وقد توصل درسهُ واختبارهُ الى تقييد جملة كلماتٍ او اصطلاحاتٍ تستعملها القرود للتعبير عن رغائبها وحاجاتها . وذلك ما ينطبق على مقالتنا المشار اليها

وطمأنينة . فياحبذا لو اجروا تجربة رفع هذين الكيسين من قردٍ من نوع اورانغ اوتانغ بواسطة عمليةٍ جراحية . و بعد تعليمهِ تلفّظ الكلم ان يحبس مع بعض قرودٍ من نوعهِ اجريت لها ذات العملية . حتى يختبروا اذا كان القرد يتعلم التكلم بغريزة التقليد أو بخلافها. و بذلك تُحلّ عقدة الجدال الذي كان يدور من جملة اجيالٍ بين فريقين من الفلاسفة

الاَّ انهُ لا يمكن المقابلة اليوم بين القرد من نوع اورانغ اوتانغ و بين الانسان القوقاسي لان بوناً عظيماً يترامى بين هذين المخلوقين وتحول بينهما الوفٌ وآلافٌ من الاجيال . وهذا مما لا يقبل جدلاً ولا يرتاب بامرهِ . وان كل مايمكن عملهُ هو ان يقابل الشبه بين القرد و بين أول مخلوقٍ ظهر في الارض بالشكل الانساني (١) يوم كان هذا مما لاشكَّ بهِ ايضاً أقل تكميلاً من سكان اواسط افريقيا الحاليين وهو اليوم الذي جاز فيهِ من البهيمية الى حالة المخلوق العاقل

---

(١) ذكر الدميري في حياة الحيوان عن القرد مانصهُ : وهذا الحيوان شبيهٌ بالانسان في غالب حالاتهِ فانهُ يضحك ويطرب ويقعي ويحكي ويتناول الشيء بيدهِ . ولهُ اصابع مفصلة الى انامل واظافر . ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشي على اربعٍ مشيهِ المعتاد ويمشي على رجليهِ حيناً يسيراً . ولشعر عينيهِ الاسفل اهدابٌ وليس ذلك لشيءٍ من الحيوان سواهُ فهو كالانسان . واذا سقط في الماء غرق كالآدمي الذي لا يحسن السباحة . ويأخذ نفسهُ بالزواج والغيرة على الاناث وهما خصلتان من مفاخر الانسان فاذا زاد بهِ الشبق استمنى بفيهِ وتحمل الانثى اولادها كما تحمل المراة الخ . . . . . .

واننا لنأيّد بالبرهان انقلاب الكرة الارضية وتفرّق الأسر البشرية وقتئذٍ في جهاتٍ مختلفة منها . نأتي هنا على النص الذي اوردهُ تيمه دي بلاتون [١] فيما يختص بجزيرة الاتلانتيد وهي التي لم تكن موجودةً في زمانهِ إذ يقول بشأنها

انهُ في مدة إقامة صولون [٢] في مصر أُتيحت لهُ محادثةٌ مع كاهن مدينة سايس [٣] وهو رجلٌ متضلعٌ بتاريخ الارض وباخبار الامم الغابرة . قال للمشترع صولون اليوناني ان عهد الجنس البشري على الارض هو اقدم جدًّا مما تظنهُ الناس عامّةً . فاني اعلم من شهاداتٍ محفوظة في خزائن الهيكل ان قوماً رحّالاً من سكان جبال الاتلانت يرجع نسبهم الى جبال اسيا قد نزحوا عن موطنهم وذهبوا متوطنين جزيرة عظيمة في المحيط الاتلانتيقي . وان تلك الجزيرة بعد ماتقلبت عليها جملة اجيالٍ كان في اثنائها يتناسل سكانها وهم في صفاء وسعةٍ من العيش الاَّ وغاصت في احد الايام تلك الجزيرة في اليمّ وابتلعتها الامواج

أما صولون فقد اخذتهُ الدهشة والاستغراب من رواية الكاهن المصري وأقام مصغياً لما زاد عليهِ بقولهِ : انكم انتم اليونانيون اولاد

---

(١) محاضرٌ يوناني نشأ في القرن الرابع ق . م .

(٢) مشترعٌ يوناني يضرب بهِ المثل بالحكمة والشريعة نشأ في القرن السادس ق . م .

(٣) مدينة قديمة في الوجه البحري من القطر المصري

بالنفس والقلب فقط إذ لا توجد في مخيّلتكم روايةٌ نقلية قديمة . ولا علمٌ بيضتهُ الايام والعصور . انتم تجهلون الانقلابات التي غيرت وجه الارض والاضطرابات التي جرت في الممالك . . . . كان يوجد في الزمن القديم بين افريقيا واسيا جزيرةٌ عظيمة تدعى الاتلانتيد وكانت تمتد سلطتها فوق البر والبحر . ففي افريقيا حتى القطر المصري . وفي اوربا حتى ايطاليا وصقلية . وقد حدثت في ذات يومٍ عاصفةٌ قويّة ارتفعت على أثرها الامواج وانفتحت لجةٌ في قلب المحيط فابتلعت جزيرة الاتلانتيد بجملتها . . . . أما اليوم فلم يعد يوجد اثرٌ لهذه الجزيرة الزاهرة التي لو لم يحفظ حكماء سايس ذكر هذه النكبة الهائلة لجهل الناس وجود هذه المملكة البحرية القديمة ولكانت نسياً منسياً . . . . . »

ولقد تمت جملة رحلاتٍ بحرية في ازمانٍ متفاوتة كانت الغاية منها تحديد المكان الذي وُجدت فيهِ هذه الجزيرة المجهولة التي هي موضع ابحاث الكثيرين . ولداعي تضارب افكار اكبر الجغرافيين والطبيعيين بامر الاتلانتيد اضحى متعذرًا على المرء ان يتوصل الى نتيجة مقنعة بشأن هذه الجزيرة . إذ قطع البعض في رحلتهم دوائر الانقلاب السنوية . واعتبروا صخور بحر محترق كأنها موطن البشر الاوائل . وغيرهم قد اقتربوا من القطبين مغترّين بالضباب المتكاثف هنالك ظناً منهم بان يلتقوا بها فوق الارجاء المتجمدة . لا سيما وقد ألّف احد العلماء اسفارًا ضخمة ليبرهن بها على وجود الاتلانتيد .

ولقد أخفق سعياً إذ اشار الى جزيرة القديس دومنيك . وظن العالم النباتي تورنفور بان يكتشف في جزائر كناري بقايا يبسٍ قديم تغطيهِ المياه . وقد اجتهد أحد ملوك اسوج وهو اولانس رودبيك في جمع خزانةٍ من الاوراق والكراريس ليبرهن بها على ان وطنهُ اسوج كان هو الاتلانتيد . . . واخيرًا قد استقطر جملة مؤلفين بارعين قوى ادمغتهم ليعيّنوا النقطة التي وُجدت فيها الجزيرة المذكورة فلم يتمكنوا من حل هذه العقدة ولم يروا لاكتشافها سبيلاً

فصّل المؤرخون الاقدمون رواية كاهن مدينة سايس وجعلوا مركز الاتلانتيد في البحر المتوسط بين ايطاليا وقرطجنة باستنادهم الى مانصّهُ الجغرافي سترابون والمؤرخ ديودور . ولقد اثبت هذا الاخير في تاريخهِ وهو ان زحل المنتسب الى اسرة الاتلانت كان ملك صقلية وايطاليا وأفريقيا معاً . فضلاً عن ان جميع المشتغلين بعلم تكوّن الارض يجعلون مهد البشر الاوائل رؤوس جبال القوقاس وينعتونهم باسم الاتلانت أي ابنآء الجبال . ثمَّ ينحدرون بهم من هنالك ويسيرون بهم شيئاً فشيئاً بواسطة الادلّة القياسية فوق نقط الارض المرتفعة

فيقولون ان البحر كان مغطّياً الكرة الارضية وانهُ كان ينفجر في رؤوس الجبال المرتفعة من فعل البركانات مجاري مياه . ولما تكاثرت أُسر الاتلانت واصبحت المساحة التي يقيمون فيها غير كافيةٍ لهم اضطرّوا وقتئذٍ الى ان يفتشوا لهم على ارجآءٍ سواها

ثم ان اول معمل قاموا باعدادهِ كان مقتصرًا على تحصيل الغذآء والثاني كان لفتح ممرٍّ على اطراف المياه يتوصلون منهُ الى قنن الجبال المجاورة لهم . ولا بدَّ من انهُ كان قد اخذ الايناس مبدأهُ فيهم لما كانوا يلاقونهُ من اضطراب الامواج التي كانت تحدق بهم من كل صوبٍ وجانب . وذلك يوم نزوعهم الى عمل قاربٍ على قدر ماتوصلت اليهِ معرفتهم . ولقد القى البعض منهم بانفسهم فيهِ فوق الامواج وهلك كثيرون لامحالة من جرآء هذا المشروع . الاَّ انهُ كان يستأنف العمل قومٌ خلافهم ويحسّنون صنعة اسلافهم حتى توصلوا اخيرًا الى انزالهم في اليمّ سفينةً متينة التركيب حسنة الاسلوب ومن حينهِ اخذت الهجرة مبدأها

ولقد كان قدمآء المؤرخين يسيرون بقوم الاتلانت فوق النقط الارضية التي انقشعت عنها المياه . فكانت اول نقطةٍ بلغوها هؤلاء الرحّل البحريون هي جبل عامان الذي يخالهُ الرائي قطعةً قد انفصلت من سلسلة جبال القوقاس التي تسمى بجبال طوروس . ومنهُ كان يسهل عليهم الوصول الى سلسلة جبال لبنان التي يشير التاريخ الى ان اول مدينةٍ ابتنتها البشر كانت في سفحها والتي منها ساروا الى سلسلة لبنان الثانية التي لاتبعد المسافة بينهما كثيرًا . ولقد كان في امكانهم ان يتوصلوا من هنالك بسهولةٍ الى اول جبال البلاد العربية

وماعلى المتأمل الاَّ ان ينظر الى هؤلآء الرحّل البواسل الذين بلغوا شواطئ البحر الاحمر واصبحوا تجاه جبال الاتلاس . ثمَّ اجتازوا

بعدئذٍ البحر الحائل بينهم فدخلوا افريقيا والقوا عصا الترحال فوق سفح جبل الاتلس الذي لقبوهُ باسمهم. بخلاف ما يرتأيهِ البعض كون تسمية شعب الاتلانت مأخوذة من جبال الاتلس

ولمَّا شاهد هؤلآء الاقوام الرحّل اتساع املاكهم بانسحاب مياه الابحار عنها. فكانوا ينزلون من المرتفعات ويتوطنون البقاع المجاورة لهم . ولقد اصبحوا منتشرين في كل جهات افريقيا التي يحيطها البحر المتوسط

ومما لا يجب اغفالهُ ايضاً هو ان شعوب فينيقيا وسوريا ومصر لمَّا كانوا آخذين بالتناسل والتكاثر . بمثل ذلك جملة رحلات أُخر اتمَّ الشروع فيها شعب الاتلانت الذين ظلوا مقيمين في جبال القوقاس. إذ توجهوا فيما بعد الى انجاد التتر فاستوطنوها ثم امتدوا من هنالك الى سهول الهند والعجم وبلاد الكلدان

ومما لا مشاحة فيهِ ان اسيا التي اختصتها الطبيعة بالافضلية وميزتها عن باقي البلدان . لا بدَّ من ان تكون قد تعمّرت قبل باقي اقسام المعمور وقد اعترفت لها كل التواريخ ومجموع الاديان والمذاهب بانها كانت مهد البشر الاوائل

الاَّ انهُ لمَّا هجر شعب الاتلانت سفوح جبال الاتلس وتفرَّع منهم جملة شعوبٍ في القارّة الافريقية . رغبوا الاقامة في جزيرةٍ عظيمة كانت مرتفعةً في الزمن القديم فوق البحر المتوسط بين ايطاليا وقرطجنة . واسسوا فيها مملكةً قوية توصلوا بها الى درجةٍ من العمران

لا يستخف بها . وانهُ بواسطة تفوّقهم بالاسلحة سنُّوا الشرائع الى شعوب تلك القارّة . ولمَّا اتفق لقوم الاتلانت الاسياويين ان يبدأوا برحلاتهم الى الجهات الاوربية تصدّى لهم هؤلآء وقاوموهم مقاومةً عنيفة . ولا بدَّ من انهُ في ذلك الزمن التائه في دياجير الايام حدث هيجانٌ عظيم في جوف الارض كان الداعي الى فقدان جزيرة الاتلانتيد في اعماق اللجج . ولو لم يشر كاهن مدينة سايس الى تلك القطعة الثمينة المحفوظة في الهيكل لما عرفنا شيئاً عن امر هذه الجزيرة وكانت كأنها لم تكن في الوجود

القسم الثاني

﴿ في مولد الانسان الاول ﴾

لقد اتضح لنا من ادلّة علم الجيولوجيا وروايات اسفار التكوين ان الانسان لم يظهر على الارض الا بعد سائر الحيوانات وان جبلاً من جبال اسيا كان مهدهُ الاول . فلم يبقَ علينا سوى ان نبحث في الاسباب التي احدثت اختلاف الانواع في الجنس البشري

على انهُ لما استقرّت رحلات البشر الاوائل في جهات مختلفة من الارض كانت العادات واخصهُ فعل الاقليم هي الباعثة على وجود تلك التغييرات المتباينة في التركيب البشري . إذ بمقتضاها اصبح

منقسماً الى انواعٍ مختلفة ونموّ هذه الانواع وتكاثرها قد تفرّعت من كلٍّ منها اصنافٌ متعددة وسماتٌ مختلفة

ثمَّ ان الاشكال الرئيسية التي بموجبها ينقسم الجنس البشري الى انواعٍ مختلفة هي اولاً لون اديم البشرة وتقاطيع الهيئة . ثم يتلوها سماتٌ اخر ثنوية نتكلم عنها فيما يلي . وقد اتفق جميع علماء الطبيعة على ثلاثة انواعٍ اصلية وهي : النوع الابيض أو القوقاسي. والاصفر أو المغولي . والاسود أو الاثيوبي . ومن كل من هذه الانواع الثلاثة الرئيسية تتشعب فروعٌ هي اصناف الجنس البشري

كان اللون الزيتوني هو لون الجنس البشري الاول ويصح ان نعتبرهُ اول حلقةٍ من سلسلة تاريخ الانسان الطبيعي . بحيث انهُ في كل حلقةٍ من حلقات هذه السلسلة نشاهد اختلافاً وتغيرًا وارتقاءً حتى ينتهي الامر بالنوع الابيض القوقاسي الاكثر تقدماً في يومنا هذا بالنظر الى تركيبهِ الطبيعي والعقلي

على انه من يوم ماتوطّنت الشعوب في مناطق الارض المعتدلة أو الباردة نوعاً تغيّر لونها الاصلي واصبح اكثر وضوحاً ، وقد اكتسى اديم بشرتها شيئاً فشيئاً باللون الابيض ، وتكيّف الهيكل العظمي ، وتمدّد الدماغ ، واتسعت الجبهة ، وذهب بروز الوجنتين ، وفقدت العينان انحرافهما ، وانفتح محجراهما على خطٍ افقي . وانتظمت التقاطيع المتلبدة المختلطة . وبلغت الزاوية الوجهية اخيرًا تسعين درجةً أي خمس عشرة درجةً تقريباً زيادة عن زاوية وجه الانسان الاول

وبعكس ذلك كانت الشعوب التي ذهبت واقامت في المناطق المحرقة قد اكفهرَّ لونها مع مرور الزمن حتى بلغ درجة السواد . وقد حفظ تقريباً الذين شخصوا نحو الجهات المتجمدة لونهم وتقاطيعهم الاصلية مع اختلاف جزءي . الاَّ انهُ عوضاً من ان تنبسط اجسامهم وتستقيم كباقي الاجناس . فقد اعوجّت والتوت من تأثير شدّة الاقليم وقساوتهِ . واولئك هم في ايامنا هذه قوم اللابون والساموييد والاسكيمو الخ . . . .

الاَّ انهُ بعد ان وطّدت العصور عمل الطبيعة توقفت الانواع البشرية عند حدٍّ معلوم . وهذا امرٌ مما لا يقبل التردد والارتياب . فاذا قال معترضٌ انهُ توجد في الخط الاستوائي شعوبٌ يقارب لونها للبياض أو مشرّبٌ بقليلٍ من السمرة . مع ان أقرب نقطة الى القطب الشمالي مأهولةٌ من اقوامٍ زيتونيّ اللون أو ضارب لونهم الى السواد . فاننا نجيبهم على معترضهم هذا بان هؤلاء الشعوب نزحوا الى تلك الجهات وتوطّنوها بعد ما ارسخت الطبيعة علاماتها فيهم ومكنتها . وعليهِ فاذا جاء الزنجي اليوم وأقام في الجهات القطبية المتجمدة وسكنت البيض في الاقطار المحرقة كالسودان مثلاً فان كلاً من الاثنين يحفظ دائماً شكل النوع المنتسب هو اليهِ

الفصل الثاني

❊ في تاريخ الانسان الطبيعي ❊

من نظر الى التفاصيل التي اوردها كثيرٌ من الباحثين في تاريخ الانسان الطبيعي يراها ناقصة البيان واهنة التعليل وغير مستوفية الشروط . ذلك لان البعض منهم قسم الجنس البشري الى نوعين ، وغيرهم الى عشرة انواع ، والبعض الى اثني عشر أو خمسة عشر ، ومنهم الى ثلاثة وعشرين نوعاً . وكانوا يبنون هذا التقسيم تارةً على لون اديم البشرة ولون العينين والشعر . وطوراً على تركيب الهيكل العظمي وفتحة الزاوية الوجهية . وقد خلط جميعهم بين النوع الاصلي و بين اصناف الانواع الناتجة من فعل التناسل والنشوء . ولما كانت غايتنا من ذلك ان نبحث عن وجود نوعٍ اصلي للجنس البشري . فعاد يلزمنا ان نرجع الى استنتاج الحوادث التي يقدمها لنا تاريخ الارض الطبيعي . ذلك لان تواريخ الامم لا تحفنا باقل شهادةٍ مما لها علاقةٌ بالحوادث الطبيعية التي سبق لنا اثباتها وتبيانها . ألا وهي الاعتقاد بوحدة الجنس البشري

على انهُ اذا ماتوصّل العلم الى اكتشاف بعض أعمال الطبيعة المدهشة فاذ ذاك يأخذنا العجب من بساطة الوسائل التي تستخدمها الطبيعة في تكييف مصنوعاتها . ولمّا كانت الطبيعة تعمل أعمالها دائماً ببساطة . فهل يتعذّر عليها ان تخرج عشرة أو عشرين نوعا من جنسٍ أصلي . وهي التي تولّد من الاوكسيجين والهيدروجين والكربون الف والف مركّبٍ لا يوجد بين كلٍّ منها أقل تناسبٍ ومشابهة

أما بالنظر الى النوع الانساني فلا بدَّ من انه قد تحمّل جملة تجاربٍ شديدة متفاوتة المقدار طرأت عليهِ وكانت السبب في تنقلهِ من جهةٍ الى سواها . وعدم استطاعتهِ الاقامة في نقطةٍ معينة . بحيث انهُ قد اضطرّ الى ان يرحل متفرقاً في جهاتٍ مختلفة الاقليم والبيئة ففي اثناء هجرة أُسر البشر الاوائل منهم من تعرّضوا الى شمس محرقة . ومنهم الى بردٍ جليدي . وغيرهم بخلاف ذلك قد أقاموا في ارجاءٍ معتدلة الاقليم وعاشوا بسكينةٍ في بقعةٍ متوفرةً فيها اسباب الخصب والمعيشة . فكانت نتيجة هذه الاحوال انحطاطٌ في طبيعة الاولين وتكميلٌ في طبيعة الاخرين . ونحن نشاهد في يومنا هذا أن المخلوقات ترتقي أو تنحط في مدةٍ من الزمن بالنظر الى تأثير المحيط التي تكون عائشةً فيهِ

فلنقف اذاً قليلاً لنتأمل الشبه الحاصل بين الهيكل العظمي لرجل من قوم الهوتنتوت وهيكل قردٍ من مملكة انغولا (١) . إذ انهُ مما

(١) جهة من الكونغو وهي من املاك البورتغال

لا مشاحة فيهِ ان الشبه بين الاثنين واحدٌ. وذلك ان شكل التركيب العظمي وعدد قطع الاعضاء هي واحدةٌ . ماخلا بعض اختلافٍ في الفم ، وطول في الذراعين، وتفاوتٍ في عقد اصابع الرجلين. وهما اللتان يستخدمهما القرد بصفة اليدين . وعليهِ فالناظر الى هذين الهيكلين العظميين لا بدّ من انهُ ينخدع لدى نظرهِ اليهما . اخصهُ اذا لم يكن من علماء الفيزيولوجيا . بحيث يخيّل لهُ أن الهيكلين لشخصين من نوعٍ واحد . أما نحن فلسنا في حاجةٍ للوقوف عند حد التشريح فان التفصيل عنهُ مستوفٍ في المؤلفات الفيزيولوجية . وما غرضنا من ذلك سوى ان نحيط بالمسألة من الوجه الفلسفي فقط

أما بالنظر الى الطبيعيين الذين يتخذون مبدأهم الاول وحدة الحياة في الكرة الارضية ثمَّ الارتقاء العضلي في السلسلة الحيوانية . فهؤلاء يعتبرون الانسان هو الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة العظيمة وان الحلقة المجازية لهُ يشغلها المخلوق الآتي قبلهُ مباشرةً وهو الذي على شاكلتهِ بالنسبة والمقارنة (١) الامر الذي يظهر جلياً لمن يدرس تركيب ذوات الاربع ايدي اسلاف النوع البشري . إذ يشاهد فيها درجاتٍ للارتقاء قد توصّلت الاخيرة منها الى ان تكون معدّةً للشكل الانساني . وعليهِ اذا ابتدأنا من نوع الغالغو وهو الحيوان

(١) جاء في الرسالة الثامنة لاخوان الصفا ما نصهُ ان اول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة الجواهر المعدنية . وآخرها متصل باول مرتبة الحيوان . وآخر مرتبة الحيوان باول مرتبة الانسان

الذي يشغل اول درجةٍ من مرقاة طائفة القرود تنتهي بالتسابع الى الاخيرة منها تلك التي يشغلها الاورانغ اوتانغ. ذلك لان الارتقاء التكميلي في تركيبهِ ظاهرٌ للعيان ومنهُ توصّل اخيرًا الى بلوغ الشكل الانساني. وقد اثبت علماء التشريح في تشريح طائفة القرود السياق الآتي :

١ً غالغو
٢ً لوري
٣ً تارزيه
٤ً ماكي
٥ً ساباجو
٦ً وستيتي
٧ً بابوان
٨ً آتيل
٩ً بونغو
١٠ً جيبّون
١١ ماغو
١٢ شبنزي
١٣ اورانغ اوتانغ

وزاد على ذلك العالم الطبيعي لامارك في كتابهِ الفلسفي عن طبقات الارض ما محصّلهُ « ان الجنس البشري يجوز لنا ان نعتبرهُ هو الجنس الاكثر ارتقاءً في طائفة ذوات الاربع ايدي . لكننا نؤثر أن نقول ان ظهور الانسان في عالم الحيوان قد كان مسبباً عن انقلابٍ حيواني حدث في الكرة الارضية . وان نتيجة هذا الانقلاب المرتبطة بهِ جملة حوادثٍ أُخر لم تزل مجهولةً منا . وهي التي كانت سبباً لتكوّن جنسٍ جديد وهو الجنس البشري على اختلاف انواعهِ »

أما بالنظر الى ما يدّعيهِ لامارك وهو انهُ اذا كان أرقى انواع القرود يفقد شيئاً فشيئاً ضروريات الاحوال التي تدعوهُ الى تسلق الاشجار . والقبض برجليهِ على الفروع والاغصان . لكانت افرادهُ بعد اعقابٍ كثيرة من التناسل تصبح مضطرَّةً الى ان تستخدم ساقاتها وارجلها في سبيل السير والعدو . ثمَّ اذا ابطلت استخدام ارجلها نظير ما تستخدم ايديها فلا ريب انها تفقد تفرّق اباهيم ارجلها بالكلية وتتحوّل من الشكل القرديّ الى الشكل الانساني . ومما يجب ملاحظتهُ أيضاً انهُ ليس شكل تركيب الجسم هو الذي يولّد في الحيوان العادات والغرائز . بل ان العادات والاحوال المعاشية وخلاف تأثيراتٍ هي التي تتكيّف بها اشكال اقسام الجسم على مرور الزمن وكرور الايام . وبناءً على ذلك كان كلما اكتسب الجسم خصائص جديدة . كان بمثلها يكتسب اشكالاً جديدة . حتى توصّلت الطبيعة شيئاً فشيئاً الى توليد الحيوانات التي توقفت اشكالها اخيرًا عند حدٍّ لا يتغير

على انهُ اذا كانت القرود لاحدى الضرورات تلتزم ان تقف مستقيمةً وتتعوّد على الوقوف . فلا ريب أن أرجلها تتكيف شيئاً فشيئاً من جرّاء استخدامها اياها في السير . وكذلك تكتسب عضلات ساقاتها من عملها الدائم طولاً ودقةً وتأخذ ربلاتها بالنموّ والسمن . وبمثل ذلك اذا امتنع هذا النوع الذي هو تحت الانسان وأرقى انواع الحيوان عن استعمال فكّيهِ في مقام السلاح وهما اللذان ينهش

الاشياء بهما ويمسكها ويقلع بواسطتهما . واقتصر على استعمالهما للمضغ فقط . فلا يبعد ان تتحسن زاويتهُ الوجهية كثيراً وتصغر فتحتها ويقصر البوز شيئاً فشيئاً وتكتسب اسنانهُ شكلاً مستقيماً

وليتأمل المرء الآن هذا النوع من القرود . بعد ما تكون قد تعودت افرادها على ان تقف مستقيمةً وتسير على ارجلها . قدقامت بتأليف الاسر ثم اتبعتها بالمجتمعات واخذت تبتدع لها حاجياتٍ جديدة تبرزها الى حيز العمل بما توصلت اليهِ من ضروب الصناعة . وهي تتقدم بالنمو والتكاثر من يومٍ الى آخر . واضطرت الى ان تغير على الانحاء المجاورة لها لتوسّع مساحة ارضها وتطرد الحيوانات التي تشغلها وقامت في حصر السلطة في افرادٍ من نوعها . فتكون قد ماثلت الجنس البشري في جميع اشكالهِ وفعالهِ

اما ما اكتسبتهُ من الحاجيات فلا بد من انهُ يولّد عندها حاجياتٍ أُخر جديدة . فاذ ذاك يصبح الايماء والاشارات غير كافيةٍ لنوعها . بحيث تأخذ افرادها ان تقلل من صراخها وتجتهد في تعديل صوتها . دائبةً في تمرين حناجرها والسنتها وشفاهها لتولّد بواسطتها الفاظاً وكلماً . وتسعى بكل استطاعتها لتضاعف بينها التعارف والتخاطب . ذلك لان خاصية التكلّم تولّد مع التمرين الدائم اعضاءً صوتية . الامر الذي لابدَّ من ان تكون هذه الاعضاء هي اصل اللغة المتداولة على آلسنة البشر

ربما يأسف بعض القرآء لدى اطلاعهم على هذه التفصيلات

والبيانات . وربَّ غيرهم يسلقون الطبيعة بألسنةٍ حداد ويصبّـون عليها جام سخطهم ومذمتهم . ذلك لتسفيلها الانسان وجعلها اباهُ الاول قردًا . وزعمهم بذلك ان الانسان هو ارفع من ان ينسب اليهِ مثل هذه الترهات . وهم يستندون في ذلك على الوحي واسفار التكوين عنـد جميع الامم واتفاق كل الشعوب على تلك النصوص وذلك المعتقد . اما نحن فلدينا سوألٌ نودّ ان نطرحهُ عليهم وهو انهُ هل اسفار التكوين تفوق سفر الطبيعة ؟ ما زالت تلك هي صنيع البشر وهذا بعكسها يصحب وسم القدرة . اذن لماذا لا يرضون القرد ارومةً لهم . أيدركون الدور الذي يشغلهُ فوق سطح هذه الارض والغاية التي اختصهُ الباري لها . هم يحقرون القرد وربَّ انهم بدونهِ لما كانوا موجودين اصلاً . تلقاهم يرفعون عقيرتهم ويصرخون بأعلى صوتهم يا للعار يا للفضيحة . وهم مع ذلك لا يفقهون حرفاً واحدًا من علم طبقات الارض . فما صراخهم اذًا الا لداعي خجلهم . وما تأسفهم الاَّ من فرط جهلهم وغباوتهم

نرى الفيلسوف الطبيعي لا ينظر مطلقاً بعين التأمل والخيـال . بل يتخذ مشكاتهُ من مطالعات العلم والبراهين الصريحة . وهو لا يتتبع مناهج الالهام والوحي بل يتأثر ويدرس حوادث الطبيعـة . بحيث انك تلقاهُ يشرح الوقائع الطبيعة ويقابلها حتى يستخلص منها نتيجةً منطقية يستند في بناء الحكم عليها

قد اتضح بالتدقيق ان الحياة هي واحدةٌ فوق هذه البسيطة وان

الاجسام التي هي مظهرٌ للحياة عددها وافر . وان الطبيعة في جميع الاشياء تسير من البسيط الى المركّب . وكذلك النظام الحيوي قد تتبع هذا الارتقاء من اول جرثومةٍ نقوعية ظهرت فيها الحياة حتى وجود الانسان سلطان الخليقة . وان الحياة قد اجتازت جميع الاشكال قبل ان توصلت الى الشكل البشري . وهي كانت سائرةً بلا انقطاع من البسيط الى المركّب . وهكذا كان ولم يزل سيرها هذا الذي لا يقبل التغيير والتبديل

ثمَّ ان الفيلسوف الذي درس تكوّن النشوء وانقراض المخلوقات التي سبقت الطوفان . يقدّر ان ظهور الانسان على وجه البسيطة ماهو الاَّ آخر حركةٍ اختطتها الطبيعة في التركيب الحيواني . ويقدّر ايضاً ان الزوجين الاولين لم يستوفيا درجة الكمال (انظر الرسم الاول في فاتحة هذا الكتاب) فكانا يحاكيان البهم بالنظر الى غرائزهما . لكنهما مع ذلك كانا يصحبان في دماغهما جرثومة الادراك التي ستكون يوماً من الايام وسيلةً لتعظيمهما وجعلهما سلطاني الخليقة . كما ان هذين الزوجين قد تناسلا وكانا ارومة الجنس البشري الذي تفرعت منهُ ثلاثة انواعٍ مختلفة نورد تفصيلها كالاتي

لا يوجد للجنس البشري اثر ذكرٍ في تواريخ الدهور . بل ان اسفار التكوين القديمة التي اكتتبها بعض اصحاب المجاز او الشعراء . تجعل مولد الانسان الاول محاطاً بجملة احوال وظروفٍ تصنيفية وحوادث غير ممكنة الوقوع يتعذر على الفيلسوف قبولها وتصديقها

تلك التي لا تشدهُ سوى عقول العامّة والبسطاء وان العالم الطبيعي لا يبلغ مرتقياً الى اول أسرةٍ بشرية الا بطريق التركيب . ذلك لانهُ بعد مايكون قد جمع الوقائع التاريخية يأخذ في معارضتها وتحليلها حتى يتوصل منها الى النتيجة الآتية . وهي ان الجنس الاصلي الذي لا يمكن ان يستقصى أثرهُ قد تولدت منهُ ثلاثة انواعٍ أصلية نشاهدها في يومنا هذا أيضاً . وقد اشتق من نموّ هـذه الانواع وتكاثرها فروعٌ ومن الفروع أغصانٌ . وهي التي تمثّـل اصناف الانواع البشرية على وجه هذه البسيطة . وان الوضع الترتيبي الاكثر بساطةً والاوفر مطابقةً لهذه الحوادث الطبيعية هو كالآتي

١ً النوع الزيتوني والزنجي (او الاثيوبي)

الفرع الاول	الهوتنتوت
» الثاني	البلبوس وسكان استراليا
» الثالث	الكافر
» الرابع	الاثيوبيون (١)

٢ً النوع الاصفر (او المغولي)

الفرع الاول	الهيربورين
» الثاني	الامريكان الاصليون

(١) اسلاف المصريين

الفرع	الثالث	الملقيون
»	الرابع	الصينيون والمغول

٣ً النوع الابيض (او القوقاسي)

الفرع	الاول	الهنود
»	الثاني	الاسكتيون
»	الثالث	الاراميون
»	الرابع	الصقالبة والبلاسجة

وقد تفرّعت من هذه الانواع الثلاثة الاصلية الاجناس البشرية التي انقرض بعضها ولم يزل الباقي منهـا كائناً على وجه المعمور. ثمَّ اننا نبتديء بتاريخ النوع الزيتوني. ذلك لانهُ يأتي مباشرةً من الام الاصلية

القسم الاول

في النوع الزيتوني والزنجي (انظر الرسم ٥)

الفرع	الاول	الهوتنتوت
»	الثاني	البابوس وسكان استراليا
»	الثالث	الكافر
»	الرابع	الاثيوبيون

الرسم ٥

ذكرنا قبلا ان البشر الاوائل كانوا بغرائزهم يقربون من البهم إذ لم يكن عضوهم الدماغي قد توصّل الى تمام نشوئهِ . فهم كانوا مدفوعين الى الحياة بغريزة النموّ والحرص على البقاء . لاسيما وانك اذا فحصت الطبيعيات ودرست عادات واخلاق بعض اقوام النوع الزيتوني أو الزنجي وقابلتها بطائفة الاورانغ اوتانغ . يتضح لك جليًّا أن هذين الفرعين هما حلقتان متحازيتان من السلسلة الحيوانية وأن الحلقة العليا منهما تمثّل لناظريك صورة انتقال المادة البهيمية الى المادة العاقلة . ثمَّ انهُ بمقدار ما تمتدّ فروع التناسل بمقدارها تولّد اشخاصاً جديدة تتباين عن الفرع الاصلي لها . إذ يقل انفراج الزاوية الوجهية ، ويقصر بوز الفم ، وترتفع الجبهة ، ويتسع الدماغ ذلك لان الاثيوبيين وهم من الفرع الرابع ترى ملامحهم اكثر اعتدالاً من الزنوج الذين هم من فروعٍ اقرب الى الاصل وهم اكثر تميزاً وتعقلاً

١

يشغل فرع الهوتنتوت حتى اليوم اسفل درجةٍ من سلّم تاريخ الانسان الطبيعي وهو بلا شك الممرّ من جنس ذوات الاربع ايدي الى الجنس البشري . إذ يُشاهد من التفصيلات التالية بعض مشابهاتٍ تشمل هذين النوعين وهي ان اديهم زيتونيّ اللون ، وشعرهم كث وقصير ، والوجه مثلّث الزوايا ، والملامح منتفخة ، وجبهتهم منسحبة ومفقودة ، والوجنتان بارزتان ، والعينان ملتويتان ، وعظم الانف مكيّف بشكل انف القرود ، ذي قصبةٍ مفلطحة وهو أعرض جدًّا من عظم انف باقي البشر . كما ان الفم مشروط جدًّا ، والشفتين منتفختان كثيرًا ومقلوبتان الى الخارج ولونهما ادكن . وان تداخل الاسنان وانحرافهما وتقدم الفكين . مما يجعل شكل الفم مبوّزًا وتكون الزاوية الوجهية ذات خمس وسبعين درجة . وقد اتفق جميع الرحّالات بقولهم . على ان قوم الهوتنتوت هم القوم الاكثر توحشاً والاوفر قزارةً من باقي البشر . لاسيما وان لغتهم فقيرةٌ جدًّا نظير تصوّراتهم وهي اشبه بالنقنقة . تشاهدهم يقيمون اياماً بتمامها في التتانة والوساخة ولا يفكرون بشيء بل يقضون اوقاتهم باللعب . وهم يحكّون اجسامهم ويفترسون كالقرود الحشرات الصغيرة التي تعلق بها . سيما وان ما انطبعوا عليهِ من الكسل وما اتصفوا بهِ من الغباوة ودمامة المنظر . لا يُرى

نظيره في الجنس البشري . وان هـذه السلالة التعيسة منتشرة في افريقيا من الرأس الاسود حتى رأس الرجا الصالح . وان الاقوام الذين يشتقون من فرعها هم قوم النوريكوا ، والتماكوا ، وسكان الناتال ، والهوزوانا وخلاف اقوام ينتسبون اليها

ثم انهُ يوجد هنالك قومٌ قد اشتهرت نساؤهم بشكلٍ غير اعتيادي وهو كبر عجيزتهن . وهي إليةٌ دهنية كبيرة الشكل قليلة الجمودة رجّافةٌ يضمها غشاءٌ متسع المسام . وقد جلب البعض واحدةً من نوع هذه النساء الى باريس في اوائل القرن التاسع عشر . فكانوا يعرضونها على جمهور المتفرجين ويلقبونها باسم فينيس هوتّنتوت . وقد كان لها ولدان من رجل من جنسها كانا في بعض الاحيان يتسلقان عليها ويقيمان فوق إليتها كانهما يعتطيان غارب دابّةٍ . ولقد كانت تلك إلالية موضوع دهش الكثيرين من سكان العاصمة الفرنساوية . ثمَّ انهُ لم يكن لهذه الانثى ما تتستر بهِ سوي رقعة اديمٍ كانت تغطي بها عورتها . وكان طول قامتها غريباً مايقرب من صور الجان (انظر الرسم ٦)

الاَّ انهُ من كان يجول في خاطرهِ ان هذه إلالية الشنيعة المنظر التي كانت موضوع اشمئزاز وسخرية السيدات الباريسيات تصبح يوماً من الايام زياً يقتدى بهِ . كما حصل في سنة ١٨٨٥ اذ ابتدعت واضعات الازياء في باريس العظّامة وهي ردفٌ صناعي يمثّل إلية انثى الهوتنتوت وطفقت اكثر السيدات يتزينَّ بهِ . واخيرًا اصبح

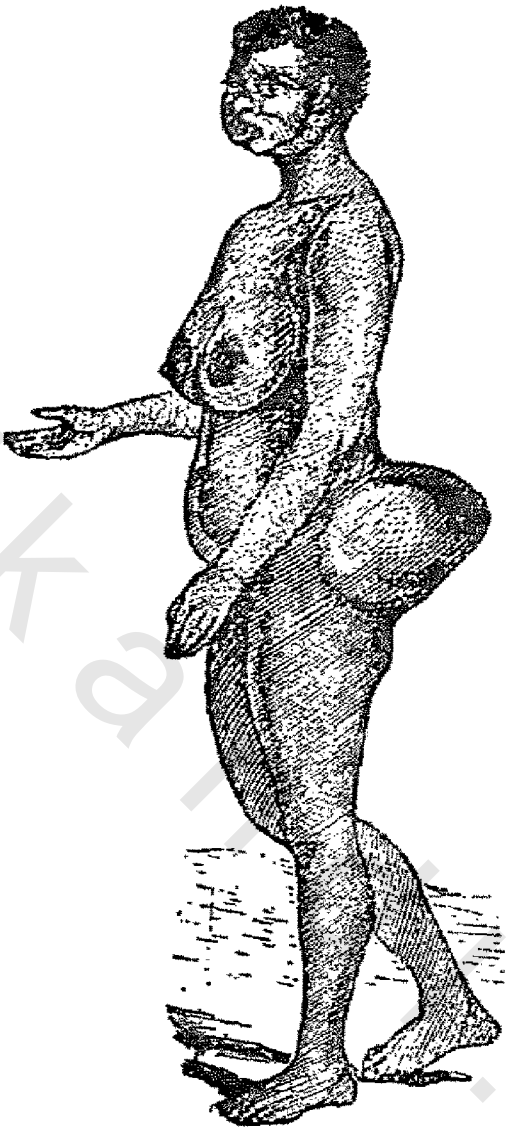

الرسم ٦

زيا متبعاً في فرنسا وفي كثير من الممالك المتمدنة (١)

(١) ليست الحقيقة كما يدعي المؤلف كون العظّامة هي من اختراع الباريسيات بل ان هذه كانت معروفةً عند نسآء العرب من سالف الزمن. وتسمى عندهن باسمآء مختلفة وهي : العظّامة ، والحشيّة ، والرقاعة . واذا راجعنا ماقيل في تفسير هذه الاسمآء في كتب لغة الاعراب نجد ان

٢

يشغل الفرع الثاني قوم البابوس ، وسكان اوستراليا الاصليين، ومتوحشي كاليدونيا الجديدة . الا ان البابوس أقل توحشاً من قوم الهوتنتوت وهم متفرقون قبائل في اراض مخصبة . ألا وهي غينا الجديدة ، وبريطانيا الجديدة ، وايرلندا الجديدة ، وهبريد الجديدة ، وتشاهدهم مختلطين باقوام ليسوا من جنسهم وهم منتشرون حتى جزائر فيدجي وجزائر الناڤيغاتور . وكان من تناسلهم مع الملقيين قد نتجت شعوب جزائر موليك وفرموزا والقبائل المتفرقة في ارجاء جزائر فايجون وباطنطا . . . . ويختلف البابوس عن سائر الاقوام الزنوج بلونهم الاسود الضارب الى الصفرة وبشعرهم الطويل المفلفل الذي يجعل شكل رؤوسهم كبير الحجم

أما سكان اوستراليا الاصليون وسكان الارخبيل الباسيفيكي فهؤلاء يختصون بالنوع الزنجي . وأن شعرهم وان يكن كثًّا وخشناً مع ذلك فهو املس من شعر الزنوج . وكذلك يوجد الفرع الاسترالي متفرقاً أيضاً في بعض الجزر نظير سوماترا ، وبورنيو ، وجزر الفيليبين ، والموليك ، والآثور . التي يطلق على مجموعها اسم آلفوروس

يختلف قليلاً شعوب كاليدونيا وارض دِيمن عن اقوام الآلفوروس وقد خلطهم كثيرٌ من الباحثين بقوم البابوس الذين هم أصلٌ لهم . ثمَّ

العظَّامة مثلاً هي ثوبٌ كذالوسادة تعظِّم المرأة به عجيزتها . وذلك مايطبق على مارأيناهُ في زي المرأة المتمدنة

انك تلقاهم ذوي بوزٍ طويل كسولين ضربت التعاسة فوقهم اطنابها ينزلون الى الشطوط زرافاتٍ زرافاتٍ ليفترسوا الاصداف التي يقذفها اليمّ . وهم يتضورون على الدوام جوعاً وليخففوا من آلام الجوع التي تعذّبهم وتمزّق احشاءهم . تشاهدهم يبتلعون قطعاً من الطباشير بدون ان يستكرهوها . ومن ذلك كان سبب تسميتهم بأكلة التراب (١) فضلاً عن انهُ لايوجد من يعادلهم بالشراهة والقزارة . وياحبذا لو كانت لهم غريزة القرود من نوع اورانغ اوتانغ التي تبني لها اكواخاً من اغصان الخيزران وتغسل ابوازها في الجداول التي تصادفها في طريقها . أما سكان كاليدونيا الجديدة فتلقاهم ملطخين بالاقذار من اطراف ارجلهم حتى سمت رؤوسهم وهم يكابدون تقلبات الفصول ولا يكلفون انفسهم عناءً ليبنوا لهم معاقل يلتجئون اليها عند الضرورة فهل يعدّ ذلك منهم كسلاً أم غباوة

٣

يؤلف قوم الكافر الفرع الثالث من النوع البشري الاصلي . لا سيما وانه يوجد ارتقاءٌ حسيٌّ في تركيبهم الطبيعي والعقلي . وهم أقل دمامةً بكثير من الهوتنتوت إذ ان وجناتهم اقل بروزاً ، والانف اقل تفلطحاً ، ولغتهم غنية بالنبرات الصوتية ، وفيها طلاوةٌ

(١) Geophages

ورقّة . ولهم في تربية الحيوانات وبنآء الاكواخ معرفةٌ ونباهة . وهم يصنعون اوائل للصيد والكفاح يصدّرونها الى الجهات البعيدة ويتجرون بهـا

تشغل شعوب الكافر جميع الاراضي الشرقية الافريقية من نهر روح القدس حتى بوغاز باب المندب . وان منهم اقوام الموزمبيك ، والمنغال ، والمنباز ، والميـلاند . وان لون اديم هؤلآء الاقوام فاتحٌ ومشبّع في البعض منهم بالصفرة . وان نسآء بعض هذه المقاطعات التي منها البتجواناز مثلاً فان لهنَّ منظرًا حسناً . ذلك لان انوفهنَّ اقل تبسّطاً ، وشفافهنَّ اقل انتفاخاً ، وتقرب سحنتهنَّ قليلاً من السحنة الاوربية

٤

يشتمل الفرع الرابع الذي ندعوهُ بالفرع الاثيوبي على قوم الفولاح ، واليولوف ، والمندينج ، ومن ثمَّ شعوب السنغال ، وسـيراليونه ، والبينان ، والزنوج ، والكنغو ، وانغولا ، وغامبيا ، وجزائر غوري ، والرأس الاخضر . وبالاجمال جميع الجهة الشرقية الافريقية من السنغال حتى الرأس الاسود

أما رجال هذا الفرع الرابع فهم الاكثر ارتقآء من نوعهم . وفيهم من هم اصحاب فنون وصنائع ولهم مهارةٌ في اعمالهم ويمتلكون

مدنا وقرى ولهم رؤساء وملوك . ويقال انهم قد احدثوا فيما مضى سلطات قوية في داخل افريقيا . وقد اثبت المؤرخ هيرودتس في تاريخهِ ان سكان مصر الاولين هبطوا اليها من الجبال الاثيوبية ويزعم أيضاً ڤولناي ان اول اسرةٍ جاءت واقامت في وادي النيل وكذلك الاهلين الذين انتشروا في وجهيّ القطر المصري كانوا من النوع الزنجي . وقد ادعم رأيهُ هذا بالرسوم والنقوش التي خلّفتها اولئك الشعوب . لانهُ اذا ما القى المرء نظرةً على مستودعات المومياء واشكال ابي الهول لتتحقق منها وجود النوع الاسود لا محالة . وقد ايّد جملة مؤرخين هذا الرأي بقولهم ان مصر في الاصل كانت منقسمةً الى ثلاث طوائف . وهم السوقة والكهنة والاشراف . وان الطائفتين الاخيرتين كانتا من النوع القوقاسي . وهم الذين كانوا يمارسون العلوم وينفّذون الاوامر ويتولّون الاحكام . فضلاً عن البون العظيم الذي كان يحول بين الفريقين مادياً وادبياً . لا سيما وان القطع الرخامية والاحجار المنقوشة التي تمثّل الاشخاص الذين هم من السلالة الملوكية أو من ارباب الكهنوت . تختلف اشكالها تماماً عن الشكل المصري وتقرب من الشكل اليوناني

لقد تبين لجملة رحّالات ان اللغات الشائعة الاستعمال عند الشعوب من النوع الزنجي هي كثيرة العدد . بحيث انّ كل قبيلة تتكلم لغةً مختلفة . وعليهِ يكون تعداد اللغى على مقدار تعداد اصناف النوع الزنجي . فضلاً عن ان هذه اللغات بوجهٍ عام هي فقيرةٌ ويوجد

البعض منها شففيةٌ وغير مقبولة . واكثرها من مقطعٍ واحد لا تكفي ليُعبّر بها عن الافكار النظرية والعلوم العقلية . لا سيما وان لغة قوم اواسط افريقيا وهم قوم الهوتنتوت هي ملاى بالنقنقة وقرقعة اللسان والفاظها متساوية النبرة تقرب من زقزقة بعض انواع العصافير

على انهُ مهما تعدّدت الوان النوع الزنجي ، ومهما اختلفت ملامح صورهِ ، وتباينت قدود قامتهِ ، وتنوّعت اخلاقه ، وكثرت لغاتهُ . وذلك من الرجل الزيتوني حتى الرجل الكاليدوني الضارب لونهُ الى الصفرة يكون للنوع الاثيوبي ملامح مخصوصة ظاهرة للعيان لا يمكن خلطها بسواها

واننا نرغب قبل ان ننتقل الى النوع الاصفر ان نحيط المطالع علماً بمسألة ألوان الانواع التي لم تزل حتى اليوم غامضةً . فضلاً عما اجراهُ بعض العلماء الاختصاصيين من الابحاث والتحرّيات بشأنها . ولربما انكشف القناع فيما بعد عنها اذا اشغل الطبيعيون مجموع ذهنهم فيها وتفرّغوا لها

كانت ألوان انواع البشر المختلفة واخصهُ اللون الاسود منها هي الشغل الشاغل لكثيرين من علماء التشريح . إذ فكّر البعض منهم في ان يجدوا سببهُ في شدّة النور وحرارة الاقليم . وارتأى غيرهم انهُ مسببٌ من الصفراء التي هي اعتم واغزر في الجسم الاسود مما في سواهُ . بحيث انها تتجاوز المجاري الدموية وتتشرّب منها الاعضاء وتعمل في تسويد اديم البشرة . ومما هو أولى بالقول ان

هذه الافكار هي بعيدةٌ عن الصواب ولم تصب كبد الحقيقة . اولا لان الاشعّة الشمسية لا تستطيع ان تسمّر سوى البشرة فقط والثاني لان المبدأ الصفراوي قد ردّتهُ جميع علمآء الطبيعة ولم يعودوا يحفلون بهِ

أماحقيقة كيان المادة الملوّنة فهي في الغشاء المخاطي الموجود تحت اديم البشرة وقد سموها بلفظة بيغمنتوم (١) وهي تشابه الدم وتصدر عنهُ. وتمرّ في اوعية سطح البشرة في الغشاء المخاطي فتكسبهُ لونها. لا سيما وان الوبر والشعر يأخذان لونهما منها أيضاً . وهـذا عملٌ طبيعي لم تتحققهُ العلمآء الا من زمنٍ قريب . ولقـد أظهر الاختبار الكيماوي من جهةٍ اخرى ان المادة الملوّنة كان شكلها كروياً وكانت في الاصل مكوّنةً من الكربون . أما الغشآء المخاطي في الانسان الاشقر فهو ابيض ومشرّب بقليلٍ من الحمرة . ويزداد لونهُ قليلاً في الاشخاص اصحاب الشعر الكميت . وهو ابيض شاحب وذو لونٍ طفيف في الانسان الاسمر . واصفر في النوع المغولي . واسود في الاثيوبي . وقد اصبح من المحقق ان الدم والصفرآء وجميع الاخلاط بوجهٍ عامّ حتى الكيلوس (٢) هي اعتم في النوع الزنجي مما في الانواع الاخرى فلا يبعد ان يكون الدم في الانسان الاسود هو اكثر كربوناً من دم الانسان القوقاسي . وهو الذي اكسب

---

(١) Pigmentum (٢) هي مادة يتحول اليها الطعام في اثنآء الهضم وهي كلمة اعجمية استعملها الرئيس بن سينا وابن خلدون وخلافهما

المادة الملوّنة الصبغة السوداء. وقد تحدث حوادث من هذا القبيل في اجسام البشر البيض في اثناء بعض الامراض نظير التقيؤ الاسود ، ونفث الدم الاسود[١] والاورام السودا[٢] . . . ويجوزان تكون جميع هذه الحوادث المرضية مسببة عن وجود دمٍ فيهِ المادة الكربونية اكثر من المعتاد . الامر الذي قد اقتضى لذلك ان يحصل في يومٍ من الايام باشد حالات الانفعال . وبناءً على ذلك قد يكون دم الانسان الاسود قد اكتسب في الاصل تلك الزيادة وتأثر منها لوجودهِ تحت سماءٍ محرقة مدة عصورٍ عديدة . الامر الذي يدعونا الى هذا الاستنتاج . وهو ان اسرًا من النوع الاول ذوات اللون الزيتوني قد اقامت في المناطق المحرقة فخرج منها النوع الاسود بعد ما سود الاقليم او اسبابٌ اخرى مجهولة منا المادة الملوّنة فيهم . وان النوع الابيض قد اكتسب لونهُ من تغييرٍ طرأ عليهِ سببه عكس ما تقدم

ولقد ارتنا التجارب ان اديم الانسان الابيض اذا ما تعرّض مدةً طويلة لحرارة الشمس المحرقة يكتسب لوناً اسمر ليس في الامكان ازالتهُ وان الاشخاص الذين يقيمون سنين عديدة في المناطق الحارّة او الجزائر . والذين امضوا قسماً من حياتهم في الاسفار بين تلك المناطق قد ظلوا مدى عمرهم سمر اللون وضاربين الى السواد . وقد تغيّر اديم بشرتهم بهذا المقدار من فعل التأثير

---

(١) Les hematémè-e- (٢) Les tumeurs mélaniques

الشمسي حتى لم يعد يرجع الى لونهِ السابق. لاسيما وان العودة الى البلاد الباردة لم تؤثر في نزع تلك اللفحة التي اثبتها مر السنين وكر الايام

ينسبون الى الغشآء المخاطي والمادة الملوّنة خصائص تقي أديم البشرة من التقلبات الجوّية . لا سيما وان الغشآء المخاطي في انواع البشر المقيمين في أطراف الجنوب وفي دوائر الانقلاب هو اغلظ كثيرًا مما هو في النوع الابيض لانهُ يحافظ على بشرة اولئك من التسمير الشمسي، وعلى البيض من التشقق الذي يحدثهُ البرد . ولقد اتضح لعلمآء التشريح بعد تحرّيات كثيرة وابحاث شتى ان الغشآء المخاطي في قوم الالبينو والبلافار الخ . . . هو مفقودٌ أو أنه يوجد فيهم بشكلٍ رقيق لا يُشعر بهِ . حتى يحصل من ذلك ان اقل تأثير شمسي طويل المدة يُحدث في اديم بشرتهم عوامل الاحتراق . مع انهُ يلزم لذلك اعراقٌ شديدة ينضحها جسم الانسان الاسود لتفعل الفعل ذاتهُ في اديم بشرتهِ

القسم الثاني

في النوع الاصفر او المغولي (انظر الرسم ٧ و ٨)

الفرع الاول الهيبربورين

« الثاني الامريكان الاصليون

الفرع الثالث الملقيون

» الرابع الصينيون والمغول

الرسم ٧

الرسم ٨

يُعدّ النوع الاصفر هو الثـاني في سلّم الارتقآء بعـد النوع الزنجي ذلك لان جمجمتهُ أحسن قالباً واصلح تركيباً . وان الغرائز البهيمية وان كانت لم تزل متأصلةً فيهِ ومقيمةً لديهِ الا ان الادراك والمعرفة هما اكثر نموًّا فيهِ . وان الطبيعة التي يقتضي لها آلافٌ من الاجيال لتكييف اعمالها تشير هاهنا باوضح بيان الى عدم تكميلها خلقة الانسان في هذا النوع من البشر

أما صفات هذا النوع فهي كالآتي : وجهٌ عريض ومنبسط ، وجبهةٌ واطئة ، ووجنتان بارزتان ، وأنفٌ قصيرٌ وغليظٌ ومفلطح ، وعينان صغيرتان منحرفتا الفتحتين ، وصدغان ضامران ، وعارضان كرويان ، وذقنٌ معقوصة قليلاً ، ورأسٌ كثير الكبر بالنسبة الى باقي

الجسم ومسحوب الى الورآء ، وشعرٌ ناشبٌ واسود ، وشعر الذقن قليلٌ ونادر ، والخصر بوجهٍ عامّ صغيرٌ لا يفوق متوسط القد . ويختلف اخيرًا اديم البشرة بين اللون الاصفر، والاسمر، والزيتوني القاتم بالنظر الى اختلاف البيئات والاقاليم

١

يشمل فرع الهيربورين الذي يتصل نسبهُ بالنوع الزنجي قوم اللابون ، والساموييد ، واللاكوت ، والاستياك ، والبورنديان ، والاسكيمو ، والغرونلاند ، وجميع القبائل المتفرقة عموماً تحت الحلقة القطبية . ويختلف هؤلآء الاقوام فيما بينهم قليلاً بسيمآء الهيئة . الاَّ ان الوجه في جميعهم منبسطٌ ، والانف مفلطحٌ ، والشفتين غليظتان والرأس كبيرٌ ومربّع الزوايا تقريباً ، وأديم البشرة اقل واكثر اسمرارًا ، واللحية قليلة الشعر ،وهم ذوو قدٍّ مكبوس يفوق على الغالب اربع اقدام

يغتذي الهيربورين من لحم الرين [١] والدب الابيض والاسماك التي يتركونها تفسد حتى تصير اكثر تهييجاً للشهوة واسهل على الهضم . وان الزيت الذي يستخرجونهُ من دهن الحيتان يستخدمونهُ في مقام الشراب . ويسكرون بمشروبٍ مخمّر يستخلصونهُ من حبوب العرعر . على انهم وان كانوا قد فطروا على الجبن والكسل

(١) حيوان من فصيلة الآبل

الأ ان السكر يدفعهم الى زعرٍ وهيجانٍ لا مثيل لهما . فهم يعدون شاهري اسلحتهم ويتضاربون مقتلين بدون ادنى تعقل ويذهبون بارواح بعضهم بعضاً . ويتنقلون دائماً فوق الثلوج . ويحفرون فيها اكواخاً وينوّرونها ويدفئونها بواسطة مصباحٍ يوقدونهُ متواصلاً . ويكثر هؤلآء التعسآء من الزوجات لا سيما وانهُ ليست لهم شريعةٌ وليس عندهم تحجّبٌ ولا حيآء إذ يقدّم الزوج زوجتهُ الى الغريب فيدخل عليها . وبمثل ذلك يقدّم الاب ابنتهُ والاخ اختهُ . وتلقاهم كثيري الوسآوس اصحاب اباطيل وخرافات . يعبدون الفتيش (١) ويخافون السحرة . وقد اجتهد كثيرٌ من المبشرين في ان يهدوهم الى عبادة الباري ويكسبوهم منافع الدين . وقد توصلوا بهم تدريجاً الى ان جعلوا مداركهم تسمو مرتفعةً حتى بلغت الافكار باللاهوت . أما هم فيسمعون اليوم الى قسيسي الكاثوليك وغدًا الى البروتستنط ويبدّلون معتقدهم عشر مرارٍ في اليوم تلقآء بعض كاسات مشروبٍ مسكر تعطى لهم . وبالاجمال يجوز لنا ان نعتبر هؤلآء الاقوام نظير نوعٍ من البشر قد توقّف عن نموّهِ من جرّآء اقليمٍ شديد القساوة وغذآء ردىء للغاية

٢

أما القرع الثاني من النوع الاصفر فهو الامريكاني الاصلي . بحيث تسهل معرفتهُ من الملامح الآتية وهي : لونٌ نحاسيٌ يختلف بين

(١) صور وحشة تعبدها الزنوج

الاصفر الفاتح والاصفر القاتم ، وجبهةٌ كثيرة القصر ، ورأسٌ مسحوبٌ الى الورآء ، وعينان غائصتان ، وأنفٌ قليل التفلطح ، ومنخاران مفتوحان ، ووجهٌ عريضٌ ومستدير ، ووجنتان بارزتان ، وشعرٌ ناشبٌ واسود ، وقدٌّ متوسط ، وعضلاتٌ معتدلة النموّ . وان شكل الجبهة واستطالة مؤخّر الرأس عند هؤلاء الهنود هما نتيجة العصائب التي يشدّون بها رأس الطفل ويكيّفونهُ بها في اثناء ايامهِ الاولى

يتألف الفرع الامريكاني من عدة اصنافٍ نبتديء اولاً بذكر سكان امريكا الشمالية . إذ يشاهد فيها بشرٌ تشابه تمام المشابهة اللابون المقيمين في اوربا واسيا . فهم متخلقون بذات الاخلاق ومتصفون بنفس البنية ولهم عين الدمامة . ثمَّ ان الكناديان والهيرون واللابرادور المقيمين في جميع الاطراف المجاورة للقارّة الاسيوية يشابهون كثيرًا التتر . فلا يبعد ان يكون هؤلاء هم اصلٌ لهم . أما سكان الاورينوك ، والبيرو ، والغويان ، وبلاد الامازون واسبانيا الجديدة ، والبرازيل ، وشيلي ، والبراغواي ، والبتاغواي ، في امريكا الجنوبية . فان لون بشرة هؤلاء الاقوام هي اعتم ورسم ملامحهم اكثر بروزًا . واذا ما تجوّل المرء في الاقطار الامريكية المتسعة يصادف في اثناء تجوالهِ قبائل لاعدد لها مختلفة اللون من الاصفر الابيض نظير لون الكريستيانيين ومتوحشي بوغاز ماجلان . والنحاسي الاصفر كسكان البيرو واكثر قبائل الجهة الجنوبية .

حتى يتوصل المرء شيئاً فشيئاً الى اللون الاسمر الاسود وهم سكان البرازيل . وكذلك يوجد مابين بعض القبائل اشخاصٌ يختلف لونهم وشكلهم كل الاختلاف عما سواهم وكثيرٌ من الرحّالات يؤكدون انهُ يوجد في جبال الكرديليه امريكانيون بيض البشرة ذوو شعرٍ اشقر معروفون باسم أروكان . وليست رواية هؤلاء السياح بالامر المستحيل إذ يكفي ان يلقي المرء نظرةً واحدةً على مركز ايزلندا الجغرافي التي كان يقطنها من القدم الاوربيون ويختلفون اليها فيشاهدها تشابه الغرونلاند كل المشابهة وهي لا تبعد عن جزر الاركاد الشمالية الا قليلاً ومن المعلوم ان الدنيماركيين أنشأوا مستعمراتٍ في حدود الغرونلاند ولمّا كانت هذه الجزر تقرب كثيرًا من القارّة الامريكية فاصبح من المحتّم ان اناساً من اصلٍ اسكندیناوي قزفت بهم الانوآء فوق تلك الارجآء نظير البشر الاوائل من النوع الزيتوني الذين قصدوها من تلقآء انفسهم بقصد ان يكتشفوا اراضٍ جديدة . وهذا ما يُعبر بهِ عن وجود بشر بيض البشرة بين القبائل الزيتونية اللون

نرى ان الشبه الواضح بين شعوب امريكا الشمالية نظير قوم الكيتاين والاسكيمو وبين قبائل تشوكتشي المتفرّقة في الجهة الاسياوية التي تقرب من بوغاز بيرانغ . وكذلك الاخلاق والعادات واكثر الصنائع المعروفة عند هؤلآء واولئك . كل هذا يؤيد رأي من قال ان هذا القسم الامريكي قد طرأ عليهِ قديماً المهاجرون الذين قصدوهُ من بلاد التتر . ويُرجَّح أيضاً ان الاراضي الامريكية

الكائنة في اطراف بوغاز دافيس وشمالي اللابرادور لا بدَّ من ان يكون قاطنوها من مهاجري الغرونلاند لان الشبه والملامح بين اهالي الجهتين واحدة

أما الرأي الاكثر شيوعاً عن قوم امريكا الاصليين الذين وجدوهم اثناء الاكتشاف فهو انهم كانوا شعوباً قليلي العدد متفرقين على مسافاتٍ مترامية البعد . وكانوا يهلعون فرقاً من رؤية الفاتحين ويفرّون من أمامهم بشكل وحشي . أما بالنظر الى روايات مؤرخي الاسبانيول وهو انهُ كان يوجد هنالك سلطنتان قويتان وهي حكومة المكزيك والبيرو فمن المحتمل ان هاتين السلطتين لم تكونا قويتين الا من قبيل مبالغة الاسبانيول . ذلك لان اهالي البيرو والمكزيك لم يكونا سوى شعبين حديثي العهد . فضلاً عن انهُ لم يكن لهما لغةٌ تكتب في الزمن الذي استولى عليهما فيهِ الفاتحون . وانهُ بالنظر الى تاريخهما النقلي يكاد تاريخ مدنيتهما يتدئ من مدة ثلاثة قرون قبل الفتح . فاذا كان ما يعزوهُ اليهما فاتحو الاسبانيول اكيدًا فكيف تسنى لهؤلاء الفاتحين ان يعملوا في قليل من الزمن فتوحاتهم ولم يلقوا منهم دفاعاً ولا مقاومة

قدّر بعض الرحّالات من اعضاء الندوات العلمية ان مساحةً من القارّة الامريكية التي توازي مساحة فرنسا لم تكن تحوي في زمن الفتوح اكثر من اربعة آلاف نفس . بحيث انهُ كان يشاهد في جميع الجهات غاباتٌ عظيمة ، وبحيراتٌ ومستنقعات واسعة ،

وقفارٌ واراضٍ قاحلة تشير الى ان هذه الارجاء لم تزل بكرًا ولم تطأها حتى ذلك الزمن ارجل البشر . لا سيما وانهُ فضلاً عن وجود المدنية وانتشار المعامل الاروبية في تلك الجهات في يومنا الحاضر فيظهر لنا مع ذلك من جغرافية تلك القارّة ان ثلاثة ارباعها لم تزل حتى الآن غير مأهولةٍ ولم تعمل فيها يد الانسان

ومن المعلوم ان اللغات الامريكية هي كثيرة التعداد وان عددها على قدر اختلاف كل منها عما سواها حتى يصح القول ان كل قبيلةٍ لها لغةٌ مخصوصةٌ بها تتعلق ماقلَّ او كثر بلغات الشعوب المجاورة لها وان هذه الالسن بوجهٍ عامّ هي ذات مقاطع عديدة وهي كثيرة التشابه وان اختلفت اصولها . وكذلك يوجد كثيرٌ منها ذات مقطع واحد نظير لغة الاوتومي المنتشرة في اسبانيا الجديدة ولغة المايا وجملة لغاتٍ أُخر . أما لغات اقاصي الجهة الشرقية الشمالية في امريكا فان لها علائق كثيرةً بلغات اسيا الشرقية الشمالية . الامر الذي يثبت لنا ان امريكا في القديم كانت سكانها من المستعمرين الاسيويين

٣

كان الفرع الثالث الذي يطلق عليهِ اسم ملقي وهو الآخذ مبدأهُ من شبه جزيرة ملقا منتشرًا قديماً حتى الغانج وفي قسمٍ كبير من الارخبيل الاسيوي وان هذا الفرع الذي قد نما في يومنا الحاضر بتناسلهِ مع الفرع المغولي قد عمَّر ارجاءً عظيمة الاتساع نظير جزائر

سوماترا ، وجافا ، وسيليب ، وتيمور ، وبورنيو ، وجميع الارخبيل الهندي ، وجزائر آلوتيان . بحيث كانت سكان هذه الجزر عقدة الاتصال بين الفرع الملقي والفرع الامريكي . ويصح ان يلحق بهذا الفرع ايضاً جميع شعوب جزائر ملقا من جزيرة سوماترا حتى اوتايتي لا سيما وان جميع اللغات الدارجة في هاتيك الارجاء تختص جميعها بالطائفة الملقية

٤

يعدّ الفرع المغولي اوالصيني هوالرابع في سلّم الارتقاء وهوالاكثر تقدماً من الفروع الثلاثة المتقدمة عليه . وكذلك هو مصدر الانسان الابيض الذي استحق بالنظر الى تركيبه الطبيعي والعقلي ان يشغل الدرجة العليا من المرقاة البشرية (١)

ينتشر النوع الاصفر في جميع بلاد المغول ، وفي بلاد التتر ، الشرقية وفي شرق الغانج ، وجبال بيلور ، وفي الطونكان ، والبيغو ، وفي بلاد سيام والبيرمان ، وفي صحراء اسيا الوسطى حيث يقيم قوم الكالموك وجملة

---

(١) لقد انتفى هذا المبدأ على اثر الحرب الروسية اليابانية بحيث ظهر للملأ عموماً ان النوع الاصفر يعادل الابيض تمام المعادلة وهو اهلٌ لأن يجاريه في العلوم الفنية والعقلية على السواء . وهذا ينفي الاعتقاد الذي كان سائداً حتى الآن على فكر علماء الطبيعة بانحطاط الانسان الاصفر عن الابيض

قبائل من التتر أيضاً ، وجميع شعوب سيبريا الشرقية . الاَّ ان القسم الاكبر من هذا الفرع والذي هو اكثر تفنناً وأوفر ذكاءً هم الصينيون والهند الصينيون واليابانيون (١) وان الصينيين بنوعٍ أخص هم الشعب الاعرق في العلم والمدنية . ثمَّ قوم اليابان وكوريا وجزائر ماريان والفيليبين وكارولين وجميع باقي الاراضي التي تمتد من اول هذه الجزر حتى الدرجة ١٧٢ طولاً هي مأهولةٌ بالنوع الاصفر وان لونهم هو أقل أو اكثر اغبرارًا بالنظر الى الجهات المختلفة الاقليم التي يقيمون فيها . وهم يتقاربون بمدنيتهم من بعضهم البعض . وان اللغات المتداولة فيما بينهم هي الصينية والتيبتية والكورية واليابانية وهي من اللغات ذوات المقطع الواحد

القسم الثالث

في النوع الابيض او القوقاسي (انظر الرسم ٩)

الفرع الاول	الهنود	والفرس
» الثاني	الاسكتّيون	والتتر

(١) لقد فاق مؤخرًا اليابانيون جميع الاقوام المنتسبين الى النوع المغولي وذلك بما احرزوهُ من المدنية والعلم حتى انهم يفوقون في الوقت الحاضر كثيرًا من الشعوب المنتسبين الى النوع الابيض القوقاسي.

الفرع الثالث	الاراميون	والعرب
» الرابع	البلاسجة	واللاتين

الرسم ٩

انهُ بالنظر الى السياق المتعاقب وهو من التركيب الاقل كمالاً الى التركيب الاوفر ارتقآءً الذي تجري عليهِ الطبيعة في جميع تراكيبها قد اقتضى لذلك ان النوع الابيض يعقب النوع الاصفر

أما النوع الابيض الذي يدعوهُ جميع علمآء الطبيعة بالنوع القوقاسي فانهُ يميّز عما سواهُ ببياض اديم بشرتهِ، وشكل هامتهِ البيضوي وارتفاع جبهتهِ، ومركز محجريهِ الافقيين، وأنفهُ الشاخص والمستوي وبزاويتهِ الوجهية ذات خمس وثمانين حتى تسعين درجة . ومن ثمَّ بمدنيتهِ التي فاقت كثيرًا مدنية باقي الانواع

يشغل النوع الابيض الاقسام الوسطى من الارض القديمة وهي اسيا الغربية وافريقيا الشرقية والشمالية وما يقارب مجموع اوربا . ويقسم ذلك الى جملة فروع قد اشتبكت الاخيرة منهـا حتى عاد

يعسر اعادتها الى فرعها الاصلي . الاّ اننا سنبذل غاية جهدنا في ايضاح ذلك وايجازهِ على قدر المستطاع

١

يعدّ الفرع الهندي هو الاول من النوع القوقاسي وهو الذي ينازع النوع الصيني بحقٍ لسبقهِ اياهُ في مضمار الحضارة . وهو يشمل جميع امم الهند التي تشتق لغاتها العديدة من اللغة السنسكريتية وهي لغةٌ عريقةٌ بالقدم قد اصبحت اليوم في عالم الاموات واحتسبت نظير لغةٍ مقدسة . وان لها نسبا طفيفاً باللغتي اليونانية واللاتينية وان الذين يختصون بهذا الفرع أيضاً هم شعوب الفرس والاراميين وقوم الاوسيت إذ توجد علاقاتٌ بين لغتهم ولغة البلوي والبارسي

٢

أما الفرع الثاني فمنهُ الفرعان الاسكتّي والتتري وكان الفرع الاسكتّي يمتد قبلاً فوق جميع سرماسيا وداسيا من شطوط نهر الفستيل حتى مصب نهر التانايس ، وعلى امتداد بحر البلطيك حيث كان يقيم قوم الڤينيد ، وفي سفح جبال كربات حيث كان يقيم قوم البستارن ، وفوق البالو ميوتيد ، وفي جميع الارجاء التي يرويها نهر الدنيبر والتيراس . وان هذا الفرع يمتد أيضاً في جهة الاوكران التي يقيم فيها قوم الروكسول الذين منهم أخذت روسيا تسميتها . وأيضا في

الجرسونس الطورية على شطوط البحر الاسود وفوق جميع الشط الشمالي لنهر الطونا . وقد احدث هؤلاء الشعوب فيما بعد الروسيين المسكوبيين والبولونيين والبوهيميين . . . . وجميع الشعوب التي ترجع لغاتها الى اللغة السلافية

كان الفرع التتري قد استولى على بلادٍ واسعة في اسيا وعمّر جميع الاراضي المتسعة الكائنة بين روسيا وكامشاتكا . وهي مسافة تقارب ثلاثة الاف وستماية ميل . وهو يشمل أيضاً الفينيين وهم قوم مستحدثون من الدم الاسكتّي والتتري . وكانوا يقيمون خصوصاً في الجهة الشرقية من بحر البلطيك وشمال روسيا وسيبريا وجبال اورال حتى تخوم نهر ينيساي . لا سيما وان المجر والتركمان قد يغلب ان يكونا فرعين قد تفرّعا من الاصل الفيناوي وفقد نسبهما

أما الفرع التتري فلا يختص جميعهُ بالنوع القوقاسي بل انهُ يوجد في بعض اصنافهِ امتزاجٌ باللون وهي الصفة الانتقالية من النوع الاصفر الى الابيض . ومن هؤلاء التتر الرحّل الذين يتنقلون بين بحر الخزر وشطوط الايريش . ومنهم أيضاً قبائل بحر الاسود وجبال التيبت وهؤلاء يتشابهون بقامتهم ولونهم وملامح وجههم بالنوع الصيني . ويجب أيضاً ان يُحذف من النوع القوقاسي قوم الكالموك وشعوب داغستان وسكان الاراضي الكائنة تحت الدرجة السادسة عرضاً والمغول الفاتحون قديماً بلاد الصين الذين يشابهون بملامحهم النوع المغولي

٣

يشمل الفرع الثالث المسمى أرامي الاشوريين والكلدانيين والعرب والفينيقيين والمصريين والعبرانيين والامم السريانية واقوام خراسان وسائر الشعوب الذين تكلموا اللغاب السامية . ويشمل من ثمَّ الكرج والجركس والارناؤط الذين يضرب المثل بجمال منظرهم و بضاضة ملامحهم واخصهُ النسآء منهم . وان كثيرًا بين هؤلآء الشعوب ذوو بشرةٍ سمرآء والبعض منهم صفرآء الاَّ ان هذا التلوين هو نتيجة فعل النور وتأثير حرارة الشمس . ذلك لان الاشخاص الذين يعيشون محتجبين يحفظون لونهم الابيض وسيمآء نوعهم وخصائص مزاجهم

٤

ويشمل اخيرًا الفرع الرابع من النوع الابيض جميع البشر الذين هم من الاصل التيوتوني القلتي المنتشرين من خليج فنلاندا حتى اواسط اوربا . وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية والقلتيّة والكيمرية. وان لغة البابريتون ما هي الا خليطٌ باقٍ من اللغة القلتيّة وكذلك يوجد في لغة الباسك كلمات لا عداد لها من اللغة الايبرية القديمة ولغة الكنتابر

وقداختلط القلتيّون بالصنف القوطي في اثناء نزاع قوم السمبر والتيتون حتى انقسام قوم القوت الغربيين والسكسون والهون وغيرهم وجميع الاهالي الذين خرجوا من احراج سكنديناويا والجرزونس . أما الشعوب الاكثر شهرةً الذين انتهم الفرع الرابع لاشك بان مخرجهم كان من الفرع البلاسجي . وهؤلاء هم اليونان والرومان وهم الشعبان اللذان قد اشتهرا بمنافع حروبهما وواسع فتوحاتهما وفرط ذكائهما وهما اللذان اكثرا من المستعمرات وبسطا سلطتهما فوق مساحةٍ واسعة من الارض واستخدما علومهما وفائق آدابهما ليطفأا بها شعلة البربرية وينشرا انوار العرفان في كل حدبٍ وصوب . واننا لمدينين لهما بالعلوم والفنون ومنافع المدنية العصرية فلا يسعنا سوى الاقرار باسبقيتهما في مضمار الارتقاء والثناء عليهما مدى الدهر. أما اللغة العربية (١) والبلاسجية فقد كانتا أمًّا لليونانية واللاتينية . ومن هاتين اللغتين قد اشتقت التليانية والبورتغالية والاسبانية والفرنساوية وباقي لغات الباتوى المختلفة التي اشتقت منهما

ولسنا في حاجةٍ لان نخوض بحر الملاحظات السياسية والشؤون الادبية التي ليست من اختصاصنا . بل اننا نختم هذا الفصل بتلخيصنا الصفات الرئيسية التي تستخلص من ملامح الشعوب بوجهٍ عامّ فنقول :

مما لا مشاحّة فيهِ انهُ بمقدار مايكون الوجه عريضاً ، والملامح

(١) هكذا في الاصل

منبسطةً متساوية ، وبوز الفم مستطيلاً ،والجمجمة ضيقة . بمقدار ذلك يزداد الجهل وتكثر الغباوة . وبعكس هـذا التحديد تتسع المدارك ويكثر الافتكار ويتوفّر التصوّر . وبناءً على ذلك يشار الى النوع الزنجي بالبلادة والغرائز الحيوانية التي تفوق قوى التعقل . ويُعبر عن النوع الاصفر بالبلادة وعدم الحركة . إذ ليس لهُ الاستعداد الكافي ليرقى درجة المدنية السامية . لذلك يظل مقيماً في مكانهِ بدون ان يجهد نفسهُ ويحرّك ساكناً [1] أما النوع الابيض فيعبر عنهُ بالذكاء والنشاط وأنَّ لهُ الافضلية على من تقدمهُ باستعدادهِ الفطري وأهليتهِ لاحرازهِ قصب السبق في الكمال . ونظرًا لبقعة ارضهِ الثمينة وما لها من المركز الجغرافي يحفظ لنفسهِ حتى يومنا الحاضر الدرجة العليا والمقام الاسمى في سلّم البشرية

وهكذا كانت ولم تزل الانواع البشرية سائرةً على هـذا النمط ومنتهجةً هذه الخطة الى ان يطرأ عليها تعاقب اجيال عديدة يتوصّل فيها الانسان الى درجةٍ اسمى بالكمال المادي والعقلي . أو ان يحصل انقلابٌ عامّ في محيطنا تتحسن بهِ الحياة الحيوانية أو يضيق نطاقها أو تباد من وجه الكرة الارضية

---

(١) لقد قوّض اليابانيون كما ذكرنا قبلاً اركان هذه القاعدة وقضوا ببطلان امرٍ حيوي طبيعي كانت اوربا تعتقدهُ كل الاعتقاد

الفصل الثالث

﴿ في نمو الانواع البشرية ﴾

وهو يشمل الاسناف الناتجة من تأثير المحيط وتباين عادات واخلاق الشعوب على اختلاف نزعاتهم وضروب اشكالهم

ان لون الانواع البشرية هو أحد الاشكال الذي يتمّ حصوله بالضبط بدون تغيير ولا نقصان . ذلك انهُ كلما حصل القران بين شخصين من ذات النوع فاللون ينتقل بذات صبغتهِ من غير ان يشوبه تغييرٌ أو يطرأ عليهِ اختلاف . أما اذا كان الوالدون من انواعٍ مختلفة فيأتي لون الاولاد مشتركاً بين الآباء والامهات . وقد اثبتوا بالنظر الى هذا الناموس العامّ ترتيباً للاصناف الحاصلة من اختلاط انواع البيض بالسود وهو كسلّم قياسيّ يستطيع المطالع ان يلمّ بهِ من النسق الآتي :

الوالدون	المولود	درجات المزيج
ابيض واسود	خلاسيّ	١/٢ ابيض و ١/٢ اسود
ابيض وخلاسيّ	ثلث خلاسيّ	٣/٤ ابيض و ١/٤ اسود
اسود وخلاسيّ	ثلاثة ارباع خلاسيّ	٣/٤ اسود و ١/٤ ابيض
ابيض وثلث خلاسيّ	خمس خلاسيّ	٧/٨ ابيض و ١/٨ اسود
اسود وثلث خلاسيّ	خمس وثلث خلاسيّ	٧/٨ اسود و ١/٨ ابيض
ابيض وربع خلاسيّ	خمس خلاسيّ	١٥/١٦ ابيض و ١/١٦ اسود
اسود وربع خلاسيّ	خمس خلاسيّ	١٥/١٦ اسود و ١/١٦ ابيض

وعليهِ اذا اقترن النوع الابيض بالاسود . أو بعكسهِ اذا اتحد الاسود بالابيض فالنسل الذي ينتج من ذلك يكون خلاسيًّا . واذا تمَّ القران بين خلاسيين فانهما ينتجان اولادًا ذوي لون اكثر صحاوةً واوفر بياضاً . وكذلك مطّردًا حتى ينحل اللون تماماً ويرجع الى الشكل القوقاسي ليمثل النوع الاكثر كمالاً في الجنس البشري

يزعم المحققون بان آخر نسلٍ من الخلاسيين فضلاً عما يكون قد اكتسبهُ من البياض وما حاكى بهِ النوع القوقاسي في جميع ملامحهِ وسائر اوصافه مع ذلك توجد فيهِ دلائل تشير الى وجود مزيجٍ في دمهِ يرجع بهِ الى اصل سلالتهِ

لايجري الخلاسيون دائماً على التعاقب وعلى وتيرةٍ واحدة . بل يجوز ان يختلف واحدهم ويتقلب على غير قاعدةٍ قياسية . أو انهُ يتغلّب لون نوعٍ على الاخر . أو في بعض الاحيان ان ينتقل احد

اللونين وحده . واليك الامثال الآتية التي اثبتها العلامة بروسبير لوقا في مقالهِ العلمي عن الوراثة الطبيعية فهي اكبر برهان على ما تقدم

كانت امرأةٌ باريسية شديدة الشقار تحترف خياطة الصدريات وهي زوجة زنجي بحت العنصر . رزقت منهُ على التعاقب ثلاثه بنين كان لون المولود الاول نظير والدهِ تماماً وجاء الثاني خلاسيًّا والثالث صافي البياض ذا شعرٍ اشقر ضارب الى الحمرة

يبرهن الانسان بكيانهِ عن تأثير المحيط العائش هو فيهِ . وذلك اذا أقام نوعٌ من الانواع تحت سماءٍ غير سماء مسقط رأسهِ لابدَّ من ان تلحقهُ تغيراتٌ مهمة في تركيبهِ الطبيعي والعقلي معاً . أو قد يجوز ان لا يتغير شكلهُ على الطريقة المطّردة . مثال ذلك : اذا جاءت الطواريء (المستعمرون) الشماليون وأقاموا في المنطقة الجنوبية يفقدون بعد مرور مدةٍ من الزمن مزاجهم اللمفاوي أو الدموي ليكتسبوا المزاج الصفراوي

قصدت اسرتان هولنديتان الاقطار الهندية واتخذتاها موطناً لهما ولم تكن تقترن اعقابهما الا على التبادل بينهما . فحدث فيما بعد ان منهم من اصبحوا ذوي مزاجٍ يشابهُ مزاج السكان الوطنيين . واذا تفرّعت هاتان الأُسرتان فيما بعد ونشأ عنهما شعبٌ . فما لا مشاحة فيهِ ان هذا الشعب يصبح مخالفاً كل المخالفة للامة الهولندية بالنظر الى تركيبها الطبيعي

تتغير بعض اعضآء الجسم عند الامم بالنظر الى العادات المتبعة عند كل فريق منهم كجذب برعام الاذن ، وبسط الانف ، واطالة الرأس . وكذلك حصر القد بواسطة المشد حتى ينتهي الامر اخيرًا الى ان يتغير شكل هـذه الاعضآء وتتكيّف تكيّفاً جديدًا . فالعرب سكان البادية الذين يشدون رؤوسهم بعددٍ من العصائب الصوفية تشاهد رؤوسهم مستطيلة نظير بطيخة القاوون . وان في عرف ابيوقراط الحكيم اليوناني ان الشعوب المتاخمين للبحر الاسود وبحر مرمرا لمَّا كانوا قد اعتادوا ان يشدوا رؤوس مواليدهم فقد تأصّلت فيهم هذه العادة من جرآء استمرارهم عليها حتى اصبحت رؤوس هؤلآء الاقوام مستطيلة

ولقد دهش العالم بالأمس في اثنآء رحلتهِ الى طوريد[١] من استطالة قذال[٢] اهالي هاتيك الارجآء . وكان قوم الاومانيا[٣] يشدون بين لوحين رؤوس مواليدهم . وقد احتوى الكندامين[٤] على رسم تلك الاوائل التي كانت تستعمل لهذه الغاية . فكانت هذه العـادة منتشرةً في غالب امريكا . وقد ارتأى العالم اڤيدو انهُ كانت تقتضي لذلك جمعيةٌ تأخذ على عاتقها ابطال هذه العادة الذميمة واستئصالها من بلاد امريكا الاسبانية دفعاً لما ينتج عنها من المضـار وحباً بخير

---

(١) ولاية في روسيا الجنوبية (٢) القذال مؤخر الرأس

(٣) اسم قديم لبعض شعوب من هنود اميركا عاصروا فتوحات الاسبانيول (٤) مجلة مشهورة حاوية لمثبتات العلوم

الانسانية . وما عدا ذلك فقد كانت هذه العادة الغريبة في بابها التي من مقتضاها عجن رأس المولود ورقهِ موجودةً في سوماترا وجزائر نيكوبار وفي كثيرٍ من الجهات الأُخر

انما اتصف بهِ فريقٌ من النسوة الصينيات الاريستوقراطيات بثخانة وقصر ارجلهن هو نتيجة وضع الامهات ارجل بناتهن عند مولدهن في حزآء معدنيّ يحول بين نموّ الرجل طولاً ويساعد على نحن نموها عرضاً الامر الذي نستكرههُ نحن ويستحسنهُ الصينيون الاريستوقراطيون. الا اننا وان كنا قد رقينا اسمى مراقي الحضارة وبلغنا الشوط الاول في المدنية فاننا نضحك ونتأسف في الوقت ذاتهِ من هذه العادات المطبوعة بختم البربرية ونفعل تلك العادة الاكثر منها وحشيةً والاشد مضرّة الموجودة بين اظهرنا ألا وهي ما يُعبر عنها بالمشدّ . هذا الملبوس المهلك من اختراع الباريسيين الذي يتهدد جميع الشعوب الذين ينزعون الى استعمالهِ ويدخلونهُ في مصاف ازيائهم وملبوساتهم

فالمشدّ المحشو بالقطع الصلبة من معدنيةٍ وخلافها يذوي البنية بالضغط والتضييق ويجعلها رخوةً واحياناً متصلبة . وهو اكثر مضرّةً واوفر خطرًا من الحزآء الصيني بحيث انهُ يجلب في غالب الاحيان الضعف ويسبب كثيرًا من الامراض المهلكة ويفتح باب اللحد الى نساءٍ كثيراتٍ لم يزلن في شرخ الصبا وغضاضة العمر . لا سيما وان المشدّ لا ينحصر ضررهُ في حاملهِ فقط بل انهُ يضني

الجنين في احشآء امهِ وكثيرًا ما يشوّه خلقتهُ ويضر النوع البشري عموماً . فما قولكنَّ ايتها السيدات المشدّدات هل تحسبن اننا نبالغ في تعداد مضار المشدّ وما يتأتى عنهُ من الادوآء . راجعنا اذا كنتنَّ ترغبن لفيف الاطبآء ورجال العقول الراجحة . فهؤلآء يوضحون لكنَّ جليًّا انهُ ليس المشدّ يضر فقط صحتكنَّ بل انهُ يشوه منظركن ويشنع خلقتكنَّ

لقد طفق يظهر في الانواع البشرية اصنافٌ بادية للعيان وذلك بالنظر الى تنوّع اغذية الشعوب وضروب مشروباتها وخلاف تأثيراتٍ أُخر . ذلك انهُ من يوم ما ابتدأت الناس باستعمال التوابل كالبهارات وما سواها و بتعاطي القهوة والمشروبات الكحولية بافراطٍ في اكثر جهات اوربا الشمالية قد لاحظوا ان لون اديم البشرة ولون العينين والشعر قد اكفهرَّ وتبدّل عما كان عليهِ من اللون الاصلي . أما سكان القرى والجبال الذين قد اعتادوا على التغذي بالالبان والدقيق والخضر فقد ظلَّ لونهم الاشقر ثابتاً كما كانوا عليهِ من ذي قبل . وعليهِ فالنسآء الاسياويات اذ يرمن تبييض لونهن تلقاهن يتجنبن الشمس ويقمن مداتٍ من الزمن في فيء الاشجار ويمتنعن عن التوابل والمواد البهارية

تتأتى بعض الامراض المحليّة امَّا عن المياه والاغذية وامَّا عن خصائص احوال ذلك المكان . وفي وسعها تحوير الشكل الانساني واحداث صنفٍ جديد ينسج في تناسلهِ على منوالٍ واحد ويلازم لهُ

صفةً معيّنة . ولقد ذكر بيفون ان سكان جزائر القديس توما يؤلفون صنفاً من البشر غليظي الارجل ضخام السيقان . ويُشاهد نظير هذا النموّ الغريب في الاطراف السفلى في بعض شعوب المصريين والعرب واليهود الذين يقيمون في الوديان الرطبة المحجوزة الهواء . ثم انهُ يسمى بالمرض الفيلي ذلك النوع من الجزام الذي يتأصل في بعض الاسر . وان السكان الاصليين في بعض جزر أستراليا الذين يدخلون في طعامهم نوعاً من التربة الدهنية والتي منها يأخذون اسم أكلة التراب تشاهدهم ذوي بطون ضخمة تشابه بطون الحوامل في آخر شهر الحمل . وكذلك المعتوهون ، واصحاب السوداء ، والميلانخوليا ، والحُسُب ، واصحاب الغدد الحلقية . تستمر تلك العلل متفشّيةً فيما بينهم بالنظر لانقيادهم الى المسببات التي تتولد منها . وسنتكلم فيما يلي عن هذه الاضرار المختلفة الكائنة في المخلوقات البشرية

القسم الاول

في الوراثة الفيزيولوجية

قبل ان نأخذ في سرد تاريخ البعض من بني الانسان المخالفي في تركيبهم الطبيعي للخلقة البشرية إما لنقصٍ أو زيادةٍ في تركيب بنيتهم لابدّ لنا ان نطلع القرآء على نواميس الوراثة الفيزيولوجية

لان معرفتها توضح لهم باجلى بيان الاسباب الداعية لوجود الهول أي شواذ المخلوقات

اصبحت اليوم نواميس الوراثة الطبيعية في العالم الحيواني التي كان يتداولها العلماء الاقدمون حقائق راسخة عند الفيزيولوجيين العصريين وهم يرون ان سير هذه النواميس وان يكن غامضاً في كثيرٍ من الاحوال الا ان ضياء العلم لا بدَّ من ان ينير باشعتهِ سُبلها ويجعلها واضحة المنهاج

ففي تسلسل المخلوقات الحية ينقل الوالدون بالطبع صفات تركيبهم واطوار خُلقهم الى النسل المولود منهم . فضلاً عن ان هؤلاء بحكم الضرورة يرثون صفاتهم واخلاقهم عن مورثيهم . ولهذا فالصفات الموروثة التي لاتتغير بالاكثر هي ما كانت مختصةً بالنوع والشكل واللون الخ . . . وأيضاً الصفات الثانوية التي تكتسب من تأثير المحيط والاغذية والعادات . . . . وهي نظير الجمال والبنية والشكل والقوى والعزم . وبمثلها أيضاً الضعف والنقص في التركيب والعلل فهذه جميعها تنتقل بصورةٍ عمومية أي بدون ان تتبع دائماً خطةً مستقيمة في اشكالها . إذ يمكن ان تتجاوز عقباً أو في بعض الاحيان عقبين وتظهر في العقب الثالث . أما الصفات الثانوية المكتسبة من الوالدين اذا ظهرت في جملة اعقابٍ فتصبح ارثيةً لا محالة . واذا زالت فيما بعد فلا بدَّ من ان يكون سبب ذلك متأتياً عن مساعدة الظروف التي منها تغيير الاقليم واختلاف المواد الغذائية وحالة العيش الطبيعية

وخلاف تأثيراتٍ أخرى . ثمَّ انهُ فضلاً عن دروس الفيزيولوجيين العصريين وما احرزوهُ من النجاح الباهر في ابحاثهم ومكتشفاتهم ان العالم المحقق الذي يتبع خطوةً فخطوة سير الوراثة الطبيعية يفقد احياناً أثرها في نسلٍ ويجدهُ في النسل التالي لهُ . وذلك بدون ان يستطيع كشف السبب واظهار هذا الغامض الخفي . وما هذا الا نقصٌ يجب تكميلهُ ويقتضي لهُ دروسٌ طائلة ومباحث غويصة هي في منتهى الخطورة والاهميــة

اذا ما أعار المرء نظرًا دقيقاً الى سياق الحوادث التي تصحب ولادة المخلوقات الحيّــة يشاهد أولاً ان الانثى حائزة على اعضآءٍ كافية لاستحالة البيضة النامية . ثمَّ ان هذه الاستحالة لا تحصل الاَّ بافراز بعض السوائل التي لابدَّ من ان تأخذ الاستحالة بعض صفاتها. وكذلك من جهةٍ أُخرى أن نطفة الذكر المولّـدة هي أيضاً استحالة من سوائل تُـفرز منهُ وتشترك فيها صفاتهُ . فاذا كانت البيضة التي هي مبدأ المخلوق والنطفة التي تهبهُ الحياة ناضجتين تمام النضج فالنمو يكون جيـدًا والمخلوق المولود يأتي متمتعاً بتركيبٍ حسنٍ وجسمٍ صحيح وبالعكس اذا كانت صفات البيضة والنطفة المولّـدة ضعيفة ودنيئة فالمخلوق العتيــد وضعهُ يجلب معهُ علامات هذه الدناءة وصفات ذلك النقص

القسم الثاني

﴿ في وراثة الخلق الشاذ ﴾

ان الوراثة المختصّة بالخلق الشاذ الغير المألوف كضخامة البنية أو تشوّه المنظر أو بعض عللٍ مكتسبة من الوالدين لا شك بانها صحيحة لكنها لاتجري على وتيرةٍ مطّردة وقاعدةٍ معلومة . ذلك لان النقص في التكوين وانواع العلل وضروب العاهات بوجهٍ عام لاتصير ارثيةً في البشر الاّ متى اصبح السبب المتأتية عنهُ متوالياً في اعقابٍ من ذات الأُسرة . أما الخلقات المشوّهة والادوآء الحاصلة من عارضٍ ما فهذه لاتنتقل الى الخلف اصلاً

أما اذا كانت العلة أو النقص اللذان كان مبتلىً بهما الوالد يصيبان بطريق الصدفة النسل المولود منهُ في زمن حياتهِ فقد يعود من المحتمل ان تنتقل تلك العلة أو ذلك النقص الى العقب الثالث وهو الحفيد . ثم ان البنين الذين تنسلهم الاحفاد يكون فيهم أيضاً الاستعداد لمواصلتهم علة اجدادهم . ففي وجود استعدادٍ كهذا أي اذا كان الدآء قد اتصل بابن الحفيد فاذ ذاك يجوز لنا ان نحتم بان تلك العلة أو ذلك النقص أصبحا وراثيين في تلك الأُسرة لا محالة . ولنأتي الآن على ايراد بعض شواهد اكثرها مأخوذة من كتاب إكس

بروفسّو الاستاذ بروسبير لوقا بما يتعلق بالوراثة المرضية وهي :

كانت امرأةٌ تدعى أليزه ديف وكان فمها نظير بوز الارنب ولدت في سنة ١٨٤٤ مولودًا لهُ ذات الخلقة وقد علم ان أباها وجدها كان لهما عين هذا التشوّه الخلقيّ

كان شخصٌ من وجهاء قومهِ جليل القدر وكان ابن اسرةٍ أعضاؤها ضعيفي البنية . وُلد لهُ بضعة بنين بين ذكورٍ واناث كانت سلسلة الذكور الفقارية مستقيمة كما في باقي الناس عادةً أما الاناث ماخلا واحدة منهنَّ فقد كنَّ محدودبات

شذّ شخصٌ عن اسرةٍ فيها العرج ارثيٌّ ووُجد سليماً من هذا النقص لكنهُ وُلد لهُ ثلاثة بنين منهم ابنةٌ عرجاء وولدان مستقيما القامة

كانت فيكتوريا باريّ مولودةً بيدين ليس لهما اصابع وضعت سنة ١٨٢٧ و ١٨٢٩ ابنين لهما ذات النقص ماعدا ان كل يدٍ من يديهما كان فيها البنصر الاخير فقط . وفي كل رجل ابهامٌ واحد

وضعت امرأةٌ حامل في سنة ١٨١٩ توأمين اناثويين للواحدة منهما ثلاثة اثدي وللثانية شفراتٌ صغيرة نظير ما لنساء الهوتنتوت وقد قصت هذه المرأة على قابلتها ان جدها كانت لهُ ثندواتٌ عديدة وكان الطبيب ريشبرود قد عمل لها عمليةً جراحية وقطع منها شفرتين كبيرتين كانتا معارضتي فتحة الفرج

اخبر راعٍ شاب اشلّ منذ مولدهِ بان امهُ وجدهُ كانا متصفين

بذات النقص ولها عين الشلل

دخلت جوزفين كاموس احدى مربيات الاولاد الى المستشفى ليعملوا لها عملية جراحية . فحسرت للطبيب عن بطن مغطاة بشعر متلبد نظير جزّة النعجة . وقد ذكرت للطبيب المومأ اليهِ ان اباها كان لهُ هذا الخَلق الشاذ الذي آل لهُ بالارث عن والدتهِ (١)

ومما يجب ملاحظتهُ ان المدنية الراقية التي فيها بلوغ الاثرآء وتحصيل

---

(١) جآء في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار في ترجمة علي بن نصر الفقيه قال . زوّجتُ ايام عضد الدولة بن بويه بعض غلمانهِ الاتراك صبيةً في جوارنا كان لها ولوالدتها انسٌ بدارنا وكانت من الموصوفات بالستر والعفاف وقد مضى على ذلك سنتان . فحضر اليَّ الغلام التركي وقال يا سيدي هذه المرأة التي زوجتني بها قد ولدت مني ابناً ولا أشكو شيئًا من أمرها ولا أنكرهُ غير انها ساأرتني ولدي منذ ولدتهُ وكلما طالبتها بهِ دافعتني عنهُ واريد ان تستدعيها وتسألها عن ذلك . قال فاستدعيت والدتها فحضرت وخاطبتها من وراء الستر على ما قالهُ زوج ابنتها . فأسرّت اليَّ وقالت يا سيدي صدق فيما حكاهُ وانما منعناهُ عن هذا لاننا قد بلينا ببليةٍ قبيحة . وذلك ان زوجتهُ ولدت منهُ ولدًا ابلق . من رأسهِ الى سرتهِ ابيض ، وبقية بدنهِ اسود . قال فسمع التركي قولها ابلق فصاح ابني ابني وهكذا كان جدي في بلاد الترك وقد رضيت بهِ ففرحت المرأة بقولهِ وانصرفت واظهرت لهُ الولد

الرفعة واحراز الجاه هي النقط التي تحوم حولها الابصار وتتجه نحوها المساعي وتشتغل بها الافكار . فلهذا يُشاهد في تلك الحواضر العامرة عددٌ وفير من التراكيب الطبيعية التي تتشوّه وتراكيب خلافها مشوّهة تتصلح وتتحسن . وما ذلك الا لان علم الصحة بوجهٍ عامّ هو مهملٌ ومُقصّر عنهُ ولان الزواج لا يُعمل على الغالب الا بقصد الكسب والايسار لا للاتيان ببنين اصحآء اقوياء من فرعٍ صالح ومنبتٍ طيب

على اننا نخص من الادوآء الوراثية الاكثر اتلافاً للنسل والاشد فتكاً بالذرية الدآء الخنازيري والتدرّن الرئوي والكساح (١) والزهري المزمن أو الورائي والاسكربوط (٢) أو دآء الحفر والحبوب الجلدية المثقوبة (٣) والصرع أو دآء النقطة الخ . . . . إذ ان غالب هذه العلل الوبيلة يظهر مفعولها بالاكثر بالزواج الذي يعجل في دنوّ الاجل ويصرم حبل الحياة . لا سيما وان هوءلآء التعِسين يخلّفون من بعدهم نسلاً ضعيفاً ذوي اجسامٍ ضئيلة مشوهيّ البنية سيئيّ الخلق واليك برهاناً ذكرهُ لنا احد الاطبآء المحققين ورجانا بنوعٍ خاص ان نزيعهُ على رؤوس الاشهاد تنبيهاً للراغبين في الزواج وتذكرةً لقومٍ يعقلون

كان ابن أحد الكونتات . . . وهو شابٌّ ذو تركيبٍ نحيف مولوداً

---

(١) Le Rachitisme (٢) Le Scorbut
(٣) Les affections dartreux

من ذريةٍ مهزولة البنيــة من جرآء المخاصرة واحيآء الليالي بالسهر وحضور الروايات التمثيلية والحفلات الاجتماعية . الى غـير ذلك من الدواعي المنهكة القوى المضرة بالصحة الشائعة عند الطبقة العالية من سكان الحواضر . ولقد كانت اقاربهُ ومعارفهُ يلقبونهُ بالاهيف علاوةً على اسمهِ اوسكار لما كان عليهِ من النحافة المفرطة . أما البلوغ فانهُ لم يظهر فيهِ الاَّ متأخرًا عن الزمن المعتاد وبنوع انقص من الحالة الطبيعية ولما بلغ اوسكار سن الثانية والعشرين كان أقرب شبهاً بغلامٍ لهُ من العمر ثلاثة عشر ربيعاً . لاسيما وقد كانت ملامحهُ غير متناسبةً وشعرهُ نادرًا وظهرهُ محدوداً . ذلك ما كان يشير فيـهِ الى هرمٍ مستعجل وشيخوخةٍ قبل اوانها

أما الوسائل والاحتياطات التي كان يتخذها اوسكار لتحسين حالتهِ وتقوية بنيتهِ فكانت تذهب عبثاً وبدون فائدة . ذلك لان الخلقة السيئة المتخلق بها والتي آلت اليهِ بالارث عن والديهِ لم يكن في الامكان تحسينها . ولما بلغ اوسكار السنة الخامسة والعشرين خطر لهُ ان يقترن ويتخذ لهُ زوجة . وان ما يحرزهُ من الالقاب الرفيعة ومايمتلكهُ من الثروة الطائلة كل ذلك كان يؤهلهُ للحصول على جملة خطياتٍ من علّية السيدات ومن أشرف الأُسر . الاَّ ان طبيباً اورتوبديستاً (١) كان صديقاً لأُسرة اوسكار قد اجتهد كثيرًا في

(١) هو الطبيب الاختصاصي الذي يصلح الاعضآء المعوجـة للاولاد ويقومها

ان يقنع والدهُ ليحوّل فكر ابنهِ عن الزواج . لانهُ كان يعلم ان زواجاً كهذا لابدَّ من ان يعود بالمضرة على الشاب الاهيف ويكون وبالاً على نسلهِ من بعدهِ . ولما رأى ان معارضتهُ لهُ بامر الزواج لم تصادف قبولاً ولم تلاقِ اذناً صاغية . انقلب ينصح الكونت ليختار لابنهِ خطيبةً من الدرجة الوسطى تكون سليمة البنيـة قوية التركيب جديرةً بان تعادل بقوة تركيبها مانقص من تركيب الشاب المزمع على الاقتران بها . ولمّـا كان الدم الاريستوقراطي لم يزل سارياً في شريانات الوالد ومتحركاً في كل اليافهِ وعروقهِ فضـلاً عن جشعهِ الشديد للمال وتفانيـهِ في تكبير ثروتهِ وتكثير العقار والمقتنيات . لم يشأ الكونت ان يعمل بنصيحتهِ ويعتـبر بحججهِ وبراهينهِ بل انهُ كرّس على مذبح الطمع والانانية هنآء ابنهِ وسعادة نسلهِ العتيد . ذلك لانهُ قد اقترن اوسكار بفتاةٍ كونتسة عريقة المحتد متوفرة عندها الثروة لكنها مهزولة الجسم نحيفة البنية تحاكيهِ على التقريب شكلاً وتنطبق عليهِ مزاجاً . وقد حصل من هذا القران التعيس انهُ قد قد انتج الثمار المنتظرة . الامر الذي بعد ان دامت الكونتسة عقيمةً مدة اربع سنوات وضعت مولودًا ضئيلاً نحيفاً حتى خُيل للقـابلة وذويهِ انهُ قد أتى ميتاً بمقدار ما كان عليهِ من الضعف والهزال وكادت هذه الولادة تؤدي بحياة الام . ذلك لان المخاض قد استمرّ معها زمناً طويلاً وذاقت به ضروب الآلام والاوجاع . ثم حملت الكونتسة ثلاث مرارٍ اخر كان ثمرها ضعيفاً هزيلاً . لا سيما

وان آخر مولودٍ حملت بهِ وضعتهُ سقطاً . ومن ذلك الحين حدث تغيير في حالتها وطفق الضعف يفعل فيها مفعولهُ وينهك قوتهـا شيئاً فشيئاً . وقد كابدت في مدة سنتين مضض الاوجاع وتباريح السقام وأخيرًا ذبل غصن شبابها وانطفأ ضياء حياتها نظير مصباحٍ نفـدت منهُ المادة المشتعلة . أما اولاد اوسكار الثلاثة الذين كان اكبرهم سناً قد بلغ الثامنة من عمرهِ فانهُ لم يحصل تحسينٌ في تركيب جسمهم . ففي هـذه الاثناء أخذت علامات الضعف والانحطاط تظهر في الواحد تلوَ الآخر . وكذلك كان عامودهم الفقاري ينحني ويتقوّص وملامحهم تزداد دمامةً وقبحاً . وبعد ان عاشوا بضع سنواتٍ على هذه الحالة انصرم حبل حيـاة كلٍّ منهم عقب الآخر . نظير والدتهم بالهزال والانحطاط ولم يعش والدهم من بعدهم الا زماناً يسيرًا . بحيث ادركتهُ الوفاة في سن الواحدة والثلاثين على أثر ماحلَّ بهِ من الهرم . وهكذا قد اطبق اللحد على هذه الاسرة المنكودة الطالع التي لم تظهر سوى مدةً قصيرة على وجه هذه الغبراء لتستنشق نسيم الاسى وتحسو كؤوس التعاسة

ولقد اردف على ذلك الطبيب السالف الذكر حادثة تخالف الاولى وتناقضها من كل الوجوه وهي انهُ في استطاعة الوالدين تحسين نسلهم وترقية خلفهم من بعدهم اذا هم عقدوا زواجهم طبقاً للشروط المقتضية وساروا بهِ حسب القوانين الفيزيولوجية

بلغ تيودور سن الثلاثين ولم يحفـل بالزواج ولم يخطر لهُ خاطر

بشأنهِ ذلك انهُ لنكد طالعهِ كان رجلاً نحيف البنية ضعيف التركيب لم يرث عن والديهِ سوى الهزال والصحة الضئيلة . وكان المذكور ذا ذكاءٍ فطريّ ادرك بهِ بالبديهة ان تركيبهُ الطبيعي لم يكن ليساعدهُ على التمتع بهناء الزواج . ولما كانت رغبتهُ في الحصول على ثمار البنين عظيمة وميلهُ العيش في وسط اسرةٍ اعظم فقد اشتدت فيهِ اخيراً تلك الرغبة وعظم فيهِ ذلك الميل حتى انهُ صمم النية على الاقتران واختيار شريكةٍ لهُ في هذه الحياة الدنيا . وعليهِ قد همّ في الحال ليستشير طبيبهُ بمرغوبهِ هذا . ولما التقى بهِ وبسط لهُ امانيهُ اخلص الطبيب لهُ في النصح واوضح لهُ الخطة التي يجب عليهِ اتباعها في هذه الحالة . فتقبلها منهُ تيودور بكل رغبةٍ وارتياح وسار بموجبها حرفاً بحرف

ذهب تيودور الى احد الارياف وانتخب لهُ زوجةً تناهز سن الرابعة والعشرين حسنة القوام ممتلئة العضلات ممتلكةً من الصحة اتمها ومن العافية افضلها . واذ قد توفرت فيها الاسباب التي اشترطها عليهِ طبيبهُ عقد عليها قرانهُ واختصها زوجةً لهُ . وهكذا لم تمضِ عشرة اشهرٍ على يوم زفافهِ حتى رزق منها مولوداً جميلاً يشاكل والدتهُ بحسن البنية وصحيح التركيب . ولقد ولدت لهُ بعد ذلك ولدين آخرين هما اجود صحةً واكمل بنيةً من ابنهِ البكر . لكنهُ مما يجب ملاحظتهُ ان تيودور كان قد اتّبع حرفياً القانون الذي يجب ان يتبعهُ كل من يرغب في الحصول على ذريةٍ جيدة وسلالةٍ صحيحة . اذ قد ظلّ شهراً بتمامهِ محافظاً على اسباب العفاف وعلى تناول الاغذية المقوية . ولما اصبحت

قرينتهُ حاملاً كان قد امتنع بالمرة عن كل مداعبةٍ غرامية وانشراحٍ شهواني من مقتضاهُ اتعاب الجنين والتقليل من نموهِ

على انهُ اذا وجّه المرء نظرهُ نحو الوراثة المرضية يراها اوسع نطاقاً من حلقة وراثة تشوه الجسم وشواذ الخلق . لا سيما وان غالب الادوآء العضوية والامراض المتأصلة في الامزجة وهي نظير التدرن الرئوي ، والالتهاب الجلدي (١) ، ونفث الدم (٢) ، وتضخم احد الاعضآء (٣) الخ . . . والزهري ، والسرطان ، والحزازات (٤) ، وخلاف كلفٍ جلدية فهذه تتسلسل من الابآء الى الابنآء . واخصهُ الادوآء العصبية المختصة بالهضم والتنفس والدورة الدموية التي تنتقل بحالةٍ محزنة للغاية . وبمثلها ايضاً الادوآء العصبية التي منها الهيستريا والصرع والسوداء وكثيرٌ من الامراض العصبية التي هي العدوّ الالدّ للمزاج العصبي . ويليها التغفل العقلي ، والتعته ، والجنة ، والسرسام ، التي تتحقق فيها الوراثة كثيراً

على ان التبسّط في مثل هذه التفصيلات تجاه عينيّ المطالع ما هو الاَّ نظير جدولٍ قد خطّت فيهِ نكبات الانسانية وويلات الطبيعة . الامر الذي يتألم منهُ الشعور وينكمش لهُ الفؤاد . لكنهُ من الجهة الاخرى فيهِ اصلاحٌ وتعديلٌ للوراثة المرضية . ذلك ان قانون الصحة الطبي هو المصلح الوحيد لتلك العاهات والناقل الوحيد للصفات الحسنة والاحوال الصحيحة المتصفة بها الاعضآء السليمة . فهو يعلّم الانسان

---

(١) La phlegmasie (٢) L'hemoptysie (٣) L'hppertrophie
(٤) Les dartres

كيف يعدّل السلالة الهزيلة والوراثة المشوبة بالنقص . وذلك بواسطة التناسل والتغذي والرياضة والتعويل على التعاليم المفيدة المفصل عنها في قانون صحة الزواج بحيث انهُ بمزاولة هذه التعاليم والجري على تلك القوانين يتوصل المرء بواسطتها الى ابادة الوراثة المرضيـة واتلافها والتعويض عنها بتركيبٍ جيد واعضآءٍ سليمة . وبناءً على ذلك ان اكبر نعمةٍ يسبغها علينا قانون الصحة هو امكان ابادة شوائب الخَلق واصلاح ما فسد من تراكيب اجسام البشر

وتشبه السلالة المرضية ايضاً وراثة الصفات الحسنة الموجودة في الوالدين . فاذا كانت هذه الصفات الطبيعية الحسنة تنتقل من السلف الى الخلف فبالاولى ان الاميال والصفات الادبية على اختلافها وتنوعها تنتقل هي ايضاً نظيرها . ذلك لانها في مجمل الامر ما هي الاّ نتيجة ما تمارسهُ الاجهزة وتزاولهُ الاعضآء . فالانسان ونظيرهُ الحيوان ايضاً يمتثل لفعل التأثيرات الرياضية التي يتصف بها المحيط الذي يولد فيهِ ويعيش في وسطهِ . بحيث انهُ يتكيف تركيبهُ من جرآء هذا التأثير نفعاً كان أو ضراً . ثمَّ انهُ بواسطة زرع السلف الاصلي تنتقل الى خلفهِ التعديلات التي يكون قد اكتسبها وتخلق بها

القسم الثالث

﴿ في التطبع المادي والادبي ﴾

لقد بلغنا الآن موضوعاً خطيراً جليل القدر و بمنزلٍ من الاهمية يتوقف عليهِ خير الانسانية ونفع الهيئة الاجتماعية عموماً . وهو انهُ اذا نهج الناس خطة التربية الطبيعية والادبية معاً ألا يكون من الممكن ان تنتقل الصفات الحسنة الى الخلف وتتلف وتباد الصفات التي تضر بالجنس البشري ؟ هذا وايم الحق سؤالٌ يظهر للمطالع بيانهُ باوضح جلاء اذا تدبر المسائل الآتية واعمل رويّتهُ فيها

اولاً — تحسين التراكيب الطبيعية المختلّة وجعلها ان تكتسب كل النموّ القابلة لهُ

ثانياً — إتلاف الآفات وقمع الاميال الفاسدة والتعويض عنها باميالٍ صالحة واخلاقٍ نبيلة . وليس ذلك ليبلغ الانسان حالة الكمال التي تحلم بها الفئة المصلحة (١) العاملة على ترقية الهيئة الاجتماعية . بل ان يبلغ درجة الصحة الطبيعية والنجاح الادبي المقرونين بحسن التركيب وصحيح البنية

على انهُ اذا تعذّرت على المرء طريقة التربية الفيزيولوجية وكان ليس في الامكان نهج خطتها فيكون تعذرها ليس بالنظر الى نتيجتها

(١) ترجمة Utiopistes وهم قوم يدأبون في ترقية الشعوب

بل من قبيل مباشرتها واجماع الناس على ممارستها . اما بالنظر الى نتيجتها فانهُ اذا اتخذها الشخص الفرد وسار بموجبها فذلك مما لا ريب فيهِ ولا يقبل جدلاً انها من النادر ان يفشل امرهـا ولا تأتي طبق المرام . وعليهِ اذا قام الشخص ذو العاهة بتثقيف اعوجاجهِ واصلاح نقصهِ فلا يورّث خلفهُ سوى الصفات التي يكون قد اكتسبها والتي اصبحت بعد اكتسابهِ اياها ممثلةً جزءًا منهُ

اما نواميس توريث الصفات المكتسبة فقد سبق الى معرفتها والعلم بها كثيرٌ من العلماء المحققين منهم جيرو دي بيزار ينغ . اذ قد ارتأى هذا العالم المحقق ان الحالة المكتسبة تنتقل بواسطة التناسل ويكون انتقالها صحيحاً بالاكثر كلما كثرت مزاولة اصلاح العادات وقدم عهدها وكانت ارسخ في الشخص الذي يزاولها . فالمولود مثلاً يأخذ عن والديهِ مع وسم ملامحهما جميع الاميال والرغائب على اختلافها وتنوعها التي قد اكتسباها وكانا يصبوان اليها . ومن ثمَّ يجب ان يلاحظ ايضاً ان الاخلاق والعادات السابقة في الوالدين لا تنتقل اصلاً اذا كانا قد تركاها واستعاضا عنها بخلافها . فان هـذه الاخيرة التي حلّت محلها هي التي تنتقل (١)

(١) من اغرب ما يشاهد في هذا الكون ان كثيرين يدأبون في تحسين بعض انواع النبات والحيوان بواسطة التلقيح والنتاج ويتغافلون عن ترقية نوعهم وتحسين ذريتهم مع انهم لو تفطنوا قليلا لابتدأوا بترقية خلفهم . وذلك ان يعقدوا زواجهم بواسطة الطبيب اولا ثم رجال العقد والحل ثانياً

الفصل الرابع

﴿ في انحطاط الجنس البشري ﴾

لما كان الانسان قد توفر فيهِ الاستعداد لبلوغ معارج الارتقآء وتحصيل ذروة الكمال مادياً كان او ادبياً فهو بالمثل ايضاً قابلٌ ما قل او كثر للتدني والانحطاط والتنزيل عن المرتبة التي بلغها . اما سبب انحطاطهِ فيتأتى في الغالب من مفعول الاقليم الذي يتوطنهُ والمحيط الذي يعيش فيهِ . لا سيما وان الجور والعسف اللذين تأتيهما الهيئة الحاكمة يساعدان ايضاً على تسفلهِ ويصدانهِ عن تسنّم سلّم الترقي والسير في سبل التقدم والنجاح . وهي التي تسدل فوق ربوعهِ سجف الظلمات وتجر عليهِ ذيول البؤس والتعاسة وتورده موارد الظلم والشقآء . ولما كان هذا السبب الاخير ليس هو من موضوع بحثنا فلم يسعنا سوى الالماع اليهِ والاتيان على ذكره عرضاً

توجد في الجنس البشري مخلوقاتٌ يبرهن تركيبهم الطبيعي على تعديلٍ طفيف طرأ عليهم وعلى توقف العضو الدماغي فيهم عن النمو والارتقآء . بحيث يُشاهد في جملة بقعٍ من الكرة الارضية من هذه

المخلوقات المنحطة في تركيبها المادي والعقلي وهي التي تُدعى باسماء مختلفة نظراً الى البقعة التي تتوطنها . فهم يدعونها كريتان في جبال الألب وكاغو او جزويت في جبال البيرينه . وان غالب هؤلاء الاقوام الاشقياء التعساء هم من الخونة المارقين فضلاً عن كون بنيتهم سافلة ومداركهم تفوق قليلاً مدارك البهم والانعام السوائم . وغالبهم صمٌّ او بكمٌ يمضون جلّ أوقاتهم في مرابض الخمول ومواطن الكسل تحت فيء الجهل وظلال الغباوة . ويعللون عن هذا الانحطاط في البشر اخصهُ من تأثير الماء ومفعول الاغذية الرديئة وفساد هواء الاودية المحجوزة الاطراف والاماكن الرطبة التي يقيمون فيها وهي التي تكون بمعزلٍ عن مهابّ الارياح وليس لها مجارٍ للهواء ليتجدد فيها متوالياً . سيما وان اشعة الشمس لا تزورها وليس لها ان تتخطى في اماكنها وربوعها . ومع ذلك فالسبب الاقرب لذلك والذي لا يقبل تأويلاً ولا يحتمل جدلاً هو الوراثة بالذات

يستغرب المطالع لدى وقوفهِ على حالة قوم الكريتان وما هم عليهِ من الانحطاط الطبيعي والهمجية المطبقة . لا سيما وهم المجاورون لارقى شعوب المعمور هؤلاء الذين بلغوا اسمى درجةٍ في التركيب الطبيعي واتساع المدارك وباذخ الحضارة . ثمَّ يناجي نفسهُ متسائلاً وهو انهُ اذا كان ليس في الامكان ان يبزغ شعاع نورٍ على هذه الاقوام المنحطة المنغمسة في حمأة الغباوة والمتسكعة في ظلمات البربرية وان يؤخذ بيدها لانتشالها من تلك الوهاد السافلة ؟

يوجد امرٌ لا بدَّ من ملاحظتهِ والانتباه اليهِ وهو انهُ في جملة قرى من سفح جبال الألب والبيرينه يشاهدون أسراً تُؤلَّف الواحدة منها من خمسة او ستة اولاد يوجد بينهم صملوكٌ واحد ويكون تركيب بقية الاولاد الطبيعي جيداً للغاية ليس فيهم ما يدل على سمات قوم الكريتان . اذاً ما الداعي لهذا الاختلاف في الاسرة الواحدة وما الذي ألجأ ذلك الوالد لان يشذ في تخليف مولودٍ واحد على شاكلة قوم الكريتان وهو الذي خلف جملة بنين اصحآء ؟ فالجواب على هذا هو من متعلقات قانون الزواج (١)

لقد اسلفنا في القول ان عموم قوم الكريتان هم ذوو مدارك منحطة وغرائز سافلة مرائيين اشقيآء . ونزيد على ذلك انهم ايضاً شهوانيو الطباع نظير القرود لا تؤمن غائلتهم من ان تقيم ابنةٌ عذراء على انفرادٍ بين جماعتهم . لاسيما وانهُ ليست القارّة الاوربية هي الوحيدة التي اختصت بهؤلآء الاقوام بل انهُ يُشاهد منهم في اربعة اقسام المعمور . فمنهم من يخيّم في مضايق سلسلة جبال القوقاس والكاربات وفي سلسلة جبال التيبت والآند وجميع هؤلآء يشاكلون تماماً اولئك المقيمين في سفح جبال الآلب والبيرينه . وان هذا النقص والانحطاط الشامل هؤلآء الاقوام لا يكون فيهم في نظر الفيزيولوجيين ارثياً دائماً . وذلك لان نسل قوم الكريتان يشير الى انَّ فيهم استعداداً سابقاً لما هم متصفون

(١) هو المؤلف الجليل الذي نجعل المطالع ان يرجع اليه بين وقت وآخر والذي سنزفه الى عالم المطبوعات في اول فرصة

بهِ وان الدوآء الوحيد الذي يصلح هذا النقص ويبطل ذلك الاستعداد هو تبديل موطن النسل ونقلهِ الى ما سواهُ يوم يكون صغيراً يافع البنية . بحيث لم يكن تركيبهُ الطبيعي قد تحمَّل تقلباتٍ مهمة ذات مفعولٍ مؤثر . وما عدا ذلك فدآء الانحطاط المبتلى بهِ قوم الكريتان هو عضالٌ لا يقبل الشفآء ولا ينجع فيهِ دوآء

يوجد انحطاطٌ آخر في الجنس البشري وهو ما يسمى بالحسبة يحدث من فساد الشكل الجلدي والمادة الملوِّنة وان سبب هذا الفساد هو حالةٌ مرضية تنتقل متواليةً مع تعاقب النسل . اذ يكون لون اديم الاناس الحسُب ابيض شاحباً خالياً من الرونق والزهو ، وشعرهم ضارباً الى البياض ناعم الملمس يحاكي الخيوط الحريرية الرفيعة ، ولون عينيهم اقرب شبهاً بلون السوسن الوردي الاحمر ، ولا تستجلب عيناهم الضيآء الا بكل صعوبةٍ وعنآء . فضلاً عن كونهم مخلوقاتٍ سقمآء ضعفآء جبنآء قليلي المدارك واهني العزائم يلقبون باسم بلافار والبينا في اوروبا ، وبيدا وكابريلا في الهند ، ودوندو في افريقا ، وداريان في امريكا (١) . وان سبب هذا النقص والانحطاط فيهم هو من نقص المادة الملوِّنة وعدم كفايتها او فقدانها بتةً من اديم بشرتهم

اتى العالم بيفّون برسم زنجيةٍ بيضآء مولودةٍ من والدين زنجيين في اقليم غينا في افريقيا لها من العمر سبعة عشر حولاً يمثل تركيب جسمها وسمات منظرها النوع الزنجي بجميع تقاطيعهِ واتم ملامحهِ . ولقد

(١) وبرص او برش في سوريا وشقر في مصر

كان لون شفتيها ابيض شاحباً نظير لون باقي جسمها الاَّ انَّ لحلمتي ثدييها طولاً غريباً وهما ذات لونٍ قرمزيٍ ناصع

نتج من اقتران زنجيٍ باحدى النساء الحسباء هو ان المولود الذي رزقاهُ جاء اشمط اللون . الاَّ ان اديم بشرتهِ كان ملطخاً ببقعٍ بيضاء

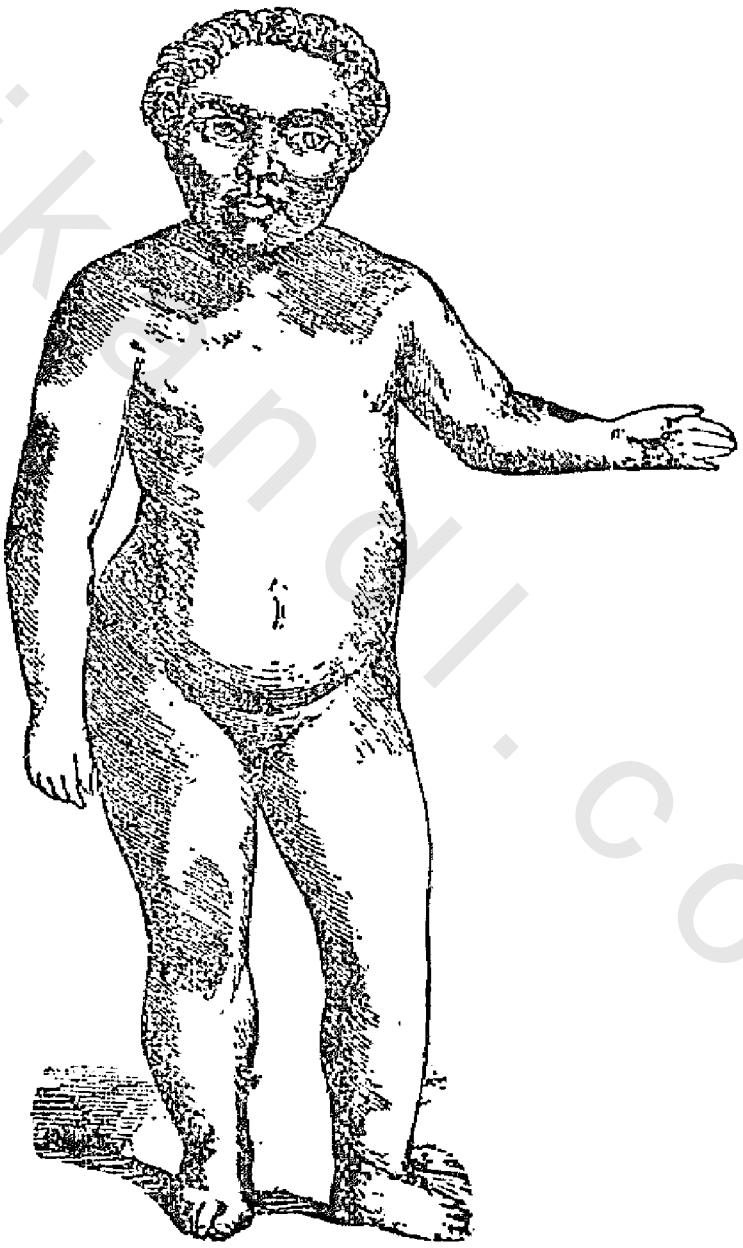

الرسم ١٠

يوجد صنفٌ آخر من الزنوج شمط البشرة يجوز لنا ان نسميهم بالبشر ذوي اللونين وذلك ان جانباً من هيكل جسمهم اسود اللون تماماً والجانب الآخر شاحب اللون نظير اديم الاحسب وان هذا التباين والتقسيم في لون الجسم الواحد الى قسمين متساويين لهو في غاية العجب ومنتهى الغرابة (١)

توجد صفاتٌ تُعرف بها الاناس الحسُب وهي ان بصرهم على الاطلاق ضعيفٌ، وفي مسمعهم وقرٌ، واجفانهم مضطربات ابداً وهي في حركةٍ دائمة وطرفة عينٍ مستمرة، وكثيرٌ منهم عشيٌّ لا يبصرون الاَّ في الليل في ضوء القمر او في الشفق. وذلك ما دعا الزنوج الى تسمية عيون الحسُب بعيني القمر

توجد بالقرب من نهر ينيساي بالنظر الى روايات كثيرٍ من الرَّحالات المشهورين بقية قبيلةٍ شاردة من التتر لون بشرتها اصفر مشرّب وهو مخطط بخطوطٍ لونها ابيض شاحب نظير خطوط حمر الوحش او مرقّطة ببقعٍ بيضاوية الشكل دكناء اللون. وان هذا التشوه المتصف بهِ لون بشرتها لا بدّ من ان يكون ناتجاً عن ميلٍ لها سابقٍ الى هذا الشكل تأصل في جسمها واصبح مع الايام طبيعياً فيها وكان سبباً لوجود صنف من هذا القبيل في الجنس البشري

توجد بعض العلل التي تضر مجموع خاصية عضوٍ او جملة اعضاء من الجسم البشري وهي نظير الداء الخنازيري والزهري وامثالهما اذ

(١) راجع قصة المولود الابلق في حاشية وجه ١٠٨

ان هذه العلل بعد تنقلها في ثلاثة او اربعة اعقابٍ تنتهي اخيراً الى ان تتخذ الشكل الوراثي وهو الذي يسبب انحطاطاً في التركيب البشري

يأخذ الداء الخنازيري تسميتهُ من ذات الخنزير وذلك لان هذا الحيوان معرّضٌ لمرضٍ يشابه هذا الداء الوبيل تمام المشابهة . اما الاصابة بهِ فيختص بها اصحاب المزاج اللمفاوي خاصةً وذلك لانها تتم بفساد في الخصائص اللمفاوية مع تغيير في مادتها . اما اذا شُوهد بعض اشخاصٍ قد اعتلوا بهذا الداء وكانت ظواهر المزاج الدموي او الصفراوي بادية الوضوح فيهم فتكون اصابتهم من قبيل الشاذ الذي لا يبنى عليهِ قياس

يصاب قسمٌ كبير من سكان بعض المقاطعات في فرنسا بالداء الخنازيري وهم يورثون اولادهم هذه العلة الوبيلة لاسيما وان استعداد النساء لهذه العلة هو اكثر جداً من استعداد الرجال . بحيث تُشاهد البعض منهنَّ ذوات بشرةٍ بيضاء الاديم وردية اللون . مع ان لهنَّ تقطيباتٍ في العنق وآثار ندباتٍ في الفخذ والحالب وبعض حفراتٍ في الجسم . ومن ثمَّ فالداء الخنازيري لا يغير الخلقة فقط بل انهُ يؤثر في الخُلق ايضاً . فهو ينقص من قوة الانسان المتبلى بهِ ويقلل من مروءتهِ ويقضي عليهِ بالتواني والملل . وعليهِ فالوسائل التي يمكن ان يتوصل الانسان بواسطتها الى مقاومة هذه العاهة والتخلص منها يوجد اكثرها في تدابير الاغذية الصحية وبعض الرياضات الخصوصية التي هي من مباحث علم الطب . وما كان الماعنا الى مثل هذا الداء الا نظير ايراد علةٍ على سبيل المثل من العلل التي تسبب الانحطاط البشري

الفصل الخامس

﴿ في الهُوَل [1] اي شواذ الخلق ﴾

نستخلص من تاريخ انواع البشر واختلاف اصنافهم وحوادث تدنيهم وانحطاطهم تاريخ الهوَل اي شواذ المخلوقات

فالفصل الذي نحن بصددهِ هو الاكثر غرابةً والاوفر دهشاً من مجموع فصول هذا المؤلف . فضلاً عما توخيناهُ فيهِ من ان ننزههُ عن جميع الروايات القصصية القديمة والحوادث العصرية المختلقة او المبالغ فى امرها . ولولا ذلك لجآء حافلاً بضروبٍ من الخلقات الغريبة والقصص البعيدة التصديق التي لم يحققها العلم ولم تقع تحت الاختبار . وعليهِ قد اقتصرنا على ايراد الحوادث التى كانت على مشهدٍ من اولئك القوم اصحاب الجد ومحبي الحقيقة الذين اتوا على ذكرها وابانوا وصفها وكيفيتها . وهم الذين يفرّون من العجائب ولا يقرون بالمعجزات .

---

(١) جمع هولة وهو كل ما هال منظره الانسان وهي من وضع الاستاذ اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي في ترجمة لفظة Monstre

وقد رأينا ان نترك للمطالع حريتهُ التامة في قضآء حكمهِ على الحوادث التى تعترضهُ وذلك اما بالرفض او القبول لكننا لا نحجم عن ايراد حادثٍ مشهور غريبٍ في بابهِ يتعذر علينا تصديقهُ اذا كان فى امكاننا ابدآء سببهِ الطبيعي الذي نتج عنهُ . لان هذه هي النقطة الاساسية التى نتوخاها ونحوم فى مؤلفنا هذا حولها

اما الهول فهي اعمالٌ تفردت الطبيعة فى عملها قد يستطيع العلم في بعض الاحيان ان يعللها ويردها الى مسبباتها واحياناً يجهل امرها ولا يعلم حقيقتها فعلم زراعة الحدائق يقدم لنا امثالاً من الخضر التى يكثر نموها فى بعض الاحيان حتى يبلغ حجمها مبلغاً هائلاً ، اما فى النوع البشري فالهوَل بوجهٍ عامّ هي نتيجة بعض العوارض التى تحدث في اثنآء التلقيح او زمن الحمل واحياناً تكون الوراثة هي المسببة لها

تُعرف الهوَل فى التاريخ الطبيعي بكل مخلوقٍ يتجاوز ما قلّ او كثر الحالة الاعتيادية التى يتصف بها . وتطلق هذه الكلمة في لغة العموم على كل تركيبٍ متخاذلٍ او مخلوقٍ ناقص الخلق لهُ بعض تناسبٍ في الشبه بمخلوقاتٍ من نوعٍ أخر . حتى انهُ كان معروفاً ايضاً في الزمن الغابر ان الهوَل لم تكن مسببةً عن وجود نطفاتٍ هولية سابقة لها ولا عن انحرافٍ وتغييرٍ في الطبيعة لا يمكن تأويلهُ وردهُ الى اصلهِ بل ان سببها بسيطٌ وهو اختباطٌ وعدم انتظامٍ في الشكل الحيوي المستحيل والمادة المتكيفة . الامر الذي يستوقف الجنين عن التكيّف في اثنآء دورتهِ وفي وسط حركتهِ . ولا بدّ من انهُ علق بالذهن ما ورد

في اول هذا المؤلف وهو ان جميع التراكيب ما هي الا تنويع وتغيير من طبيعةٍ واحدة . وان الجنين البشري قد تركب شيئاً فشيئاً ماراً من تركيبٍ بسيط الى تركيبٍ اكثر اختلاطاً وتركيباً حتى انهُ تخطى جميع مراتب العالم الحيواني . فاذا ماراجعنا هذا السير الارتقائي وعلمنا بمذهب النشوء نفهم اذ ذاك بدون عناءٍ ولا اقل مشقةٍ ان الهوَل ما هي الاَّ اجنّةٌ قد توقفت عن نموها واعترضها عائقٌ ما في اثناء سيرها في نشوئها . وقد اتت الى عالم الحياة قبل ان يتم فيها التنويع الاخير الذي يتصف بهِ نوعها والمنتسبة هي اليهِ

تقرب الهوَل متماسكةً دائماً بالنوع القريب من اصلها وهي لا تشاكل الاَّ نادراً انواعاً تبتعد كثيراً منها. فقد لاحظوا ان تشوّهات الجنين الانساني لها اكثر تناسبٍ واوفر علاقةٍ بشكل القرود وذوات الاربع من تناسبها الى عالم الطير وطائفة الاسماك . وبرهانهم على ذلك ان تلك هي اكثر قرباً منها فى السلّم الحيواني

تنقسم المؤلفات التي تبحث في علم الهوَل اي شواذ الخلق الى اربع مراتب

اولاً — الهوَل المزيدة اي التي تحتوي على جملة اجسامٍ او لها اطرافٌ زائدة على ما هو معروف فيها

ثانياً — الهوَل الناقصة وهي التي ينقص من جسمها جزءٌ او اكثر من جزءٍ

ثالثاً — الهوَل التي في اعضائها تخاذلٌ او انقلابٌ عن

وضعها الاصلي

رابعاً - الهوَل التي في جسمها بعض اطرافٍ من نوعٍ غريبٍ عن نوعها. وتختص بهذه المرتبة الاخيرة الخنائى و بنات البحر والقانتور والساتير (١) الخ .... وان هذه الطبقة الاخيرة هي غير مقبولةٍ وليست معتبرةً عند الفيزيولوجيين المصريين

القسم الاول

﴿ في الهوَل المزيدة ﴾

تُعد في المرتبة الاولى الهوَل اصحاب الجسمين المدغمين اي المتداخل احدهما في الآخر. وايضاً الهوَل اصحاب الجسم الواحد والتي تحتوي على اطرافٍ اضافية فان مثل هذا الاختباط وعدم الانتظام يتواتر حدوثهُ كثيراً في عالم النبات ويقل عن ذلك في عالم الحيوان. ويصير اكثر ندوراً في نوع الانسان. ومع ذلك قد توجد امثلةٌ كافية في الجنس البشري يستطيع العالِم المحقق ان يبحث فيها ويستقري امرها

وُلدت في هنغاريا ابنتان سميتا باستير ويهوديت واشتراهما

(١) القانتور هو المخلوق المعروف في اساطير الاقدمين بكون نصفه انسان ونصفه حصان . وكذلك الساتير هو الذي نصفه انسان ونصفه وعل

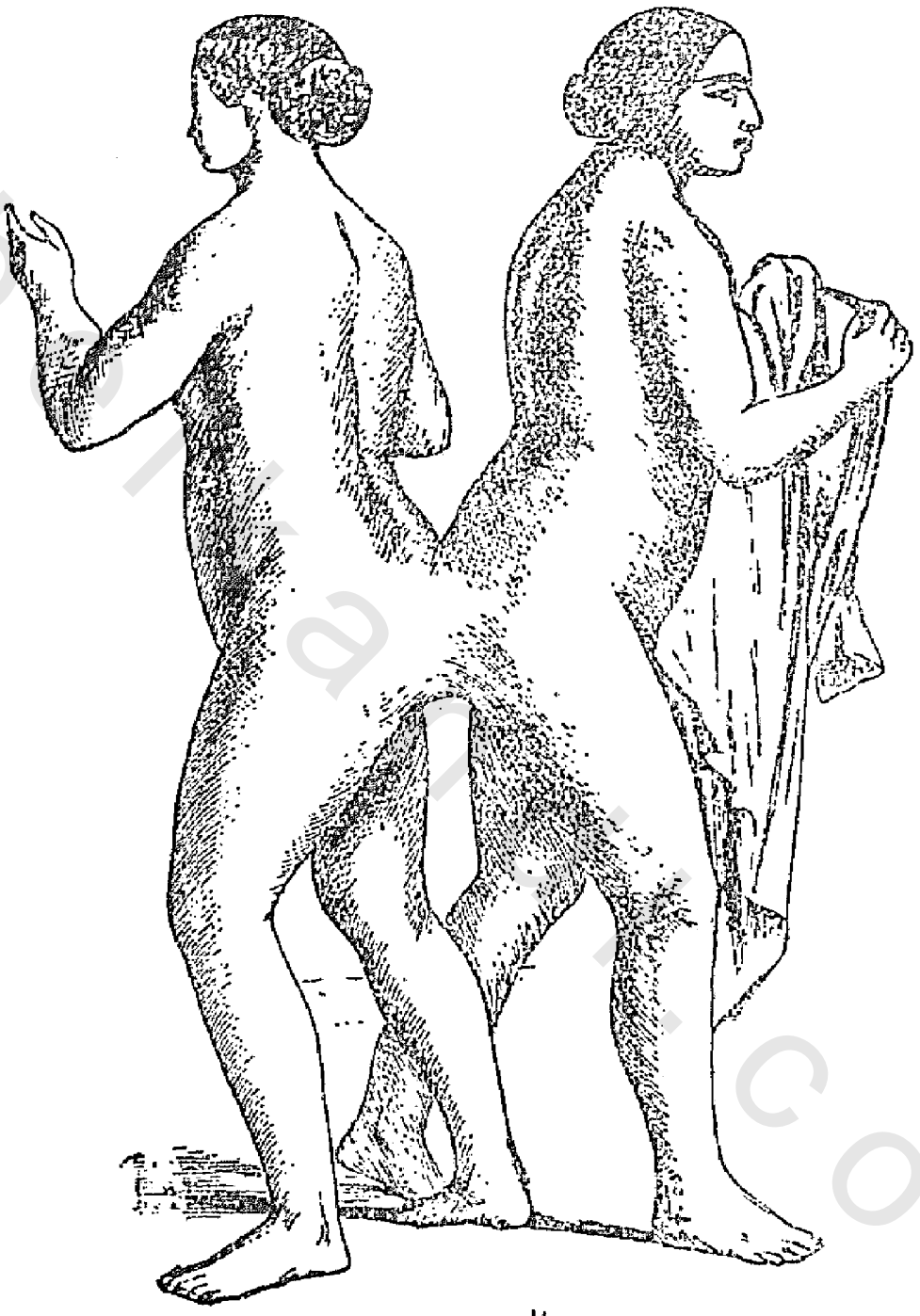

الرسم ١١

كاهنٌ روسي ووضعهما في احد اديار مدينة بطرسبرج حيث لبثتا حتى سن العشرين وكانت الاثنتان ملتصقتين من العَجُز (انظر الرسم ١١)

وكانت كل اقسام جسمهما مستقلةً عن بعضها البعض ما خلا المخرج فقد كان واحداً ويفعل فعلهُ بارادةٍ واحدة . امَّا من الجهة الاخرى فكان لكل منهما اعضاءٌ تناسلية مكملة التركيب ومنفصلة تمام الانفصال تقضي كلٌّ منها الضرورات الشخصية على حدةٍ . فكان ذلك داعياً لتنافرهما وحدوث النزاع بينهما . اذ انهُ لما كانت تشعر الواحدة بضرورة البول كانت الاخرى وخصوصاً يهوديت تتنغص من مرافقة شقيقتها وتبدو عليها امارات الغيظ ودلائل الاشمئزاز

ولقد اصاب يهوديت مرضٌ في السنة السادسة من عمرها شُلّت بسببهِ اعضاؤها وظلت على هذه الحالة كل مدة حياتها . اما استير فكانت بعكسها ذات نشأةٍ حسنة قوية التركيب متوفرة فيها دواعي الصحة واسباب النشاط . وكانت قد ظهرت لوائح البلوغ في الاختين بوقتٍ واحد . ولقد فاجأت يهوديت في سن الثانية والعشرين حمّى مرضية اذوت غصن شبابها واذبلت زهرة حياتها وكانت القاضية عليها . فاضطرت حينئذٍ استير الى ان تتبع اختها وشريكة حياتها بدون انفصالٍ الى عالم الاموات بحيث قضت نحبها ولفظت انفاسها الاخيرة بعد ثلاث ساعاتٍ من موت يهوديت اختها

ذكرت صحيفة وقائع مدينة وردون في سنة ١٧٠٩ خبراً قريب الشبه بقصة يهوديت واستير وهو ان ابنتين توأمين متصلتين من العُجز وُلدتا ولم يكن لهما سوى مخرجٌ واحد وكانت الاثنتان حسنتي المنظر بهجتي الملامح قد خصتهما الطبيعة بذكاءٍ مفرط ونباهةٍ غريبة حتى

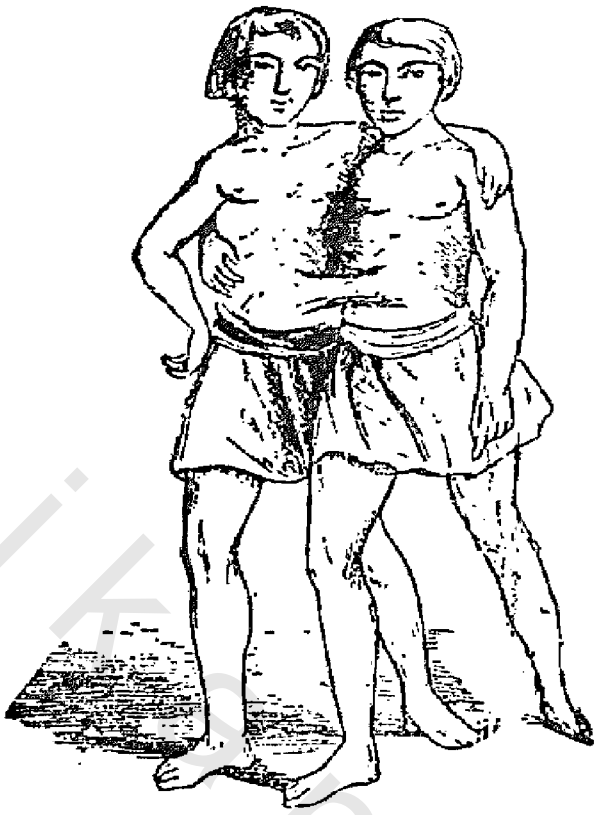

الرسم ١٢

لمَّا بلغتا سن السابعة عشرة كانتا تتكلمان جملة لغات . الاَّ ان مؤرخي ذلك العصر لنكد الحظ قد اغفلوا متابعة سيرة حياتهما ولم يأتوا على تكملة تاريخهما

وقد جاء في اخبار مدينة مونتر في المانيا ان ابنتين ولدتا في ضواحي مدينة ورمس ملتصقتين من الجبهة وان نقطة الاتصال بينهما كانت توازي على التقريب قطعة العشرة سولديات . ولما بلغت الوفاة احداهما اجتهدوا بفصلها عن اختها وقد اتموا ذلك . الاَّ انهُ قد اصاب الاخيرة هزالٌ لم يمهلها زمناً طويلاً حتى لحقت باختها الى اللحد وأبت الاَّ أن تشاركها في الحياة وفي الممات

ان الاخين السياميين اللذين عرضوهما في هذه السنوات الاخيرة في المتحف الباريسي (انظر الرسم ١٢) قد كان الواحد منهما متصلاً

بالآخر من البطن وقد كانت تراكيبهما الطبيعية حسنة ومداركهما متوسطة الحال . اما امزجتهما واخلاقهما فقد كانت منطبقةً ومتفقةً حتى انهُ كان يخال ان للاثنين ارادةً واحدة وميلاً واحداً . ولقد عرض عليهما احد الاطبآء الجراحين البارعين ان يفرق بينهما وذلك بفصلهِ الوصلة اللحمية التي كانت تصل بينهما الاَّ انهما رفضا ذلك بتةً وقد عمّرا زمناً طويلاً حتى بلغا سن الشيخوخة

ويضيف المعرب الى ما تقدم قصة التوأمين الكوريين التي وردت في الجزء الثالث من مجلة الضيآء لسنتها السادسة فهي قريبة العهد بنا ولعلّ هذين التوأمين لا يزالان في قيد الحياة وهي بنصها

ولد هذان التوأمان سنة ١٨٩١ ولهما الآن ثلاث عشرة سنة واسم احدهما تون شان واسم الآخر سيان نيشان وهما الآن في الولايات المتحدة الامريكانية يطاف بهما من مدينةٍ الى أُخرى وقد اقبل الناس عليهما اقبالاً عظيماً وهما معتدلا البنية قويا الاعضآء ليس فيهما اثر ضعفٍ او اعتلال . ونموهما ليس دون نمو غيرهما من اصحاب هذه السن ويُقدر اذا لم يصابا بعارضٍ ان يعيشا اكثر من كل من تقدمهما من امثالهما

وهما يتصلان من لَدُن اسفل القصّ اي عظم وسط الصدر الى السرة وما خلا ذلك فان لكلٍ منهما جميع اعضآء البنية . وفي رأي جرّاحي الامريكان انهُ يمكن فصلهما بدون خطر . وهما اسهل حراكاً من كل من عُرف من امثالهما فيستطيعان ان يتخاصرا ويتقابلا وجهاً

الرسم ١٣

الى وجه ويضع كلٌّ منهما يدهُ على كتف الاخر وذلك لمرونة الغشاء الجلدي الذي يصل جسميهما. بحيث يتحرك كل واحدٍ منهما كما يشاء بدون ان يتألم الآخر. وحركاتهما متوافقة فيمشيان معاً ويعدوان ويلعبان ويتدحرجان على الارض ثم يهبّان وكل ذلك بمنتهى الخفة والسهولة حتى كأنهما شخصٌ واحد. والغشاء المشترك بينهما يبلغ محيطهُ ٢٢ سنتيمتراً فيكون قطرهُ نحو ٧ سنتيمترات ولكنهُ عند الحركة يتمطط ويجتمع قليلاً لاتصالهِ بعضل الصدرين (انظر الرسم ١٣)

ثمَّ ان احـدهما الذي الى اليمين ايسر والاخر اعسر الاَّ انهُ يستعمل اليمنى ايضاً فهو اضبط اي يعمل باليدين جميعاً . والاول اكبر قامةً من اخيهِ قليلاً واشدعضلاً وضربات قلبهِ اسرع وصدرهُ اوسع . والثاني اضعف احتمالاً للحر والبرد واقل صبراً على الالم وعلى الجملة فهو انحف وان كان صحيح البنية . وقد فحصهما الدكتور مكدونلد فحصاً باطنياً فظهر لهُ انهما يتفاوتان في المدارك العقلية فان احدهما وهو الذي الى الشمال ألطف حساً وادق تصوراً وهما يتكلمان بالكورية والانكليزية لان اباهما ارسلهما صغيرين الى بردغبورت بالولايات المتحدة وقد درسا الدروس الابتدآئية ولكن فيهما من الذكآء ما اذا اعتنى بهما لم يقصرا عن تحصيل حظٍ صالحٍ من العلوم العالية

وجدوا في محفوظات علم الطب الرواية الاتية

كان يوجد في مدينة ماكاو غلامٌ صيني يبلغ من العمر اثني عشر حولاً يحمل فوق صدرهِ جنيناً رأسهُ مطمورٌ في صدر حاملهِ وكان مكمل التصوير متمم التركيب يتدلى من اعلى صدرهِ حتى ركبتيهِ . لا سيما وقد كان نوع هذا الهيكل الانساني الصغير الذي لا رأس لهُ يشاكل في تركيبهِ تركيب حاملهِ ويمثل النوع الصيني تمام التمثيل . وكان لهُ شعورٌ كبير حتى انهُ يتأثر جسمهُ وتتشنج اوصالهُ لاقل لمسٍ خفيف يلمس بهِ جسمهُ . فضلاً عن ان الرجل الصيني الذي يحملهُ كان ينفعل بالفعل ذاتهِ ويشعر بنفس الألم اذا ما قُرص الجنين المتدلى منهُ . ويصرخ باعلى صوتهِ متألماً اذا كان القرص قوياً . وكان لم يزل هذا المخلوق

الرسم ١٤

الشاذ الخلق حياً في مدينة ما كاو ولم يشأ ان يذهبوا بهِ الى اوروبا فضلاً عما عرضهُ عليهِ احد الاطبآء الانكليز وتعهد لهُ بهِ

اظهر العالم غاسبار بارتولان تاريخ فتاةٍ تشبه للهولة الصيني المتقدم الذكر وقد اورد ان لها من العمر ثلاثين حولاً (انظر الرسم ١٤)

وقد قام بمراقبتها واشتغل في فحصها بكل امعانٍ وتروي وقد ذكر عنها انها كانت تحمل في صدرها تحت الثديين جنيناً بلا رأس

متمم الخَلق ممتلي العضلات ذا تقبضٍ عضلي مستقل عن ارادة حاملتهِ فكان اذا اخذ احدٌ في دغدغة اخمص رجلي الجنين كان ساقاهُ الصغيران يهتذان ويضطربان بعنفٍ واذا زادوا دغدغتهُ فكان يرفس ويدبدب مشيراً الى ما يصيبهُ من الالم وما يلاقيهِ من الغيظ والاشمئزاز

ورد في تقرير وينزلو الشهير فيما يختص بشاذ الخلق الرواية الآتية وهي ان ابنةً تناهز سن الثانية عشرة كبيرة القد عبلة التركيب بالنظر الى سنها كانت تحمل على جنبها الايسر ابنةً أُخرى اصغر منها حجماً متداخلة فيها من تحت كتفها فما دون . وكانت اليتا وعضلات جسم الصغيرة ممتلئةً حتى كان ثقلها كافياً لان يتعب ويثقل حركة حاملتها . ولقد كانت للمخلوقة الصغيرة حالةٌ من اغرب الحالات . وهي انها كانت تبول وتغوط بمعزلٍ عن ارادة حاملتها . ذلك ما كان يضطر حاملتها الى ان تعتني في اكثر اوقاتها بنظافة تلك الاعضاء التي كانت تفعل فعلها الطبيعي متوالياً . هذا وقد كان للاثنين شعورٌ واحد بمعنى انهُ اذا لُمس جسم الصغيرة ولو لمساً خفيفاً كانت الفتاة الكبيرة تشعر بهِ وتتأثر منهُ . وقد عاشت هذه المخلوقة الشاذة الخلق حتى سن الثالثة عشرة وهي السنة التي في بحرها ادركتها المنية واخترمت ذلك الجسم المزدوج

هذا وقد كان في امكاننا ان نعدد امثالاً متعددة تشابه ما تقدم لكننا قد اكتفينا بهذا القدر لننتقل الى بيان الهوَل اصحاب الرأسين

القسم الثاني

﴿ في الهول ذوات الرأسين ﴾

تقسم الهول ذوات الرأسين الى هولٍ لها رأسان فوق جسمٍ ذي جذعٍ واحد . والى هولٍ برأسين فوق جسمٍ ذي جذعين لهما ذراعان او ثلاث او اربع اذرع وساقان فقط ليس الاَّ

وُلدت في اسبانيا سنة ١٧٧٥ ابنةٌ ولم يكن في جسمها عضوٌ مزدوج سوى الرأس فقط اي انهُ كان لها رأسان مسبوكان معاً نظير ما يمثلون لنا الاله يانوس (١) وكان الفمان اللذان في رأسيهما يرضع كل منهما على حدةٍ ثدياً من ثديي الام . وكان يُسمع صراخهما و بكآؤهما في وقتٍ واحد . ولما كانت قناة الهضم واحدةً في هذه الابنة فقد لاحظت الام انهُ عند ما كانت تكتفي المسدة كان يرفض الفمان الثديين في وقتٍ واحد . هذا وقد كانت خلقة هذه الابنة من اغرب الخلقات التي شاهدوها على وجه الغبرآء . قضوا جملة سنواتٍ يسيحون بها من مدينةٍ الى سواها ويعرضونها على الناس لقآء بعض دريهمات يتقاضونها من المشاهدين (٢)

---

(١) يانوس هو الاله الذي كانوا يمثلونه في أساطير الاقدمين بوجهين لانه كان متصفاً بمعرفة الماضي والمستقبل

(٢) جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ٤ أغسطس ١٩٠٦ عن الشذوذ البشري قالت روت احدى الجرائد الاجنبية انه ولد في قرية صغيرة اسمها فوك بامريكا الجنوبية ولد له اربع ارجل ورأسان فابلغ شيخ البلدة خبره الى الحكومة

جآء تاريخ ذي الرأسين الذي نقلهُ لنا العالم بيشانان بمنزلٍ من الدهش والاهمية وقد تحقق علمآء ذلك العصر امرهُ وتحرير الخبر هو هذا

وُلد في ايكوسيا في ابتدآء حكم جاك الرابع مولودٌ برأسين وصدرين واربع ايدي وبطن واحدة وساقين . وكان اتحاد صدريهِ يأخذ مبداهُ من فوق السرة وقد امر الملك المشار اليهِ ان يعتنوا بتربيتهِ ويسهروا على ملاحظتهِ ويهتموا بتعليمهِ وتثقيفهِ . وبذلك تعلم هذا الفتى جملة لغاتٍ وكان يحسن التكلم بها بكل طلاقةٍ وفصاحة . اما رأساهُ فكانت رغائبهما ونواياهما متخالفة متعاكسة حتى كان ذلك سبباً لوجود الخصام والنزاع بينهما . ولمَّا ادركتهُ الوفاة كان قد بلغ من العمر ثمانية وعشرين حولاً بيدانهُ كان يستفاد منهُ ان تُستقرى خلقة كيانهِ فيزيولوجياً وبسيكولوجياً . الاَّ ان التعصب الديني الذي كان سائداً في ذلك الوقت وضارباً اطنابهُ على تلك الارجآء لم يسمح لعلمآء ذلك العصر ان تعطى لهم جثتهُ للبحث التشريحي واستقرآء تراكيبهِ

ومن اغرب المخلوقات ذوي الرأسين واعجبها خلقاً الهولة المولود في سردينيا والذي احضروهُ الى المتحف الباريسي وكانت وفاتهُ في باريس في اواخر سنة ١٨٢٨ فقد كان لهُ رأسان وصدران واربع ايدي كل ذلك كان قائماً على ساقين فقط . اما انسباك هذين الجذعين واتحادهما فكان مبدأه في اعلى السرة . ولقد لقبوا الجزع الواحد منهما باسم ريتا والثاني باسم كريستيانا لانهما كانتا انثاويين . ولما توفيت احداهما لحقت الاخرى بها على الفور ولقد اجرى لهما الاستاذ جوفروى

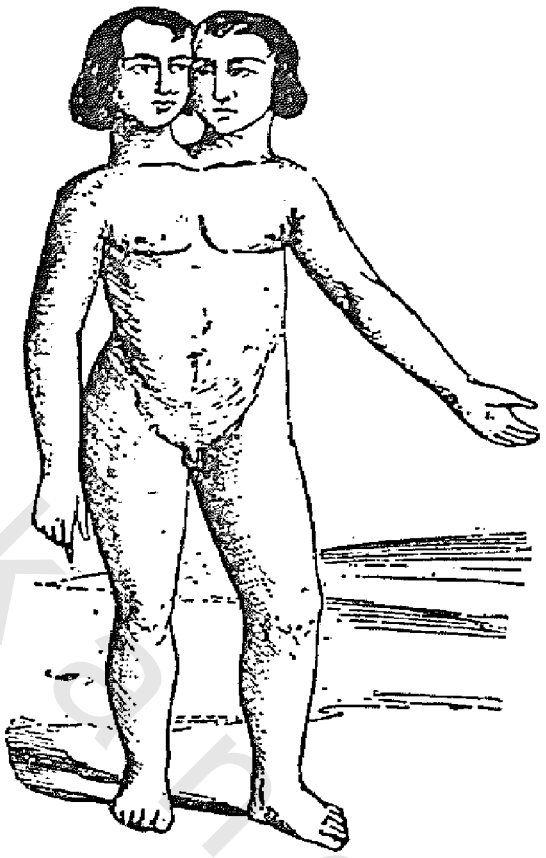

الرسم ١٥

سان هيلّر الكشف التشريحي وقدم عنهما التفصيلات الآتية وهي : قلبان في شغافٍ واحد ، وكبدٌ واحدة ، وامعاءٌ مزدوجة الى المعي المعروف بالاعور ، ورحمان فتحتهما في ذات الفرج ، وسلسلتان فقاريتان تتحدان عند العصعص [١] (انظر الرسم ١٥)

---

(١) جاء في عجائب المخلوقات للقزويني قال روي عن الشافعي انه راى في اليمن انساناً من وسطه الى اسفله بدن امرأة . ومن وسطه إلى فوق بدنان مفترقان باربع ايد ورأسين ووجهين وهما يأكلان ويشربان ويختصمان ويصطلحان . وذكر ان امرأة في كلوسامان من قرى باخ ولدت شخصاً له نصف بدن ونصف رأس ويد واحدة ورجل واحدة على صورة النسناس الذي يوجد في غياض الشجر باليمن ثم حملت مرة أخرى فولدت بدناً له رأسان

اما الهولة الذي يسمونهُ تيرابود فهو مخلوقٌ شاذ الخلق ذو اربع ارجلٍ بعكس ريتا وكريستانا المذكورتين واللتين كانتا مزدوجتين في القسم الاعلى من هيكل بدنهما الاَّ انهُ ليس للهولة الذي نحن بصددهِ سوى رأسٌ واحدٌ وصدرٌ وسرةٌ ويدان . اما الازدواج فيأخذ مبدأه في جسمهِ من تحت السرة بحيث يُشاهد فيهِ عضوان للتناسل واربعة سيقان قوية العضل ممتلئة الربلات . وكان يسير بسهولةٍ فائقة منقلاً رجليهِ اثنتين فاثنتين . وكان مولدهُ في مدينة بآل سنة ١٤٧٥ وبلغ السنة الخامسة عشرة من عمرهِ ولم تكن وفاتهُ طبيعيةً بل تسببت عن حادثٍ فجائي اصابهُ صدفةً وكان هو القاضي عليهِ

القسم الثالث

﴿ في اصحاب الرؤوس الهائلة ﴾

يندر جداً في هذه الجهات وجود اصحاب الرؤوس الهائلة الاَّ ان معجم الطب الكبير يحتوي على جملة حوادثٍ من هذا النوع نذكر منها الحادث الآتي

ولد المدعو بورغيني في مرسيليا وتوفي في سن الخمسين ولم تكن قامتهُ تتجاوز اربع اقدام . الاَّ ان محيط رأسهِ كان ثلاث اقدامٍ وعلوهُ

قدماً واحدة . وكان قد اضطر نحو سن الثانية والعشرين الى ان يلبّس كتفيهِ بوسادتين كبيرتين ليسند بهما رأسهُ الذي لم يعد يستطيع حفظ موازنتهِ

القسم الرابع

﴿ في النسآء المتعددات الاثدآء ﴾

توجد النسوة اللاتي لهنّ اكثر من ثديين على الغالب في الاقاليم الحارة والمعتدلة اكثر من وجودها في الاقاليم الشمالية الشديدة البرد

ويذكر التاريخ ان والدة اسكندر سيفار كان لها ثلاثة اثدآء . وكانت مدام ويت دي ترايف اجمل نسآء عصرها الاَّ انها كانت ذات ثلاثة نهودٍ جميلة التركيب مستديرة الحجم محكمة الوضع في صدرها على شكل مثلّث

ذكر جورج انّوس انهُ لمس بيدهِ صدر امرأةٍ لها ثلاثة نهود من اجملها صوغاً وتركيباً الاَّ ان بروزها في صدرها كان في خطٍ افقي

شاهد لانسوس امرأةً رومانية بديعة الجمال حسنة القد لدنة القوام كان لها اربعة اثدآء الاثنان في الاعلى والاثنان الآخران تحتهما

تعرّف غاردنر بامرأةٍ خلاسية في رأس الرجآء لها خمسة اثدآء

بارزة تمام البروز في وسع كل منها ان يدرّ في اليوم نصف ليترٍ لبناً وليس بمستبعدٍ ان تكون الطبيعة قد اناطتها هذا العطآء وجادت عليها بتعدد الاثدآء لما كانت تعهدهُ فيها من كثرة النسل في المستقبل. ذلك انها قد اصبحت اماً في سنّ الرابعة عشرة وكانت تحمل في كل بطنٍ ثلاثة او اربعة مواليد

ذكر برسي في تقريرٍ لهُ عن احدى النسآء الولاخيات المحترفة مهنة تقدمة المبرة للجند انهُ كان يتدلى من صدرها خمسة اثدآء طويلة. منها اربعةٌ ممتلئة والخامس كان مترهلاً وذابلاً

يوجد في معجم الفلسفة تاريخ امرأةٍ ذات قامةٍ مرتفعة تحمل في صدرها اربعة نهودٍ عريضة الشكل وقد كانت لها في صلبها في آخر العامود الفقاري غدةٌ ذات شعرٍ طويل (انظر الرسم ١٦)

يزعم لفيف الفلاسفة وجمهور الفيزيولوجيين الذين راقبوا اعمال الطبيعة واشغلوا جلّ اوقاتهم في البحث فيها وكشف مخبأ آنها بان الطبيعة لم تخلق شيئاً بلا فائدة. وان الاشيآء التي تحتسبها الناس مضرةً او زوائد لا فائدة منها ما ذلك الاَّ لانهم يجهلون الغاية الطبيعية المقصودة منها والتي وجدت لاجلها. بحيث قد اظهر الاختبار ان انثى الحيوان التي تلد من خمسة عشر حتى سبعة عشر مولوداً يكون لها عددٌ من الاثدي متناسبة الحجم. فانثى الخنزير مثلاً التي تلد ثلاثة عشر حتى سبعة عشر خنوصاً لها عددٌ من الاثدي للقيام بارضاع وتغذية صغارها. وان المرأة بوجهٍ عامّ لها ثديان فقط لانها تضع في كل مرةٍ مولوداً او

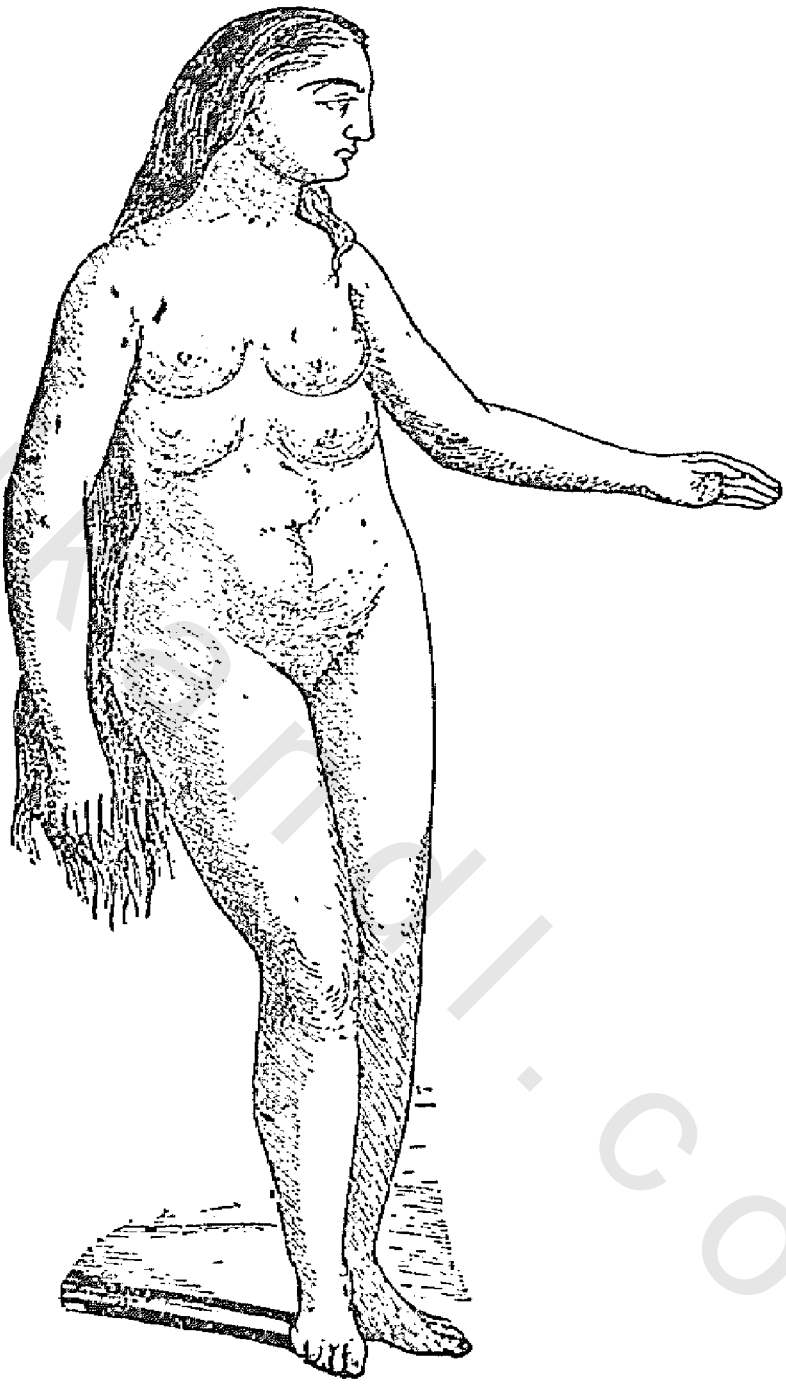

الرسم ١٦

مولودين . فثديان اذاً هما كافيان لتغذية مواليدها . ثمَّ انهم وجدوا بالاستقراء ان من شواذ اناث البشر اللواتي وضعن ثلاثة واحياناً اربعة

مواليد في بضع ساعاتٍ قد كان لهذه النسوة ثلاثة او اربعة اثداء وكان موضع الاثنين الاضافيين تحت الثديين الاولين

ولما كان موضوعنا هو ان نتكلم عن شواذ الخلق الذين عاشوا بعد مولدهم زمناً قصيراً كان او طويلاً فليس لنا اذن ان نتكلم عن الهول ذوات الجسمين والاربعة سيقان ولا المولودين بلا رؤوس فان هؤلاء ما كادوا يخرجون من العدم حتى عاودوا الكرة اليه

القسم الخامس

﴿ في المخلوقات الناقصة الاعضاء ﴾

يتناول هذا القسم المخلوقات الناقصة الاعضاء وهي نظير المخلوق ذي العين الواحدة الذي يدعونهُ بالسيكلوب، والمخلوق ذي الساق الواحد، والاجم منذ مولدهِ اي بدون ساقين، او الاقطع الطبيعي وهو المولود بذراعٍ واحدة، او الاقطع الذراعين . وبالاجمال جميع المخلوقات التي تُولد فاقدةً عضواً وحداً او اكثر من عضوٍ

اما ذو العين الواحدة او ذو الساق الواحد ومن يُولد على شاكلتهما فهؤلاء ينقص فيهم على الغالب ذلك العضو باختلاط العضوين وتمثّلهما في عضوٍ واحد . ويتم سبك هذين الجزئين بتداخل العضوين في

بعضهما بعضاً وامتزاجهما معاً حتى لا يعودا يمثلان الا عضواً واحداً. اما العالِم بفن التشريح فانهُ مع ذلك يكتشف دائماً في وسط العضو المُمثّل على هذه الكيفية الخط الذي كان يفصل بين ذينك العضوين

اما اصحاب العين الواحدة او الساق الواحد الذين عاشوا بعد مولدهم فهؤلآء قليلون جداً ويعدونهم من النوادر. وان الشواهد التي يذكرونها عنهم هي على الغالب شواهد قصصية لا يمكن ان يعول عليها. الاَّ ان احد ابآء الكنيسة الصادق الرواية يؤكد انهُ تحدث مع اناسٍ كان جسمهم قائماً على ساقٍ واحد نظير ما يركزون هيكل شخصٍ فوق عامودٍ. وانهُ فضلاً عن منزلة الراوي العالية بين اصحاب التآليف مع ذلك ان المسألة خارقة الطبيعة يجوز للمطالع ان يشك بامرها ولا يحتم بتصديقها (١)

(انظر الرسم ١٧ و ١٨) تشاهد صورة هولتين تمثل احداهما صورة انسان لهُ بعض التناسب بشكل الاسد وتمثل الاخرى رجلاً بذنب او ان عظم عصعصهِ طويلٌ هو اشبه بالذنب

ويحتوي المؤلف الجليل في علم التشريح وطبائع العلل للاستاذ

(١) قال في المحكم النسناس هو خلق في صورة الناس مشتق منهم لضعف خلقهم - وقال في الصحاح هو جنس من الخلق يثبت احدهم على رجل واحدة - وذكر المسعودي في مروج الذهب انه حيوان كالانسان له عين واحدة يخرج من الماء و يتكلم ومتى ظفر بالانسان قتله - وذكر القزويني كما سبق عن الشافعي ان امرأة من قرى بلخ ولدت شخصاً له نصف بدن ونصف رأس ويد واحدة ورجل واحدة على صورة النسناس الذي يوجد في غياض الشجر باليمن

كروفيليه على جملة رسوم هولٍ بشرية على شاكلة ذوات الاربع تحتفظ اعضاؤها بالشكل الانساني ويختص باقي الجسم بشكل البهيمة (١)

---

(١) ذكر صاحب عجائب المخلوقات انه في جزيرة اطوران قوم على هيئة الانسان ورؤوسهم كرؤوس السباع فلما دنت منهم مراكب الاسكندر غابوا عن ابصارهم

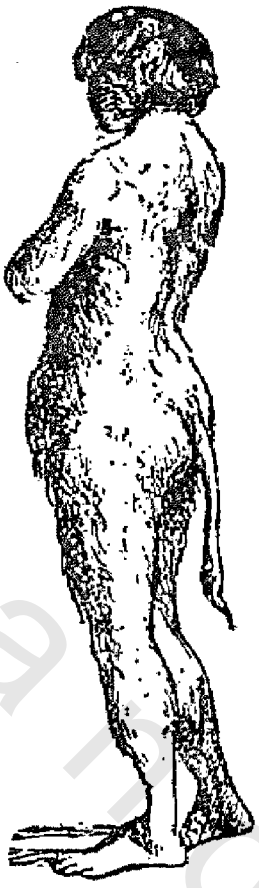

الرسم ١٨

واننا نختم هذا القسم في الهول الناقصي الخلقة وذلك بان نورد لمحةً من تاريخ لويس بن سيزار بن يوسف ديكورني وهو المولود في مدينة ليل من اعمال فرنسا في ١٠ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٠٦ وهو الذي كان طولهُ ثلاث اقدامٍ وثمان عقد ، وكان رأسهُ وصدرهُ حسني التركيب معتدلي الحجم ، وفي عاموده الفقاري بعض ميلٍ طفيف الى الجانب الايمن ، ولم يكن لهُ ذراعان بالكلية . اما اعضاؤهُ السفلى فكانت مكوّنةً من ساقين قصيرين للغاية كانا عند مولدهِ مفككين ومخلوعين من وركيهما لكنهما ثبتا فيما بعد في مركزيهما من تلقاء ذاتهما وفقدا

جانباً كبيراً من حركتهما الطبيعية . اما الرجلان فكانتا حسنتي التركيب وكان الفرق بين الابهام والاصبع الذي يليهِ اوسع من الحالة الاعتيادية وبالنظر الى التمرين اليومي الذي كان يمرن فيهِ رجليهِ على تناول الاشياء والقبض عليها . قد توصل الى نتيجةٍ حسنة وذلك باعتمادهِ على رجليهِ في مقام يديهِ

كان لديكورني منذ نعومة اظفارهِ ميلٌ فطريٌ للرسم والتصوير . بحيث انهُ كان يقبض برجلهِ على الاقلام الملونة فيبريها ببراعةٍ فائقة ويبتدي بان يرسم بها . واتفق ان استاذ التصوير في مدرسة ليل المدعو واتو ابصر ديكورني مجتهداً في الرسم وتحقق ما عندهُ من الميل لفن التصوير فاحب ان يعتني بامرهِ ويعطيهِ بعض امثولاتٍ في هذا الفن . وقد نجح ديكورني الفتى نجاحاً باهراً ونال في مدة بضع سنوات اول جائزةٍ سنوية تعطى في هذا الفن في مدينة ليل

ثم انهُ عقبى ذلك شخص الى باريس ليزداد تثقيفاً في صنعتهِ وكان لهُ ذلك اذ نالت مصنوعاتهُ حظاً وافراً ومقاماً رفيعاً في معرض باريس واحرز عليها جملة اوسمةٍ وحق لهُ ان يعرضها مع مصنوعات المصورين البارعين في ذلك العصر . وفي سنة ١٨٣٢ اوصتهُ الحكومة ان يصور رسم الملك ليوضع في دار حكومة ليل . وفي السنة التالية اوعزت اليهِ ان يرسم نظيرهُ لدار حكومة سيسترون . ولقد اشتغل ثلاث سنين متوالية في تصوير المجدلية منطرحةً على اقدام السيد المسيح بعد بعثهِ من الاموات . ولما أتمَّ تصويرها واحكم اتقانها عرضها للمبيع فاشتراها

منهُ وزير الداخلية بثمن وافر

كان تركيب رأس ديكورني هائلاً فكانت جبهتهُ عاليةً جداً وعيناهُ حادتي البصر، وحديثهُ رقيقاً يتقن بهِ نظير النبهآء ذوي الشعور الصحيح وارباب الفنون السامية. وقد تمت لهُ الشهرة خصوصاً في فن التصوير الذي عظم سمعتهُ وزاد في تعارف الناس بهِ. اما والدتهُ فكانت تحبهُ كثيراً وتعتني بامرهِ وتسهر على حراستهِ منذ مولدهِ. وهي تضمهُ الى صدرها كانهُ من الاولاد المكملي التركيب البديعي المنظر. فلما شبّ وبلغ اشدهُ اخذ يقابل تلك الوالدة الشفوقة بما في وسعهِ من الشكر والارضآء. وكان يعولها مما يكسبهُ (من كد رجليهِ لا من كد يديهِ) فكان انعطافهُ هذا البنوي نحو تلك الام المسكينة مما يخفف من بلواها ويجعلها في غبطةٍ من العيش وفي اسمى مراقي السعادة

كان يُشاهد من بضع سنواتٍ في ميادين باريس العمومية ومفارق طرقها رجلٌ اقطع الذراعين منذ مولدهِ يعمل برجليهِ اعمالاً مختلفة الاشكال وبغاية الاهمية يدهش بها المارين ويستلفت انظارهم. وقد اتخذ ذلك وسيلةً يرتزق بها ويستمطر اكف مشاهديهِ

كان يقبض المومأ اليهِ باحدى رجليهِ على ريشة اوزةٍ ويتناول بالاخرى سكيناً يبري بهِ الريشة ثم يأخذ قرطاساً ويكتب فيهِ بغاية الضبط والاتقان. وهو يتفنن في الكتابة فيرسم جملة اشكالٍ خطية يعسر على اكبر خطاط ان يأتي بمثلها. وكذلك كان يأخذ ابرةً ويضم فيها خيطاً بمنتهى السرعة ويخيط خياطةً متقنةً نظير امهر الخياطات.

ومن ثمَّ يتناول برجليهِ غدارةً فيحشوها بالذخيرة و يطلقها في الفضآء . وكان يقدح بزنادهِ فيشعل بهِ غليونهُ و يبتدي بالتدخين . و يأخذ لولباً ينزع بهِ سدادة زجاجةٍ من المشروب و يفرغها في كأسٍ و يشربها على نخب مشاهديهِ . الى غير ذلك من الاعمال الدقيقة التي كان يعملها وقد ضربنا عنها صفحاً (١)

فيستنتج مما تقدم ان تلك البراعة المدهشة باستخدام عضوٍ من الاعضآء في اعمالٍ ليست هي من وظائفهِ مما يبرهن على ان التمرين المستديم يبذل بعد زمانٍ طويل حركة ذاك العضو و يغيّر الشكل المتصف بهِ . ذلك ان اباهمي هذا المسكين الناقص التركيب كانتا اطول بكثير واشد ليونةً من طبيعتها الاعتيادية بحيث كان هذا التكييف المكتسب بالتمرين سبباً لاتخاذ الرجلين في مقام الذراعين اللتين افقدتهُ اياهما الطبيعة

---

(١) ولا بد من ان يتذكر بعض اهالي القاهرة بالفتاة الحلبية التي قدمت الى هذه العاصمة من مدة اربع سنوات وعرضت نفسها في جهة روض الفرج ليشاهدها الناس . فكانت يداها في نهاية القصر لم تكن لها سوى قطعة من ذراع بغير عضد ولا مرفق ولها اصابع غير كاملة العدد ولا الحجم . وكانت تستخدم رجليها في الخياطة والكنس وغسل الثياب وغير ذلك . وتتناول بهما آلات الطعام من الملعقة والشوكة وتأكل بهما وتأخذ فنجان القهوة وكوب الماء فتشربه كذلك

القسم السادس

﴿ في تبدل الاعضآء وانقلابها ﴾

تُعد في المرتبة الثالثة الهوَل التي انقلب فيها عضوٌ او اكثر من عضوٍ عن وضعهِ الطبيعي وهي في الحقيقة اوفر عدداً مما يظن . ذلك لان هذا الانقلاب والتبدل في اولئك الاشخاص يكون مركزهُ غالباً في داخل الجسم فيمر صاحبهُ في سبيل الحياة ويجتازها ولا يعلم ما في جسمهِ من الانقلاب ولا يقع ذلك تحت نظر احد

جآء في احد تقارير الندوة العلمية الباريسية ان احد الشيوخ المعوّهين تُوفي في سن الثانية والسبعين ولدى الفحص التشريحي الذي اجروهُ لهُ وجدوا في جسمهِ انقلاباً من اهم الانقلاب واغربهُ. وذلك ان جميع الاعضآء التي مركزها الطبيعي عادةً في الجنب الايسر شاهدوها موضوعةً في الايمن وكذلك الشريانات والعروق والامعآء قد شاهدوا فيها هذا التبدل عينهُ. وليست هذه الرواية هي الوحيدة في تلك التقارير بل يوجد لها امثال عديدة ضربنا عنها صفحاً واكتفينا بهذا القدر

يرتأي كثيرٌ من المؤلفين الاقدمين وبعض من العصريين وجود هولٍ فيها طلائع اجنحةٍ ونبت قرونٍ او زعانف او اذناب الخ . . .

ويزعمون بانها من الامور الصحيحة الممكنة الحدوث . ويستندون

بذلك على التواريخ القديمة والنقوش التي تمثل بشراً برؤوس الطير او الاسود او الدبابات .... او رجالاً لهم جسم الخيل او ارجل الاوعال .... ويستنتجون من ذلك ان الساتير ربما وجد من اقتران المرأة بالوعل . وان هذا الاقتران لا بدّ من انهُ قد تمَّ حدوثهُ ولولاهُ لما قام موسى محرماً ذلك وجاعلاً اياهُ تحت طائلة الموت (١)

اما اصحاب هذا الزعم وملفقو تلك الاراجيف فلا شك بانهم كانوا يجهلون ان اقتران مخلوقين من جنسين مختلفين لا يأتيان بثمرةٍ ويستمران عقيمين ابداً . وان كل ما ذُكر عن تلقيح الرعاة الصقليين للمعزى وتلقح المتعبدات المصريات من اوعال مدينة ممفيس كل هذه يجب ان نعتبرها رواياتٍ قصصية . ذلك لان التلقيح لا يمكن حصولهُ على هذه الصورة مطلقاً . وان الهول البشرية التي فيهـا بعض شبهٍ بالحيوانات ما سببهُ الاَّ توقّفٌ في حركة الجنين كما اشرنا سابقاً (٢)

ولنذكر هنا بعض امثالٍ عن هولٍ تختص بهذه المرتبة الاخيرة لكنا لا نحتم بوجودها بل نكتفي بذكر المؤلفات التي استقيناها منها

---

(١) سفر اللاويين ص ٢٠ ع ١٥ واذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة يميتونها

(٢) حاشية للمؤلف: ان الحوادث الغريبة الغير قابلة التصديق التي نأتي على ذكرها قد استخلصناها من التآليف العلمية . اما اليوم وقد ارتقى العلم وبلغ منزلة اسمى مما كان عليه فجآء مبيناً ان هذه الحوادث مبالغ في امرها او هي مختلة لا يجب اعتبارها ولا تستحق التصديق وعليه قد اتبعنا كل حادث عجيب وبعيد عن التصديق بكلمة النفي أو الشك اذا كان مشكوكا بامره .

والعلمآء والرحّالات المروية عنهم

ذكر العلامة شكراير في مجموعة الندوة العلمية البار يسية ان في سنة ١٦٨١ وجدوا في النهر الذي يحيط باسوار مدينة سيزا هولة رأسهُ رأس انسان والجسم جسم ثور. وان في وسط جبهتهِ المتسعة التي تمثل جبهة الثور كانت تُشاهد عينٌ مطبوقة. وعلى جانبي هذه العين توجد عينا ثورٍ كبيرتان. اما اذناهُ فكانتا صغيرتين اشبه باذني الهر، وتحت ذقنهِ شعرٌ طويل يماثل لحية الوعل، ورجلاهُ كانتا اشبه برجلي الثور، وذنبهُ ذنب خنزير وكان هذا الهولة من جنس الاناث [1] (خرافة)

ويوجد في المجموعة ذاتها انهُ كان يوجد عند الاستاذ تانبونيت مولودٌ سيكلوب اي بعين واحدة لهُ من العمر عشرة اشهر. وكانت عينهُ مثلثة الزوايا حادة البصر وهي تشغل قسماً كبيراً من جبهتهِ وكان اعنش اي انهُ كلٌ من يديهِ ورجليهِ بست اصابع وكان يُشاهد في مؤخر سلسلتهِ الفقارية طلع ذنب (خرافة)

ولدت زوجة احد الرعاة مولوداً كانت اصابع يديهِ ورجليهِ ملتحمةً نظير رجلي الاوز وبينما كان هذا المولود وهو في سن الثالثة من عمرهِ محمولاً على كتف والدتهِ التي كانت تسير بهِ على شاطيء احدى

---

(١) كتب العباس بن المعلي الكاتب الى القاضي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة قال: ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهودي زنى بنصرانية فولدت ولداً جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما فامره القاضي بصلبهما

البحيرات فما شعرت الام الا وولدها قذف بنفسهِ في الماء . اما هي فقد هلع فؤادها لاول وهلةٍ واخذت تصيح باعلى صوتها نادبةً مستغيثة . الاّ انها قد سكنت روعها قليلاً لما نظرت ولدها يطفو على وجه الماء سابحاً نظير ما يسبح طير الاوز (قصة خرافية متداولة بين العامة في فرنسا)

يوجد في مؤلف عجائب الطبيعة رسوم هولٍ عديدة من ذوي القرون ومنها رسم غلامٍ لهُ قرن وعلٍ في يدهِ اليمنى . ومثلهُ في رجلهِ اليمنى ولهُ ايضاً ذنبٌ طويلٌ يتدلى بين ساقيهِ

يُشاهد في مولف التشريح المرضي للاستاذ كريقليه رسمٌ منصوصٌ عنهُ ما يأتي : كان للمدعو فرنسوى تارلّو خمس وثلاثون سنة من العمر لما اتى بهِ الماريشال دي لافردان الى باريس وقد شاهدوا في جبهتهِ قرناً صلباً ناشباً نظير قرن الوعل ، ويتدلى من ذقنهِ شعرٌ خشنٌ الامر الذي كان يمثلهُ بهيئة الساتير

القسم السابع

﴿ في النساء ذوات الذقون ﴾

ليس هذا بالحادث النادر ولا بالامر الغريب كما يُظن لاول وهلةٍ بل يوجد عددٌ وافرٌ من الامثال التي تبرهن على ان الذقون ليست هي من مخصصات الرجال مطلقاً بل انهُ يوجد لبعض النسوة لحى هي

اجمل منظراً واطول شكلاً مما للرجال

كان يُشاهد في مدينة اكسبورغ في سنة ١٦٥٥ امرأةٌ تسمى بارب اي لحية كان جسمها مغطىً بالشعر من مفرق رأسها حتى اخمص قدميها . وكان يقال فيها انها من اناث القرود . وقد عُرضت في سن الثانية والعشرين فكانت النـاس تشاهدها تلقاء بعض دريهماتٍ فيجدونها ذات لحيةٍ طويلة متدلية حتى وسطها (مبالغ فيها)

وقد يُشاهد في ايامنا نساءٌ بلحى لكنهنَّ لا يبلغنَ تلك المرأة التي جيءَ بها الى باريس في سنة ١٧٧٤ وهي التي فضلاً عن كون لحيتها متسعةً طويلة الشعر شبيهة بلحى النساك والمتعبدين فقد كان وجهها جميعهُ مغطىً بشعرٍ كثيف ذلك ما جعل الناس يدعونها بذات رأس الدب

(انظر الرسم ١٩) تشاهد غلاماً في جسمهِ بقعٌ متسعة ونامياً في نصف كل منها ما ينبت عادةً في اجسام الرجال . وفي النصف الآخر شعرٌ نظير وبر المعزى وقد اجتهدوا كثيراً بمعالجتهِ بوسائل عديدة لينزعوا منهُ ذلك الوبر فكان سعيهم يذهب سدىً بلا فائدة . اذ لم يكن يبطوء الوبر قليلاً حتى انهُ يرجع الى نموهِ السابق بسرعةٍ قوية و باشد مما كان . ولقد اغفلوا طريقةً واحدةً لنزعهِ تماماً كانوا يعرضون بها حياة الغلام الى خطر الموت . وكانت تلك البقع آخذةً دائماً بالامتداد وهي تتسع من يومٍ الى آخر ويزداد الوبر فيها نمواً وطولاً . وما بلغ الغلام سن البلوغ حتى غطى الشعر جسمهُ واصبح منظرهُ من اقبح المناظر واشنعها . وقد عُرض ليشاهدهُ الجمهور تحت اسم اورانغ اوتانغ

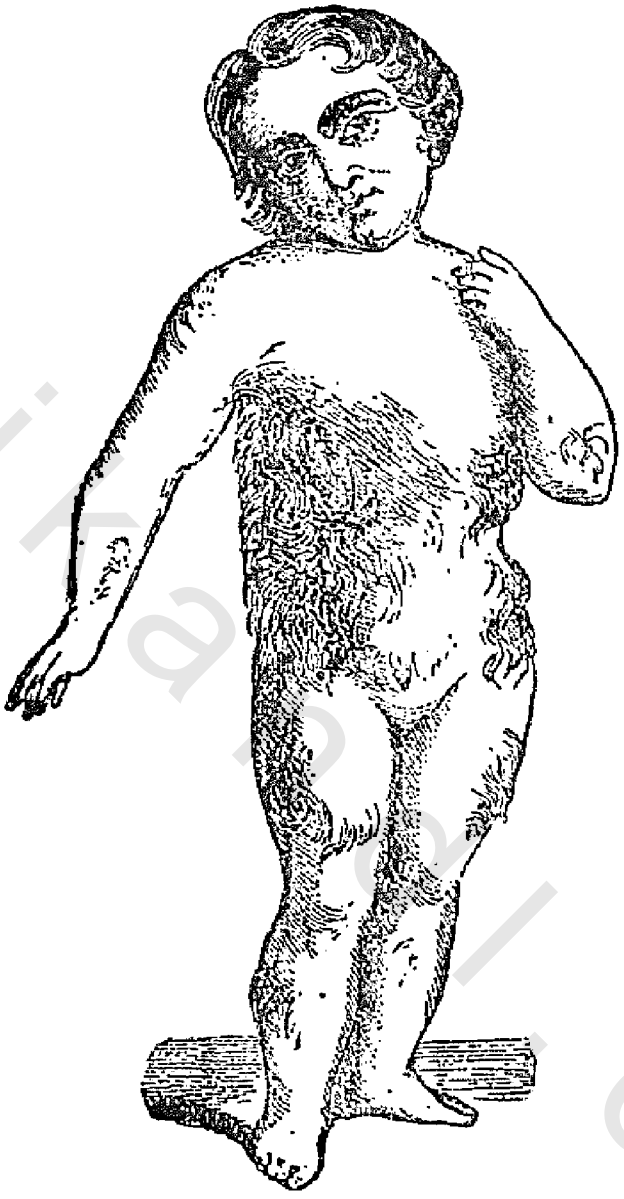

الرسم ١٩

متمدن وسيح بهِ في اكثر عواصم اوروبا ومدنها

ذكر العالم چوفروى بعض ملحوظاتٍ غريبة الوضع نادرة المثال وهو انهُ اذا سقطت من المبيض في الرحم بيضتان متلقحتان في وقتٍ واحد وتأصلتا في جوانبهِ والتصقتا بنقطةٍ من طرفيهما فانهما تحدثان هولة

مزدوجاً او مثلثاً وهلمّ جراً . او ان ينتج عنهما هولة مزيد اي فيهِ بعض اعضآء زائدة عليهِ . اما اذا كان قد توقف الجنين عن دورتهِ في اثنآء حركتهِ فيتسبب عن ذلك ان يتمثل عضوان من الجنين في عضوٍ واحد وهو نتيجة الهول الناقصة . ثم انهُ بمقدار الاختباط الذي يحصل في الرحم بمقدارهِ تأتي الهول متخاذلةً وغير منتظمة التركيب . فضلاً عن انهُ يغلب على الظن ايضاً ان النسآء اللواتي ابتلينَ ببعض ادوآءٍ عصبية كالهستريا والخفقان وما هو على شاكلتهما . والنسآء المتقدات المزاج وذوات الوساوس . والنسآء الجبنآء اللاتي يتخوفنَ من لا شيء هؤلآء على الغالب اكثر استعداداً لتوليد الهول . وعلى سبيل الافتراض ان واحدة من هذه النسوة قد اصيبت مثلاً برعدةٍ مفزعة في اليوم الثامن بعد حملها او حدثت معها رجفاتٌ قوية فائقة الحد . او ضغط عليها كابوسٌ مخيف تخيلت فيهِ مثلاً انهـا معانقة احد الوحوش الضارية او كانت هدفاً لتخويف احدى الساحرات اياها . ففي حالاتٍ كهذه قد يضطرب عمل الحمل من تقلص الرحم وتشنجهِ و يصبح الجنين اقل او اكثر تغييراً

تكلمت اصحاب التآليف القديمة و بعض من مؤلفي الاجيال المتوسطة والحاضرة عن وضع المواليد الشواذ الخلق الذين كانوا يلقون الرعب في قلوب والديهم وانسبآئهم حتى تضطر تلك الاسر لتضحية الضحايا واقامة التطهيرات عقب مولدهم . وقد كانوا يهرعون الى مثل هذه الاعمال وتلك الخزعبلات كل ما آنسوا في المولود بعض ملامح تتعلق بملامح البهم او بعض الحيوانات . اما اليوم وقد سطعت انوار

المدنية و بسطت حبال اشعتها على اكثر الامم فاصبح هذا التخوف الوهمي يتقاص ظلهُ شيئاً فشيئاً . ومع ذلك ففي بعض القرى التي يخيم فوقها الجهل وتسود فيها البربرية ما زالوا ينذون المولود اذا لاحظوا فيهِ تلك السمات او اشتبهوا بها

فقد ذكروا من مدةٍ قريبة ان امرأةً من سكان البادية بعد مخاض موئلم انهك قواها واذاقها ضروب المرائر وانواع الاوجاع وضعت مولوداً دميم المنظر قبيح الخلق . ولما كان موجوداً بين الحضور بعض الاتقياء والتقيات فمنهم من زعم بانهُ لاحظ ان هذا المخلوق يشبه هراً في حالة الغضب والبعض من شبّههُ بيومةٍ ذعرى والبعض بذئب ... وقد اشتد الخصام وعلا الاجاج فيما بينهم بحيث كان كل منهم يود ان يؤيد زعمهُ ويجعل الحق بجانبهِ . و بينما هم على تلك الحالة اذ سمعوا صوتاً ظنوهُ صاعداً من تحت الارض اسمعهم هذه الكلمات وهي « لم تصبوا فيما زعمتم يا اخوتي ان هذا يشبه الشيطان » فوقتئذٍ ذعر الحضور وارتعدت فرائصهم وتذمروا بقولهم انهُ اذاً ابليسٌ صغير . وللوقت تناول واحدٌ منهم مديةً وطعن بها هذا المولود البري . ثمَّ وضموهُ طي فراشين وقاموا باحراقهِ ولما اتموا هذا العمل الفظيع انقلب كلٌّ منهم يغسل يديهِ وهو يرسم اشارة الصليب

اما حوادث كهذه فقد اصبحت مع الايام نادرة الحدوث اذ تنبه رجال الضبط لها واخذ البوليس يلقي القبض على كل من يأتي مثل هذه الجرائم وتلك المنكرات

الفصل السادس

﴿ في الساتير[1] ﴾

لم تكن تشك الاجيال الخالية بوجود هوَلٍ نصفهم انسان ونصفهم حيوان ذلك لان النقوش والرسوم التي سلمت من كوارث الايام تمثل لنا مخلوقاتٍ خيالية هي نظير الساتير، والفون، والاجيبان، والسيلفان، والتيتير، والقانتور، والسفنكس

ونخال اليوم ان هذه الاشكال وتلك الرسوم لا بدَّ من انها تنطوي على معنى رمزي كانت تفسرهُ وتدل عليهِ . بقطع النظر عما تمثلهُ من الصور اذا كان منظرها مقبولاً او قبيحاً . اما مؤرخو هذه الاعصر فانهم بعيدون عن الافتكار بمثل هذه الرموز والاحتفال بتلك التصاوير . وقد اثبت هيرودتس المؤرخ في تاريخهِ ان طائفةً باسرها من مخلوقات الفون كانت تقيم في غابات سكتيا الكثيفة ويؤكد العالم

(١) الساتير مخلوق كان يمثل في اساطير الاقدمين بنصف انسان ونصف وعل وما يقاربه الفون والاجيبان والسيلفان والتيتير . وكذلك يمثلون القانتور بنصف انسان ونصف حصان . والسفنكس المسمى بابي الهول يمثلونه برأس امرأة وباقي جسمه بدن اسد

بلينوس [١] نفس الامر

ذكر بليتارك [٢] انهُ في زمن سيلاّ [٣] قبضوا في تيمفا على فون مكمل الخلق وأتوا بهِ الى روما وقد شهد الذين رأوهُ ودنوا منهُ انهُ لم يكن لهُ لغةٌ يتكلم بها بل كان صوتهُ مشتركاً بين صهيل الحصان وثغآء [٤] الوعل وقد نقلوا هذا المخلوق وداروا بهِ في اكثر حلقات الرومانيين الاريستوقراطيين واندية مجتمعاتهم فكانت حركاتهُ وسكناتهُ تدل على عدم ميلهِ الى مجتمعات الرجال . وبعكس ذلك كان يظهر عليهِ ميلٌ شديد ورغبةٌ زائدة في مجتمعات النسآء . بحيث انهُ كان يتأثر من مشاهدتهن وهو تارةً يمطط جسمهُ وطوراً يتلع عنقهُ الامر الذي كان يدعوهم لتقييدهِ خوفاً من اذيةٍ يأتيها ومضرةٍ تبدر منهُ (قصة هزلية)

روى فيلوسترات [٥] انهم قبضوا في الحبشة على اجيبان قوي العضل سريع العدو ذي طبعٍ لطيف قد توصلوا الى تمدينهِ وايناسهِ

---

(١) بلينوس عالم طبيعي مشهور عند الرومانيين الف تاريخاً طبيعياً في ٣٧ جزءًا وهو اشبه بموسوعات العلوم وهو من العلماء الجليلي القدر ولم تزل مؤلفاته معتبرة حتى يومنا الحاضر

(٢) بليتارك مؤرخ يوناني قد اشتهر بمؤلفاته وهو صاحب تاريخ ومجموعة آداب

(٣) سيلا حاكم روماني من الحكام المشهورين الذين كان الرومانيون ينتخبونهم في حين الازمات الملكية

(٤) الثغآء هو صوت الضان

(٥) فيلوسترات كاتب يوناني نشأ بين القرن الثاني والثالث وولد في لمنوس

بكل سهولةٍ و بدون ان يعانوا في ذلك تعباً . فضلاً عما كان لهُ من الميل الشديد نحو الاولاد حتى انهُ كان يتبع خطواتهم و يقصد محال اجتماعهم . واذ لم يكن باستطاعتهِ مداعبتهم بالكلام وممازحتهم بالحديث والتداول معهم بالحكايات والقصص لفقدانهِ خاصية النطق وعدم مقدرتهِ على الكلام . فكان يستعيض عن ذلك باللعب معهم تارةً بالقفز وطوراً بالوثبات الى غير ذلك من الالعاب والملاهي المضحكة (قصة اشبه بالسالفة)

اثبت الكهنة المصريون ان طائفةً من ابي الهول المولعة بالخضرة والنباتات كانت تقيم بقرب ينابيع النيل وقد اقترف رجال ذلك العصر خطأً فظيعاً بحملهم عليها واستئصالهم شأفتها من عالم الوجود زاعمين بكونها من المخلوقات السافلة

فلا يستبعد اذاً ان يكون الاقدمون قد احتسبوا كبار القرود نوعاً من انواع البشر . او ان النقل والروي اللذين يفسدان دائماً روايات شهود العيان . او ان تخيلات الشعرآء اولئك الذين يتيهون دائماً في مسارح الغلو وميادين التعجب هي التي احدثت الاجيبان والساتير وامثالها

اثبت القديس جيروم في سيرة حياة القديس انطونيوس الكبير ما يلي : ان هذا الناسك التقي فضلاً عن التقآئهِ في الصحرآء بالبسةٍ على شكل القنتور قد تقابل مع طائفةٍ من الساتير الصالحين الذين لحسن الطالع لم يظهروا لهُ العدوان ولا ابدوا نحوهُ اقل مكروه . و بعد ان تناول واحدٌ من الساتير معهُ الطعام طلب منهُ نعمةً وهو ان يصلي لله لاجلهِ .

وقد وعدهُ القديس انطونيوس بذلك عن طيب قلبٍ وصلاح سريرة

وقد علّق القديس جيروم هذا الملحوظ على ما تقدم : وهو ان وجود مخلوقاتٍ من الساتير لمن الامر المحقق لديهِ والذي لا يقبل الريب . لاسيما وان منهم من كانوا يدخلون في الرهبانية ويصبحون رهباناً اجلاّء

فماذا يقال اذاً بأزاء شهادة ايمانٍ بهذا المقدار واضحة البيان أيجب علينا ان نصدقها او نشك بامرها . اما فرنسوى هيدلين المعروف بالتقي والمشهود لهُ بالورع فانهُ فضلاً عن الاحترام الفائق الذي كان يحترم بهِ القديس جيروم مع هذا لم يشأ ان يصدق بالساتير ويقرّ بهِ ولقد اوضح في خطبةٍ لهُ علمية ان الساتير ما هي الا مخلوقاتٌ خيالية وان الذي تشرف بتناول الطعام مع القديس انطونيوس لم يكن سوى ابليساً محتالاً خرج من الجحيم ليجرب هذا الناسك التقي او ليهزأ بهِ

على اننا نضحك اليوم لدى مراجعتنا قصصاً كهذه وهمية محتسبين الاقدمين الذين تخيلوها وزفوها الينا من القوم المتوهين ذوي الاحلام واصحاب الشعوذة . ومع ذلك فاننا نحن ايضاً مقصرون غاية التقصير بهذا الصدد واقل تسامحاً منهم . فضلاً عن كون عصرنا هو الاوفر نوراً والاكثر تقدماً بالعلوم الطبيعية . فاذا كنا نحن من القوم الذين لا يعتقدون بالساتير ولا بالاجيبان فنحن نعتقد اليوم بمخلوقاتٍ أُخرى لا حقيقة لها وهي ممتنعة الوجود فضلاً عن معتقدنا برجوع الارواح وبالجان وامثالها

القسم الاول

﴿ في التريتون والسيرين [١] ﴾

اذا كان هوميروس، وهيرودتس، وديموستينوس، وبلينس، وبوزانياس، وابيوس، واثيد، واتينه قد زعموا بان مملكة نبتون (اله البحر) كانت حاوية نوعاً من السيرين فالعلماء العصريون نظير فرنسوي ماساران، وفولغوز، وبتروس جالوس، وجورج طرابيزونتيوس، وتيودور غازا، وكونراد، وكيرشر، وبرتولان، وامثالهم. وجميع هؤلاء من الرجال ذوي الجدارة والشهرة الطائرة قد ايدوا زعم الاقدمين وذهبوا مذهبهم. ولقد اكد نقولا ريجار ان اسرة مانيني في الاندلس قد تسلسلت من تريتون — واكد برتولان انهُ ساخ بيدهِ جلد سيرين بديعة الجمال ظريفة النقد وحفظ عندهُ جلدها — ويؤكد كيرشر انهُ رأى بعينهِ جنية بحرية — واثبت روديله في تاريخ لهُ عن طبائع الاسماك انهُ في سنة ١٥٣١ شاهدوا في بحر الشمال حبراً مائياً على رأسهِ تاجٌ وفي يدهِ عصا وهو متأهبٌ لاعطاء البركة ! ..... [٢]

---

(١) التريتون اله بحري نصفه انسان ونصفه سمكة والسيرين الهة بحرية نصفها امرأة ونصفها سمكة وهي التي تدعوها العرب بعروسة البحر او ابنة البحر

(٢) مما يقضي بالعجب ان مسألة الحبر المائي قد نوه عنها بعض علماء الفرنجة كما ذكرها بعض علماء العرب : فقد ذكر الدميري صاحب حياة الحيوان

كل ذلك لا يوازي قصة الحوت الذي ابتلع نوتيين هولنديين وقد صادوهُ في اليوم عينهِ فلدى اخراجهم اياهُ من البحر وتمزيقهم بدنهُ وجدوا ان الشخصين اللذين ابتلعهما كانا في جوفهِ حيين متمتعين بصحةٍ جيدة وهما كانا ناعمي البال ومتكئين في جانب بطنهِ (اضحوكة)

لقد يقف المطالع مدهوشاً لدى مشاهدتهِ اناساً اذكياء اصحاب خبرةٍ واطلاع وهم من الاناس النبهآء يروّجون قصصاً ملفقة كهذه الاراجيف . ألا يخيل لهُ اذاً ويدور في خلدهِ ان مثل هؤلآء القوم يكونون مدفوعين الى ترويج تلك الاضاليل ونشر هذه الاضحوكات لمنفعةٍ شخصية او لغرضٍ سياسي او لمأربٍ ديني حتى لا يقال عنهم انهم من الاناس المعتوهين المبتلين بالوساوس والاوهام

الكبرى عن انسان الماء قال : انه يظهر في بحر الشام في بعض الاوقات من شكله شكل انسان وله لحية بيضاء ويسمونه شيخ البحر فاذا رآه الناس استبشروا بالخصب

وذكر القزويني صاحب عجائب المخلوقات عن ابي حامد فيما يختص بعجائب بحر الروم قال : ان الشيخ اليهودي وجهه كوجه الانسان وله لحية بيضاء وبدنه على شبه بدن الضفدع وشعره كشعر البقر وهو في حجم عجل يخرج من البحر ليلة السبت الى البر حتى تغيب الشمس

وجاء في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين ابي عبد الله الانصاري ما هو : ومن حيوانات بحر الروم الغريبة ومنها موضع وجه الحجر بالقرب من طرابلس الشام سمكة لها وجه آدمي بلحية بيضاء ولون جسده كلون الضفدع وهي على قدر العجل ويسمى الشيخ اليهودي . يخرج من البحر ليلة السبت قبل غروب الشمس الى البر ولا يزال الى غروب الشمس ليلة الاحد فيدخل البحر . وقد ذكر مثل هذا خلاف هؤلآء فقد اكتفينا بايراد ما تقدم

على ان الشهادات العديدة التي وردت في الوقائع اليومية من شهودٍ عيان دفعتهم الصدفة في بعض الاحيان الى رؤيتهم اناساً في اليم وفي عرض البحر . ذلك ما يدعونا الى ان نصدق بان هذا النوع البحري قد انقرض نسلهُ اليوم . ولا يبعد ان يكون قد وجد فيما مضى نظير انواعٍ مآئية اخرى انقرضت من عالم الوجود ولم نعد نجد منها الاَّ ما كان مطموراً وقد سلم من التلف والضياع

على اننا لم نأتِ على ذكر هذه الشهادات لنثبت وجودها ونزيدها تأكيداً . بل اننا نرتأي انهُ ليس في الطبيعة شيءٌ مستحيل الا ما كان من المستحيلات المطلقة الغير القابلة الحدوث . فهل من الصواب اذاً ان ننفي وجود الافاعي المسماة بالسوريان او حيوان الماستودونت وامثالهما لانهُ قد انقرض نسلها و بادت من وجه الغبرآء . واذا كانت هذه الحيوانات قد وجدت قبل الطوفان ثمَّ بادت فلا يُستغرب ان يكون قد وُجد نوعٌ بحري لهُ بعض شبهٍ بطائفة قرود السيميان . وما على الفلاسفة واولي الخبرة والاطلاع الاَّ ان يتناولوا هذه المسألة ويتروّوا فيها ويقضوا حكمهم بها

يزعم كثيرٌ من العلمآء الطبيعيين ان العضو الذي يستمر دائماً على تمرينٍ واحد يحصل انهُ بعد مدةٍ من الزمن يكتسب التبسط والشكل والخاصية الطبيعية المختصة بهذا التمرين . لذلك ليس هو من المستحيل ان اصابع واباهيم مخلوقٍ لهُ الشكل الانساني مقيمٍ في قلب البحار ان تلتحم بغشآءٍ لحمي وتعود ممثلةً يدي ورجلي الانسان .

ثم انهُ اذا كانت الطبيعة هي التي اوجدت الانسان الارضي فمن ذا الذي يصدها عن عملها و يعارضها في امرها اذا رغبت في ايجاد الانسان الملائي . فهذه مسألةٌ يجب ايضاً على المطالع اللبيب ان ينتبه لها و يعتني بحلها . ولنأتي الآن على ذكر بعض الحوادث الاكثر مشابهةً والاقرب وقعاً فيما نحن بصددهِ بدون ان نؤكد حدوثها في كل مرةٍ

قامت الصحف الانكليزية من مدة ثلاثين سنة خلت تطنطن بحادثٍ غريبٍ في بابهِ ألا وهو قصة سيرين عظيمة القد شوهدت في ساندسيد في ايكوسيا . ولقد عقّب على ذلك صحافيو الفرنسيس في ترديد صدى زملائهم الانكليز وقد حوروا روايتهم بعض التحوير فكان ذلك داعياً لكثرة الاجاج واحتدام نيران الجدال في القرن التاسع عشر بشأن هذه الهوَل البحرية وامكان وجودها ام عدمهُ . وكانت النتيجة انهم شكّوا بامرها لكنهم لم يشاؤوا نفيها

كان لهذه السيرين الايكوسية المحكى عنها عينان جميلتان ، ووجهٌ صبوح ، و بطنٌ بيضاء صقيلةٌ براقة ذات استدارةٍ بديعة . وكانت يداها تحيفتين ظريفتين تحاكيان ايدي النسوة الاريستوقراطيات . وهي كانت لاهيةً بسبل جدائل شعرها الطويل المنسدل على كتفيها بينما كانت ترمق ببصرها الجمع الوافد الى مشاهدتها والتمتع برؤيتها . ومع انها كانت عارية الجسم فلم يكن ذلك مما تشعر بهِ و يُظهر عليها دلائل الحياء . ولقد عجب ببهائها وحسن منظرها كل من رآها ووقع نظرهُ عليها . وقد ظلت مقدار ساعةٍ من الزمن ظاهرةً للعيان ثمَّ توارت

عن الابصار باسمة الثغر بين اضطراب البحر وتموجات الماء (سخرية)

رأى ضابطٌ انكليزيٌ يدعى شميد في سنة ١٦١٤ في انكلترا الجديدة ابنةً بحرية ذات حسنٍ باهر وجمالٍ رائع . وقد كان شعرها السماوي اللون يسبح فوق كتفيها البيضاويين ولها نهدان مستديران نظير الكمثرى . وكانت سريعة الحركة رقيقة القوام ذات ميسٍ وانعطاف تبتسم ابتساماتٍ لطيفة وترسل نظراتٍ حلوة خفية ... اما هي فكانت نظير السيرين يمثّل الجسم الاعلى من جسمها جمالاً يسبي العقول ويفتن النواظر وينتهي النصف الآخر بذنب سمكة[1] (هزلية)

كان الرّحالتان ماريلا ومانكونيس وعالمٌ طبيعي هولندي الجنس والاب هنريغس شهوداً عياناً لمشاهدتهم عدداً من السيرين والتريتون التي تقيم تحت الماء وتعيش فيه . على ان رواياتٍ كهذه قد كان يُعتقد بها فيما مضى ويترجح لدى الناس حدوثها . اما اليوم وقد اظهر علم الفيزيولوجيا بطلانها وقضى باستحالة وجودها فلم يعد في الامكان قبولها ولا من المحتمل الاقرار بها

---

(١) ذكر الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى عن بنات الماء قال . قال ابن ابي الاشعث هي سمكة ببحر الروم شبيهة بالنساء ذوات شعر سبط الوانهن الى السمرة

وقال صاحب عجائب الاخبار في بحر فارس سمكة وجهها كوجه الانسان وبدنها كبدن السمك وعلى وجهها نقط وتظهر على وجه الماء

الفصل السابع

﴿ في شواذ خلقة الاعضآء التناسلية ﴾

خصصت الطبيعة الدرجة الحيوية والاقيسة اللازمة للاعضآء التناسلية كما خصصت ذلك لكل عضوٍ من اعضآء الجسم الانساني . فكل مرةٍ تتعدى هذه الاعضآء التناسلية ما قل او كثر كيفية التركيب التي خصصتها الطبيعة لها ، يكون هنالك شواذٌ في خلقها وخللٌ في تركيبها يقضيان بوجهٍ عام على من أُبتلي بذلك ان يكون غير صالحٍ للتوليد وليس فيهِ الاستعداد اللازم للاتيان بنسلٍ من نوعهِ

يتخاذل في الرجل القضيب والانثيان بزيادةٍ او نقصان فيها . وقد ورد في مجموعة التقارير الطبية ذكر اشخاصٍ بلغت اعضآؤهم التناسلية حجماً هائلاً و بعكسهم بعض اشخاصٍ لم يكن لهم سوى طلائع اعضآء فقط . ففي كلتا الحالتين يترجح عقم الشخص وعدم مقدرتهِ على التوليد . ومن الجائز ان يحصل بالمثل هذا الاختباط في الانثيين وتكون نتيجتهُ نظير ما تقدم . اما التخاذل الحاصل من جرآء بعض الادوآء المرضية فيجدهُ المطالع فيما بعد في كتاب قانون الزواج الذي

سنزفهُ الى عالم القرآء في اول فرصة

يحدث ايضاً عند النسآء خللٌ في اعضآء التناسل او تخاذلٌ بزيادةٍ او نقصان في كيان تركيبها . منها تضخم الشفرين وبروزهما من الفرج وتدليهما على الفخذين نظير ما لنسآء الهوتنتوت، وكبر البظر وبلوغهِ حجماً هائلاً حتى يقرب شبهاً من القضيب . او انهُ يحصل تمددٌ واتساعٌ عظيمان في الفرج او ان يوجد رحمان او ان يكون المبيضان مفقودين الخ ..... فكل هذا تخاذلٌ يسبب في غالب الاحيان العقم في الزواج . ولما كانت هذه التشوهات وامثالها مفصلاً عنها في كتاب قانون الزواج المشار اليهِ مع ذكر الوسائل التي يجب اتخاذها في معالجتها اذا كان من المستطاع فلاحاجة بنا اذاً لايرادها هنا والاتيان بذكر اعراضها وتفاصيلها

اما الصفة الشاذة الاكثر اهميةً من جميع شواذ الخلق التناسلي فهي بلا جدلٍ الخنوثة التي نأتي على ايراد تاريخها الآن

القسم الاول

﴿ في الخنوثة ﴾

تأخذ لفظة الخنوثة مسماها في لغات الفرنجة من قصةٍ خيالية وردت في اساطير الديانة الوثنية القديمة . وذلك ان الجنية ساماالسيس شغفت بحب ارمافروديت المولود من هرمس والزهرة والمتحد في جسمهِ نوعي

التذكير والتأنيث . و بعد ان افنت ذاتها في حبهِ بدون ان تفوز منهُ بطائل . وشاهدت ذاتها انها لم تزل كما كانت عليهِ قبلاً ولم يزدها هذا الحب المتبادل شيئاً يئست من امرها وطلبت الى المشتري ان يلصقها بالذي تعبدهُ الصاقاً ثابتاً وان يكون جسمها فيما بعد واحداً فاستجيبت صلاتها وكان لها ما تمنتهُ وابتهلت لاجلهِ

فالخنوثة اذاً هي اتحاد جنسين في ذاتٍ واحدة مع وجود خاصية التوليد فيها بدون ان تحتاج الى مساعدة سواها . الاَّ ان هذا التركيب لا يوجد الاَّ في النبات وفي بعض المخلوقات التي يوجد مركزها الطبيعي في الدرجة السفلى من السلّم الحيواني . وهي نظير الزوفيت (١) والاورسان (٢) والموليسك (٣) الخ .... ويعدم وجود الخنوثة بالكلية عند الارتقآء الى المخلوقات التي هي من طبقةٍ اعلى

على انهُ يوجد في بعض الاحيان ان هذا الشكل ذا العضوين التناسليين يظهر في الجنس البشري بتقاطيع هكذا واضحة الامر الذي يدهش العقل ويوقعهُ في الحيرة والارتباك . وذلك لان علم التشريح لا يذكر شيئاً عن الخنوثة سوى انهُ يوجد هنالك نقصٌ وخللٌ في تركيب الاعضآء التناسلية . وبالحقيقة ان جميع الاشخاص الذين

---

(١) الزوفيت حيوان ينمو كالنبات وهو مشترك بين الحيوان والنبات

(٢) الاورسان صدف منتفخ ما يدعونه بنوتية البحر

(٣) الموليسك من الحيوانات الهلامية التي ليس لها مفاصل ولا فقرات ظهرية وهي من نوع المحارات

وُلدوا بهذا التركيب كانوا بوجه التقريب عنّينين[١] او عقيمين . ومع ذلك فقد رووا ان جملة اشخاص وجدت فيهم اعضاء التذكير والتأنيث ظاهرة الشكل بادية الوضوح ذلك ما دعى البعض من رجال هذا العلم ان يتجرأوا بتقدمهم خطوةً الى الامام زاعمين بان هؤلاء الاشخاص في امكانهم ان يلقحوا ذواتهم ويتناسلوا من ذات انفسهم (من المحال)[٢]

نبسط الآن للمطالع ذكر الخناث الاكثر شهرةً الذين قام بفحصهم والوقوف على حقيقة تركيبهم بعض العلماء المحققين الذين يجدر بنا ان ننقل للقرآء تقاريرهم والملحوظات التي ذكروها عنهم

اشار العالمان الطبيعيان اريستوط وبلينوس الى وجود الخنوثة وتكلم الاول منهما عن مومسٍ كان في مقدرتها على ان تتعاطى مهنتها مع الرجال والنساء على السواء . وقد اوضح الثاني ما يلي

نقرأ في تاريخ الاجيال الغابرة انهُ في حكم لوسينيوس كراسوس كانت فتاةٌ قد تذكرت واصبحت غلاماً على مشهدٍ من اهلها وقد نُقلت الى جزيرة جرداء بامر عراف ذلك العصر . وقد شهد لوسينيوس ماسيانوس انهُ نظر في مدينة ارغوس شاباً يدعى اريسكو كان مؤنثاً

---

(١) الرجل العنين الذي لا يشتهي النساء والمرأة العنينة التي لا تشتهي الرجال

(٢) قال ابن سينا من هو خنثى من لاعضو الرجال له ولا عضو النساء ومنهم من له كلاهما لكن احدهما اخفى واضعف او خفي والاخر بالخلاف . ويبول من احدهما دون الاخر . ومنهم من كلاهما فيه سواء وقد بلغني ان منهم من يأتي ويؤتى وقلما اصدق هذا البلاغ

في بادىء عمرهِ ولهُ نوع التأنيث ، وكان يسمى باسم ابنةٍ وقد تم زفافهُ الى رجل . الاَّ انهُ في اثناء زواجهِ ظهرت فيهِ اعضاء الذكور ونبتت لهُ لحيةٌ الامر الذي قضى بفسخ عقد زواجهِ الاول وقد تزوج ثانياً بامرأة . وقد اردف المذكور انهُ شاهد في مدينة ازمير واقعةً تشبه هذه تمام المشابهة . اما بلينوس فقد اضاف الى ما تقدم بقولهِ: انني نظرت لوسيوس كوفيسيوس من مدينة تيزدريتان قد زُفَّ الى رجلٍ بصفة كونهِ امرأةً وقد ظهر انهُ رجلٌ في ذات يوم عرسهِ وكان لم يزل جياً يوم كتب بلينوس عنهُ ذلك (١)

كان علم التشريح معدوماً عند العلماء الاقدمين ما عدا ان يستوط فانهُ أُتهم بتشريحهِ جثّة انسانٍ وقد اضطرهُ الامر الى ان يهرب من مدينة اثينا ويلوذ بالفرار . وعليهِ لم يكن للاطباء والجراحين الاقدمين اقل المامٍ بتركيب الانسان الطبيعي . وان جهلهم للتراكيب الطبيعية هو الذي جعلهم ان يصدقوا بالخرافات ويعتقدوا بالاوهام ويعزوا اعمال

---

(١) اتوا لعامر بن الظرب احد قضاة العرب في الجاهلية بخنثى له ما للرجل وما للمرأة فاشكل عليه الامر فاقام اربعين يوماً لا يقضي فيها بشيء فاتته امة سوداء تسمى خصيلة فقالت ايها الشيخ افنيت علينا ماشيتنا (وانما افناها لانه كان يذبح لارباب المسألة كل يوم شاة) فقال ويلك اني أوتيت في امر لا ادري أصعد فيه ام أصوب . فقالت وما ذلك . قال اوتيت بمولود له ما للرجل وما للمرأة . قالت وما يشق عليك من ذلك اتبعه المبال . اقعده فان كان يبول من حيث يبول الرجل فهو رجل وان كان يبول من حيث تبول النساء فهي امرأة ولما اصبح قضي بالذي اشارت اليه

الطبيعة الى قدرةٍ خفية وقوة غير منظورة

اكتشفوا في ابتداء القرن السابع عشر في بعض جهات مدينة روما على فئةٍ من الخناث تُدعى عندهم بالفساق . وفي الحال اتوا بهم الى ديوان التفتيش لاصدار الحكم عليهم . الاَّ ان الجهل الذي كان سائداً في ذلك الزمن والخرافات التي كانت شائعةً فيهِ . ذلك ماجعلهم يعتقدون بأن هؤلاء التعساء هم قومٌ من ابالسة الجحيم . واذ اوشك تنفيذ الحكم عليهم ليحرقوا بالنار احياءً فاستدعوا اذ ذاك الطبيب ذاكياس ذا الشهرة الطائرة والمتشرع القانوني ليكشف عليهم و يبدي رأيهُ فيهم . ولما قام هذا العالم المحقق بالكشف عن اولئك الخناث وفحصهم فحصاً مدققاً اعرب عما تراءى لهُ فيهم وايد رأيهُ امام الحكام وهو هذا

يوجد في الجنس البشري نظير ما في النباتات شواذٌ في الخلق وتخاذلٌ في التركيب . وان الاشخاص الذين كلفني الديوان المقدس الى تفتيشهم هم قومٌ خناثٌ اي مخلوقاتٌ دلَّت فيهم اعضاء عوراتهم على وجود نقصٍ او زيادةٍ في تكوينها ونموها . ومع ذلك فهم ايضاً مخلوقاتٌ انسانية كباقي البشر

كان نحو منتصف القرن الثامن عشر ان المسماة حنة غرندجان قد احدثت في مدينة ليون ضجةً قوية وطنطنة ذائعة . وذلك انها قد اعدّت نفسها للجمهور نظير رجلٍ وامرأةٍ في وقت واحد . وان قسماً كبيراً من محبي الاطلاع والمولعين بالغرائب والنوادر قد زاروها واقسموا عند خروجهم من عندها انها تحوي في شخصها بكل وضوحٍ و باوفر

جلآء عضوين تناسليين للتذكير والتأنيث . ثمَّ انهُ بعد ان زارها العالم فرنايل وقام بفحصها، نشر تقريراً برهن فيهِ كون هذه الخنثى ما هي الاّ امرأةٌ لكنَّ في اعضآئها التناسلية تمدداً فائقاً نظير ما كان فيما مضى لنسآء جزيرة ليزبوس

على اننا لا نذكر عن الخنوثة سوى حادثتين قد تمَّ اختبارهما وتأكد امرهما تمام التأكيد . الاولى انهُ توفي في ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٧٦٧ في مستشفى بوربون ليبان المدعو جان بيار هيبر وقد وجدوا لدى الفحص التشريحي الذي اجروهُ لهُ ان نوعي التذكير والتأنيث الكائنين في جسمهِ كانا بالحقيقة غير كاملين لكنهما واضحان تمام الوضوح . اذ كانت اعضآء التذكير مكونةً من قضيبٍ غير مثقوب ، وخصيةٍ واحدة ، وحويصلةٍ منوية متضخمة . وكانت اعضآء التأنيث من قناةٍ رحمية ، وبوقٍ ، ومبيض . ولقد اسفرت النتيجة لدى تشريح هذه الاعضآء التناسلية المختلة التركيب ان المبيض كان مكوناً من بيضتين واحدة للتذكير والاخرى للتأنيث ، ملتحمتين من جانب مدخل الرحم ومفترق كل نوعٍ منهما عما سواهُ من الطرف الآخر

وُلد في بروسيا في سنة ١٧٨٠ المدعو دوروته بيريه وكان خنثى حير افكار فريقٍ كبير من الاطبآء واوقعهم في الدهش والاستغراب. وكان المذكور قد نال المعمودية في باديء حياتهِ كاحدى البنات واذ بلغ سن البلوغ حصل لهُ سيلان حيضٍ تجدد معهُ ثلاث مرار . ولما اجرى لهُ العالم هيفيلان صاحب الشهرة الطائرة في سنة ١٨٠١ فحصاً

مدققاً اعرب عن رأيهِ فيهِ كونهُ من نوع الاناث . ولما فحصهُ عالمٌ آخر في فنِ التشريح لا يقل عن الاول خبرةً وشهرة . أيد رأيهُ بانهُ اقرب الى نوع الذكور من نوع الاناث . اما دوروته المذكور فقد تجول في فرنسا والمانيا وانكلترا . وأرى ذاتهُ الى جميع اصحاب هذا الفن اولئك الذين كانوا يرغبون كل الرغبة في مشاهدتهِ والوقوف على حقيقة تركيبهِ . فمنهم من زعم بانهُ مذكر و بعضهم مؤنث . وقد تضاربت الأفكار بحقيقة امرهِ وذهبت بين التذكير والتأنيث . مما يستنتج من ذلك ان هذين النوعين كانا موجودين فيهِ بشكلٍ ظاهر . وكانت وفاة هذا الخنثى في مدينة بونّ في سنة ١٨٣٥ وقد قام بتشريحهِ الاستاذ ماير فظهر لهُ انهُ يوجد في المركز العظمي اشتباكٌ غريب الشكل من خلقة نوعي التذكير والتأنيث . وقد كانت اعضاؤهُ التناسلية مكونةً من قضيب ، و برستاتة ، وخصية مستقيمة لنوع التذكير . ومن رحم ، و بوق ، ومبيض واحد شمالي ، وقناة رحمية لنوع التأنيث . وان كلا النوعين كانا غير مكملي التركيب لكنهما كانا بغاية الوضوح . وقد تيسر لهذا الخنثى ان يقوم باستعمال العضوين التناسليين كل منهما على حدتهِ (فيهِ شكٌّ)

ينتهي هنا باختصارٍ تاريخ الهول البشرية . اما الخنوثة التي اعتبرتها جملة فلاسفةٍ من الاقدمين انها من مفعول القدرة . لم تكن في نظر الفيزيولوجيين غير نقصٍ او تخاذلٍ في تركيب الاعضاء التناسلية . وان اكثر شواذ الخلق الذين وجدوا من هذه الطبقة كانوا بوجه عامّ عقيمين ولم يخلفوا نسلاً

الفصل الثامن

﴿ في الجبابرة ﴾

اتفقت جميع كتب الوحي القديمة على اثبات نوعٍ من الجبابرة قد استجلبوا غضب الآلهة عليهم واستوجبوا قصاصهم وذلك لداعي كبريآئهم وفرط تشامخهم . أفلا يجوز ان تلك الجماعات البشرية التي وجدت في الازمان الاولى وشاهدت في اكثر الاحيان انقلاباتٍ شتى في بعض اقسام الكرة الارضية ان يكون ذلك ما جعلهم يتصورون ان تلك المصائب وهاتيك النكبات التي كانت تفاجئهم وتنتابهم المرة بعد الاخرى قد تأتت لهم عن اولئك العفاريت الاشرار الذين قاموا بتشخيصهم وتعيين اسمآئهم

اما معنى تلك الاسمآء التي كانوا يطلقونها على اولئك الجبابرة فهي هكذا : اوتيس معناهُ انقلاب الفصول . ارجس البرق . برونتس الرعد . ميماس المياه المتساقطة . انسيلاد هدير السيول . بورفيريون تشقق وخسف الارضين . تيفون سحب كثيفة وعواصف مخيفة مكونة من بخاراتٍ ملتهبة . انته معناها اكل كثيراً . بريارس قوي شديد .

اوريون ابن السمآء . تيطان روح تحت الارض انتقام . سيكلوب اعانق الفضآء . بوليفيم صوت مخيف . افيالتس كابوس احلام مخيفة . كاكوس شرير هائل وهلم جرًّا

فيظهر مما تقدم انهُ لا بدّ ان تكون قد اخذت الشعوب الاوائل هذه المسميات من سكان الهند وهؤلآء اخذوها عن الكلدانيين والكلدانيون عن المصريين . وعلى هذه الكيفية قد انتقلت الى باقي الشعوب الى ان جآء علم الطبيعة ناسخاً هذه الاضاليل والاوهام

لقد اثبتت التواريخ والمنقولات في خلد الشعوب الاعتقاد بوجود نوعٍ من الجبابرة(١) كبار البنية جسيمي العُضل . ذلك مادعى بعضاً من العلمآء ان يجدّوا في البحث والتنقيب ليقفوا على حقيقة هؤلآء القوم وليكتشفوا اثرهم فوق سطح المعمور

كانت هؤلآء الجبابرة في كل زمنٍ وبين كل امةٍ على وجه التقريب من المحاربين الذين يقرنون البسالة والاقدام بالقوة التي وهبتهم اياها الطبيعة واختصتهم بها . حتى امتلأت بطون التواريخ ببطشهم وغريب اعمالهم . بحيث انهم كانوا من الصناديد الذين يتقلدون السيوف ويسيرون في مقدمة المقاتلة وطلائع المحاربين . وعليهم كانت تتوقف الغلبة وبهم يُكتب النصر . حتى انهُ كان لكل امةٍ في اول امرها وفي مهد ملكها نظير هؤلآء الجبابرة كهرقل ، وبرسه ، وجدعون ، وجلياد . اولئك الذين حفظت ذكراهم في ديانتها وكانت الشعرآء تنشد فعالهم

(١) ويقال رجل جبار اذا كان طويلا عظيما قويا (لسان العرب)

وتترنم بها . ولا سيما وقد جعلهم البعض مخلوقاتٍ ممتازة واتخذهم البعض نصف آلهة . حتى انهُ لم تحصل ملحمةٌ حماسية الاَّ ومُثّل فيها جبارٌ من الجبابرة . اما هذه الروايات فانهُ بقطع النظر عما انطوت عليهِ من المعنى الرمزي فقد كان مبالغاً فيها ما قلَّ او كثر . وذلك بالنظر الى تخيل الشاعر الذي نظم عقدها او المؤرخ الذي اثبت حوادثها ووقائعها او بالنظر الى البلد التي حدثت فيهِ والمعاصرين الذين دونوها ونقلوها لنا . بحيث انهُ توجد شعوبٌ يدفعهم بالاكثر حب الغرائب والمعجزات الى تليس رواياتهم حلل المبالغة والغلو حتى انهُ يستحيل امرها وتفوق حد الامكان . فقد جعل سفر التوراة عند الاسرائليين قبائل من الجبابرة في بلاد العمالقة والكنعانيين ، وقد اتى لنا على وصف سكان حناك الذين كانوا غريبي الطول لحدٍ فايقٍ حتى كان يعد تقريباً باقي الرجال بالنظر اليهم نظير الجراد . لا سيما وانهُ يوجد في سفر العدد ان فراش اوج [1] ملك بازان لم يكن يقل طولهُ عن اثنتي عشرة ذراعاً وهو ما يكاد يكفي ليكون مضجعاً للسلطان و يمدد فيهِ جسمهُ الهائل . وقد ذكرت الكتب المنتسبة الى انوش والتي اقروا بها اليوم انها اقوالٌ افتراضية : انهُ بمصاحبة الملائكة لبنات البشر قد تولّدت من ذلك جبابرةٌ عظام . لا سيما وقد حفظ لنا هزيود في اشعارهِ اسماء الجبابرة المتمردين الذين يسمون بالتيطان اولئك الذين سحقهم المشتري تحت

(١) مما يروى عن وهب بن منبه بن عوج بن عنق انه كان من احسن الناس واجلهم . وكان لا يوصف طوله وعظمه وعمره الله عمراً طويلا

اكداس جبال الاولمب والآوسا . وعليهِ لايكاد الرجل الحازم المتروي في الامور يقرأ مثل هذه الاساطير الوثنية حتى يضحك منها و يسخر بعقول واضعيها ومروجيها

وليست الديانة الوثنية هي وحدها حافلةٌ بذكرى الجبابرة بل ان المؤرخين الاقدمين و بعض من المتأخرين فضلاً عن كونهم اوفر رزانةً واكثر تثبتاً من الشعراء وارباب الخيال مع ذلك فانهم لايزالون يدسون لنا في مؤلفاتهم بين حينٍ وآخر امثالاً من تلك الديانات القديمة — ذكر بومبونيوس ميلا ان بعض سكان الهند كانت سيقانهم هكذا طويلةً حتى انهم كانوا يمتطون الفيل نظير ما نمتطي نحن الخيل — وجدوا في روما في زمن تملك هانري الثاني قبراً احتسبوهُ قبر بالآس بن ايقاندر ولدى فتحهم التاووس وجدوا جثة الجبار محفوظةً تمام الحفظ الامر الذي دعاهم الى تأييد زعمهم بالنظر الى قياس جثتهِ الهائلة و بالنظر الى الجرح الذي كان في صدرهِ البالغ من الطول خمس اقدام وكان لم يزل ملطخاً بالدم . اما هذا الجرح البليغ فقد كان مشروطاً بحسام تورنوس جبار آخر معروف بضرباتهِ العجيبة — اقتحم الجبار اينوتير في زمن شرلمان الملك جيشاً بتمامهِ وحصد بحسامهِ البتار اكبر الكتائب واعظم الجحافل نظير مايكتسحون الاشجار ويحصدون الزروع — ذكر بليتارك عن طيب قلبٍ وسلامة نيةٍ هيكل انته العظميّ الذي وجدوهُ بقرب طنجه والذي قيس من كعبهِ الى سمت رأسهِ فبلغ خمسين ذراعاً وقد قيل خمس وسبعين قدماً . لا سيما وان هذا القياس يصغر كثيراً اذا

قو بل بقياس ذلك الجبار الهائل الذي شاهد القديس اوغسطينوس احد نواجزهِ في مدينة اوتيك . بحيث كان هذا الضرس الغريب هو اكبر بمائة ضعفٍ من ناجز الانسان الاعتيادي . وكان هذا الجبار اكبر ما شُوهد من نوعهِ على وجه هذه الغبرآء

ولقد وجد في الاعصر المتوسطة من هذه الجبابرة ايضاً ويذكرون منهم فراغوت الجبار الهائل الذي كان يبلغ من الطول اثنتي عشرة ذراعاً وكانت قوتهُ ما تزيد على قوة عشرة احصنةٍ او اربعين رجلاً اسبانياً. وكان يطحن الناس بدبوسهِ نظير ما تنهرس القمحة وتُداس النملة

ومما ذكروا في تاريخ ذلك العصر انهُ فضلاً عن ارتفاع قامتهِ وضخن عظم جمجمتهِ التي كانت اصلب من الحديد مع هذا فقد شطرهُ الى شطرين الجبار رولان الذائع الشهرة ابن اخ شرلمان الملك وكان هو القاضي عليهِ — بينما كانوا يحفرون في جانب قصر لانجون نحو اواخر القرن الخامس عشر قيل ان الفعلة وجدوا على عمق ستة امتار قبراً طولهُ ثلاثين قدماً وعرضهُ اثنتي عشرة وفيهِ هذه الكتابة «تيودوبوشوس ريز» وكانت جملة قطعٍ من هيكلٍ عظمي محفوظة ضمن هذا التاووس ارساوها الى باريس . وعلى زعم العلمآء بانهم لا يبالغون اذا قدروا طول هذا الجبار بخمس وعشرين قدماً

اما المنقولات المختصة بالموضوع الذي نحن بصددهِ المكبرة بمرآة الخيال والمزوقة من مخيلة الشعرآء فهذه بالحقيقة يجب غض النظر عنها وتركها في بيدآء العجائب وميادين المعجزات بجانب قصص غلّيفر .

وان كل هاتيك العظام التي وجدت في قاع الكهوف والمغاور او تحت طبقاتٍ ثخينة من الارض والتي عُرضت ليشاهدها الناس السريعو التصديق كأنها عظام الجبابرة والسيكلوب[1] قد عُرفت الآن انها لم تكن سوى عظامٍ طبيعية او متحجرة تختص ببعض حيوانات كبيرة الحجم وجدت قبل الطوفان و بادت من العالم الحيواني بسبب الانقلاب الذي حدث في الكرة الارضية

اما اليوم فان عدداً ليس بقليل من العلماء الرحّالات قد اغنوا بمكتشفاتهم الخطيرة ومباحثهم الدقيقة علم تاريخ الانسان الطبيعي حتى ان كلمة جبار لم تعد تطلق الاَّ على تلك المخلوقات الشاذة التي تتجاوز قامتها بعض سنتيمتراتٍ عن قامة البشر عادةً

ومما لا مشاحة فيهِ ان الامم على اختلاف انواعها وتضارب نزعاتها الآهل بها هذا المعمور لها اختلافٌ في قدها وتباين في علو قامتها لا يزيد الاَّ بعض سنتيمتراتٍ فقط . وذلك ناتج عن تاثير الاقليم ومفعول الاغذية و بعض العادات التي يختص بها ارتفاع قامة بعض الشعوب . ولقد اصبح من الامر المحقق ان الاقاليم المعتدلة البرد والرطبة الهواء تُوجد رجالاً طوال القامة . ففي اوروبا مثلاً نرى ان في بولونيا وليفونيا والايكرين والقسم الجنوبي من بلاد اسوج و بلاد الدانمرك و بروسيا الخ . . . معدل قامة اهلها اكثر ارتفاعاً من فرنسا وايطاليا واسبانيا . لا سيما وان الجرمانيين القدماء والغولوى والفرنجة كانوا اكثر ارتفاعاً

(١) السيكلوب هو الجبار الذي كان بعين واحدة في وسط جبهته

من الرومانيين وقس على ذلك باقي اقسام المعمور . و بناءً عليهِ يزيد ارتفاع قامة البشر بالنظر الى الاقليم والعادات . فضلاً عن كون البرد القارس يوقف نمو الجسم . فقوم اللابون والساموييد والاوستياك والاوسكيمو والكورياك الذين يقطنون الاصقاع القطبية يُشاهد طول قامتهم بوجهٍ عامّ دون خمس اقدام . . . . وكذلك السمآء المحرقة فانها تعارض بالمثل في نمو الجسم وتحول بين طول القامة . وعليهِ يُشاهد المصريون والنوبيون والاحباش . . . اصحاب قدٍّ صغير ضعفآء البنية يابسو الجسم

يكون ارتفاع القامة إرثياً في بعض الأُسر و بمثلهِ باقي القدود والاحجام الطبيعية . ذلك ماعرفهُ ابو فريدريك الكبير ملك بروسيا الذي كان قد شكل فرقةً من الرجال الجسيمي القد واختصهم بحراستهِ . حتى انهُ لم يكن يجيز هذا الامير لاحدٍ من حراسهِ بالزواج الاَّ اذا اختار قرينةً تعادلهُ بالقد وتناسبهُ بالطول . بحيث انهُ كان يود ان يخلّد ذريةً من الجبابرة الكبار الاجسام

ونذكر هنا بعضاً من اولئك الجبابرة الاكثر اهميةً الذين قد تمَّ عرضهم ولن يزالوا يُعرضون في كل وقتٍ ليشاهدهم مريدو الغرائب ومحبو الاطلاع واليك البيان

شاهد دلّريو رجلاً بيمونتزياً في روان كان يتجاوز طول قامتهِ ثمان اقدام

ان الجبار الذي نظرهُ سكاليجر في مدينة ميلانو مضجعاً فوق

سريرين يلتصق رأس الواحد منهما بالآخر يجوز ان يبلغ طولهُ ثمان اقدام واربع عقد

كان كلٌّ من الجبارين المشهورين في مدينة سالسبوري وطوروسبي يبلغ من الطول ثمان اقدام وثلاث عقد

كان طول احد حراس اللدوك دي برونسويك ثمان اقدام وست عقد وقد فحص بودان سويسرياً لهُ من الطول ثمان اقدام

كان طول الجبار المسمى كاجانوس المولود في فلاندا ثمان اقدام وعقدتين . ونظيرهُ الجبار شيلي من مدينة ترانت وكذلك فلاّحٌ من بلاد اسوج

كان ارتفاع قامة الجبار شارل بيرن ثمان اقدام واربع عقد ويوجد هيكلهُ العظمي محفوظاً في المتحف التشريحي للدكتور هنتر

لما عاد بعض الرّحالات من الديار الامريكية قاموا يروون قصصاً عن سكان شيلي واخصهُ عن سكان اراضي ماجيلان . ومن مقتضى رواياتهم ان قوم الباتاغون هم من الجبابرة بالنظر الى علو قامتهم وقواهم الطبيعية . اذ لا يقل طول واحدهم عن تسع اقدام وربما بلغ البعض منهم اثنتي عشرة قدماً (١)

(١) ذكر القزويني قال حدثني بعض الفقهآء في الموصل انه شاهد في الاكراد وهم جيل يسكنون بعض جبال الموصل في زماننا انساناً طوله تسع اذرع وهو بعد صبي ما بلغ الحلم وكان ياخذ بيده الرجل القوي فيرميه خلفه واراد صاحب الموصل ان يستخدمه فذكروا له ان في عقله خبلا لا يصلح لذلك

اما الرحالة بوغانڤيل الشهير الذي اقام بين مئاتٍ من قوم الباتاغون واختلط بهم وقاس قاماتهم بيده . بيّن لنا في قصة رحلتهِ ان هؤلآء القوم ليس لهم بوجهٍ عامّ اكثر من خمس اقدام وثمان عقـد . ومن النادر ان يبلغ البعض منهم اكثر من ذلك . اما الذي يصيرهم بمظهر الكبر وعلو القامة هو عرض اكتافهم الضخمة ونمو عضلاتهم نمواً فائقاً حتى يخيل لرائيهم انهم من الجبابرة العظام . وقد جآء مؤخراً بعض الرحّالات من تلك الجهات وقاموا ينفون قصص متقدميهم ويؤيدون رواية بوغانڤيل

يكون من طبع الجبابرة عادةً البطء في الحركة وبلادة الطبع والخمول ويلوح للناظر اليهم ان ما يتناولونهُ من الاغذية يذهب تأثهاً في هذا الجسم الجسيم الشاذ عن طبيعة الاجسام البشرية . لا سيما وان نشاط تلك الاجسام الغليظة هو أقل مادياً وعقلياً مما للرجال ذوي القامة العادية وكذلك تلقاهم يتحدبون قبل زمن التحدب ، ويحثون خطاهم نحو الهرم والشيخوشة ، ولا يبلغون ابداً العمر المعتاد . اما هذا النمو الفايق في بعض الافراد فليس هو مختصٌ بالانسان وحدهُ بل تُشاهد امثالٌ عديدة نظيرهُ في عالمي الحيوان والنبات

الفصل التاسع

﴿ في النغاشيين (١) ﴾

لا بدَّ لنا في بادىء بدء وقبل ان نحل مسألة النغاشيين من ان نقول مع كبار الطبيعيين العصريين ان نوع النغاشيين هو نظير نوع الجبابرة لم تخلقهُ الطبيعة اصلاً ولا اوجدتهُ يوماً من الايام في بقعةٍ من بقع المعمور . وان النغاشيين ما هم سوى مخلوقات سقوط قد توقفوا في اثناء نموهم لاسبابٍ جوهرية تشرحها لنا الفيزيولوجية المرضية . فضلاً عن كونهم يُولدون دائماً في معزل عن الطبيعة . فهم لا يستطيعون اصلاح نوعهم ولا الاتيان بنسلٍ وتخليف ذرية . ذلك لانهم بوجهٍ عامّ مصابون بالعجز ومبتلون بالضعف والانحلال . ولما كان قد وجد للجبابرة مؤرخون سردوا لنا قصصهم واتوا على تفصيل حوادثهم واخبارهم ، فمن البديهي ان يكون للنغاشيين مؤرخون ايضاً وهم اولئك الرجال الافاضل المشهود لهم بالكفاية والاهلية والمتصفون بالفضل وعلو المنزلة . الذين اوردوا في تواريخهم ذكر النغاشيين وادرجوهم في

(١) النغاش او النغاشي هو اقصر ما يكون وهو الضعيف الحركة الناقص الخلق

بعض كتاباتهم ومؤلفاتهم وهم نظير هوميروس، واريستوط، وبيلتارك، وبلينوس، وجوفينال، وفيلوسترات، وبمبونيوس، واتينه، واوليجيل، والقديس اغسطينوس، وكثيرٌ خلاف هؤلاء ذكروا النغاشيين في كتاباتهم وتكلموا عنهم بالمعنى نفسهِ

اما بالنظر الى هؤلاء الرجال الافاضل فانهُ ما عدا اريستوط وبلينوس فجميعهم كانوا يجهلون العلوم الطبيعية وهي نظير الطبيعيات والكيميا والتشريح والفيزيولوجيا الخ . . . ونقل اكثرهم في مؤلفاتهم ما سمعوهُ ووصل اليهم بالتواتر . ذلك لاننا نرجع ونكرر ان نوعي النغاشيين والجبابرة ليس لهما اصلٌ بتةً ولم يوجدا ابداً على وجه هذه الغبراء

نرى كتب وثنية اليونان حافلةً بالمخلوقات الغريبة على تباين اشكالها . فهي تمثل لنا طوائف النغاشيين تحصد الحنطة بالفؤوس نظير ما يكتسح الحطابون اليوم الغابات والاحراج . وهم يستخدمون طيوراً من الحجل حمر اللون لتقطر لهم محمولاتهم . وان ما ابداهُ النغاشيون من الشجاعة وما اتوا بهِ من البسالة والاقدام في اثناء حروبهم الطويلة المدى مع طائفة الكراكي كان ذلك داعياً الى شهرتهم وعلو منزلتهم في الزمن الغابر . اما الغزوة الاكثر شهرةً من جميع غزواتهم كانت محاصرتهم لهرقل . واننا موردون ها هنا ترجمتها ليطلع عليها من يجهلها

« بينما كان هرقل نائماً في مدينة النغاشيين بعد قتلهِ انته العظيم . امر ملك تلك المدينة المعروف بولعهِ بالحروب وبميلهِ للكفاح والقتال ان تُنفخ الابواق وتجتمع الجيوش في ساحة الوغى لمباشرة الحرب . وقد

امتثلوا لامرهِ وكان لهُ ما اراد . وتمَّ القتال بكل فنٍ من الفنون الحربية اذ مشى جناح الجيش الايسر على ذراع هرقل الايمن وجناح الجيش الايمن على ساعدهِ الايسر . وقد ترأس الملك الجيش محاطاً بحرسهِ الخاص والاعلام منتشرة تخفق فوق رأسهِ واخذ بالزحف الى الامام . وقد تقدم قلب الجيش الذي كان تحت امرة القواد الاكثر بسالةً شبه عامودٍ على ساقي هرقل . فكانت السهام والنبال والمزاريق تهطل من كل جانب حتى غطت باسرع من لمح البصر جسم هذا الباسل . اما هرقل فانهُ صحا بعد هذا فجأةً ونشر عباءتهُ الواسعة وهو يبتسم واسر فيها جميع جيوش النغاشيين واتى بهم هديةً الى اخيهِ اورتيه »

الاّ انهُ مما لا شك فيهِ ولا يقبل جدلاً ان الخيال وحدهُ هو الذي اوجد هذه المخلوقات الوهمية المسماة بالنغاشيين وان جميع المؤرخين الذين تكلموا عنهم واتوا على ذكرهم لم يتفق واحدٌ مع من سواهُ على تعيين البلد الذي كانوا يسكنونهُ والجهة التي يقيمون فيها . وان هوميروس وهو اول من ذكرهم قد عين مقامهم في شطوط المحيط . فجاء هذا التعيين من اكبر الشعراء لفي غاية الابهام واشد التعمية الامر الذي لا يمكن ان يستفاد منهُ شيء . وجعل اريستوط مقامهم عند ينابيع النيل ، وفيلوسترات على شاطىء نهر الكانج ، وبلينوس في اقصى اوروبا الشمالية . وقد اسكنهم تارةً فوق شطوط بحيرة ستريمون وطوراً في جهة اخرى . ذلك ما يثبت لنا انهُ ولا واحدٌ من هؤلاء نظرهم نظر العيان ووقف على حقيقة امرهم . على انهُ يمكننا ان

نذكر ايضاً ما جآء بهِ النبي حزقيال لدى تعدادهِ قوى مدينة طور وشرحهِ ما كانت عليهِ من الابهة وفرط الزينة اذ وجه اليها هذه الكلمات

« ياطور التي تتوقدين نظير زبرجدةٍ زرقآء بين مدن العالم انتِ حسنآء وجليلة . وان الذي يزيدك حسناً ويعليك قدراً هي فرقة النغاشيين الموكل اليها الذود عن اسوارك »

روى كاليسياس ايضاً ان احد ملوك المغول عمل لذاتهِ عين البهرجة اذ انهُ كان قد شكل فرقة حرسٍ مؤلفة من ثلاثة الاف نغاشي

اتى نيسيفور كاليكست على وصف احد النغاشيين مؤكداً ان قدهُ لم يتجاوز قدّ طائر الحجل وقد كانت لهُ لثغةٌ في صوتهِ كثيرة القبول وهو يرقص رقصاً متقناً بتمام الدقة والضبط (١)

كان النغاشي فيلتياس المعاصر لابوقراط ذا جسمٍ هكذا ضئيل وخفيف حتى يضطرهُ الامر اذا سار الى ان يتثقل خفاً رصاصياً . بحيث كانت اقل نسمة ريحٍ تميل بهِ وتجعلهُ ان يفقد توازنهُ الطبيعي

ان ما ذكرهُ بلينوس عن اقوام التروكلوديت (٢) وكيف انهم كان يعششون في احجار الثعالب ويتغذون بالافاعي والضباب والخفاش . وتلك اللغوة التي كانت لهم وهي الشبيهة بصفير الحياة . فكان هؤلآء مجاورين ارجآء قوم الغرامنت فلا بدّ اذاً من ان يكون قد ترقى هذا النوع وتحسنت احوالهُ بنوعٍ خصوصي عن ذلك الزمن . اذ ان مقاطعة

---

(١) جآء في الحديث ان محمداً (صلعم) رأى نغاشيا فسجد شكراً لله تعالى

(٢) التروكلوديت اقوام في افريقيا كانوا يسكنون الكهوف

قوم التروكلوديت الذين اتى على ذكرهم بلينوس هي ذات البقعة التي يقيم فيها اليوم قوم الهابيسك وهم سكانها الاصليون والسلطان يأخذ منهم جنداً باسلاً مختاراً (١)

روت المؤرخات الالمانية ان اميرة كانت ميالة لنوع النغاشيين وقد توصلت اخيراً الى جمع عددٍ من هذا النوع بين ذكورٍ واناث قامت فيما بعد بتنزو بجيهم متكفلة بنفقاتهم مدة بضع سنوات . واملها من ذلك ان تصبح فيما بعد ملكة شعبٍ من النغاشيين. وقد سآء فأل هذه الاميرة

(١) اتفق مؤلفو العرب على ايراد ذكر اناس قصار القامة متوحشين عراة الابدان يتسلقون الاشجار كما اتفقوا على ذكر الشيخ اليهودي الذي يخرج من البحر ليلة السبت كما سبق ذلك منا في الفصل السادس على ذكر بنات البحر

فقد ذكر محمد بن زكريا الرازي انه بجزيرة الرامني اناس عراة لا يفهم كلامهم لانه اشبه بالصفير ويستوحشون من الناس طول احدهم اربعة اشبار ووجوههم عليها زغب احمر ويصعدون على الاشجار

وجاء في عجائب المخلوقات للقزويني : في جزيرة رامني عجائب كثيرة قال ابن الفقيه فيها اناس حفاة عراة رجال ونسآء لا يعرف كلامهم مساكنهم رؤوس الاشجار وعلى ابدانهم شعور تغطي سوآتهم وهم أمة لا يحصى عددها مأكلهم ثمار الاشجار يستوحشون من الناس فاذا حمل أحد منهم الى مواقع الناس لا يستر وينفر الى الغياض

وقال صاحب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: جزيرة سلامط محيطها ثلاثمائة ميل كثيرة الجبال والاشجار وبها النارجيل كثير ويسكنها حيوان أشباه الناس لا يفقه أحد كلامهم على أبدانهم شعور تجللهم وتستر سوآتهم يسكنون الشجر كالطير ويأكلون الثمار . طول الواحد منهم أربعة أشبار الى ثلاثة وشعورهم حمر وأرجلهم كارجل الطير واذا أحسوا بالناس هربوا وارتفعوا الى أعلى الاشجار ومثل هذا الحيوان موجود في غالب جزائر الصين !!!!

وفشلت امانيها بعد ما امضها الانتظار على دون جدوى . ذلك لان لوسين [١] إلهة التوليد لم تشأ ان تزور دور هؤلآء النغاشيين المساكين

ذكر بايزدي فيجينير المتصف بالنباهة والمعروف بابحاثهِ واجتهادهِ وهو اول من اتى بترجمة صور فيلسترات : انهُ في سنة ١٥٦٦ بينما كان يتناول الغدآء في مدينة روما عند الكردينال فيتلي. كان قائماً بخدمة المائدة اربعة وثلاثون نغاشياً يتراوح طول قامتهم بين خمس وعشرين الى ست وثلاثين عقدة [٢] وقد شاهد هذا الفاضل ايضاً نغاشياً من نسلٍ شريف وهو صاحب ثروة طائلة كان يتنزه مع اتباعٍ لهُ طوال القامة وهو مقيمٍ في قفصٍ كما تقيم الببغآء

قد تكلم بعض الرحّالات في القرن الثامن عشر عن طائفة الكيموس في جزيرة مدغسقر وهم يمثلون قوماً من النغاشيين لا يتجاوز طولهم اكثر من قدمين. وزعم رحّالات اخرون بانهم شاهدوهم فيما بعد فنسبوا اليهم زيادةً عمن تقدموهم بعض عقدٍ من الطول . الاَّ ان بعض المكتشفين العصريين جآءوا مؤخراً ينفون مزاعم اولئك الرحّالات و يذكرون ان النوع الاقصر قامةً الذي شاهدوهُ هو المؤلف من اولئك الاقوام الذين يقلص برد القطب اجسامهم و يقوس قاماتهم . ومع ذلك لا يقل طول قاماتهم عن ثلاث اقدامٍ ونصف

تطلق تسمية النغاشيين بنوعٍ خاص على اولئك المخلوقات العجّز

---

(١) لوسين هي في الميتولوجيا الالهة التي تترأس الولادة

(٢) العقدة جزء من اثني عشر جزءًا من القدم وهو مقياس قديم

المشوهي الخلقة الذين لا يوازي ارتفاع قامتهم نصف القامة الاعتيادية . ولما كان للجبابرة طولٌ هائل وقدٌّ غريب كذلك كان للنغاشيين انقباضٌ في النموّ وتوقفٌ عن تغذية اجسامهم . وان علة وجود هذه المخلوقات الصغيرة على هذه الحالة هو اما عن ضعف كان في والديهم أو عن آفةٍ في تركيبهم . لا سيما وانهُ يوجد نغاشيون في جميع الامم وبين كل الطبقات تشاهدهم في الطبقة الاكثر ارتقاءً والاوفر صحةً كما تشاهدهم عند الشعوب الاكثر انحطاطاً والاصغر بنية

يذكرون في مقدمة النغاشيين الذين نالوا اكبر شهرةً في الزمن الحاضر : بيبه بروسلاسكي ، وبرسكني ، وبعض نغاشيين آخرين نورد ذكر قصصهم ونتوخى في ذلك الاختصار

نيقولا فرّي — عُرف هذا النغاشي في فرنسا باسم بيبه (اي ولد صغير) وهو الاسم الذي دعاهُ به الملك ستانيسلاوس . وقد كان مولدهُ في مدينة بليزانس من والدين صحيحي الجسم حسني التركيب ولكن مما يجب ملاحظتهُ ان جدهُ كان ذا تركيبٍ ضعيف . وان بيبه لم تحملهُ والدتهُ في بطنها سوى سبعة اشهر . واذ وضعتهُ لم يكن لهُ من الطول سوى ثمان عقد ومن الثقل تسع اوقيات (١) وقد كان مهدهُ في مدة الاربعة عشر شهراً الاولى حذاءً مفروشاً بالصوف . ولما بلغ السنة الثانية من العمر كان اول حذاءٍ اتخذاهُ برجليه يبلغ طولهُ عقدةً ونصفاً . وقد بلغ ارتفاع قامتهِ في السنة السادسة خمس عشرة عقدة ، وفي سن

(١) الاوقية جزء من اثني عشر من الليبرة

الثانية عشرة خمس وعشرين عقدة . وقد استمر هذا المخلوق الصغير قليل الادراك سقيم الفهم فضلاً عن تخصيصهم جملة اساتذة لتعليمهِ وتثقيف مداركهِ . ثمَّ انهُ كان الاولى بهِ بالنظر الى صغر جسمهِ وما هو عليهِ من الضعف والهزال ان يكون رضي الخُلق هامد الطبع . لكنهُ كان بعكس ذلك حادّ الطبع غيوراً شرس الاخلاق . ولما بلغ سن السادسة عشرة كان طولهُ تسع وعشرين عقدة . و بعد سنةٍ من الزمن ظهرت فيهِ علامات البلوغ وذلك بنوعٍ مفرط وحالةٍ غريبة واخصهُ بالنظر الى قدهِ وضعف تركيبهِ . وما زال اخذاً بالنمو حتى بلغ سن الثامنة عشرة بحيث اصبح ارتفاع قامتهِ ثلاث وثلاثين عقدة . وفي هذه الاثناء اقترن بنغاشبةٍ تُدعى تريزيا سوفراي ذات قامةٍ تعادل قامتهُ وملامح تحاكي ملامحهُ . وقد توفرت فيهِ اهلية الزواج وقام بواجبهِ حق القيام . الاّ ان هذا القران كان عقيماً ولم ينتج نسلاً . و بعد مرور ثلاث سنواتٍ على زواجهِ فقد بيبه قواهُ بالكلية ولم يعد يروق لهُ الزواج واصبح رأسهُ اصلع نظير رأس الشيوخ . وقد نسبوا هذا الانحطاط السريع الذي حلَّ بهِ الى افراطهِ بامر الزواج وما كان عندهُ من الميل الشهواني الشديد . وقد عاجلتهُ المنية وهو في سن الثالثة والعشرين على اثر ما اصابهُ من الهرم وما حل بجسمهِ من الانحطاط . ولما قاموا بتشريح جثتهِ وجدوا فيها علاماتٍ لا تنطبق على حالة العجز والهزال اللذين كان متصفاً بهما

كان المدعو بوروسلاسكي نغاشياً اقصر من بيبه بخمس عقدٍ حضر

الى لونفيل برفق الكونتسا هوميسكا نسيبة الملك ستانيسلاوس ولما بلغ بوروسلاسكي الثانية والعشرين من عمرهِ لم يكن ارتفاعهُ سوى ثمان وعشرين عقدة . وقد كان لهُ عينان جميلتان ، ووجهٌ صبوح ، وقدٌّ واعضاءٌ متناسبة . اما بالنظر الى ما اختص بهِ من الفهم وما احرزهُ من الادراك فكان يخالف بذلك بينه تمام المخالفة . بحيث انهُ قد تعلم بسهولةٍ فائقة وكان يكتب ويحسب بغاية الاجادة والضبط . وهو يتكلم جملة لغاتٍ ويحسن الرقص جيداً ويعزف بآلة الفلاوتو ويوقّع على الكمنجة . اما والدا هذا النغاشي الظريف فكانا معتدلي القامة ورزقا ستة بنين كان الابن الاكبر من بوروسلاسكي وهو البكر لايفوقهُ سوى بعقدةٍ واحدة فقط . وكانت الابنة التي هي بعد بوروسلاسكي لا يزيد ارتفاع قامتها اكثر من احدى وعشرين عقدة . وكانت الاخوة الثلاثة الباقون بعكس اخوتهم يبلغ ارتفاع كل منهم خمس اقدام وثمان عقد

توفيت المسماة كراشاني نغاشيةٌ ذات قامةٍ طولها عشرين عقدةً في السنة التاسعة من عمرها وقام بتشريحها الدكتور هنتر

كان ارتفاع قامة المدعو بطرس بيريشي ابن جندي قوزاقي من فرقة لوبني تسع وعشرين عقدة . وعمَّر حتى سن الثلاثين وكان اقطع الذراعين منذ مولدهِ وذا ساقين ملتويين عن وضعهما الطبيعي وملحومين عند مفصل الركبة . ولم يكن في رجليهِ سوى اربع أباهيم فقط . فكان فضلاً عن هذا التخاذل المبتلى بهِ يسير بكل سرعةٍ ويكتب بغاية

الوضوح برجلهِ اليسرى في اللغتي الروسية واللاتينية وهو يرسم ويحيك ويعمل الف عملٍ وكل ذلك برجلهِ اليسرى . وكانت اعمالهُ هذه مما تدهش العقل وتستوقف الانظار . وقد كان يحسن ايضاً جملة العابٍ ويُعدّ اللاعب الاكثر مهارةً بلعب الورق والدامه والشطرنج بين لاعبي بلدتهِ

حضر الى باريس من زمن قريب نغاشي ذو قامةٍ ارتفاعها تسع وعشرين عقدةً آتٍ اليها من انكلترا وكان يسمى تومبوس . وان ما اتصفت بهِ اهالي باريس من الميل الشديد والولع المفرط برؤية الغرائب والشواذات قد جعل الاقبال على مشاهدتهِ عظيماً واكسبهُ مالاً طائلاً (١)

عرضوا في احدى اسواق مدينة القديس جرمانس في سنة ١٧٧٤ نغاشيةً طولها ثمان وعشرين عقدةً ولها من العمر عشرون سنة وكانت

---

(١) جاء في جريدة الصائح بتاريخ ٤ مايو سنة ١٩٠٦ تحت عنوان يخلق ما يشاء قالت : في العاشر من ستمبر الماضي ولدت لرجل يسمى ليليان ببلدة يلس التابعة لنيورك عاصمة امريكا ابنة تحير العقول وتدهش النواظر من صغر حجمها ، لان وزنها كيلو غرام واحد . وقد تحقق وزنها امام اطباء فنيين فقرروا انها لا تعيش يوماً واحداً بالنظر لصغر حجمها . وقد ساد على والدها الاعتقاد بانها لا تعيش ساعة . ولكن بعض اطبائه اوصوه بان يسلمها للطبيب الشهير مارتن قوتلي الماهر في تربية الاطفال . ولقد اخذ الطبيب المذكور البنت ولفها بقطعتي قطن واستصحبها معه الى المستشفى المسمى دريمالاند واهتم بتغذيتها حتى كان ينمو جسمها يوماً فيوماً . وقد زاد ثقلها بعد ثلاثة اشهر ثلاث ليبرات . وبناءً عليه قرر الاطباء بانها تعيش

مكملة التركيب تامة الاعضاء

رأى صاحب تاريخ الجنس البشري في باريس سنة ١٨١٨ نغاشيةً لم يكن يتجاوز طولها ثمان وعشرين عقدةً الاَّ قليلاً وكانت هذه المخلوقة الصغيرة تستجلب الانظار بنشاطها وطلاقة محياها ورقة حركاتها . وكان نبضها يضرب تسعين ضربةً في الدقيقة . اما مداركها فلم تكن اوسع من مدارك مولودٍ في سن الرابعة

ثمَّ انهُ وصل اليها بعد تومبوس الامير كوليبري وقرينتهُ وهما مخلوقان نحيفان يكاد يبلغ ارتفاع قامة كل منهما ثلاثين عقدة . وكانا متقاربين في بنية جسميهما تمـام المقاربة ويلوح على محياهما ابتسامٌ لطيف في غايةٍ من الملاحة والقبول . اما هذان النغاشيان اللذان رغب جميع سكان باريس في مشاهدتهما قد شكّلا مركبةً لركوبهما تقارن شكلها وتنطبق على حجم بنيتهما . وذلك انهمـا قد توصّلا الى ايجاد حصانين نغاشيين وحوذياً نغاشياً ليقوم بسوق المركبة . واذ كانا يذهبان للتنزه في طرقات الشانزيلزه وشوارعها كان يجتمع على جانبي الطريق التي يمران منها خلقٌ كثير . ذلك لان مثل هذين النغاشيين ومركبتهما مما يتشوق الانسان لمشاهدتهِ

يوجد في مجموعة بيرك ذكر نغاشي كان ارتفاعهُ ست عشرة عقدةً توفي في سن السابعة والثلاثين وكان كثيرٌ من محبي الاطلاع يقضون بعض اوقاتٍ متلهّين بمشاهدتهِ لما كان يأتيهِ من الالعاب الايمائية التي تسلي الخاطر وتروق للناظر . ومما يغلب على الظن ان هذا النغاشي هو

اصغر مخلوقٍ انساني شُوهد حتى يومنا الحاضر

جآء في بعض المحاضرات الفلسفية المحتوية على جملة شواهد غريبة وغير قابلة التصديق، ان نغاشياً كان يتقلد ما يناسب قدهُ ويوافق تركيبهُ. ولقد وزنوهُ بملبوسهِ وما كان يحملهُ فوجدوا ان ثقلهُ لا يزيد اكثر من ثلاثين ليبرة بما في ذلك حذآئهِ ذي المهماز وقبعتهِ وسيفهِ وشعرهِ المستعار وعصاهُ ايضاً

كان فيما مضى لملوك فرنسا نغاشيون ومهرّجون يتلهون بهم ويقطعون بعض الاوقات في ممازحتهم. وقد تزوجت كاترينا دي مديسي بجملة نغاشيين بدون ان تلاقي في ذلك نتيجةً وتستثمر نسلاً. وكان في روما جملة قياصرةٍ يتلهون بالنغاشيين. فقد ذكر سويتون ان الامبراطور اوغست كان يتسلّى في قصرهِ بان يرى تعرقص نغاشيٍّ لهُ من الطول تسع عشرة عقدة — وكان عند الامبراطور طيباريوس نغاشي ذو اثنتي وعشرين عقدة. وكانت لهُ حذاقة غريبة ومبدأ ثابت حتى ان القيصر جعل لهُ صوتاً في مجلس الشورى — قدم انطونيوس الى الملكة كلوبترا نغاشياً كان ارتفاع قامتهِ عشرين عقدةً وكان ذا خفةٍ وانعطافٍ غريبين حتى كانت الملكة تمضي ساعاتٍ برمتها في مشاهدة مئاتٍ من الحركات البدنية المضحكة التي كان يأتيها هذا النغاشي — ثمَّ انهُ ليسرّني عنهُ دوميسيان ما كان يعتريهِ من الملل جمع خمسين نغاشياً واضطر الى ان ينفق مالاً طائلاً على جمعهم وقد شكل فرقة مصارعين منهم

فيستنتج من الامثال السالفة ان هذه المخلوقات الصغيرة وجدت في كل زمن وعند جميع الامم والقبائل . ويستفاد من ذلك ايضاً ان حياتهم كانت قصيرة المدة بحيث انهُ في سن البلوغ كانت تظهر عليهم لوائح العجز والهرم . وكانت تبدو لدى تشريح جثثهم علامات الضعف مستقرةً في اصل تركيبهم الساقط من الرحم قبل اوانهِ

الفصل العاشر

﴿ في آفات الاغتذاء ﴾

يوجد بونٌ شاسع بين المزاج العصبي الصفراوي وبين المزاج اللمفاوي او اللمفاوي الدموي. ذلك لانهُ من المشاهد ان جسم الاول يابساً ونحيفاً . وجسم الثاني رطباً ومشبعاً بالسمن والدهن . ولهذا فالاشخاص المتطرفون بهذين المزاجين هما نوعان متعاكسان وهما الهازيل والسمان

يبتدي جسم صاحب التركيب اللمفاوي الدموي بالثخانة اخصهُ في العمر الذي يكون فيهِ قد تمّ ارتفاع قامتهِ و بلغ الطول فيهِ حدهُ . فوقتئذٍ يبتدي الغذاء بان ينتقل خصوصاً الى النسيج الخلوي ومنهُ تحدث الربالة والسمن . اما العصارات المغذية فانها اذا توالت بغزارةٍ على النسيج الخلوي واكثرت من افاضة المادة الدهنية . فحينئذٍ يأخذ تكاثف الانسجة مبدأهُ ويعقب ذلك السمن متتابعاً . ولا يلبث الجسم حتى ينمو نمواً فائقاً ويظهر بمظهر السمن الشاذ الخلق

اما الامزجة العصبية والصفراوية فانها تعكس الامر وتفعل بخلاف

ما تقدم . وذلك ان النسيج الدهني يصبح على التقريب معدماً في صاحب هذا المزاج ويضعف تغذي الجسم ويستمر هزالهُ . وعليهِ اذا قلّ ورود العصارات المغذية الى النسيج الخلوي شيئاً فشيئاً فاذ ذاك تيبس طبقات هذا النسيج وتضمحل ويحل بها التلف . ويتمكن الضعف الشديد من الجسم ويعقبهُ الهزال المطبق في اقرب وقت

اما هاتان الحالتان المتلفتان في النظام الحيواني فانهما تلازمان الحياة مدةً من الزمن ما قلّ او كثر . ان لم يطرأ على الاعضاء تغيرٌ شديد يقضي عليها بالتلف العاجل

القسم الاول

﴿ في الربالة المفرطة ﴾

يمكننا ان نذكر بين الشواهد التي لدينا بما يختص باصحاب الربالة المفرطة بعض الامثال الآتية

احضروا الى الندوة الطبية في باريس ولداً عمرهُ اربع سنوات كان يزن جسمهُ ١٠٤ ليبرات وقد توفي في سن العاشرة وبلغ ثقلهُ اذ ذاك ٣١٥ ليبرة

بلغت زنة رجل انكليزي من كونتات مدينة لينكولن ٥٨٣ ليبرة ، وكان محيط وسطهِ عشر اقدام ، فكان يبتلع كرشهُ الوسيع في اليوم

١٨ ليبرةً من اللحم البقري وعشر ليبرات من الجعة ؟ ؟ ؟

تُوفّي المدعو سبونر في اقليم واردیش وهو الرجل الذي كان معروفاً في انكلترا بانهُ اغلظ انسانٍ وجد فيها . ففي سن السابعة والخمسين قدروا زنتـهُ بخمسة وار بعين ستوناً اي بستمائة وخمس وسبعين ليبرةً ونصفاً . وكان فخذاهُ بنوع اخص متصفين بغلاظةٍ هائلة . ومما يحكى عن خدمهِ انهم تراهنوا يوماً مع بعض الاشخاص على اتساع بنطلون سيدهم الذي كان هكذا عريضاً حتى انهُ كان يسع ثلاثة هيكتوليترات قمحاً . ثمّ انهُ بعد ان اتفق المتراهنون وعينوا قيمة الرهن ، جآء خفيةً اتباع سبونر ببنطلون قديمٍ لسيدهم . وبعد ان خاطوا فتحتي رجليهِ افرغوا فيهِ ثلاثماية ليترٍ قمحاً ولم تمتلِ مع ذلك ساقا البنطلون تماماً . ومما يُروى ايضاً ان سبونر ذهب في احد الايام الى سوق مدينة اترستون فجرى لهُ خصامٌ مع احد الاسرائليين الذي طعنهُ بسكين في معدتهِ فجرحهُ جرحاً بليغاً . ولما كانت طعنةٌ كهذه تعرض حياة كل انسانٍ اصيب بها الى خطر الموت ، فهي لم تكن شيئاً مذكوراً بالنظر الى سبونر لان النصل الذي أُغمد في معدتهِ وان يكن طولهُ خمس عقد مع ذلك فانهُ لم يبلغ الامعآء . ذلك لان معدتهُ كانت مصفحةً بنسيجٍ دهني قطرهُ ست عقد

كان ارتفاع قامة ساموبل سوغار اربع اقدامٍ وثمان عقد . وبلغ قطر كرشهِ خمس اقدامٍ وعقدة واحدة . وقد لاقى منيتهُ مختنقاً بالنسيج الدهني الذي تجاوز فيهِ المسالك الرئوية وسد عليهِ نسمات الحياة . اما

التابوت الذي صنعوهُ لدفنهِ فكان مربعاً لهُ من العمق ست اقدام ومن العرض خمس ونصف . وقد اضطرهم الامر الى ان يهدموا الحائط الحاجز للغرفة المتوفى فيها ليخرجوا منها التابوت . ذلك لان فتحة بابها كانت تضيق عن وسع تابوتٍ هكذا ضخم

اشتهر الجنرال الاسباني شيابينوس فيتـلي بسمنهِ المفرط وضخامة جسمهِ الفائقة الحد ، حتى قيل كان يزن ثقلهُ سبعماية وعشرين ليبرة . فكان هذا الثقل الهائل مجلبةً لضنى الخيل التي كانت عندهُ والمخصصة لركوبهِ . فاضطروا اذاً الى ان يجلبوا لهُ من البلاد العربية ثلاثة جمال اشداء لتكون تحت امرهِ ويستخدمها متى شاء الركوب . ولما كان قد أُبتلي بداءٍ اقتضى لمعالجتهِ ان يلازم الحمية مدةً طويلة . فحصل على اثر ذلك ان معدتهُ ضمرت واصبحت فوقها طياتٌ من الاديم المتجعـد المتدلي من عند سرتهِ حتى اطراف ركبتيهِ (اكذوبة)

وجدوا في وقائع العلوم المرضية تفصيلاً عن شخصٍ توفي في سن الاربعين وبلغ من الثقل سبعماية وتسع وثلاثين ليبرة . وكان ذا قامةٍ ارتفاعها ست اقدام وعقدتين . وقد قيس محيط معدتهِ فبلغ عشر اقدام ، وكذلك كان عرض صدرهِ خمس اقدام وعقدتين وطولهُ ثلاث اقدام . وكانت تتدلى من صدرهِ كتلتان من الدهن اشبه بنهدين ضخمين . هذا وقد قضى نحبهُ مختنقاً بالنسيج الدهني نظير سوغار المتقدم الذكر

ان اغلظ جسمٍ بشري شوهد على وجه المعمور كان مما لا يقبل الريب جسم الرجل الانكليزي من ولاية غال المسمى او بكانس .

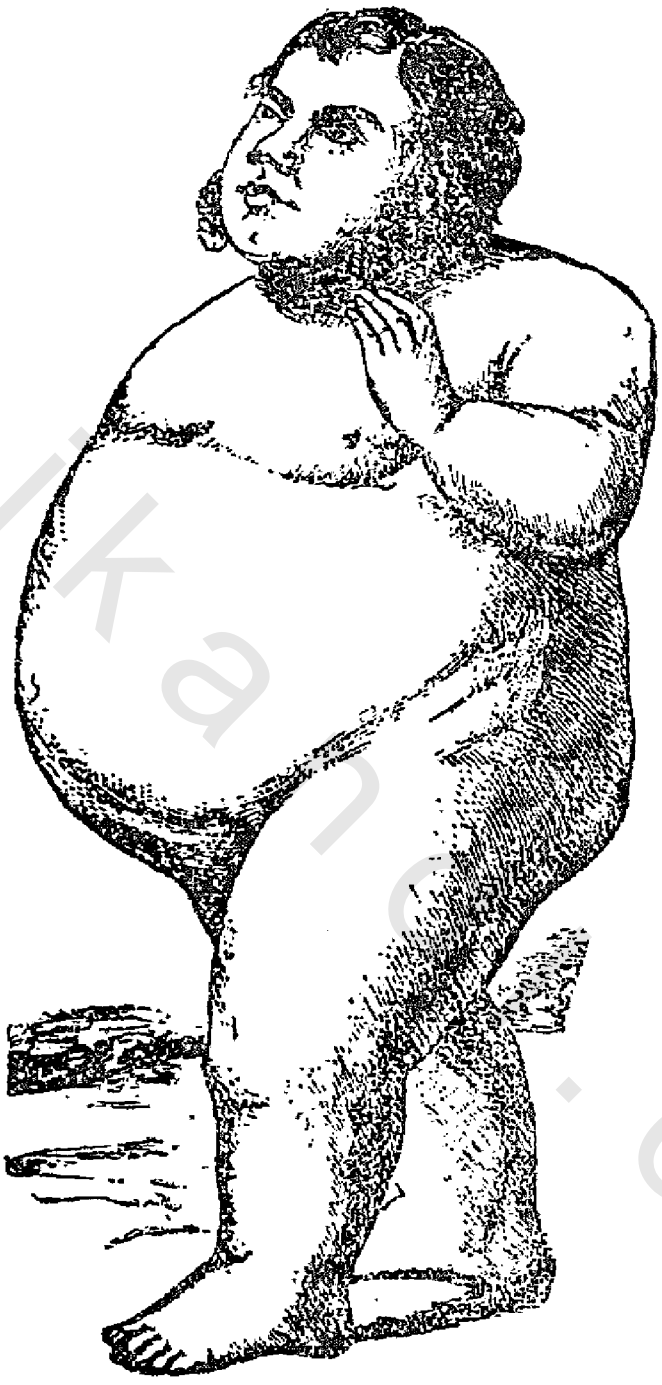

الرسم ٢٠

ذلك انهم لما رغبوا في زنتهِ واذ لم يتهيأ لهم ميزان متين ليزنوه فيهِ .
رأوا اذ ذاك ان يضعوهُ فوق ارجوحةٍ ذات عجل وبهـا توصلوا الى

تقدير ثقلهِ وقد بلغت زنته ٩٩٠ ليبرة ! ! ! (انظر الرسم ٢٠)

هذا وانهم قد نجولوا بهذا الهولة الانكليزي في مدينة لوندرا محمولاً على مركبةٍ من مركبات البضاعة تقطرها اربعة ثيرانٍ من اشد الثيران . ومما يحكى ان او بكانس لما اراد يوماً من الايام ان يقوم من مقعدهِ متنقلاً فقد اضاع موازنة ذاتهِ وسقط فوق خنزيرةٍ كانت ترضع سبعة عشر خنوصاً فشدخها وهرس بضعة من صغارها . ثمَّ اقتضى الامر ان يكلفوا ستة اشخاص اشداء ليقوموا برفعهِ واعادتهِ الى مقعدهِ . وقد لاقوا بذلك مشقةً قوية وعناءً جسيماً . ولما قضى نحبهُ اقتضى لعمل تابوتهِ عشرون لوحاً من الخشب . وبعد ان اضجعوهُ فيهِ حملوهُ على مركبةٍ يجرها رأسان من اشد الخيل . ثمَّ انهم كسوا خمسة عشر غلاماً فقيراً بالجوخ المستخرج من سترتهِ (ريدنجوت) (الكذوبة)

اما الشواهد على السمن الهائل الذي اتصفت بهِ بعض الاشخاص فهي تُشاهد في طائفة الاناث اندر من طائفة الذكور ويجوز ان يكون سبب ذلك هو ان النساء تأكلن وتشربن اقل من الرجال ، ومع ذلك فالجنس اللطيف لا يخلو من علة السمن المفرط . بحيث توجد بعض امثال عن السمن الانثوي تشابه الشواهد التي سبقت الاشارة اليها

ذكر الدكتور شورت ان امرأةً في عنفوان الصبا توفيت في الخامسة والعشرين من عمرها وكانت تزن خمسماية ليبرة

كان بعض الاشخاص يسيح مؤخراً في ساحات فرنسا واسواقها

بابنةٍ لها من العمر تسعة عشر ربيعاً وهي ذات ثقلٍ زنتهُ خمسماية وخمس وسبعين ليبرة وكان قطر ذراعيها هائلاً وفخذاها يحاكيان فخذي الفيل . وكان يلزمها من بعض الاقمشة اثنان وسبعون متراً لعمل ملبوسٍ لها ، ذلك ما يكفي لعمل عشرة اردية يلبسها عشرة شبان

نأخذ التفصيل الآتي من وقائع علم الطب عن امرأةٍ ضخمة البنية يوجد لها تمثالٌ من الجص في احدى غرف المدرسة الطبية في باريس وهو هذا

ولدت ماري فرنسواز كلاي في بلدة فيال إكايز من والدين كانا عائشين في حالة الفاقة والاعواز وشظف العيش ، ولم يكونا متصفين قط بالسمن وضخانة البنية . اما ابنتهما ماري المذكورة فقد ابتدأت معها عادة الحيض في السنة الثالثة عشرة من عمرها ، ثمّ عُقد قرانها في سن الخامسة والعشرين . واذ كان قرينها مضطراً الى معاناة الاسفار والترحال الى الاماكن الشاسعة فقد كانت مع غلاظة جسمها ترافقهُ في اسفارهِ وتقيم معهُ في حلّهِ وترحالهِ . وقد رزقت منهُ ستة اولادٍ ولم يسلم منهم سوى واحدٍ فقط

لما كانت هذه المرأة في سن الخامسة والثلاثين كان ارتفاع قامتها خمس اقدام وعقدة واحدة ، وقد قيست على مساواة سرتها فبلغ محيط جسمها ست اقدم وعقدتين . اما رأسها فكان صغير الحجم بالنظر الى ضخانة جسمها وكأنهُ كان تائهاً بين كتفيها الهائلتين . وقد غاص عنقها في السمن ولم يبقَ بين الرأس والصدر سوى حدٍّ ضامر عمقهُ بضع عقد .

وكان منظر هذه المرأة البادن هائلاً فكانت كتفاها مرتفعتين بحافتين من الدهن غليظتين . ويتدلى من صدرها ثديان جسيمان للغاية قيس محيط قاعدة كل منهما بثمان وعشرين عقدة وكانا يتدليان حتى سرتها . فضلاً عن الكتل الدهنية المتجمعة تحت ابطيها التي كانت ترفع ذراعيها وتجعلهما بعيدين عن بدنها . اما بطنها فلم يكن ضخماً ويكاد يوازي حجم الامعآء التي فيهِ. وكان عرض صلبها قدمين ونصف وتعاورکيها وسادتان كبيرتان من الدهن . وكذلك الفخذان والساقان ، فانهُ ما عدا الربالة الهائلة التي كانت متصفة بها فقد كانت لها صفةٌ غريبة وهي وجود غرزاتٍ مستديرة تبعد الواحدة عن الاخرى مسافةً قليلة نظير ما يُشاهد مثل ذلك في الاطفال السمان البنية المتوفر فيهم الغذآء . اما تركيب ذراعيها فقد كان معتدلاً بالنظر الى تراكيب باقي جسمها ولم تكن لها تلك الضخامة الهائلة المتصفة بها باقي اعضآئها

توفيت فرنسواز كلاي في اوتيل ديه (اقدم مستشفى في باريس) وكان عمرها اربعين سنة وستة اشهر فبلغت زنتها ٤٢٧ ليبرة

لا احد يجهل ذوق الشرقيين وما عندهم من الميل المفرط للنسآء البادنات الكثيرات السمن . ذلك لانهم يحتسبون هذه الآفة هي شرط من شروط الجمال النسآئي فالنسوة الشرقيات يتطابنَ ربالة الجسم بكل ما في وسعهنّ وما تصل اليهِ ايديهنّ .وذلك بالاخلاد الى الراحة والاكثار من الاستحمام وفتح الكتف والاقتصار على تناول الاغذية

النشائية الى غير ذلك من الوسائل التي ينمو بها الجسم ويزداد سمنهُ (١)

رأى صاحب هذا التأليف في مدينة شزمه امرأةً معروفة عندهم بفريدة المحاسن وقدّر ثقل جسمها بستماية وسبع وثلاثين ليبرة . ويتدلى من صدرها ثديان كبيران يزن كل منهما ستين ليبرة ويبلغ طولهما حتى فخذيها . وقد كان قطر ساعديها وساقيها هائلاً جداً ، الامر الذي كان يتعذر على هذه المسكينة الانتقال من مكان الى سواهُ . وقد رآها المُومأ اليهِ ملقاةً فوق بساطٍ ترضع طفلاً لها يبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً . ثمَّ انها كانت تقطع معظم اياميها في النوم او التدخين بالنارجيلة وترشف شراب العسل . وكانوا يدعونها بالهة الجمال نظراً الى ما اتصفت بهِ من الرِّبالة وما احرزتهُ من السمن المفرط

(١) من نظر الى النسآء المصريات يرى غالبهن بادنات متصفات بالسمن . وهي الحالة التي يمان اليها ويسعين جهدهن للحصول عليها . ولذلك نشاهدهن يتقاطرن زرافات ووحدانا على بائعي العقاقير الذين يجهزون لهن نوعاً من التابل مكونا ما يقرب من اربعين صنفاً على مقادير معلومة من نباتات متعددة بين جذور وبذور وصموغ ، وغالبها من المواد الحارة الحريفة ، يدقونها ويتبلونها بالعسل وبزيت الزيتون او بدونهما . ويتناولون منها بلعة معلومة في كل يوم . ونورد هنا بعض اصناف من هذه المواد بالاسمآء المعروفة بها عند المصريين على سبيل المثال وهي هذه : كافوره ، محلب ، حبة غالية ، حبة خضرا ، لبان دكر ، شمر ، يانسون ، عرق انتراب ويأكلون ، حسن يوسف ، خميره ، عجلة ومستعجلة ، عرق ايكر ، جدر بنفسج ، عرق جناح ، جنزبيل ، كركم ، كبابة هندي ، قرنفل ، ذر ورد ، قرفه ، هيل حبشي ، جوزة الطيب ، مغاط ، لسان عصفور ، تين فيل ، بسباسه هندي ، عشبة ، لادن ، مستكة ، كلخ ، اناوشق ، شحمة القلب ، شيح خراساني ، شيح بابوني ، شيح بلدي ، كمون كرماني ، الخ ...

ذكر اليار في مؤلفهِ النفيس في الطبيعيات ان ابنةً صغيرة كانت قد عُرضت للجمهور ليشاهدوها لقآء بعض دريهمات وقد وجدوها في صباح احد الايام مائتةً من جرآء سمنها المفرط . ولم يكن لها وقتئذٍ من العمر سوى ثمان سنوات لكنهُ مع ذلك كان حجم جسمها شاذ الخلق وخارق للعادة . لاسيما وقد انطمست جميع سيمآء هيئتها وفقد شكل تصويرها لتشبعها بالسمن وتكاثف النسيج الدهني فوقها . بحيث انطمرت عيناها لتضخم وجنتيها وانسدت فتحتا منخاريها فكانت تضطر دائماً الى ان تفتح فاها للتنفس واستنشاق الهوآء . هذا وان عدداً كبيراً من محبي الاطلاع كانوا يزدحمون في كل يوم في السرادق الذي كانوا يعرضون فيهِ هذه المولودة ، فكانوا يدهشون بالاكثر من رؤيتهم نهديها البالغين من الكبر حجماً هائلاً . اما محلات مفاصلها فقد ذهب شكلها وانمحى تكييفها حتى اصبحت هذه الابنة كأنها كتلة دهنٍ هائلة بالكاد تحافظ بها على الشكل البشري

اما هذا النمو الفائق البالغ منتهى الحد في الاجسام الدهنية يُشاهد ايضاً نظيرهُ في بعض الحيوانات الباشيدرمية [1] التي يتسبب منها داآء البرص . وتقدم لنا الطائفة النباتية امثالاً من هذا القبيل على السمن الفائق الحد الذي يحدث ايضاً في بعض النباتات . حتى شُوهد ان جذع بعض الاشجار كان يبلغ قياس قطرهِ متراً

(١) هي الحيوانات الثخينة الاديم نظير الفيل وما على شاكلته

القسم الثاني

﴿ في الهزال المفرط ﴾

تُوجد في التراكيب العصبية الصفراوية او السوداوية شواهد متعددة كما سيجيء تخالف تمام المخالفة الامثال التي اثبتناها فيما تقدم عن الربالة المتطرفة والسمن المفرط . بحيث تُشاهد الربالة بوجهٍ عامّ في اصحاب الامزجة اللمفاوية ويختص الهزال بالاشخاص العصبيين والسوداويين

ذكروا قديماً عن فيلتياس دي كو انهُ كان هكذا ضعيفاً ونحيفاً حتى اضطرهُ الامر الى ان يتعل خفاً رصاصياً كي لايميل بهِ الريح ويقلبهُ على الارض في اثناء مسيرهِ

وكان الشاعر ميليتوس اكثر شهرةً بهزال بنيتهِ المفرط مما كان مشتهراً به من جميل اشعارهِ ورقة كلامهِ . ولما وقع المسمى ارشترالاس في احدى الحروب اسيراً وضعوهُ في ميزان فلم تبلغ زنتهُ اكثر من اثنتي وعشرين ليبرة . وان ما كان عليهِ فيلبيدس من الضعف وما اتصف بهِ من الهزال المفرط جعلهُ ان يكون مثلاً سائراً يشبهون بهِ الاشخاص المتطرفين بالنحافة والهزال

وجاء في الاعصر المتوسطة ان احد الاشخاص المسمى جيلبّون

والملقب بالغرانغاله كان نحولهُ هكذا مفرطاً حتى اختصهُ البعض لعرضهِ ليشاهدهُ الجمهور . ثمَّ انهُ فضلاً عن ارتفاع قامتهِ مع ذلك لم يكن يبلغ ثقلهُ اكثر من خمسين ليبرة . اما في عصرنا الحاضر فلا تكاد تقام سوقٌ او يُفتتح معرضٌ ما لم يعرضون فيهما اشخاصاً يلقبونهم بالهياكل العظمية الحيّة . اما الذي اشتهر امرهُ بالاكثر واحرز اعظم سمعةٍ بين جميع هؤلآء المتطرفين بالهزال والبالغين حد النهاية في النحافة ، كان بلا شك كلودسورات . ولد هذا الرجل في شهر ابريل سنة ١٧٩٨ في بلدة ترويس من اعمال شمبانيا ولما بلغ من العمر اربع سنوات أُبتلي بهزالٍ شديد اصبح على اثرهِ اديم جسمهِ الرقيق ملتصقاً بعظامهِ . وكان يخيّل للناظرين اليهِ ان العضَل مفقودةٌ من جسمهِ بتةً . وعلى ذلك قد امضى مدة حياتهِ بهذه الحالة المحزنة وتجوّل في اكثر الاقاليم باسم الهيكل العظميّ الحيّ

اورد احد الباحثين التفصيل الآتي وهو عن شخصٍ هزيلٍ قام بفحصهِ في سنة ١٨٣٢ فوجد ان ما يبلغهُ من العمر هو ٣٤ سنة وكان ذا قامةٍ ارتفاعها خمس اقدام وثلاث عقد ، وثقل جسمهِ ٤٣ ليبرة ، ولم يكن في تقاطيع بنيتهِ عاهة ، ولا هو مبتلى بدآءٍ من الادوآء . الاَّ ان الهزال المفرط كان عامًّا في جميع اقسام جسمهِ وكان نبضهُ يضرب خمسين ضربةً في الدقيقة . وكان شكلهُ العضَلي بحالة ضعفٍ مفرط مع فقدان النسيج الخلوي منهُ . بحيث كان اديم الساعدين ملتصقاً بالعظم وليس تحتهِ اقل أليافٍ لحمية . فاذا ما أراد هذا الهزيل ان يرفع

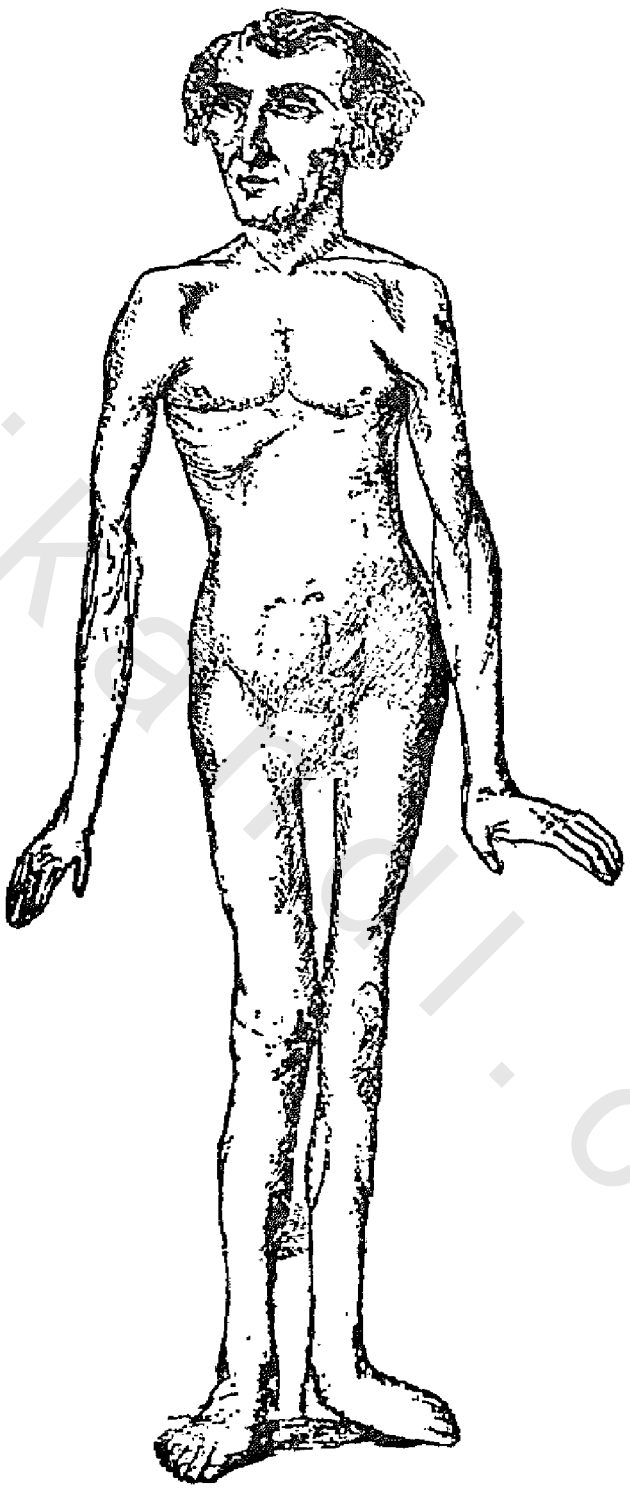

الرسم ٢١

ذراعيهِ اللتين يكاد يكون محيطهما عقدتين ونصف . فكان يتكلف

لذلك عناءً جسيماً . هذا فضلاً عن البطء في الحركة الذي كان شاملاً جميع اقسام جسمهِ . وقد كان في وسع هذا الهيكل العظمي الحي ان ينتصب واقفاً ويسير متنقلاً مقدار ربع ساعةٍ من الزمن . الاَّ ان ما كان يحلّ فيهِ من الوهن وما يعتريهِ من التعب يضطرهُ الى ان يخلد الى الراحة ويلازم السكون مدةً طويلة عقبي ذلك . وكانت جملة المواد الغذائية التي يتناولها في اليوم عشر اوقيات نصفها من الخضر والنصف الاخر من اللحم المشوي . اما مداركهُ فكانت عاديةً وظلت اعضاؤهُ التناسلية صماء مدة حياتهِ (انظر الرسم ٢١)

ولدت روزين اوربي في مقاطعة اللاند وكان طولها تسع عشرة عقدةً وثقلها ليبرتين فقط ، واخذت بالنمو بسرعةٍ بدون ان تُبتلى بأقل مرض . الاَّ ان جسمها كان ذا هزالٍ مفرط وهي ذات شراهةٍ للطعام فائقة التصوّر الامر الذي جعل والدتها ان تضجر من حالتها وتوقن بان ابنتها هذه التعسة على ابواب المنية ولا يمكن ان تعيش ابداً . لكنهُ مع ذلك بلغت هذه الابنة سن السادسة عشرة وحتى هذا العمر لم تظهر فيها اشاير البلوغ . وكانت قامتها تشتد طولاً حتى بلغ ارتفاعها خمس اقدام وست عقد . الامر الذي دعا معارفها وانسباءها الى ان يلقّبوها بالوتد الطويل

كانت روزين اوربي تتضور دائماً جوعاً ولم تشعر ابدًا بالشبع ولم يكن الغذاء الذي كانت تتناولهُ مع والدتها المعوزة ليكفيها . فكانت تذهب تستجدي من المجاورين لها ولم يكن ما تجمعهُ من الصدقة كافياً

لسد رمقها . فتضطر والحالة هذه الى ان تطوف ليلاً في البساتين والحقول لتغتذي من خضرتها وثمارها وتعود في بعض الاحيان الى بيتها وقد انتفخ كرشها نظير المنطاد من جرآء الكمية الهائلة التي تكون قد التهمتها وافرغتها في جوفها

اما هزالها فكان يزداد من يوم الى آخر بحيث انهُ لما بلغت السنة السابعة عشرة من العمر فقدت قوى حركتها ولم يعد في استطاعة ساقيها ان يقوما بحملانها . فاضطرت اذ ذاك الى ان تقيم على قارعة الطريق فوق قطعة حصيرٍ تتسوّل مرددةً باعلى صوتها ان الجوع يفتت احشآءها و يذيقها غصص المنون . وقد زار احد الاطبآء هذه المسكينة مرةً فألفى جسمها بحالةٍ مخيفة وشكلٍ محزن . اذ كان صدرها ضيقاً خالٍ من اللحم تُعدّ ضلوعهُ من فوق أديمهِ وتُحسب ضربات قلبها . وكان أديم معدتها ملتصقاً بعامودها الفقاري وهو مخططٌ بتجعداتٍ لا بدَّ من انها قد تسببت من الاتساع الهائل الذي نتج عن افراطها في تناول الطعام والشراب . لا سيما وان ساعديها وساقيها لم يكن قطرها اغلظ من قبضة المكنسة . و بالاجمال كان اديمها هكذا رقيقاً حتى كان الناظر اليها يظن بانهُ يشاهد هيكلاً عظميًّا. وقد وزنوا جسم هذه الفتاة بعد وفاتها فبلغ ثقلهُ اثنتي وثلاثين ليبرة وثلاث اوقيات

الفصل الحادي عشر

﴿ في البشر المذنّبين ﴾

زعم كثيرٌ من الرحّالات والعلمآء الطبيعيين بأنهُ كانت توجد في جزر فرموزا اصنافٌ من الرجال المذنّبين . وزعم خلافهم وهم اشد تحفظاً منهم بان طول عظم العصعص الذي يتكوّن منهُ الذنب في الحيوان يجوز ان يظهر في النوع البشري لكنهُ على سبيل الشواذ وفي منتهى الندورة . لاسيما ويجب ان تُعدّ الرجال المذنّبون من نوع الهوَل وطائفة شواذ المخلوقات . وعليهِ يكون زعم هؤلآء الآخرين ليس هو بالامر المستحيل والحادث الغير المحتمل ، وهو ما شهدت لهُ كثيرٌ من العلمآء الاعلام والاساتذة المحققين ، الذين يؤكدون انهم رأوا باعينهم ولمسوا بايديهم رجالاً ذوي اذناب . فعاد اذاً من الوقاحة و باب المكابرة ان نهزأ من شهادة اولئك الاعلام ونسفّه خبرهم وننفيهُ نفياً قطعياً

نورد الآن بعض الشواهد على ذلك منها الاثنان الاوّلان للعالم ديمايه المعدود من جملة العلمآء المحققين واولي الابحاث المدققين الذي شهد لهُ فولتير بصائب مباحثهِ وصحة تآليفهِ واليك ما جآء بهِ ديمايه

لما مررت في بدء هذا القرن بطرابلس الغرب شاهدت زنجياً اسمهُ محمد كانت قوّتهُ فائقة التصوّر. بحيث انهُ كان يسيّر بواسطة مقذافين كبيرين زورقاً ضخماً بسرعةٍ فائقة لا يستطيعها خمسة رجالٍ من أشدّ المقذّفين. وشاهدتهُ ايضاً وقد بطح بيدٍ واحدة ثلاثة رجالٍ ورمى بهم على الارض، وكان يحمل على ظهرهِ احمالاً هائلة ينوء اقوى ظهرٍ تحتها. هذا وكان المذكور ازبّ ومغطى جميع بدنهِ بالشعر وهو بعكس اجسام الزنوج عادةً. وما عدا ذلك كان لهُ ذنبٌ طولهُ نصف قدم اراني اياهُ ولمستهُ بيدي. ثمَّ اكّد لي ان والدهُ كان له ذنبٌ نظير ذنبهِ وان كثيرين من اهل كورتهِ رجالاً ونساءً لهم هذا الشكل عينهُ. وهم يسيرون عراةً ليس لهم ما يتسترون بهِ ولا يحتسبون ذنبهم من المعايب التي يجب اخفاؤها. ولقد اعلمني نخّاسو طرابلس الغرب الذين يتاجرون بالرقيق الاسود ان زنوج بورنو وطن محمد المذكور كانوا من القوم المتوغلين في الوحشية وهم أشدّ قوّةً وأصعب مراساً ممن سواهم من الزنوج. وجميعهم رجالاً ونساءً اصحاب اذناب. وكان النخّاسون يبيعونهم باسعارٍ غالية في جهات قرامانيا اذ كانوا يتخذونهم للتحطيب وقطع الغابات

ولقد زاد دياياه على انهُ لا يجب ان يُعدّ الذنب من مخصصات اهالي فرموزا وبورنو فقط بل ان الطبيعة تلعب من وقتٍ الى آخر دورها في التكوين في جميع بلدان المعمور، فنبت الذنب في بعض اهالي اوروبا كما في افريقيا حتى ان الفرنساويين انفسهم لم ينجوا من هذا الذيل الحيواني

الازبّ . ثمَّ انهُ ليس من المعرَّة او الامر الذميم ان يغوص العالم الطبيعي على الامور التي يمكنهُ بواسطتها ان يتطلّع على مخبئات الطبيعة و يتوصل الى معرفة بعض الحقائق المستترة . فلما كنت مقيماً في مدينة بيز في غضون سنة ١٧١٠ نقلوا اليّ ان احدى العوانس تشيّع مفتخرةً انها قد تعرفت بشخصٍ غريب كان من نوع الرجال المذنّبين . فدفعني حب الاطلاع الى ان اقصد هذه العانسة لاستطلع صحة خبرها ، واذ التقيت بها وسألتها عن ذلك قالت لي انهُ لما كانت عائدةً الى بيز من مدينة ليفورنو اتفق لها انها تقابلت بثلاثة ضباطٍ فرنساويين تعشقها أحدهم ورغب في مواصلتها . وقد كان هذا الضابط جسيم البنية حسن الخلق يغلب على ان يكون في سن الخامسة والثلاثين . وكان ذا لحية سوداء اللون كثة الشعر ، وكان جسمهُ هكذا مشعراً حتى انهُ لا يقل شعراً عن بدن الدب . ولما لم تشاهد العانس المذكورة في حياتها رجلاً بهذا الشكل الغريب فقد دفعها الفضول الى ان تمر بيدها على جسمهِ ، بحيث وقعت يدها على ذنبٍ لهُ ثخانة الاصبع و يبلغ طولهُ نصف قدم وكان ازبّ نظير باقي جسمهِ . ولما سألتهُ عن هذا الخلق الغريب الذي في جسمهِ تمغّص الضابط من هذا السؤال واجابها بفظاظةٍ واكتئاب ان هذه قطعةٌ من اللحم وجدت معهُ منذ مولدهِ . وذلك لان والدتهُ كانت تشتهي في اثناء حملها بهِ على أكل عصعص الخاروف . و بوقتهِ شعرت العانس بتغير حالة عاشقها وفتورهِ عن الميل اليها وذلك بلا شك لداعي خجلهِ منها وتخوفهِ من انفضاح امرهِ . وقد اسرع في اليوم الثاني

مبتعدًا عن مدينة بيز حاسباً ما للنسآء من الخفة وعدم التكتم في السر (راجع الرسم ١٨ صفحة ١٤٧)

اما المثل الثالث فانهُ وان يكن منقولاً عن رجلٍ مشهودٍ لهُ في العلم ومعروف بوفرة الاطلاع مع ذلك يتراءى لنا انهُ اقل صحةً من الشاهدين الاولين وهو هذا. احضروا الى الدكتور ميشيل فريدريك لاكنر ولداً يناهز السنة الثامنة من العمر ليكشف عليهِ ويبدي رأيهُ فيهِ. ذلك لانهُ كان للولد ذنبٌ طولهُ من سبع الى ثمان عقد. وكان ينتهي بخصلة شعرٍ كثّة فهو اشبه بذنب الزرافة ويستطيع تحريكهُ على كل اسلوب ويطرد بهِ الذباب اذا اقتضى الامر. وكان اهلهُ يرغبون ان يقطعوهُ منهُ. اما الولد فانهُ كان يرفض ذلك بتةً وقد شبّ وكبر ايضاً ذنبهُ معهُ

شاهد رو بينه صاحب كتاب الاعتبارات الفلسفية مع خمسين شخصاً آخرين استطاعوا ان يشاهدوا الامر عينهُ. ذلك ان احدى بائعات الشراب في باريس كان لها عند عصعصها ذيلٌ يبلغ طولهُ خمس عشرة عقدة، ثمّ كان جسم هذه المرأة ازبّ وكانت ذات ملامح اقرب الى الرجال من ملامح النسآء. وقد ذكر هذا العالم ايضاً انهُ لمس بيدهِ في مدينة اورليان ذنب غلامٍ كان شديد البنية وذا قوّةٍ بدنية فائقة. فلما شبّ هذا الغلام أحبّ ان يقطع ذنبهُ ارضاءً لخليلةٍ لهُ كان يهواها ويتهالك في حبها. فلم يلبث قليلاً حتى ادركتهُ الوفاة على اثر تلك العملية الجراحية

تحفظ لنا وقائع مدينة إيز التاريخية الحادث التالي وهو انهُ : اصيبت لويز مارتين البالغ عمرها خمسة وثلاثين ربيعاً بداء الطاعون الذي تفشى في تلك البلدة . وقد لاحظ الاشخاص الذين قاموا بتمريضها في اثناء مرضها هذا انهُ كان متدلياً بين فخذيها ذنبٌ غليظٌ قد كسا الشعر رأسهُ وهو متوسط الطول . وكانت هذه المرأة مشهورةً بقوتها البدنية ، وكان الشعر ينبت في ذقنها ، وكانت سيماؤها اقرب شبهاً بسيماء الرجل من ملامح المرأة ، وقد تزوجت مرتين ولم ترزق مولوداً ، ثمَّ اتفق مرةً انها صفعت احد الشيالين لانهُ استهزأ بها فصرعتهُ على الارض وظلَّ زمناً طويلاً مغشياً عليهِ . واراد شيالٌ آخر ان ينتصر لزميلهِ ويثأر لهُ فصفعت الثاني صفعةً تركتهُ يدور على نفسهِ وكسرت لهُ سنين من سنانهِ . هذا وقد اشتهر في هذه المدينة ايضاً احد النواب المدعو برنار وكان يلقّب بذنب الخنزير . اذ كان لهُ ذنبٌ يشابه تمام المشابهة ذنب هذا الحيوان

على انهُ يمكننا ان نذكر الف شاهدٍ من هذا القبيل لكنا نكتفي بهذا القدر ممتنعين عن ابداء الآراء وسرد الملحوظات التي تختص بهذا النوع من الهوَل وشواذ الخلق . لكننا نوجه كلمةً واحدةً الى اولئك القوم الذين لا يصدقون بذلك . وهو انهُ اذا كانت الطبيعة توجد رجالاً يقرون فلماذا اذاً لا توجد اناساً باذناب

تلقت مؤخراً جمعية الانتروبولوجيا [1] اكتشافاً من الرحّالتين

(١) وهي التي تبحث في تاريخ الانسان الطبيعي

لوريس ماليكوف وإليزييف يختص بالرجال المذنبين الذين شاهدوهم في اثناء رحلاتهم . وقد اوردوا فيهِ ان اذناب اولئك القوم كان يبلغ طول واحدها بضعة سنتيمترات . وهو مكوّن من طولٍ في عظم العصعص يكتسي بالشعر عند سن البلوغ . وذلك ما برهنت عليهِ الحوادث المتقدمة . سيما وان زعم لامارك ودرون الذي سنذكرهُ فيما يلي ليس هو بالامر الذي يجب طرحهُ وعدم الالتفات اليهِ

الفصل الثاني عشر

﴿ في البشر المجترّين ﴾

تُطلق لفظة الاجترار على الحيوانات أكلة النبات التي من خاصيتها ان تعيد الى فمها الاغذية التي تكون قد ابتلعتها وافرغتها في جوفها ، حتى تجدد مضغها وتأتي على تمام هضمهـا . وقد يحدث هذا الفعل الطبيعي الذي تأتيهِ الحيوانات المجترّة في الانسان نادراً ويكون حدوثهُ فيهِ ناتجاً عن احدى العلل التي قد طرأت عليهِ او لداعي اختلال حاصل في تركيب اعضآء معدتهِ . ويعرف هذا الدآء المكروه عند لفيف الاطبآء بالميريسيزم وحدوثهُ نادرٌ جداً . ومع ذلك فالقسم الاكبر من البيانات التي يذكرونها عنهُ والملحوظات التي يعلقونها عليهِ هي في غير حقيقتها . اذ يغلب ان يكون المراقبون الذين راقبوا عوارضهُ واختبروا احوالهُ قد انخدعوا باتخاذهم نوعاً من التقيؤ بمقام الاجترار . وهو ما يتضح من الاحوال التالية التي تشف عن ذلك وتظهرهُ باجلى بيان

كان لاحد الالمانيين المدعو وندسيار صديقٌ حميمٌ من اهالي بلاد اسوج يناهز سن الخامسة والاربعين وهو من الندمآء الظرفآء

المتصفين برقة الجانب وحلوّ الحديث . الاّ انهُ كان مضطراً عند قيامهِ من على المائدة الى ان يعتزل جانباً ليباشر الاجترار الذي وان كان يتأفف منهُ لكنّ طبعهُ كان يدفعهُ اليهِ . وكانت تسبق اجترارهُ تجشّئاتٌ عديدة يأخذ بعدها الغذآء يتصاعد من المعدة الى الفم . بحيث انهُ كان يمضغهُ من جديد ويعود فيبتلعهُ ثانياً . اما هو فكان يسرع في الحال بعد تناول الغذآء الى الاجترار وذلك قبل ان يحمض الطعام في معدتهِ فيعود الى فمهِ بطعمٍ مكروهٍ يمجهُ ذوقهُ . وقد تأصلت هذه العادة فيهِ وأصبحت طبيعيةً عندهُ . فضلاً عن انهُ كان معافى سليم البنية ولم تنحرف ابداً صحتهُ . وكان قد آل دآء الاجترار الى هذا الرجل الاسوجي بالارث عن والدهِ ، وكذلك قام هو بتوريثهِ لابنهِ من بعدهِ . الاّ ان هـذا الاخير لداعي ما كان يلاقيهِ من التعب ويتكبدهُ من المشقة في تصعيد الطعام الى فيهِ قد توصل اخيراً لما بلغ سن الرابعة والعشرين الى ان يتخلص من هذا الدآء وينجو منهُ بتاتاً

عاين الطبيب فيلش جملة عوارض للاجترار يجوز ان نسميهـا بعوارض التقيؤ وان الاشخاص الذين قد أُبتلوا بها كانوا بعد تناولهم الطعام بساعتين يصعّدون غذآءهم الى فيهم ويتفلون الاجزآء التي قد استعصى على المعدة هضمها . ثمَّ يبتلعون ثانيةً تلك التي هي قليلة العسر سهلة الهضم . كما انهُ يحدث بعد تناول الغذآء عند الاشخاص المبتلين بدآء التقيؤ العصبي عوارض تقرب شبهاً مما تقدم . فالمعدة بحركتها التي يمكنا ان نسميها غريزية لا تردّ الى الخارج سوى المأكولات التي

تراها غير مقبولة عندها . مع انها تحافظ على الاغذية التي تلائم طبعها وتقوم مجتهدةً في هضمها

زعم البعض بان كثيراً من الاولاد كانوا قد ترضعوا من السوائم المفطورة على الاجترار او بانهم كانوا من الرعاة الذين تقضي عليهم مهنتهم بان يعيشوا بين القطعان اثناء الليل واطراف النهار . لذلك قد تعودوا الاجترار اما لانجذابهم بفعل التمثّل او بميلهم للتقليد . وقد افضى اخيراً بهم الامر بعد جملة سنين الى ان اصبحت فيهم هذه العادة الغريبة فطريةً وصار من الواجب عليهم ان يسيروا بموجبها وذلك لراحة اجسامهم وحفظ صحتهم

إقتطف دانيال بيرينتّي وسينر وخلافهما بعض الشواهد على الاولاد الذين ترضعوا في صغرهم من المعزى او البقر حتى اصبحوا في مدة حياتهم من الاناس المجترّين فعلاً

ووجد العالمان ويل وو بفار ابناً مولوداً من امرأةٍ معتوهة جاء هو ايضاً معتوهاً ومختل الشعور نظيرها ، فاقتضى انهم عزلوهُ منذ صغر سنهِ في زريبات الحيوانات بين المواشي والانعام السوائم ، فكان ذلك داعياً الى ان يصبح الاجترار فيهِ طبعاً يفعلهُ من ذاتهِ بكيفيةٍ ظاهرة ومدةٍ طويلة بدون ان تشاركهُ في ذلك ارادتهُ

تكلم الاستاذ لودويك في كتاب غرائب الطبيعة عن ابنةٍ في عنفوان الصبا كان مأكولها قليلاً جداً وكانت تقطع معظم اوقاتها معتزلةً في غرفتها خجلةً صغيرة النفس بادية الاكتئاب . بحيث انهُ كان يخيّل

لها انها من المخلوقات المنحطة عن المرتبة البشرية ، وانها من طائفة البهم المجترّة . ذلك لانها كانت مدفوعةً الى الاجترار بغريزتها بالرغم عن ارادتها . لكنهُ كان ذلك فيها بنوعٍ غريب وليس لهُ مثيل . بحيث انها كانت تستحضر غذآء العشية لتجترّهُ في صباح الغد

ذكر برسي ولوران في معجم الطب الكبير في فصل الاجترار جملة حوادث من هذا القبيل منها حادث عن احد الاغنيآء صاحب معملٍ للحديد وهو الذي كان قد أُبتلي باحدى العلل الخطرة ، وعلى اثرها تغيرت حالتهُ واصبح من القوم المجترّين . اما اجترارهُ فكان يأخذ مبدأهُ بشهقاتٍ مرتفعة الصوت في الاول ، ثمَّ تتبعها شهقاتٌ صمآء لاحس لها . وكانت تصحب كل شهقةٍ تدشئةٌ تصعد معها بلعةٌ من الطعام الى فمهِ وتستقر فيهِ . وبعد ان يمضغها يعيدها ثانيةً الى معدتهِ . ولقد اصبح المذكور في باديءِ بدءٍ كثير الغم مضطرب البال من هذه الحالة التعسة التي قد أُبتلي بها . وقد سعى جهدهُ في مقاومتها والبرء منها ، فذهبت مساعيهِ ادراج الرياح على غير جدوى . الاَّ انهُ قد تعوّد فيما بعد على الاجترار ولم يعد يلاقي في ذلك مكروهاً . بل كان يجد في الاجترار نوعاً من اللذة والتسلية . اذ كان يعتزل بعد كل غذآءٍ في غرفتهِ بدعوى انهُ يقيل فيها وهنالك في مأمنٍ من الرقبآء وخفيةٍ عن الاعين كان يجترّ بدعةٍ وطمأنينة . اما كيفية اجترارهِ فكانت على هذه الصورة: يأخذ الغذآء يتصاعد الى فيهِ في بلعٍ متساوية واوقاتٍ معينة . وهو يمضغ البلغة برهةً وينقلها من اليمين الى الشمال ، ثمّ يبتلعها ليخلي

المحل الى بلعةٍ اخرى يكون قد حان الوقت لتحل محلها في فيهِ . وعلى هذه الصورة كان يجترّ متتابعاً حتى يأتي على جميع الموجود في معدتهِ . الامر الذي كان يستغرق عملهُ هذا مدةً طويلةً من الزمن . فضلاً عن كونهِ كان ميالاً الى أكل اللحوم وكان ذا معدةٍ واسعة

ولقد اخذت تنتابهُ بعد ذلك ادوارٌ من داء النقرس الزمتهُ الفراش مدة شهرين ولم يجترّ في اثنائهما بتةً . الاّ انهُ لما زال عنهُ هذا الداء ونقهَ منهُ تماماً عاد المذكور الى عادتهِ السابقة

اما هذه الحالة الشبيهة بحالة الحيوانات التي تتوقف عن الاجترار في اثناء مرضها فهي مما اشتهر امرها ويوجد لها شواهد عديدة ، ليس من الضرورة الاسهاب في ايرادها وبيان تفصيلها . ولنذكر اخيرًا هذا المثل وهو انهُ لما ناهز احد الاشخاص سن الخمسين اخذت خاصية الاجترار تضعف فيهِ شيئاً فشيئاً الامر الذي اوقعهُ في الغم وفرط الاكتئاب . ذلك لانهُ كان يتطير من التغيير الذي طرأ على معدتهِ ويحتسبهُ نذيراً بقرب معادهِ . وقد تمّ بالحقيقة ما كان يتوقعهُ ويتخوّف منهُ ، بحيث انهُ طفق الهضم يتعسر معهُ من يومٍ الى آخر ، وأخذ جسمهُ بان يضنو ويذبل ، ولم تمضِ عليهِ بضع سنواتٍ حتى قضى نحبهُ في حالة هزالٍ محزنة للغاية

الفصل الثالث عشر

﴿ في البشر النهمين ﴾

نخص بالنهمين هنا اولئك الاشخاص البالغين منتهى الجشع وهم الذين يلتهمون مقداراً هائلاً من المأكولات ويستمرون مع ذلك متضورين جوعاً ، ولا هم يشعرون بشبعٍ ولا يعرفون للكفاف حداً ولا معنى . ولقد علل العلماء عن هذا الداء في الانسان بانجذابٍ عصبي يأخذ منتهى الشدة في المعي الهاضم فيهضم المأكولات بسرعةٍ فائقة ويفعل هذا الفعل في الانسان النهم

يذكرون من النهمين الذين طارت سمعتهم وبلغوا اوفر شهرةٍ في الاعصر الخوالي ، المصارع ميلون دي كروتون ، وهو الذي كان ينحر ثوراً بيدهِ فيقتلهُ ويلقيهِ صريعاً على الارض يتخبط بدمآئهِ ويتخذهُ غذآء يومهِ . وروى اوفيد ان اريشتون قد التهم في مدة ساعةٍ غذآء معدًّا لخمسين شخصاً . وان تياجين لم يكن يكفيهِ اقل من خاروفين لعشآئهِ . وان ارشيداماس ملك ليديا كان يأكل ستين ليبرة لحم في يومٍ واحد ونظيرها من الخبز ، وكان يشرب خمس عشرة زجاجة

خمراً [١] . وان غامبلاس اميراً أفريقياً كان يأكل متواصلاً ليلاً ونهاراً ولم يكن يشعر ابداً بشبع . قيل انهُ قتل امرأتهُ وافترسها نية ؟؟؟ . اما مثل هذه القصص فلا شك بأنها خرافات مختلقة او مبالغ في امرها . وان علامات الاستفهام التي تنتهي بها بعض الروايات تفيد الارتياب والشك بها

كان احد الاشخاص المسمى ديوتيم والملقّب بالقمع يأكل خاروفاً بغاية السرعة بدون ان يتوقف هنيهةً في اثناء اكلهِ ويشرب معهُ من الخمر خمسة عشر عياراً [٢] (خرافة)

كان يتلهى الامبراطور اوريليانوس في بعض الاوقات بمشاهدتهِ احد الضباط يأكل امامهُ وهو الذي كانوا يعدّون لعشآئهِ خنزيراً بريًّا

---

(١) قال ابن خلقان في ترجمة الخليفة سليمان بن عبد الملك انه كان يأكل في كل يوم نحو ماية رطل شامي وكان شرهاً . . . .

وروى الامام الحافظ ابن عساكر في تاريخه ان سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الاكل وقد نقل عنه فيه اشياء غريبة . فمنها انه اصطبح في بعض الايام بار بعين دجاجة مشوية واربعين بيضة واربع وثمانين كاوة بشحمها وثمانين جردقة ثم اكل مع الناس على السماط العام . ومنها انه دخل ذات يوم بستاناً له وكان قد امر قيمه ان يجني ثماره ويستطيب له . وكان معه اصحاب فاكل القوم حتى اكتفوا واستمر هو يأكل فاكل اكلا ذريعا . ثم استدعى بشاة مشوية فاكلها ثم اقبل على الفاكهة فاكل اكلا ذريعا . ثم اتى بدجاجتين مشويتين فاكلهما . ثم مال الى الفاكهة فاكل اكلا ذريعا ثم اتى بعقب يقعد فيه الرجل مملوء سمنا وسويقا وسكراً فاكله اجمع ثم سار الى دار الخلافة واتى بالسماط فما نقص من اكله شيء وكانت وفاته على اثر نهمة عظيمة اتخمته فمم بها وذلك في مرج دابق !!!

(٢) خمسة عشر عياراً يقابلها اربع وخمسون زجاجة من زجاجات الجعه (البيرة)

وخنوصاً (١) وخاروفاً مشوياً وكان يلتهم هذه القطع الثلاث بأقل من ثلاث ساعات وذلك ما خلا عشرة عبارات خمراً

روى سوريوس انهُ في حضور الامبراطور ماكسيميليانوس التهم احد النهمين ثوراً نياً بجلدهِ وخاروفين مجزوزي الصوف وذلك على مشهدٍ من اهالي مدينة اوكسبورغ

اما المطالع الحازم فانهُ لا يصدق ابداً بهذه المبالغات المفرطة والقصص الخرافية بل انهُ يحتسبها من جملة تخيّلات اليونانيين ومبالغاتهم الشعرية . وهي التي يمكننا ان نقابلها بخرافاتٍ ليست هي اقل منها مبالغةً قد رواها بعض القصاصين العصريين وقاموا باثباتها ومنهاما يأتي

ابتلع احد النهمين خاروفاً بجملتهِ امام مجلس الشيوخ في مدينة ويتّمبرغ ثمَّ اتبعهُ بخمسة عشر ارنباً .... ! وتفكه بعد ذلك بستين ليبرةً خوخاً ابتلعها بنواها ومقداراً كبيراً من الكرز. واذ لم يجد بعد ذلك شيئاً ليبتلعهُ فقد اقتلع جص احد الافران واخذ يقضمهُ. وكان قد التهم هذا النهم في اقل من ساعتين كيسين مملوئين من دود القز المعدين للحريق وسلتين محتويتين على عددٍ من الطيور وستين جرذاً وستة خنانيص وكل ذلك اكلهُ في ليلةٍ واحدة !

على اننا لم نأتِ على ذكر هذه الخرافة وهي من هزليات مدينة ويتّمبرغ الاّ لنوقف المطالع على المستحيل ونحذرهُ من المستحيلات التاريخية التي لا يقرّ بها علم ولا تقبل تصديقاً . ونزيد على هذا انهُ لا

(١) الخنوص ولد الخنزير

يجب على المطالع ان يصدق الاّ بالحوادث الممكنة الحدوث التي يسعى العلم الى تحليلها وايراد بيانها وذلك بشرحٍ مناسب وتعليلٍ مقبول كما يتضح لك مما يلي

كان من الذين يترددون على حديقة النباتات في باريس قد شاهدوا مراراً عديدة نهامة احد الغلمان المسمى بيجو وهو المستخدم في ملاجئ الوحوش المفترسة . وكان هذا التعس ليخفف عنهُ الجوع الشديد الذي كان يعذبهُ دائماً و يفتت احشآءهُ ، فكنت تراهُ يلقي بنفسهِ فوق فضلات المأكولات مهما كانت رديئةً ومستكرهة ، فيلتهمها ولا يبقي منها ولا يذر . ففي احد الايام هلك اسدٌ ظريف من مأسدة الحديقة فقام بعض الخدم بسلخ جلدهِ ليحشوهُ تبناً . ولمَّا حضر عند المسآء احد المخصصين لدفن الجثث لينقل جثة الاسد ويدفنها ، فمـا وقع نظر اصحاب الشأن عليها حتى لم يجدوا منها سوى الهيكل العظمي لان بيجو كان قد افترسها برمّتها . ثمَّ انهم وجدوهُ مرةً ثانية داخلاً في جوف فيل مات عشية ذلك اليوم وهو يمزق احشآءهُ و يلتهمها . وقد تمكن بيجو يومئذٍ من املآء جوفهِ وتفريج فؤادهِ . وقد قدّر الخدم ما اكلهُ بيجو من الكبد والامعـآء في ذلك اليوم بعشرين ليبرةً في مدةٍ لا تزيد على سبع ساعات وقد استمر بعد هـذا الغدآء الغليظ والماكول الهائل سليم الجسم ولم يصبهُ اقل انحرافٍ في صحتهِ

اما بالنظر الى هضمهِ فكان على الدوام منظماً وتغوّطهُ وافراً لكنهُ كثير النتانة شديد الرائحة . وكانت بنيتهُ اميل الى الضعف من السمن .

ولا تعادل في النسبة لتلك المقادير الهائلة من المأكولات التي كان يتناولها ويفرغها في جوفهِ . ثمَّ انك كنت تشاهدهُ دائماً يتصبب عرقاً وتنفسهُ حارًّا وافراً حتى انهُ في ايام الصيف تحت ضيآء الشمس كان يتصاعد من فيهِ بخارٌ شبيهٌ بما يخرج من الفم عادةً في ايام الشتآء الشديد البرد ومن هنا ربَّ انهُ كان يفقد الحرارة الجسيمة التي كانت تتولد من نهامتهِ الشديدة وتغذّيهِ المفرط . ولقد عمّر بيجو ما ينيف ستين حولاً ، ولما ادركتهُ الوفاة شرَّحوا معدتهُ فوجدوا فيها كرشاً هائلاً ثخين الاديم كثير التمدد وكان المعي الهاضم اقل طولاً من الحالة الاعتيادية وهو يقرب كثيراً من معي الحيوانات المفترسة

ننقل باختصارٍ التقرير الآتي الذي ورد مفصلاً في معجم الطب تأليف برسي ولوران عن احد النهمين الذي لم يسبق لهُ نظير وهو الحاوي كل انواع المذاق والبالغ اقصى درجةٍ من درجات النهمة . ذلك انهُ كان لدى الضرورة يرتضي بكل نوعٍ من انواع اللحوم مطبوخةً كانت او نيّة زاهيةً او مفسودة . وكذلك بكل نوعٍ من انواع الاثمار والجذور والحشايش يابسةً كانت ام خضرآء

كان يُسمى هذا النهم طارار خرج من منزلهِ الابوي وهو فتى غض الشباب في مقتبل العمر وقد تجول في بلدانٍ كثيرة مدةً طويلة من الزمن كان في اثنآئها يعتمد على التعيّش تارةً من السرقة وطوراً من التسوّل . وقد التحق اخيراً باحدى الجمعيات التي تقيم الالعاب البهلوانية وتنقّل معها في اسواق المدن وحلقات البلدان . بحيث كان يعلو

طارار اخشاب الملعب ويطلب من المشاهدين ان يشبعوهُ اذا كان في استطاعتهم ذلك . فكان كلٌّ من الحضور يبتدرهُ بشيءٍ من المأكول وطارار يلتهمهُ ويواريهِ في كرشهِ السحيق . وكأنهُ كان بعملهِ هذا يمثّل احد المشعوذين ، وكانت معدتهُ بمثابة الهميان . واتفق في احد الايام انهُ اكل سلتين تفاحاً وخمس ليبراتٍ بطاطساً نيةً رغب احد المشاهدين في تقدمة ذلك اليهِ ؟ فكانت هذه الادوار التي يقوم بتمثيلها في حالة الحمق وعدم التروّي تقودهُ مراراً عديدة الى مستشفى اوتيل ديه ليشفى من المغص الشديد الذي كان يمزق جوفهُ ويفتت احشآءهُ

ولقد تطوع طارار نحو سنة ١٧٩٠ في احدى الفرق العسكرية فكان يسخّر نفسهُ بخدمة بضعة انفارٍ في قصد ان يطعموهُ لقآء خدمتهِ لهم مخصصهم اليومي ليسد بهِ رمقهُ . هذا ولم يكن طارار يزن اكثر من مائة وثلاثين ليبرة . وكان احياناً ليفكّه عشرآءهُ من جهةٍ ويخفف عنهُ وطأة الجوع المذيب من الجهة الاخرى ، كنت تلقاهُ يفترس قطاطاً وارانب وطيوراً حيّة وبعد ساعتين يلفظ الشعر والريش من فمهِ كما تفعل ذلك الطيور الجوارح

وقد ابتلع في احد الايام في اقل من ساعةٍ غدآءً مهيّئاً الى عشرة رجال ألمانيين . وكان هذا الغدآء مكوّناً من قصعتين من اللبن المخثر ، وعشر ليبرات من كرنبٍ مسلوق ، وليبرتين من المعجنات المسلوقة بالمآء والمبسوسة بالدهن ، وخمسة عشر كوباً من الجعة . وبعد ان التهم هذا الغدآء باسرع من وميض البرق انتفخت معدتهُ المترهّلة والكثيرة

الغضون واصبحت موتورةً نظير المنطاد . اما هو فذهب في الحال ونام مستلقياً على ظهرهِ حتى اليوم التالي . ثمَّ دخل في احد الايام مستشفى سولتزن واقام فيهِ بضعة ايام ليتداوى من علةٍ كان قد أُبتلي بها . فاتفق ان احد جراحي ذلك المصحّ كان يعرف طارار ويعلم بما هو متصفٌ بهِ من النهمة وفرط الجشع فلهذا اصدر امرهُ بان يخصصوا لهُ اربعة تعيينات طعاماً في اليوم وان يجهزوا لهُ علاوةً على ذلك نوعاً من المعجون يمزجونهُ بجميع فضلات طعام المرضى والممرضين . وكل ذلك كان غير وافٍ لسد رمقهِ وابلاغهِ حد الكفاف . وقد دخل في احد الايام غرفة الادوية بدون ان يشعر بهِ احد فوقعت يدهُ على القصاع التي يجهزون فيها الكماد فالتهم ما فيها ببضع دقائق . وقدّروا الذي التهمهُ في ذلك اليوم من الكماد بخمس واربعين ليبرة اتبعها بعشر ليبرات مطحون الخردل المجهز بالخل ليعملوا منهُ كماداً .... ومع هذا كلهِ استمر طارار سليماً على أثر هذا المأكول المهول ولم تنحرف ابداً صحتهُ . وقد ذكروا عنهُ اشياء اكثر مبالغةً مما تقدم وان الذين اوردوا ذلك هم من القوم الحازمين الذين لا يلقون الكلام على عواهنهِ ولا يبالغون في مروياتهم

على انهُ لا يجب ان نطيل الشرح في الوسائل التي كان يتخذها طارار ليحصل بها على المأكول ويخفف عنهُ بعض آلام الجوع فان ذلك مما بيناهُ بجملة اوجه . ويكفي المرء ان يتصور المأكولات التي تأكلها الحيوانات الاكثر نجاسةً والاوفر جشعاً تلك التي كان يأكل نظيرها هذا النهم المسكين ، ومنها يستطيع ان يقضي حكمهُ على حالة

ذوقهِ وشدة اضطرارهُ الى أكل بعض الاشياء التي كان يأبى الحيوان الاعجم أكلها . اما الكلاب والقطاط فانها كانت تهرب منهُ وتبتعد عنهُ اذا اقترب منها كانها تحذر بغريزتها من طمعهِ بها ورغبتهِ في افتراسها . ولقد ضج الممرضون في احد الايام بالصراخ اذ شاهدوهُ يشرب دماً مفصوداً من احد المرضى . وقد زعم بعضهم بانهم فاجأوهُ في غرفة التشريح فوجدوهُ يشفي ارمهُ الشديد من الجثث الممدودة فيها والمعدة للتشريح الطبي . ثمَّ انهم فقدوا بعد ذلك بمدةٍ ولداً في المستشفى لهُ من العمر اربعة عشر شهراً اختفى فجأةً ولم يقفوا لهُ على اثر ، فاتهموا بهِ طارار ووقعت الشبهة عليهِ . الامر الذي اقتضى طردهُ من المستشفى وكان ذلك في سنة ١٧٩٤ ولم يعد احدٌ يسمع عنهُ شيئاً . حتى سنة ١٧٩٨ التي فيها دخل مستشفى فرسايل وهو مقرّح الجسم مفسود الدم ولم تمض اربعة ايامٍ على دخولهِ حتى قضى فيهِ نحبهُ واستراح من حالتهِ هذه التعِسة . وبعد بضع ساعاتٍ من وفاتهِ فسدت جثتهُ وأنتنت اشد النتانة ، ومع هذا لم يجفل جراحو المستشفى من ذلك بل قاموا بتشريحها وفحصها بكل امعان وتروّي . فوجدوا المعي الهاضم مغموراً بالصديد القيحي وكان المعي الذي يليهِ كثير التمدد كأنهُ كرشٌ ثانٍ . . . لا سيما وان هذا المعي عوضاً من ان يكون ملتفاً بدوراتٍ متعددة نظير ما لباقي البشر فقد كان قصيراً وشكلهُ من فم المعي (بيلور) حتى باب المستقيم نظير حرف السين S في لغة الفرنجة ويشابه هذا التركيب البسيط في معيهِ من جملة اوجه ما للاسد

والنمر وباقي الحيوانات المفترسة ولا شك بانهُ نتيجة الجشع المذيب وعدم التصبر على الجوع اللذين كان مبتلى بهما هذا النهم المسكين . الامر الذي كان يدعوهُ الى ان يأكل نظير الحيوانات الجوارح ويهضم مأكولهُ بسرعتها لا بل يفوقها بالجشع والشراهة . اما اردیتهُ فكانت دائماً مبتلة بالعرق وكان تنفسهُ يخرج منهُ حارًّا منظوراً حتى يُشاهد رأسهُ كأنهُ محاطٌ بغمامٍ من الابخرة . وهو يغوط كثيراً وفي اوقاتٍ مترادفة وذلك ناتجٌ عن الاطعمة الهائلة التي كان يتناولها . اما اديم معدتهِ فمن طبعهِ ان يكون مترهّلاً ومتجعداً قبل الطعام حتى انهُ يمكنهُ لفّهُ حول جسمهِ . فاذا ملأَ كرشهُ ذهبت تلك التجعدات وزال ذاك الترهّل واصبح اديم معدتهِ نظير اديم الطبل مشدوداً متنفخاً . ثمَّ كان يزداد البخار الخارج من فيهِ في الحال لدى تناولهِ الغذآء وكذلك تحمرّ عيناهُ ووجنتاهُ ويصير لونهما براقاً وتستحوذ عليهِ الغفوة البهيمية . بحيث كان يضطر الى ان يذهب في الحال وينعكف في احدى الزوايا وهنالك كان يفعل الهضم معهُ مفعولهُ

اما بالنظر الى حياة الانسان النهم فهي بوجهٍ عامّ قصيرة المدة اذ لا تستطيع الطبيعة ان تقاوم مدةً من الزمن عملاً مستديماً يضنيها . ذلك لان حالة هؤلآء الاشخاص ما هي الاَّ حالة تهيّجٍ دائم ، لا بل حمّى مستمرة تفني حياتهم . فضلاً عما تفقدهُ الاعضآء من القوى لداعي كثرة اجهادها . ومتى لم يعد تناسبٌ بين التغذي وتلف الاعضآء ، اذ يكون قد اختل بينهما هذا التوازن فوقتئذٍ يخسف الجسم وينقطع فيهِ حبل الحياة

الفصل الرابع عشر

﴿ في البشر الغير المحترقين ﴾

توجد اشخاصٌ قد توصلوا الى تصليب بشرتهم وجعل اجسامهم اقل تأثراً من فعل النار ، وذلك اما بالتمرين المستديم او بواسطة بعض المواد الواقية من الاحتراق ، التي بها قد احرزوا هذه المزية الشاذة وتفردوا بها

ففي الاعصر الخوالي والقرون المتوسطة كانت الاشخاص الغير المحترقين كثيري الوجود متوفري العدد وما ذلك الاَّ لانهُ كان يتوقف دائماً عدد المشعبذين على مقدار تفشي الجهل بين الشعوب المعاصرين لهم ، وعلى مبلغ سذاجة الاقوام القائمين فيما بينهم . لا سيما وقد يُشاهد ايضاً في وقتنا الحاضر بين زمنٍ وآخر بعضٌ من الرجال الغير المحترقين لكنهم من الافراد النوادر الذين لا يعتدّ بهم ولا يلتفت اليهم . وذلك لان مهنتهم قد اصبحت ممتهنةً وبضاعتهم مزجاة ، لم يعد يروج سوقها ويعبأ في الزمن الحاضر بها

يؤكد فرجيليوس وبليونس ان كهنة البلّون في جبل سوراكت

قد منحتهم آلهتهم السر لان يسيروا حافيّ الارجل على المواقد المشتعلة والجمر الملتهب كما يسرح الانسان فوق النبت الاخضر و بين الخمائل النضرة . و يذكر سترابون نفس الامر و ينسب هذا السر للعذارى المكرّسات انفسهنّ الى الالهة فيروني . ويزعم اريستوط ومن بعدهُ آبوله بانهُ كان نظير هذا الامتياز لكاهنات ديانا الفارسية التي كان يُشاهد هيكلها في القرب من مدينة تيان . فضلاً عن ان جملة مؤلفين اخرين من تلك الاعصر قد التقطوا ونشروا جملة حوادث من هذا القبيل وكلها تشير الى ذات الامر او ان لها بعض الشبه بما تقدم

اما بالنظر الى القرون المتوسطة وما كان عليهِ الشعوب وقتئذٍ من الجهل المطبق والسذاجة المفرطة فذلك لم يكن مقتصراً على ايجاد الرجال الغير المحترقين بل انها قد اوجدت ايضاً امتحان النار ، وهي التي لقبوها بقصاص الله . والتي ساعدت بنوعٍ اخص على زيادة عدد الممخرقين والاقوام المتعصبين

ذكر كاردان وامبرواز انهما شاهدا مشعوذين بارعين قد عودوا اجسامهم على تحمّل الزيت الغالي ، والرصاص المذاب ، والفحم المتقد بحيث كانوا يغسلون وجوههم بالنوعين الاولين ويبتلعون الجمرات المشتعلة ، ولا يقشعرّون من هذا العمل ولا يظهرون منهُ اقل اشمئزاز . ثمّ انهم يردفون على هذا ملاحظين بانهُ اذا كانت الملوك والملكات والاساقفة وخلاف اشخاص وهم قد امتثلوا لامتحان النار وخرجوا منها صحيحين سالمين . أفلا يكون بالمثل لاولئك الصعاليك المساكين

الفاقدي النسب والعديمي النشب وهم الذين كانوا يتقدمون الى النار فتحرق اجسامهم وتبيدهم بلا شفقةٍ ولا رحمةٍ . أفلا يكون اذاً في الامر سرٌّ قد خفي على النـاس امرهُ وموّهوا على العقول بهِ . وذلك ما يُستنتج من الشواهد التالية

اتهموا تويتبرج زوجة لوتير بهيامها باخي زوجها الامير الفتى ومعاشرتها اياهُ الامر الذي دعاها الى ان تلجأ الى امتحان النار وتنقاد الى قصاص الله ، لتبرهن على عفتها وتؤيد نزاهتها وطهر ذيلها . لكنهُ مما يجب قبل ذلك ملاحظتهُ والالمام بهِ هو ان الجهل المطبق الذي كان في تلك الازمنة ضارباً اطنابهُ فوق تلك الارجاء لهذا كان يكفي الامر ان يجد المتهم بديلاً عنهُ يفوّض اليهِ القيام بتلك التجربة وتحمّل القصاص الالهي

ولقد تمكنت تويتبرج لما كان عندها من الثروة الطائلة وما لها من المنزلة الرفيعة بين قومها من ابتياع بديلٍ حلَّ محلها وقام عنهـا بتأدية هذا القصاص المتّبع . وذلك انهُ قد غطّس البديل ذراعهُ في وعاءٍ فيهِ زيتٌ بحالة الغليان ورفعها بعدئذٍ منهُ صحيحةً سالمة كما كانت قبل غمسها فيهِ ؟ ولقد ذهل الملك متعجباً لدى مشاهدتهِ هذا الامر . ومع انهُ كان غير مقتنعٍ بعفة زوجتهِ ونزاهة طويتها ، مع هـذا قد اضطر الى ان يبرئ ساحتها ويبقي عليهـا طالما برّأها قصاص الله وبرهن على نزاهتها وحسن سريرتها . ثمَّ انهُ في اليوم ذاتهِ قد اتهموا زوجة احد الرجال الرعاع بجريمة الزنا ولما رغبت هذه في ان تبرهن

عن نفسها بالزيت الغالي فما غمست ذراعها في وعآء الزيت حتى اخرجتها محترقةً اشد الاحتراق الامر الذي قضى باهانتهـا امام الشعب وقد امروا في الوقت ذاتهِ بشنقها لداعي انها مجرمة ومقترفة اثم الزنا

أتهمت ماري دراغون زوجة اوتون الثالث شاباً من الكونتات بميلهِ لها وهيامهِ بها . وذلك لانهُ أبى مواصلتها ولم يرتضِ مجاراتها في هواها . ولكي تنتقم منهُ وشت بهِ الى الامبراطور بما رغب في اغوآئها وانتهاك حرمتها . الامر الذي كان داعياً لقطع رأس هذا الكونت النزيه والشاب الابيّ النفس . اما ارملة الفقيد فلتبرهن على عفة زوجها وسلامة نيتهِ وغدر الامبراطورة بهِ ، فقد طلبت من الامبراطور ان تبرهن عن زوجها المقتول بواسطة الحديد المتقد وذلك انها تقدمت امام الشعب وهي قابضةٌ باليد الواجدة على رأس قرينها المقطوع وفي اليد الاخرى على قضيبٍ حديدي شديد الاشتعال احمر اللون وهي تهزّهُ بيدها وترفعهُ نحو العلآء طالبة الانصاف لها والانتقام من غريمها . وانهُ بالنظر لما اظهرتهُ هذه الارملة المسكينة من الحق الجلي والبرهان الواضح قد حُكم على ماري دراغون بان تحرق حيّةً وقد اسلموها في الحال الى الجلاّد ؟ (قصة)

كان راهب فلورنتيني يسمى الدوبراندیني ويلقّب ببطرس اينيوس قد اتهم مطرانهُ بالسيمونيا [1] وليبرهن على صدق تهمتهِ فقد سار وغدا فوق قطعٍ خشبية كبيرة الحجم مشتعلة اشد الاشتعال

(١) السيمونيا بيع الاواني المقدسة

لقد طبّق اوروبا في آخر الجيل السابع عشر ريشارسون الانكليزي بضجيج عجائبهِ وطنطنة معجزاتهِ وهو عدم قبولهِ الاحتراق . ذلك لانهُ كان يسير فوق الجمر وعلى الصفائح الحديدية المتقدة ، وكان يذيب الرصاص ويغطس لسانهُ ويبتلع زيتاً وشمعاً في درجة الغليان . وبالمثل قاراً وقيراً وزيت الراتنج وكبريتاً في حالة الاشتعال وكل ذلك بدون ان يتألم او يلحق به اقل احتراق . وان تجارب ريشارسون التي كانت في ذلك العصر موضوع حديث جميع الباحثين واولي الاطلاع قد كلف البعض الندوة العلمية البارسية الى ان تتولى امرها وتقوم بتكييفها وقد فوضوا الامر الى العالم دودار الذي قام بتمحيصها وأستنتاج البعض منها . وقد أثبت نتيجة أبحاثهِ في صحيفة العلماء المنطوية على بعضٍ من أسباب تلك الغرائب التي كان يمخرق بها هذا المشعوذ الغير المخترق

كان رجل اسباني يغسل يديهِ بالرصاص المذاب وينقط منهُ نقطاً على لسانهِ وبعد ان يمسح وجههُ بالزئبق كان يوجههُ نحو لهيب الكحول الامر الذي كان منهُ ذلك داعياً لاعجاب مشاهديهِ وشده عقولهم . وقد احتسبهُ كثيرٌ من الناس انهُ وليٌّ من الاولياء او مخلوقٌ خارق العادة . وقد استنتج العالم سيمنتيني وحدهُ اعمال هذا المشعوذ زاعماً بانهُ يأتيها بواسطة مجهزات خفية تقيهِ فعل النار . ومن حينهِ اخذ بان يبحث ويفتش على التراكيب الكيماوية التي هي من هذا القبيل . الاَّ ان ابحاثهُ ذهبت في باديء بدء ادراجها ولم تفز بطائل

ظهر في نابولى بعد هذا الاسباني شخصٌ آخر غير قابل الاحتراق يسمى لبونتي قام بتمثيل هذه الاعمال مدةً قصيرةً من الزمن . وكانت خوارقهُ مقصورةً على اعادة الادوار التي كان يمثلها ذلك الاسباني ، مضيفاً اليها بعض غرائب لم يأت سلفهُ بها . اما سيمنتيني فقد اخذ بان يعيد تجاربهُ التي اصابت المرمى في هذه المرة وجاءت متوجةً باكليل الفوز والنجاح . وذلك انهُ عقبى دلكهِ مدةً طويلة قسماً من جسمهِ بالحامض الكبريتي قد تمكن فيما بعد من ان يمرّ قطعة معدنٍ محمية فوقهُ . ولقد تمَّ نجاحهُ بالاكثر بغسلهِ ذلك القسم من جسمهِ بمحلول الشب الثخين القوام وقد مكّنتهُ الصدفة من جهةٍ اخرى من ان يكتشف وسيلةً اكثر اصابة ، وهي التي بلا شك كان يتخذها المشعوذون ويعتمدون عليها . وذلك ان يطلي بالصابون القسم من جسمهِ المدهون بالشب طلاءً كثيفاً ليرد عنهُ فعل الاحتراق . ولقد قام سيمنتيني باعادة تجارب الاسباني لبونتي مبرهناً على ان جميع هذه الفعال التي تأتيها بعض افرادٍ من عامة الناس بصفة عجائب وخوارق ما هي لدى التحقيق سوى بعض شعوذات دُرّبت منهم باقل او اكثر حذاقةٍ ومهارة

شاهدوا في ابتداء القرن التاسع عشر شخصاً يلقّب نفسهُ بالعربي الغير المحترق وكانت مجموع اعمالهِ تقرب من شعوذات سلفائهِ المتقدمين . غير انهُ زاد عليها دور الشمع ودور الفرن . وذلك انهُ كان يبسط ذراعيهِ فوق لهيب مجموعة شمعٍ مشتعلة ثمَّ يدخل ذاتهُ في فرنٍ

محمى وهو قابض بيدهِ على فخذ لحم . ولدى خروجهِ منهُ كانوا يروا الفخذ مشوياً ويستمر هو سليماً ؟ . . . ومما نلاحظهُ على هذا الدور الاخير انهُ لا يستبعد ان يكون المذكور قد ادرج هذا الدور في اعلانهِ فقط ولم يأتِ على تحقيقهِ . وذلك لان الغير المحترقين الاكثر براعةً منهُ ما استطاعوا ان يتحملوا حرارة فرنٍ يُشوى فيها اللحم . وقد ذكر ليونار فاير أن هذا المشعوذ المغفّل قد ارتضى بسخافة عقلهِ أن يدخل ذاتهُ في فرنٍ لم يكن محضّراً منهُ ، الامر الذي قضى عليهِ بأن يحترق عقبى دخولهِ فيهِ . بحيث أنهُ لما استبطأ المشاهدون هذا المشعوذ فتحوا عليهِ باب الفرن فلم يروا فيهِ سوى جثةً تمثل جثث المحنطين

يتراءى لنا ان ما اوردناهُ من الامثال والادلة هو كافٍ ليستدل منهُ المطالع على كون التمرين المستمر والتكرار الدائم ينمي فينا خواصاً تقرب مشابهةً من الخوارق وضروب الاعجاز . ذلك لاننا نُشاهد في كل يوم صناعاً تقضي عليهم مهنتهم بأن يلامسوا النار ويتحككوا بها . وهم يظهرون في اثناء تأدية عملهم كأنهم عديمو الاحتراق او قليلوالشعور . نظير بعض الطهاة الذين يرفعون الخضَر والمقليات من السوائل وهي في حالة الغليان بدون ان تحترق اصابعهم . و بالمثل يلامس الحدادون الحديد المشتعل أوالمعدن المذاب ولا يتأثرون من ذلك اصلاً . ونظيرهم المرصصون فانهم يعملون دوراً اكثر صعوبةً مما تقدم ، بحيث انهم يغمسون يدهم في الرصاص المذاب لينتشلوا منهُ قطعة الذهب أو الفضة التي يكون قد رماها لهم فيهِ محبو الاطلاع ليشاهدوا استخراجهم اياها .

وكذلك وقّادو السفن البخارية فانهم يعرضون أنفسهم في بعض الاحيان الى حرارةٍ تشوي طيراً . و يذكرون من هذا القبيل ان حداداً بولونيًّا كان يسير حافي القدمين فوق صفائح الحديد المحمية والبالغة درجة الاحمرار واذا سوءل عن عملهِ هذا كان يجيب لسائليهِ بكل سذاجة و بساطة أن هذا الفعل الذي يأتيهِ هو من قبيل التمرّن والاعتياد ليس الاَّ

ومما يجب ملاحظتهُ أيضاً في هذه الحوادث المتنوعة المختصة بعدم الاحتراق تلك الكيفية التي بها تصدر الحرارة عن الجسم المشتعل . ذلك لان انفصال الحرارة يختلف بالنظر الى طبيعة وحالة تلك الاجسام . بحيث أنهُ اذا سقطت نقطة ماءٍ على قطعة حديد بالغٍ في اشتعالهِ حالة البياض تبقى تلك النقطة فوقهُ بضع ثوانٍ شبه كريةٍ . مع ان نقطةً نظيرها اذا سقطت على حديدٍ اقل اشتعالاً فانها تتبخر في الحال بدون ادنى تأخر . لا سيما وان الحدادين انفسهم يعرفون جيداً ان اطرافهم تحترق بمعدنٍ مبرّد نصف تبريد اكثر من احتراقها بذات المعدن اذا كان محمياً و بالغاً في اشتعالهِ حالة البياض . فيضتج اذاً من ذلك انهُ اذا كان معدنٌ ما بالغاً اسمى حالات الاشتعال وقد اتخذ الشكل الكروي وصار برّاقاً فالحرارة الصادرة عنهُ تأخذ سرعةً تقرب مشابهةً من سرعة النور . ففي هذه الحالة يكون امتزاجها بالجسم تقريباً معدماً اذا لم نقل عسراً جداً

رأى بعض العلماء أن يثبتوا مؤخراً ان الانسان المتوطن في القطب

الشمالي باستطاعتهِ ان يحتمل من البرد حتى ٨٥ درجةً بالمقياس المئوي. وكذلك المقيم في المناطق المحرقة في امكانهِ ايضاً ان يحتمل مناخاً ذا ٨٥ درجة زيادةً على حرارة جسمهِ . فاذا كانت درجة الحرارة في الاجسام البشرية هي نحو ٣٦ درجة فيكون الرقم المتحصل من ذلك هو ١١٧ وهو امرٌ هائلٌ كثيرٌ من الاشخاص لا يصادقون عليهِ

ولما كان الانسان لا يسعهُ من هذا القبيل الاَّ ان يسلّم باقوال الرّحالات الخبيرين . فقد ذكر الرّحالة شابّ انهُ دخل في روسيا في حمامات محمية بتسعين درجةً بالمقياس المئوي. وشاهد الرّحالة تلّت دوهامل ورّحالاتٌ آخرون في لاروسيفونكولت في اوغوموى خادمات احد الخبازين يدخلنَ في فرنٍ تبلغ حرارتهُ ١٢٥ درجة . فيكون اذاً حادث المشعوذ العربي وفخذ اللحم بالنظر الى روايات هؤلاء الاشخاص ليس هو بالامر المستحيل . ومع ذلك فكثيرون لا يصدقونهُ ولا شك بانهم محقّون

على انهُ يستنتج ايضاً من التجارب التي اجرتها بعض العلماء ان حالة الجسم البشري اذا تعرّضت الى هذه الدرجة العالية من الحرارة فهي لا ترتفع حرارتها اكثر من درجتين او ثلاث . وان هذه الكيفية الغريبة في نظر اولئك العلماء هي مسببة من التبخر الغزير الذي يتم فوق سطح اديم الجسم وفي داخل الرئتين، وذلك ما يعادل بين الجسم والمحيط القائم هو فيهِ . وكذلك قد تحققوا بالمثل ايضاً ان الحرارة البشرية في اثناء البرد الاشدّ قرساً لا تنقص اقل من ثلاث درجات وهذا مع وجود الحياة في كلتا الحالتين

الفصل الخامس عشر

﴿ في الاولاد الوحشيين ﴾

تُعرف بالوحشيين اولئك الاولاد التائهين او المتخلفين عن والديهم في الاحراج والغابات وهم الذين قد تداركوا بالغريزة امر معاشهم وحافظوا بالسليقة على حياتهم

وقد زاد جملة مؤلفين على هذا زاعمين بان هؤلآء الاولاد قد ارضعتهم اناث بعض الحيوان فغذوا بلبانها حتى بلغوا سن الفطام . اما نحن فلا يسعنا ان ننفي هذا الزعم بتةً ، ولا ان نقوم باثباتهِ وتأييدهِ ، بل يخيّل لنا انهُ اذا كانت الوحوش الضارية لم تفترس هؤلآء الاولاد ولم تتوصل الى الغدر بهم ، فذلك لكونهم قد تاهوا في عمرٍ تمكّنوا بهِ من حراسة انفسهم واتقاء غدر الوحوش الضارية من ان توقع بهم وتفترسهم . ثمَّ انهُ بانقطاع هؤلآء الاولاد عن الهيئة الاجتماعية وعدم استئناسهم بمن هم على شاكلتهم ، قد اضاعوا لغتهم والذكرى باصلهم مع كل ما لهُ علاقةٌ بالخصائص العقلية والمزايا الذهنية . بحيث كانت افكارهم تمحي شيئاً فشيئاً ويُستعاض عنها بفكرةٍ واحدة وهي تدارك

امر غذآئهم والمحافظة على حياتهم . وان هذه الفكرة القوية قد أنمت فيهم على خلاف القياس قسم الدماغ الرئيسي . وبذلك استمرت باقي اقسام العضو الدماغي صمآء لم تكتسب سوى نموًّا غير كامل . فضلاً عما انمت التمرينات الرياضية في اجسامهم من القوى العضلية . وقد اثرت في تركيبهم تقلبات الطقوس وعدم الانتظام في البيئة والمعيشة واخيراً قد جعلهم تعوّد العيش الوحشي على ان يفقدوا كل درايةٍ شخصية ويساووا البهم في احوالهم ويماثلونهم في حركاتهم وسكناتهم . ذلك ما يشير حقيقةً الى ان الانسان لا يختلف عن الحيوان سوى بالرأس والآداة الصوتية واليدين ، وان على هـذه الاعضآء يتوقف تساميهِ على سائر المخلوقات وكل انواع العجماوات . وسنقتطف فيما يلي بعض رواياتٍ مأخوذة من مؤلفاتٍ لبعض الرجال الثقاة المتصفين بالجد وسعة الاطلاع

١

﴿ في الاولاد المتبنَّين من الدببة ﴾

نقرأ في تاريخ بولونيا الطبيعي انهُ نحو سنة ١٦٦١ ابصر بعض الصيادين في احدي غابات ليتوانيا بين سربةٍ من الدببة ولدين يجدان في اللعب يقرب ان يكون عمرهما بين سن التاسعة والعاشرة . وانهما كانا قويي الجسم لهما خفةٌ ونشاطٌ غريبان . ولقد قام الصيادون بتهريب الدببة واجتهدوا في القبض على الولدين . وبعد ان بذلوا

غاية الجهد والعناء قد تمكنوا من القبض على الاصغر منهما سناً ، وذلك عقبى ان قاومهم مقاومةً عنيفة وهارشهم باسنانهِ واظافرهِ . وكان هذا الولد ذا شعرٍ اشقر وملامح تستلفت الانظار . قدّموهُ الى ملك بولونيا اذ ذاك فأمر بأن يعمّد في الحال وقد جعل الملكة عرّابتهُ والسفير الفرنساوي عرّابهُ . ثمَّ انهم قد اعتنوا كثيراً بتأديبهِ فذهب تعبهم ضياعاً وعناؤهم بدون فائدة . ذلك لانهم لم يتوصلوا الى ايناسهِ واصبح امر تأديبهِ ضرباً من المحال . اذ انهُ كان يتضايق من الثياب التي كانوا يلبّسونهُ اياها وهو يمزقها إرباً إرباً كلما خلا لهُ الجو وغفلت عنهُ اعين الرقباء . ولقد ذهب ما تكبدهُ معلموهُ من الصبر والعناء في تعليمهِ النطق وتلقينهِ الكلام صرخةً في الفضاء وارقاماً على الماء . لانهُ لم يكن يقبل فم هذا الغلام الوحشيّ النطق ويتعذر عليهِ تلفّظ الكلم . وقد حافظ حتى الثانية والعشرين من عمرهِ وهي السن التي قضى فيها نحبهُ على الصباح وتكرار عادات الاداب

شاهد طبيبٌ انكليزيٌّ يدعى كنّور في فرسوفيا في أواخر سنة ١٦٩٤ ولداً ثانياً يبلغ من العمر عشر سنوات انتشلوهُ بالمثل من بين الدببة من ذات غابة ليتوانيا . وانهم لما قبضوا عليهِ طفق يهرّ هريراً مخيفاً وكان جسمهُ مغطى بشعرٍ خشنٍ وكثيف ، وهو ذو اخلاقٍ وحشية لم يكن يعتاد معها على المعيشة البشرية الاّ بكل مشقةٍ وصعوبة . ثمَّ انهُ بعد جملة سنين خلت التي كانوا في اثنائها يدرسونهُ ويلقنونهُ الكلام قد توصل اخيراً الى تلفّظ بعض الكلمات . فاذ ذاك رغبوا في تسآلهِ

عما يعرفهُ او يتذكر بهِ عن حياتهِ السالفة . فظهر لهم انهُ قد اضاع الذكرى تماماً ولم يعد في استطاعتهِ ان يجيب على ذلك جواباً مرضياً . وقد اكّد بعض الحطابين المسنّين اولي الخبرة للطبيب المومأ اليهِ ان الدببة كانت تختطف مراراً الاولاد المتخلّفين عن ذويهم والمفقودين منهم وكانت بدون ان تلحق بهم اقل اذى تحملهم الى كنسها وتأخذ في ملاطفتهم واللعب معهم . فكان اذا ابتدأ واحدها بملاطفة الولد ومداعبتهِ كانت تثقل قوائمهُ الغليظة عليهِ فتجعلهُ ان يبكي متألماً . فوقتئذٍ كانت باقي الادباب تنقض على رفيقها فتقتص منهُ وتحول بينهُ و بين الولد لعدم احتراسهِ في مداعبتهِ

قد اعتاد العالم بوهرهاف ان يذكر في عرض ارشاداتهِ متمثلاً بتاريخ انسانٍ شاب قد تاه في الغاب وهو في سن الخامسة من عمرهِ وعاش مدة ستة عشر حولاً نظير البهم الوحشية . بحيث كان غذآؤهُ مقتصراً على الحشائش والاثمار و بعض انواع الجذور ، التي يختارها بحاسّة الشم وهي الحاسّة التي بها كان يتجنب النباتات السامّة بدون ان يغتر او يخطي في تمييزها . ولما قبضوا عليهِ واتوا بهِ الى وسط الهيئة الاجتماعية البشرية كان يتأسف دائماً على العيش الحيواني والحياة البهيمية ، متخذاً لهُ جملة تجارب ليفلت من يد الانسان و يعود الى سابق عهدهِ

اما العالم بوهرهاف فقد كان يحتسب ميل هذا الفتى الغريزي نحو العيش البهيمي ورغبتهِ في الحياة الوحشية ما ذلك الا كوصمةٍ ذميمة قد دُمغت بها جبهة هيئة البشر الاجتماعية

٢

﴿ في الابنة الوحشية في اوفر ايسّل ﴾

قد تتبع بعض الرّحالات في اواخر شهر اغسطس (آب) سنة ١٧١٧ ابنةً وحشية في غابة جبلية في مقاطعة اوفر ايسّل وقبضوا عليها وكان يتراوح سنها بين الثامنة عشرة والعشرين . الاَّانهم كانوا يجهلون المدة التي اقامت فيها هذه الابنة في الغابات واستوطنتها . وكان اديم بشرتها اسمر اللون ذو غضونٍ مغطى بالشعر . وشعر رأسهـا كثفياً وطويلاً ينسدل فوق كتفيها المُمتلئتي العضل فيظلالهما . ولم يكن لها لغةٌ تتكلم بها بل كان صراخها مصدعاً وذا حشرجةٍ صمآء ، وهذا كل ما نطقت بهِ وسمعوهُ منها . اما اخلاقها فكانت وحشيةً صرفاً وغريزة الدفاع فيها قويةً تساعدها عليها قواها العضلية ، الامر الذي جعـل القبض عليها عسراً وفي حالة الخطر

و بعد ان القوا القبض على هذه المخلوقة التعسة اسلموها الى جمعية الراهبات اللواتي قمن بملاحظتها والاعتناء بأمرها احسن قيام . وانهُ فضلاً عما بذلنهُ معها من الجهد وما ابدينهُ نحوها من الغيرة لم يستطعن تعليمها التكلم ولم تتوصل هي الى ان تنبس ببنت شفة . ولما كان العيش الرهباني قد اثر في هذه الابنة المسكينة ولم يكن في استطاعتها ان تحتمل هذا الحبس الضيق ، لهذا اخذ الهزال فيهـا مبدأهُ وذوى على اثره غصن قامتها وادركتها المنيّة بعد قليلٍ من الزمن

٣

﴿ في غلام هانفور ﴾

قبضوا في وسط غابةٍ من ارجآء كونتية هاميان في سنة ١٧٢٤ على غلامٍ يبلغ من العمر ثلاثة عشر ربيعاً . كان جسمهُ مغطى بالنُدب الجلدية ، ومنظرهُ قبيحاً للغاية ، ولهُ فمٌ عريضٌ واسع الشدقين ومفلطحهما ، ولسانٌ غليظٌ جداً . ولم يكن في استطاعتهِ ان يفوه باقل صوتٍ بل كان يصرخ صراخاً حلقياً مخيفاً ولا يأكل في باديء بدء سوى لحماً نيئاً . لكنهُ قد تعوّد فيما بعد على أكل اللحوم المطبوخة وقيل ان شراهتهُ كانت عظيمةً حتى كان يوازي مأكولهُ غداً ثلاثة رجال . وقد امر ملك انكلترا في ذلك العهد بتربيتهِ والاعتناء بهِ ، وكانت اقامتهُ في بيتٍ في لوندرا . اما الامثولات التي لقّنوهُ اياها فقد ذهبت جميعها سدى ولم تأتِ بفائدة . ذلك لانهُ بالكاد قد استطاع ان يتعلم بالانكليزية ان يسأل عن المأكول والمشروب

٤

﴿ في وحش اوفيرون ﴾

ابصر بعض الحطابين من سبعين سنةً خلت في غابٍ من مقاطعة تارن غلاماً في غضاضة العمر عاري البدن اخذ يجد بالفرار لدى رؤيتهم اياهُ واقترابهم منهُ . ولما كانت الشمس عند الاصيل وعلى اهبة

الغروب توارى الغلام بين الادغال وغاب شبحهُ عنهم . ولقد ذهب الحطابون في اليوم التالي الى الغاب ومعهم جماعةٌ اخرون فابصروا الغلام بالذات يلتقط ثمر البلوط وبعض جذورٍ كان يتغذاها ويقتات بهـا . لكنهُ ما ذاع هذا الخبر في المدينة حتى توافد الكثيرون من محبيّ الاطلاع وضربوا في طول الغاب وعرضهِ ليقبضوا على هذا الانسان الوحشي ، واخيرًا قد توصلوا الى حصرهِ والقبض عليهِ . الاَّ ان الخفة والقوة اللتين كان هذا الغلام متصفاً بهما قد ساعدتاهُ على الانفلات من بين ايديهم والهرب منهم ، وتوارى مرةً ثانية متوغلا في الغاب بين الاشجار

وبعد ما مضى خمسة عشر شهراً على ذلك قد التقى بهِ في اطراف الغاب المذكور ثلاثة صيادين من مدينة كون . فلما ابصرهم لاذ بالفرار واجتهد كثيراً في الهرب فاخذوا يجدون باثرهِ وقد احدقوا بهِ من كل جهةٍ وجانب . ولما ابصر ذاتهُ محصوراً ولم يعد لهُ مخرجٌ للهرب ولا مناصٌ للتخلص منهم ، تسلق كما يتسلق الهرّ باسرع من وميض البرق شجرةً كانت بالقرب منهُ واقام على غصنٍ من اغصانها . وبعد ان بذل الصيادون غاية الجهد وكل ما في وسعهم تمكنوا من القبض عليهِ واستاقوهُ معهم الى مدينة كون

وكان هذا الغلام عاري الجسم تماماً ، وكان شعر رأسهِ المنكوش مغطياً وجههُ تقريباً ، وهو ذو اظافر قوية وبدنٍ مشعر ، وعينين شهلاوين وبراقتين ترسلان في الليل بريقاً مخضرًّا . وهو لم يكن يذوق

اللحم ابداً بل يقتات من البلوط والجذور والبطاطس النية والشاهبلوط (ابو فروة) التي كانوا يقدمونها لهُ بكثرة . ولقد ظلَّ في بلدة كون ثمانية ايام مقيماً في بيت امرأةٍ ارملة اخذت تعتني بهِ ولم تكن تمنع عنهُ شيئاً . ولما كانت الحرّية عند هذا الغلام في اسمى منزلةٍ ولا يعادلها شيء فقد انتهز الفرصة وعمد الى الفرار مرةً ثانية . لكنهُ عوضاً من ان يعود الى الغاب موطنهِ السابق فقد رام جهةً أُخرى ، وطفق يتيه في الجبال والكهوف وقطع مسافة اربعين كيلو متراً في تلك المقاطعة ، وعاش على هذه الحالة تائهاً شريداً مدة تنيف على ستة اشهر

ففي أحد الايام الشديدة البرد الكثيرة الاعصار دخل هذا الغلام الوحشي بيتاً كائناً على مقربةٍ من مدينة سان سرنان مرتدياً بقميصٍ خلِقٍ كانت المرأة الارملة ألبستهُ اياهُ . ولما بلغ خبرهُ المجاورين هنالك توافدوا زرافاتٍ ووحداناً على ذلك البيت لمشاهدتهِ . فوجدوهُ مضجعاً بجانب موقد نارٍ وهو يتنعم بالحرارة الصادرة عنهُ . ولقد وجّه البعض اليهِ جملة سؤالاتٍ فكان هو ملازم الصمت ولم يجب بكلمة . الا مر الذي جعلهم ان يخالوهُ مخلوقاً ابكم . واخيراً تقدم شخصٌ بالقرب منهُ وطفق يلاطفهُ ويؤانسهُ وتوصل اخيراً الى ان يأتي بهِ الى بيتهِ ، وقد قدم لهُ طعاماً ليأكل . اما هو فلم يشأ ان يدنو من اللحم ولا من الخضر المتبّلة بل انهُ أكل بشراهةٍ فائقة بطاطساً وشاهبلوطاً مسلوقين بالماء . ولما نُقل الى ملجأ سان سرنان امتنع في بادئ بدء من تناول الحساء (الشوربة) ونفر من النوم فوق الفراش ، لكنهُ قد

تعوّد ذلك شيئاً فشيئاً ولم يعد يستكرههُ كالاول . ثمَّ انهُ فضلاً عن اقامتهِ في ذلك الملجأ ووجودهِ في بحبوحةٍ من الراحة ورغد العيش واعتناء اصحاب الملجأ بامرهِ وملاحظتهم اياهُ . مع ذلك قد كان يميل الى الحرّية ويفضلها على ما سواها . بحيث انهُ حاول مرتين ان ينتهز الفرصة ويركن الى الفرار لكنهم شعروا بهِ ولم يستطع ادراك مرامهُ . واليك ما نصهُ احد الاطبّاء عن هذا الغلام الوحشي الذي كان معاصراً لهُ

كان يوجد في جسم هذا الانسان عددٌ وافرٌ من التقطبات الجلدية. وكانت قطبةٌ كبيرة في عنقهِ تشير غالباً الى اثر يدٍ كانت ترغب في قتلهِ . اما خصائصهُ العقلية فقد كانت معدمةً بالكلية ، وهومستعيضٌ عنها بجميع الغرائز الوحشية . وكان اذا رغب احدٌ في مداعبتهِ فكانت تبدو عليهِ امّارات السرور ودلائل الارتياح ، وهو يكرّ كريراً (١) أجش . واذا رام احدٌ معاكستهُ فكان يثب مغتاظاً وينهش احياناً يد معاكسهِ . اما نومهُ فكان غراراً (٢) اذ كان اقل صوتٍ ينبههُ ويوقظهُ من غفوتهِ . لا سيما وقد كان يبغض الاولاد الذين هم من عمرهِ . وهو لم يرتكب في اثناء حياتهِ اقل فعلٍ مستنكر يستدل منهُ على المكر والخباثة . وكانت جميع الناس في نظرهِ سواء فهو لم يكن يبتسم الاَّ لدى رؤيتهِ الرجل الذي كان يأتي لهُ بالطعام . وكان من ثمَّ متخلقاً بطيب وسلامة الرجال المغفّلين . فضلاً عن انهُ لم يكن يثق

(١) الكرير حشرجة الصوت (٢) الغرار القليل من النوم

باحدٍ بل كان يذبّ عن نفسهِ ويقوم بحراسة شخصهِ وهو ينزعج كثيراً من الهيئة الاجتماعية ويميل دائماً الى الوحدة والانفراد

ولقد اقام هذا المنكود الطالع في الملجأ كشجرةٍ غُرست في تربةٍ غير تربتها وارضٍ غريبة عنها . فكان في الصباح اذا بزغ نور الغزالة من نوافذ غرفتهِ يرفع بصرهُ نحو السمآء ويصرخ صرخةً شديدة كأنهُ يستقبل الفجر ويحيي عروس الكون . وكان ينظر الى الاشجار بعين التلهّف ونظر الاشتياق كأنها تذكرهُ بايامهِ الوحشية التي لم تزل مرتسمةً في مخيّلتهِ ولم تغب عن ذاكرتهِ . وكان بعد ذلك يأخذ في بلادتهِ المعتادة ويضطجع نائماً مغطياً وجههُ بيديهِ

ولقد ظلّ هذا المخلوق التعس مشدوهاً وفاقد الرشد مدة حياتهِ وكان لسانهُ الثخين لا يقبل التلفّظ ولا يستطيعهُ . وانهُ فضلاً عما بذلهُ المعتنون بهِ من الجهد والعنآء لتلقينهِ الكلام فهو لم يتمكن من ان يلفظ ولا كلمة الفرد

على انهُ ليس هؤلآء الاولاد الوحشيين هم الذين وُجدوا في الغابات وشاع امرهم فقط بل يوجد كثيرٌ من امثالهم ضربنا عن ذكرهم واكتفينا بهذا القدر وكفى بذلك مثالاً . اما الامثال التي اثبتناها وأتينا على ذكرها فهي تحتوي على أمرٍ اكيد وبمنزلٍ من الاهمية وهو فقدان النطق والعسر في تلفّظ الكلم عند جميع هؤلآء الفتيان الوحشيين . لا سيما وكان جميعهم بوجه التقريب قد فقدوا مألوف التكلّم وكان تعبيرهم عن الفرح او الالم مقتصراً على صراخ حادّ او انينٍ أجشّ . وانهُ

فضلاً عن الامثولات المترادفة التي لقنوهم اياها والجهد الشديد الذي بذلوهُ نحوهم . لم يكن في الامكان تعليمهم التكلم . حتى ان مجموع الكلمات التي حفظها البعض منهم كانت مقتصرةً على الالفاظ الدالة على الحاجيات الطبيعية ليس الاَّ . اما هذا النقص في هؤلآء المخلوقات فانهُ لا بد من ان يكون قد تسبب من ارتخآء الحبال الصوتية وفرط ضعفها لداعي عدم تمرّنها . بحيث انهم قد لاحظوا ايضاً ان ألسنتهم قد اصبحت ثخينةً جداً ، وفقدت حالة تنقلها الطبيعي ، وصارت قلقةً في حركاتها . ومن جهةٍ اخرى ان الحواس والغرائز التي كانوا يعملون بها قد اكتسبت نمواً فائقاً ، مع ان القوى العقلية كان قد أُغفل امرها وانمحى تقريباً اثرها من مخيلتهم . وقد استمر هؤلآء التعسآء كل مدة حياتهم وحشيين متصفين بالبلادة والجبن وراغبين في الوحدة والانفراد . وكذلك كانوا يمارسون آلياً ما تلقنوهُ وتعلموهُ ، وهم يتأسفون دائماً على ماضي ايامهم وسابق عيشهم الوحشي وكل هذا يدعونا لاستنتاج النتيجة الآتية

لما كان الدماغ هو السبب في سمو الانسان على الحيوان فخاصة التكلم هي ايضاً مبدأ من مباديء قابليتهِ للكمال . فالولد الذي يعيش ويشب في الوحدة بعيداً عن الهيئة الاجتماعية البشرية يفقد هذه الخاصية ويقرب شيئاً فشيئاً من البهم وينتهي الامر باختلاطهِ بها وائتلافهِ معها

الفصل السادس عشر

﴿ في الرجال الغوّاصين ﴾

توجد فئةٌ من الرجال يمتازون عمن سواهم بما لهم من المقدرة على الاقامة في قاع اليمّ زمناً متفاوت المدة بدون ان يطبق عليهم الماء ويكونوا في خطر الغرق

يذكر التاريخ القديم جملة حوادث من هـذا القبيل عن اناسٍ غاصوا في البحر واستمروا فيهِ مدةً تفوق طور التصديق وتتجاوز حد الامكان . فقد ذكر هيرودتس في كتابهِ السابع انهُ في اثناء حكم ارتاكزيرسيس مامنون اشتهر احد المكيدونيين من جبل شيلياس بسيرهِ ستة استاد (١) تحت الماء ليزفّ الى اليونانيين خبر غرق عمارتهم البحرية ؟

ويزعم بلينوس بان صياداً من الكابري كان يسير يومياً في قاع البحر مدة ساعة وبعض الاحيان اكثر من ساعة . وغايتهُ من ذلك ان يفتش على الجهات الكثيرة الصيد المتوفرة فيها الحيتان . وكان

(١) الستاد مقياس يوناني يعادل مائة وخمس وعشرين قدماً

يتفق في غالب الاحيان ان كثيراً من الصيادين لم يكونوا يلاقون صيداً مع انهُ كان بعكسهم يسحب شباكهُ فيجدها ممتلئةً بالحيتان حتى تكاد تتمزق . وما ذلك الاَّ لكونهِ قد ذهب في الاول واكتشف الجهات التي يغشيها السمك ويجتمع فيها ؟ ؟ ؟

لمّا حاصر محمد الفاتح بوزنتية قطع البوسفور احد غواصي اليونان سابحاً تحت المآء ومصحباً معهُ رسائل بمنتهى الاهمية بدون ان يظهر للعيان او يبصر بهِ احد

يذكر تاريخ صقلية الحادث التالي

كان صيادٌ كبير السمعة طائر الصيت قد اشتهر باقتدارهِ الفائق على غوصهِ في البحر واقامتهِ تحت المآء زمناً طويل المدة . فبينما كان الملك في ذلك العصر يتنزه في احد الايام على شاطئ البحر متبوعاً من اخصآئهِ وحاشيتهِ . خطر لهُ ان يستدعي هذا الصياد ويشير اليهِ ان يغوص امامهُ لانهُ كان يرغب ان يستوضح غوامض شاريبد وسيلا الجيولوجية . فلما امتثل الصياد بين يديهِ تعهد لهُ الملك بمكافأةٍ جزيلة اذا رغب ان يغوص في اسفل اللجة ويذكر لهُ ما يشاهدهُ فيها . الاَّ انهُ لما كان الصياد عالماً بالخطر الذي يتهددهُ من جرآء غوصهِ في تلك الهاوية السحيقة فقد ابى ان يحقق امنية الملك ولم يحفل بالجزآء المعد لهُ . اما الملك فليختبر طمع هذا الغواص ومقدار جشعهِ للمال فانهُ عمد الى قطعة ذهبٍ منقوشةٍ غالية الثمن والقاها في اليمّ وقال للصياد ان أنت اخرجتها فتكون حلالاً لك . فتردد المومأ اليهِ في الامر اولاً

ثمَّ القى نفسهُ على اثرها في اليمّ لينتشلها . وما عتّم حتى ظهر بعد ربع ساعةٍ سالماً نشيط القوى وهو قابضٌ بيدهِ الواحدة على قطعة الذهب وكان يستعين بالأخرى على العوم ومكافحة صدمات المآء . ولقد سُئل عما شاهدهُ في قعر اللجة فاجاب بان قطعة الذهب عوضاً من ان تسقط في المآء عامودياً فقد دفعها التيار وميّلها جانباً . وكذلك بالمثل قد دفعهُ هو ايضاً التيار ولم يتوصل للقبض عليها الاَّ بعد ان اجهدهُ النصب ولاقى من العنآء اشدهُ . ولما كان الملك يرغب من صميم الفؤاد ومهما كلفهُ الامر ان تكمل امنيتهُ بوقوفهِ على غوامض تلك اللجّة ومخبآتها . فقد نسل خاتم ألماسٍ كان في اصبعهِ ووضعهُ في كرةٍ من الذهب وقذف بها في وسط اللجّة مشيراً الى الغواص باخراجها لتكون حلالاً لهُ . فضلاً عما يشملهُ بهِ من الالتفات وما يكون لهُ من الحظوى عندهُ . ولقد دهش الغواص لفخامة الخاتم وتحمّس من اطرآء الحاشية لهُ ، وعليهِ ملأ بشدةٍ رئتيهِ هوآءً وقذف بنفسهِ مرةً ثانية في المآء

واقام الملك وحاشيتهُ ينتظرون ظهورهُ بفارغ الصبر وبمنتهى الاشتياق . ولقد مرَّت على ذلك ساعةٌ واعقبتها أُخرى ولم يظهر للصياد اثرٌ ولا بدت منهُ اشارة . وما كان الاَّ ان اللجّة قد ابتلعت غنيمتها وافترست فريستها واطبقت الى الابد على هذا الغواص الباسل الذي لم تكمل امنية الملك بهِ

يغوص الغواصون الهنود واخصهُ السود منهم الذين يتعاطون

صيد اللؤلؤ في اعماقٍ سحيقة ويقال انهم يستمرون تحت الماء نصف ساعةٍ بدون ان يظهروا او يبان لهم اثر . ولما شاهد السياح لاول مرةٍ صيد اللؤلؤ تأسفوا على اولئك التعساء ورثوا لحالهم ظانين بان الامواج غرّقتهم وقبضهم البحر اليهِ . لكنهم قد ذهلوا متعجبين لدى رؤيتهم ظهور الغواصين ثانيةً على وجه الماء وهم يحملون الاصداف الثمينة

يقرأ المطالع في مجموعة التاريخ الطبيعي القصة التالية

كان شابٌ اسباني يدعى فرنسوى دي فيغا مولوداً في ليرغانيس ، ابتعد في احد الايام مع رفاقٍ لهُ مسافةً شاسعة في البحر وهنالك غاص غوصةً لم يظهر لهُ اثرٌ بعدها ، وقد نُعي خبرهُ لاهلهِ بانهُ قضى غريقاً ، فبكوهُ بكاءً مرًّا واسفوا لفقدهِ اشد الاسف . ثمَّ انهُ بعد خمس سنواتٍ خلت قبض بعض الصيادين في شبكتهم في بحر كاديكس على رجلٍ بحريّ اوقعهم في الدهش وتحيروا لدى مشاهدتهم اياهُ أشدّ الحيرة . ثمَّ انهم احضروهُ الى بلدتهم وكلموهُ بجملة لغاتٍ فظل صامتاً ولم يجبهم بكلمةٍ بتةً . ولقد اقسم عليهِ بعض الرهبان القسم الرباني فلم يشأ ان يتكلم لا بصفتهِ شيطاناً ولا بكونهِ مخلوقاً بحرياً . ثمَّ سمعهُ احد الرهبان يلفظ اسم ليرغانيس فتراءى لهُ ان يذهب بهِ اليها . ولما بلغاها عرفهُ هنالك ابوهُ واخوتهُ وقاموا بمعانقتهِ . لكنهُ ظلَّ غير متأثرٍ من كل ما ابداهُ آلهُ نحوهُ من العناق والقُبل . ولقد اقام مع اسرتهِ مدة بضع سنواتٍ لم يستطع فيها النطق ولا فاه بكلمة الفرد . وبعد ذلك توارى عن اعينهم وفقد منهم ثانياً . ولما كان احد مواطنيهِ مسافراً في البحر

بعد ان مضت بضع سنواتٍ على غيابهِ الثاني ، فقد زعم بانهُ نظرهُ في بحر استوري مع جماعةٍ من الدلفين (خرافة)

عُرف سكان جزيرة ساموس في كل زمنٍ بكونهم من الغواصين الماهرين . فقد ذكر طورينفور عقبى زيارتهِ هذه الجزيرة ، ان الشاب من سكانها لا يستطيع الزواج قبل ان يكون قد اتمَّ امتحانهُ في هذا النوع من الرياضة البحرية

اما الصيادون المتهافتون في يومنا الحاضر على صيد المحارات فهم متمتعون بنشاطٍ رئوي شديد . بحيث انهم عقبى جملة دقائق يظهرون فوق الماء للتنفس ثمَّ يعيدون الكرّة فيغوصون في الماء . ففي ابتداء القرن الماضي قد ألفت انظار الباحثين ومحبي الاطلاع من اهالي باريس رجلٌ مجهول المنبت ضائع النسب يناهز سن الثلاثين ويدعوهُ البعض بالرجل الامريكي . كان من عادة هذا الرجل ان يؤمّ في كل يومٍ وقت الظهيرة شاطئ قناة اوريك فينزع عنهُ ثيابهُ ويلقي نفسهُ في اليمّ ، ويستمرّ فيهِ غائصاً مدة ثلاثة ارباع ساعةٍ لم يُشاهد اثرهُ في اثنائها . وبعدئذٍ كان يخرج من الماء ويرتدي ثيابهُ بهدوٍ ويتوجه في طريقهِ بدون ان ينظر الى احدٍ او يلوي بصرهُ على شيء . ولقد اكّد جملة اشخاصٍ بانهم شاهدوهُ يسير في اسفل القناة البالغ عمقها اثنتي عشرة قدماً منحني الرأس الى الامام ومشبّك الذراعين الى خلف . وهو في حالةٍ يمثّل بها رجلاً مطرقاً في الارض يتأمل . ولما انتهى الموما اليهِ في احد الايام من نزهتهِ المعتادة تحت الماء وقام مرتدياً ثيابهُ تقدم اليهِ

احد المشاهدين مستفسراً اياهُ عن الوسيلة التي يتخذها ليستمر هذه المدة بطولها تحت الماء بدون ان يقع في التهلكة او ينالهُ مكروه . فاذ ذاك نظر صاحبنا الى سائلهِ شذراً واجابهُ بقولهِ انني مبتلٍ بداء السكتة ولما كان السائل قليل الملاحظة لا يغنيهِ التلميح عن التصريح ، فقد اردف عليهِ قائلاً . وما القصد من اقامتك كل هذه المدة تحت الماء ؟ فاجابهُ الرجل الامريكاني على الفور لكي لا تزعجني الهوام واخصهُ الانام . وبعد ذلك ذهب هذا البحري في سبيلهِ ولم يعد يرجع الى ذلك المكان ابداً (هزلية)

بعد ان مرّت ردحةٌ من الزمن على المعركة البحرية التي حدثت سنة ١٨٢٧ في ميناء ناڤاران والتي فيها غرق عددٌ كبير من السفن والبوارج في ذلك المكان فقد استدعت الحكومة اليونانية شركةً مؤلفة من الغواصين اليونانيين والصقليين وفوّضت اليهم استخراج المدافع والآلات الحديدية وحبال السفن . . . . . التي غرقت في قعر البحر. ولقد كانت هذه الشركة مؤلفة من واحد وعشرين شخصاً أُسندت الى عهدتهم هذه المهمّة وقاموا بتأديتها احسن قيام

ولقد كان المتفرجون ومحبو الاطلاع يتوافدون زرافاتٍ ووحداناً على ذلك الشاطىء ليشاهدوا عمل هؤلاء البحريين البواسل ، فكان يستولي عليهم العجب وتعتريهم الدهشة . وكانت المدة التي يقيم فيها هؤلاء البحريون تحت الماء تتراوح بين ثلاث وخمس دقائق ، كانوا في اثنائها يربطون المدافع بحبالٍ يستحضرونها معهم ، وكانت الآلات

الرافعة تخرجها الى الشط . وقيل انهُ كان يستمر واحدٌ من هؤلآء الغوّاصين وهو الاشدّ منهم قوةً وأوفرهم مهارةً خمس دقائق تحت المآء بدون ان يخرج ليستنشق الهوآء . وهو الذي كان يفتح ابواب مخادع السفن ويدخل داخلها ويربط القطع المعدنية التي فيها ويكسر بفأس كانت معهُ الصناديق والخزائن التي لم يستطيعوا فتحها ، ويستخرج منها الاشيآء الثمينة ، وبعدهُ يعوم على وجه المآء للتنفس واستنشاق الهوآء. ولقد كان يخال المشاهدين انهُ قد أُغمي عليهِ حتى انهم كانوا يصرخون برفقآئهِ ليذهبوا في الحال لنجدتهِ واغاثتهِ . اما هؤلآء فكانوا يهزأون من تخوّفهم ويعيرون صراخهم اذناً صمآء لعلمهم ببسالة رفيقهم ومقدرتهِ الفائقة على الغوص وخوض عباب المآء . وكان مولد هذا الغوّاص البارع في جزيرة ساموس . واذ سُئلَ عن الوسائل التي يتخذها لاستمرارهِ هذه المدة الطويلة تحت المآء . فكان يجيب بكل بساطةٍ وسذاجةٍ بان ليس لديهِ اقل علاجٍ ولا ادنى سر . وما ذلك سوى نتيجة تمرّنهِ اليومي والتعوّد الذي كان يمارسهُ منذ صغرهِ ونعومة اظفارهِ . فبواسطة ترويض الرئتين اللتين تمددتا بسبب الاستنشاق المتواتر اتسع بهما الصدر واصبح بعدهُ بارزاً مرتفعاً ، ومن هنا تتأتى تلك الخاصية التي يمتلكها هؤلآء الرجال الغواصون الذين يتوصلون الى ان يقيموا تحت المآء مدةً من الزمن لم يستطعها خلافهم

كان يعلل البعض فيما مضى عن هذه الخاصية بزعمهم انهُ يوجد ثقبٌ بيضيّ الشكل في قلب الجنين بواسطتهِ يحصل دوران الدم في جسمهِ

بدون مساعدة الرئتين ، وانهُ عندما تضع الام الجنين ينتظم في الحال العمل الرئوي وينسدّ الثقب البيضيّ . فالاشخاص الذين بسبب من الاسباب لم ينسدّ فيهم بعد الولادة هذا الثقب ، امكنهم والحالة هذه ان يشاكلوا الجنين ويقيموا مقداراً من الزمن في محيطٍ خالٍ من الهوآء

اما اليوم وقد بطل بالكلية الافتراض بالثقب البيضيّ ولم يعد احدٌ يشير اليهِ او يحفل بهِ . لا سيما وان الكشف التشريحي الذي اجروهُ لجملة غواصين مشهورين لم يظهر فيهم منفذاً في تجويفيّ القلب او اتصالاً بينهما . فيفكرون اذاً بعد ذلك ان هذه الخاصية في بعض الاشخاص يتوقف امر وجودها فيهم وتخلقهم بها على جملة اسبابٍ متضامنة متحدة . وهي سعةٌ في الصدر ورئتان صحيحتان تماماً وترويض حركات التنفس دواماً حتى تعتاد المسام الهوآئية ان تحفظ مقداراً كبيراً من الهوآء . وبالتالي التمرّن على الغوص منذ سن الصغر وغضاضة العمر . اما رياضة الاعضآء الرئوية على هذه الكيفية فانها تسبب رد الفعل على القلب وذلك ان تكتسب بها الالياف نمواً زائداً وقوةً وافرة ويكون التأثر العصبي المستديم متوفر النشاط ليستطيع ان يحفظ تقلّص وانقباض القلب . وبمثلهِ سير الدورة الدموية حتى يستطيع ذلك الشخص ان يستمرّ خمس او ست دقائق تحت الماء بدون ان يكون في خطر الاختناق . وقد زعموا من ثمَّ بان الرجال الذين يتغذون بالخضراوات لا ينفقون من الاوكسيجين المقدار الذي ينفقهُ آكلو اللحوم ، وعليهِ فهم يستطيعون ان يغوصوا مدةً اطول منهم

الفصل السابع عشر

﴿ في القوى العضلية ﴾

لا تتوقف هذه الصفة في التركيب الحيواني على جسامة الالياف العضلية وكثرة نموّها فقط بل انها تتطلب جملة شروطٍ أُخرى متقدمة عليها . اولها صلابة التركيب العظميّ الذي هو الركن الاساسي لها ، ثمَّ حسن تركيب العضَل ومتانة اوصالها وتمام موافقتها في حركات تقبضها وتشنجها . و بالتالي صفة المحرك العصبي الذي يبعث فيها الحركة و يدفعها الى العمل

اما نشاط الاعصـــاب الفقارية فان لها تأثيراً ثابتاً على القوى العضلية ، اذ هي بمثابة اللولب الخفي الذي ينميها ويعمل على تعضيدها ومساعدتها . ولطالما ألفينا رجالاً رقيقي الجسم نحيفي البنية متمتعين بقوةٍ مدهشة وشدةٍ غريبة . الامر الذي يتعذر علينا تأويل ذلك اذا نحن لم نردهُ الى المحرك العصبي ونعدّهُ المسبب لهُ . معاننا نرى بعكسهِ رجالاً آخرين غلاظ البنية اصحآء في الظاهر لكنهم معدمو تلك القوة وليس لهم عزم اولئك الرجال الضعفآء . وذلك لكون القوة الفقارية بطيئةً في

تمددها او كأنها ملبّكة بين المجموع اللحمي . فضلاً عن ان هذا الفرق يظهر باوضح جلاء في اصحاب المزاج اللمفاوي والمزاج الصفراوي العصبي

على ان بطء المصارع في غير اوقات الصراع و بمثلهِ حالة جلوسهِ وقيامهِ وكيفية غدواتهِ وروحاتهِ العديمة النشاط الفاقدة الشدة والعزم ذلك ما يُعبر عن كون القوى الفقارية الكائنة فيهِ هي قليلة حتى يضطرهُ الامر الى ان يأتيهِ مهيّجٌ ايٌّ كان ليوقظ دماغهُ المخدّر من غفوتهِ وينشّط همتهُ و يدعوهُ الى مباشرة عملهِ . فتحمى وقتئذٍ قواهُ العضلية وتبلغ اسمى مراقيها وتتوقف عند حدّها . ولقد ذكر لنا الرجال الاقدمون وهم من ابرع النقّادين واكثر الناس تبصرةً وانتباهاً ، ان مصارعيهم يكونون قبل حدوث المعركة متهاونين وغير مكترثين ، ثمَّ يولجون ميدان العراك وهناك تتنشط قواهم شيئاً فشيئاً من جرآء تهييج المهيجين وتهليل المشاهدين حتى يظهرون اثناء صراعهم بنزاقةٍ مخيفة وحدّةٍ هائلة

اما قوّة الرجل العصبي المزاج فهي مستقرّةٌ بتمامها في قواهُ الفقارية اذ تكتسب بلحظةٍ واحدة تمددها وتنتج مفعولها ، و يكون فعلها شديداً بمقدار ما يكون اكثر سرعةً . و بمثلهِ ردّ الفعل فانهُ يكون قصير المدة بقدر ما كان تمدد القوة سريعاً . وعندما تصير حالة الالياف العضلية غير قابلة ردّ صدى المفعول العصبي فوقتئذٍ تهبط الاعضاء مرتخيةً و يعقب تلك الهمة الشديدة الانحطاط والخمول

ويظهر من الجهة الواحدة بناءً على ما تقدم ان القوة الطبيعية ليست هي مسببةٌ دائماً من التكاثف العضلي . ومن الجهة الاخرى ان المحرّك العصبي لا يمدّ العضلات القليلة النمو من القوّة الاّ برهةً قليلة من الزمن. وان من هذين السببين المتضامنين وهما تمرّن العضو الدماغي والفقاري معاً ، وامتلاك الاقيسة العظمية والعضلية ، تنتج القوّة الطبيعية الفائقة والعزم البالغ اسمى مراقيهِ

اما القوة الطبيعية فانها لا توجد دائماً موزعةً في جميع اقسام الجسم البشري على نسبةٍ واحدة ومقادير متناسبة ، بل انها تنمو في هذا او ذاك العضو من جرّاء العمل والتمرين اللذين تشتغل بهما تلك الاعضاء . فالعدّاء والرقّاص مثلاً تُشاهد عضلات ساقيهما ووركيهما كثيرة النمو مع ان عضلات اعضائهما العليا تستمرّ على حالتها الاصلية كما كانت عليهِ قبلاً . وبعكسهما الملاكم والمصارع فان صدريهما يكونان متسعي التمدد واذرعهما غليظة البنية ، وبمثلهِ طنوفهما واوصالها العصبية فانها مشدودةٌ بقوّةٍ تشهد لهم بالعزم وشدة البأس . وان سيقانهما وان تكن غليظة العضلات الا انها لا تعادل بقوتها وخفتها ما لاعضائهما العليا

ألّف العالم بيرون جدولاً ذكر فيهِ نسبة قوّة كل شعبٍ من الشعوب التي عاينها وقام بفحصها وذلك بواسطة الدينامومتر (١) واليك البيان

في ارض ديامن ويعدّ سكانها في اول درجة من سلّم

(١) هي آلة تقدر بها قوة الانسان والحيوان او اي آلة محركة كانت

المدنية ٦٠ — في هولاندا الجديدة ويعدّ سكانها ارقى مدنية بقليل ٦٢ — وفي جزر ملقّا ٦٤ — وفي فرنسا وانكلترا ٦٨

فيتضح مما تقدم ان الشعوب المقيمة في درجة الهمجية الوسطى هي أقلّ عزماً وانقص قوةً من الشعوب المتمدنة والبالغة اسمى مراقي الحضارة وهذا بخلاف ما يتوهمهُ الرأي العامّ ويعتقد بهِ

كانت تتوقف قديماً قوة المملكة على قوة الرجال الذين يؤلفون قوتها ويحافظون على كيانها ، فكانت الامم القليلة العدد تضطر الى ان تشغّل افرادها بالوسائل النافعة التي تزيد في إنماء قواهم العضلية وتنشّط فيهم شدة العزم والبأس . وما ذلك الاَّ لتدافع عن وجودها وتذبّ عن احواضها من اغارة الشعوب القوية المحدقة بها . وعلى هذه الكيفية قد توصل اليونان بواسطة جملة شرائع سنوها وقاموا باتباعها الى ان يحصلوا على مدافعين اشداء وجنودٍ اقوياء استطاعوا بواسطتهم ان يناهضوا جيوش الفرس الكثيرة العدد وينكلوا بهم تنكيلاً . بحيث انهم قد خصصوا اماكن للرياضة والزموا الشبيبة ان تختلف اليها وتواظب عليها . ولم تكن تلك التمرّنات الرياضية المتنوعة الاَّ تمهيداً لمعارك ماراثون وسالامين وترموبيل . سيما وانهُ لم تكن اعيادهم الالعابية وتمريناتهم الرياضية الاَّ نصراً لتلك الامة اليونانية الصغيرة التي كانت راغبةً في مضاعفة قواها لتبلغ الحالة التي يمكنها بها ان تكافح جميع قوّات اسيا وتنتصر عليها

ومن ثمَّ كانت تساعد بالمثل الالعاب اليونانية القديمة المؤلفة من

جملة نظاماتٍ متنوعة على اعزاز الهيئة الحاكمة وانجاح الفنون النفيسة بين تلك الامة . ذلك لان الكفاح والرقص العمومي اللذين كانت تأتيهما الشبيبة بين ذكورٍ واناث وهم خالعو اللباس عاريو الابدان . وبمثلها المعارك التقليدية والجيوش الرمزية والعدو والسباحة الى غير ذلك من التمرينات التي كانوا يأتونها ويتبارون بها على احسن اسلوبٍ واجمل وضع ، كانت سبباً لوجود تلك التماثيل البديعة الشكل التي تمثّل القوة في ابلغ معناها والجمال الطبيعي في اوضح سيمآئهِ وهي التي كانت معروفةً في البلاد اليونانية القديمة وقد اصبحت نادرة المثال في عصرنا الحاضر

اما ما كان يلاقيهِ المصارعون من التعظيم والاجلال وما يكتسبونهُ من المكافأة والنوال، كل ذلك كان سبباً لمضاعفة عددهم وايجاد الحماسة فيما بينهم . بحيث كان من الواجب الذي لا بدَّ منهُ ان تُقام في الملاعب الوطنية والاعياد العمومية تمرينات المصارعة . اذ كانت الجماهير تحتاط الساحة التي فيها يتبارز المصارعون ويتبارى المتكافحون وهم يهتفون للمنتصر باصواتٍ تطبق الافاق واستحسان يبلغ السبع الطباق

ولنأتي الآن على ذكر بعض من هؤلآء الرجال الذين كانوا يتمتعون بقوةٍ مذهلة وعزم غريب اولئك الذين حفظ التاريخ لنا ذكرى اسمآئهم وبعضاً من وقائعهم

كان المصارع ميلون دي كروتون ذا قوةٍ فائقة الحد وعزمٍ بعيد التصوّر ، وهو الذي قد انتصر اربع مرار في الالعاب الالومبية . حتى ان الرجال الاشد عزماً في زمانهِ لم يكونوا يستطيعون ان ينزعوا من

بين اصبعيهِ رمّانةً من معدنٍ كان يمسكها بها . ثمَّ كان بواسطة تشنج عضلاتهِ وانتفاخ عروقهِ يقطع حبلاً كانوا يلفّونهُ فوق جبهتهِ ؟ وكذلك كان يحمل ثوراً على كتفيهِ ويدور بهِ عدواً حول ميدان اللعب فكان اذا بلغ النقطة المعينة لهُ يقتل هذا الحيوان بنحرةٍ من يدهِ ينحرهُ بها ويأخذ بابتلاعهِ متغدياً بهِ ؟

وهنا تنتهي الرواية التاريخية وتبتدئ القصة الوضعية . كان بوليداماس في تساليا الرجل الاشدّ عزماً والاوفر براعةً من رجال زمانهِ وهو نظير هرقل حمل على أسدٍ غضنفر فجندلهُ واوردهُ حتفهُ . وكان يغير على وديان جبل الاوليمب ، وهو الذي بيدٍ واحدة اوقف عربةً يقطرها حصانان وكسر جذع شجرةٍ مثلما تُكسر احدى العصيّ . وقد احضرهُ دارا الملك الى مجلسهِ ليشاهد منهُ مناظر القوّة التي كان يأتيها ويمثل ادوارها . فلدى دخولهِ قصر الملك أهلك بوليداماس في بادىء بدء ثلاثة رجال من حرس الملك وهم الاشد عزماً وذلك بصفعهِ كل منهم صفعةً واحدة . ثمَّ قام على سبيل المزاح بتوزيعهِ بعض صفعاتٍ هنا وهنالك ، ولما اكتفى دارا مما لاقاهُ من هذا البطل القوي قال لهُ حسبك . فحينئذٍ قبض بوليداماس على ثورٍ باحدى رجليهِ ووخزهُ بها فطفق الحيوان المسكين يرفس ويعاند ، ولم يتوصل الى التخلص من بين رجليه حتى فقد حافراً من حوافرهِ ؟ ؟ ؟

ذكر بلينوس حادثتين تختصان بفرط قوّة بعض الاشخاص اولهما ظهور رجلٍ في روما يُدعى سلفينوس ، كان يحمل مائتين ليبرة على

كتفيهِ ومائتين بيديهِ ومائتين برجليهِ ويرقى بهذا الثقل درجات السلّم بخفةٍ فائقة وسرعةٍ غريبة . والثاني رجلٌ يُدعى اطاطوس كان يقطع ساحة الملعب سائراً على قدميهِ وهو يحمل ثقل الف ليبرةٍ منها خمسماية ليبرة على كتفيهِ وخمسمائة في يديهِ (خرافة)

كان البارع تياجين دي تاز يتظاهر بشكل جسم ابلّون ، وكان ذا قوّةٍ هرقلية يفوق بها جميع نظرآئهِ ومعاصريهِ مما كانوا يأتونهُ من الالعاب وانواع الرياضات البدنية . وقد نال في مدة حياتهِ الف واربعماية اكليل

اصبح اوريبات وشيلون واوتيموس واستيداماس وميلون وكثيرون خلافهم مشتهرين بفرط قواهم وكثرة حذاقتهم ، وقد خلّدت تماثيل واشعار تلك الاعصر انتصاراتهم نظير ما خلدت انتصارات القواد العظام

على انهُ وان لم يعد لمهنة المصارعين اليوم ذلك الشرف الذي كان لها فيما مضى ، الاَّ ان تواريخ الازمنة الحاضرة لا تضن علينا بايرادها بعض الروايات عن جملة اشخاصٍ اقوياء قد تفردوا بالقوة وامتازوا بها اولئك الذين وان لم ينالوا اكاليل النصر وشارات الافتخار لكنهم كانوا موضوع اعجاب الشعب وفرط انذهالهم

يُشاهد احياناً في ميادين العواصم وساحات الملاهي العمومية رجالٌ اشداء اقوياء التركيب يظهرون في اثناء التمرينات الرياضية التي يأتونها على مشهدٍ من الملأ عزماً شديداً وقوّةً فائقة التصور . وذلك اما بواسطة ذراعيهم او عرقوبيهم او صليبهم او فكيهم الخ . . . . فهم وان لم

يتوصلوا الى مضارعة قوة المصارعين الاقدمين ، الاَّ انهُ يذكرون عن البعض منهم انهم قد استطاعوا ان يجاروا المصارع البارع ميلون دي كروتون ويتمثلوا بهِ

ولد لويس دي بوفلر في سنة ١٥٣١ ولقّب بالقوي لداعي القوة الطبيعية الغريبة التي كان يمتلكها ويمتاز بها . فكان يكسر قضيباً من الحديد بيديهِ وقد جرّب رجلٌ مشهورٌ بالقوة ان ينزع مراراً من يدهِ كرةً كان يمسك بها بين السبابة والابهام فلم يفلح . ثمَّ انهُ كان ينتصب واقفاً على الارض بدون ان يسندهُ شيءٌ ولم يكن يستطيع اربعةٌ من الجنود الاشدآء ان يحركوا منهُ ساكناً او يزيحوهُ عن موقفهِ . بحيث انهُ كان هكذا ثابتاً في موضعهِ حتى كأن رجليهِ قد التصقتا بالارض . وكان في بعض الاحيان يحمل حصانهُ على كتفيهِ وهو مسرّج ويقطع بهـذا الحمل الثقيل شقّةً طويلة . ذلك ما يجعل المتفرجين ينسرون ويبتهجون من هذه المشاهدة

وهنا تنتهي الحقيقة وتحل القصة محلها . كانت مجتمعةً في لويس دي بوفلر القوّة والخفّة معـاً وهي حالة غريبة في الهرقليين الاشدآء المتصفين عموماً بثقل الجسم وبطء الحركة . بحيث انهُ كان يقفز ممتطياً حصانهُ وهو تام الشكّة مدججٌ بكل انواع الاسلحة بدون ان يضع رجليهِ في الركاب . ولقد تبارى مع رجال الكفاح والسباق الاكثر شهرةً في ذلك العصر فغلبهم وانتصر عليهم . ولقد ذهب عزمهُ ولباقتهُ من النوادر التي يضرب بها المثل وتتحدث بغرابتها الناس

لقد اذهل في سنة ١٥٥٥ سكان مدينة نابولي رجلٌ اسباني يسمى بيدرو قداشتهر بعزمهِ واخصهُ بقوّة مفاصله العضلية . لانهُ كان يكسر اقوى القيود الحديدية التي كانوا يوثقون يديهِ بها . فضلاً عن انهُ كان يشبّك ذراعيهِ على صدرهِ وتأخذ اربعة رجال بشدهما بواسطة حبالٍ كانوا يربطونها بهما ولم يكونوا يستطيعون فكهما وحلّ تشبيكهما ؟ ؟ ؟ (خرافة)

كان موريس كونت دي سكس الذي اصبح بعد ذلك مارشالاً في فرنسا لا تقلّ شهرة قوتهِ الهرقلية عن البراعة العسكرية التي كان متصفاً بها . دخل في احد الايام محل بيطريّ ليصلح نعال حصانهِ فاخذ بان يكسر جميع النعال التي كان يريهِ اياها البيطري مدعياً بانها مسبوكةً من الرصاص ولا تساوي قيمة . ثمَّ دفع للبيطري قطعة ستة فرنكات وهمَّ على الخروج . فاستوقفهُ البيطري وكان رجلاً ذا قوّةٍ غريبة بقولهِ لهُ ان الريال الذي انقدتني اياهُ لا يساوي اكثر من حدائدي . وذلك لانهُ رد لهُ الريال مكسوراً قطعتين وقد كسرهُ بين اصبعيهِ (حادثة تاريخية)

اما الكونت فقد اندهل متعجباً لدى التقائهِ بهذا البيطري القوي الذي يعادلهُ بالقوة والعزم وقد احبَّ ان يشملهُ بنعمتهِ وان يتخذهُ في خدمتهِ من ذلك اليوم . وقيل انهُ في احدى رحلات هذا الكونت الى لوندرا قد قبض على ستة اشخاصٍ من البوكسر [1] رغبوا ان

(١) وهم الملاكون بالاصطلاح الانكليزي

يتعرضوا لهُ ويسدوا عليهِ الطريق ، واخذ يرمي الواحد منهم تلو الاخر في عربة الاقذار كما يرمي الواحد منا الكرة ؟

قد اشتهر في القرن السادس عشر المأجور بارساباس بعزمهِ الشديد وقوة عضلات ذراعيهِ المدهشة، ونحن معددون هنا بعضاً من الحوادث الاكثر اهميةً التي امتاز بها هذا القوي والتي اكسبتهُ الشهرة في مدة حياتهِ . ففي احد الايام تناول سنداناً يبلغ ثقلهُ خمسمائة ليبرة ووارهُ تحت عباءتهِ ؟ وان جملة مرار ليبسط رفقاءهُ كان يتناول مدفعاً ويصوّب بهِ كأنهُ يمسك بيديهِ بندقيةً ، وكان يكسر بين اصابعهِ اعضاء اعظم الحيوانات الاكثر غلظةً . وبينما كان مارًّا يوماً من الايام باحد مفارق الطرق ألفى جمهوراً من الناس ملتفّين حول دبٍّ كبير الجثة كان قائدهُ يرقّصهُ على مشهدٍ منهم . فما عتّم بارساباس حتى انخرط في سلك الجماعة وطلب ان يصارع الدبّ . وبعد الجهد وفرط الالحاح سمحوا لهُ بمنازلتهِ لكنهم كانوا متخوّفين من ان هذا الحيوان الهائل يعطبهُ ويغدر بهِ . واما المأجور بارساباس فقد بطح جملة مرارٍ خصمهُ الدبّ وجندلهُ على الارض . واخيراً قضى عليهِ بنحرةٍ عملها في بطنهِ . ثمَّ حملهُ على كتفيهِ وسار بهِ بين هتاف الجمهور وفرط تعجبهم ؟ ولما كان في احدى الليالي عائداً الى بيتهِ قد التقى ببعض ضباطٍ من فرقتهِ قد احاط بهم جمٌّ غفير من الناس وهم يسخطون عليهم ودلائل الغضب بادية على وجوههم نحوهم . فللحال اسرع بارساباس اليهم واخذ يبطح على الارض كل من التقى بهِ وعارضهُ في طريقهِ . ولقد هزأ بهِ المتجمهرون لاول وهلةٍ

واستشاطوا غضباً منهُ وتقلبوا عليهِ وعلى رفقآئهِ . اما هو فانهُ قبض بكل يدٍ منهُ على اثنين من الثائرين الاكثر جسامةً وجمعهما كما تجمع الهراوتان وطفق يفرّق بهما شمل المتجمهرين . فلما شاهد الجمع هذه القوة الهرقلية انهلع فؤادهم وانحلّت عزائمهم وتفرق شملهم ، وتمكن الضباط من بلوغهم محلة اقامتهم بدون ان يصيبهم اذًى او يحلّ بهم مكروه ؟

يرى المطالع بالنظر الى ما تقدم انهُ ليس من الصواب ان يتحكك الانسان بمثل هذا الشجاع الباسل او يحرك فيهِ ثائرهُ . الاَّ ان رجلاً غسقونياً طلب في احد الايام بارساباس الى المبارزة . ولما كان المذكور على شاكلة جميع الاقوياء الذين هم نظيرهُ المتصفين بطيب القلب وطول الاناة . فانهُ لم يجب لاول مرةٍ على طلب الغسقوني بل انهُ استمر صامتاً ولم يحفل بهِ . واذا رأى الغسقوني ان دعوتهُ لم تستجب فقد ، استدعاهُ ثانياً وثالثاً بلهجة الازدراء وعبارات الاحتقار . فاذ ذاك فقد بارساباس منهُ التصبر ولم يعد يستطيع الاحتمال وقام من ساعتهِ وقبض على يد الغسقوني فصاح هذا صيحةً قويةً تصم الاسماع ، لان يدهُ كادت تنسحق كأنها وقعت في كماشة بيطري

اما هذه الروايات فانها وان تكن تاريخية الاَّ انها تقرب كثيراً من الروايات القصصية والنوادر الخرافية

لم تكن اخت المأجور بارساباس باقلّ قوّةً وادنى عزماً من اخيها ولقد ذكروا عنها جملة حوادث نجتزيء بايراد واحدةٍ منها للدلالة على

فرط قوتها ومبالغ بأسها . دخل بعض اللصوص في احدى الليالي الدير الذي كانت قد اقامت فيهِ متعبدةً فما شعرت الراهبات بوقع اللصوص حتى انهلعت افئدتهنّ واستحوز عليهنّ الخوف والارتعاش وقد اختلفت كل واحدةٍ منهنّ الى غرفتها فاختلت فيها واوصدت الباب من خلفها . لكنهُ لما علمت الراهبة داروته (وهو الاسم الذي سُمّيت بهِ في الدير) همّت للحال نحو اللصوص ولكمت اول من قابلها منهم بيدها وفتحت نافذةً من نوافذ الدير وألقت بهِ في الحديقة ، وانقلبت نحو الآخرين لتلحقهم برفيقهم لكنها شعرت بطعنة مديةٍ في صلبها أسالت دمها واثارت فيها ثائر الحدة والغضب . فاذ ذاك مالت داروته على احد أعمدة المصلى فاقتلعتهُ ولحقت اللصوص بهذه الهراوة الغليظة وقتلت بها اثنين وهزمت الباقين

ولقد كانت الراهبة داروته طيبة الفؤاد دمثة الاخلاق لكنها ذات حركات خشنة ووطأة ثقيلة مفزعة . فبينما كانت في احد الايام تلعب مع اثنتين من رفيقاتها الأَّ وخنقت واحدة منهنّ وكسرت ذراع الاخرى في اثناء المداعبة وذلك بدون ان تشعر . وهذا ما كان داعياً الى اخراجها من الدير وعدم قبولها فيهِ ؟

كان اوغست الثاني ملك بولونيا يكسر باصبعهِ نعل الحصان ويلوي باسهل ما يمكن قطع المسكوكات ، ويحمل رجلاً على يديهِ ويسير بهِ شوطاً بعيداً . اما في يومنا الحاضر فلم نعد نشاهد مثل هذه الادوار البالغة منتهى الشدة وفرط العزم

اظهر في هـذه الآونة المتأخرة الاخوان روسّل اللذان كانا يسميان بهرقلي الشمال شواهد كثيرة تدل على ما كانا متصفين بهِ من العزم وما يمتلكانهُ من المهارة والحذاقة الخليقتين بالاعتبار واستلفات الانظار. وقد كانت قوتهما موزعةً على اقسام جسميهما على نسبةٍ واحدة ومقدارٍ متعادل. اي ان الذراعين والعرقوبين والصلبين والفكين فيهما كانت تعمل على السوية الرياضة الاكثر شدةً وعزماً. فكان روسيل البكر يقفز بخفةٍ الى علو عشرة سنتيمترات وفي رجليهِ ثقل خمسين ليبرة وبمثلهِ في كل يدٍ من يديهِ. وكذلك كان يحمل نفسهُ مدة دقيقة وذلك ان يقبض بذراعٍ واحدة على حلقةٍ معلقة في الحائط ويرفع ذاتهُ افقياً او على جانب جسمهِ. ثمَّ انهُ كان يقف على كرسيٍّ وينحني من فوقهِ. وكان يرفع باسنانهِ من الارض ثقل ثلاثماية ليبرة. اما هذان الاخوان فكانا بوجه التقريب ذوي قوةٍ واحدة وعزم متناسب لم يبدُ منهم اقل فعلٍ خارق العادة في زمن صباهم وغضاضة عمرهم. وانهما لم ينالا تلك القوة العضلية الاَّ بواسطة التمرينات التدريجية والمحافظة على العفة وكبح جماح الشهوات النفسية

اورد كرومتز في دائرة معارفهِ جملة شواهد على رجالٍ كانوا يماثلون الاخوين روسّل ويضارعونهما بالقوة والعزم. وقد ذكر منهم ان حطاباً كان يُدعى اكبرغ رفع عن الارض مدفعاً يبلغ ثقلهُ الفيّ ليبرة. وان رجلين من اشد الرجال لم يستطيعا ان ينزعا منهُ عصاةً كان يقبض عليها باحدى يديهِ

اما القوّة العضلية في الانسان وعند الحيوان فيتوقف امرها على كيفية تقبضات تلك العضل . ثمّ يتلاحظ ايضاً ان الاشخاص الاشداء هم ذوو شكلٍ عضليّ كثير النموّ . ذلك ما يدعو الى الاعتقاد بان القوة يتوقف امرها بوجه عامّ على مناسبة حجم العضلات ، او بالاحرى بالنظر الى عدد أليافها اللحمية . لكنهُ يجب ان تتبع ذلك حالة الاوصال العضلية والحركات العصبية فان لها اكبر تأثيرٍ في القوّة البدنية . بحيث انهُ يُشاهد مراراً ان اشخاصاً اصحاب عضلاتٍ اقل ظهوراً من عضلات الاشخاص الذين يمثلون المصارعين ومع ذلك فهم متمتعون بقوّةٍ عضلية فائقة . فلا شك بان هذا ناتجٌ عن محركاتهم العصبية التي هي اكثر نشاطاً واوفر عزماً مما لاولئك الضخيمي العضل

اما اتساع التقبّض العضليّ فهو يناسب دائماً طول وحجم ألياف تلك العضل وان السبب الاكثر شيوعاً لهُ هو كائنٌ في ذات ارادة الشخص . بحيث انهُ توجد امراضٌ نظير الهيستريا وداء النقطة وداء التشنجات الخ . . فهذه توجد قسراً المحرك العصبي وتضاعف فيهِ القوّة والعزم

الفصل الثامن عشر

﴿ في البهلوانيين والمدّآئين ﴾

لما كان الانسان منذ ازمانهِ الاولى خاضعاً لانواع التمرينات الرياضية كان جسمهُ ذا قابليةٍ لاكتساب تلك الليونة وذلك الانعطاف الغريبين والخارقي العادة اللذين يقوم بتمثيلهما البهلوانيون والرقاصون على مشهدٍ منا في كل آن ومكان . اولئك الذين يتوصلون بالتمرين المستمر وبتكرار ذات الحركات ونفس الاوضاع الى ان يحفظوا في اوصالهم ومفاصل اعضآئهم وفي سلسلتهم الفقارية تلك المرونة والانعطاف اللذين كانوا يمتلكونهما في ريعان الصبا وغضاضة العمر . وبذلك يمتلكون وهم في سن الرجولية تلك الخفة والمرونة اللتين نعجب منهما وندهش لهما

﴿ في البهلوانيين ﴾

كان البهلوان اوريول يقبض على الغدارة برجليهِ ويرفعها في جانب رأسهِ ويطلق عيارها كأنهُ ماسكٌ بها باحدى يديهِ . وكان يمثل جملة اداور هامّة وبمنزلٍ من الخطارة في ساحة الملعب حتى يخال

للجمهور ان ليونة اعضائهِ اشبه بليونة القصب . وكان يجمع رجليهِ ويرسم خطاً مربعاً حول النقطة القائمتين فيها ويطفق يثب وثباتٍ هكذا سريعة حتى كأنهُ يعمل دوراناً على نفسهِ. وفي كل دورةٍ كانت رجلاهُ تقفان في النقطة التي رسمها لهما . لا سيما وانهُ كلما مثّل ادواراً كثيرة الانعطاف والالتواء كان يظهر كأنهُ يعملها باوفر سهولةٍ وبدون اقل اعتناء

تبرهن النادرة الآتية باوضح جلاء على الخفة الغريبة المتصف بها جسم اوريول . وذلك ان خمسة لصوص تصدّوا لهُ ليلاً وقطعوا عليهِ الطريق فاوريول لم يرَ لهُ مخلصاً منهم الاَّ بان يستعين بمرونة ساقيهِ . وذلك انهُ قد تملّص من احدهم الذي كان ماسكاً بهِ وقفز قفزةً فوق رأسهِ دهش بها اللص وراح منها مبهوتاً . ولما تقدم رفيقهُ ليقبض على اوريول وثب هذا وثبةً اخرى من فوق رأس الثاني ، بحيث انهُ قد تقابل بالثلاثة الآخرين الذين اصبحوا مبهوتين واخذت الحيرة منهم كل مأخذ . فما عتّم اوريول الاَّ ان قفز فوق رأس الثالث قفزةً ثمَّ توارى عن ابصارهم . وقد تحير هؤلاء اللصوص في امرهم واخذ كل منهم ينظر الى رفيقهِ بعين الدهش والاستغراب وقد قال احدهم وهو يضحك ان مثل هذه الخفة لا يستطيعها ولا يتوصل الى الاتيان بمثلها الاَّ من كان نظير اوريول

شاهدوا في باريس من بضع سنوات رجلاً بهلواناً كان عامودهُ الفقاري ذا ميلٍ وانعطافٍ عظيمين حتى انهُ كان بامكانهِ ان ينحني

الى خلفهِ ويقبض على عنقهِ برجليهِ ويدير جسمهُ حتى يصبح كأنهُ طوقٌ او إطار . وبينما هو على هذه الحالة كان يأتي بهلوانٌ آخر ويدحرجهُ في الملعب نظير ما يدحرج الاولاد الطوق الخشبيّ . وان من جملة الادوار التي كان يمثلها كان الدور الآتي خليقاً بالنظر وجديراً بالاعتبار

كان المومأ اليهِ ينتصب اولاً على معصميهِ عامودياً . رجلاهُ الى فوق ورأسهُ الى اسفل . ثمَّ يقلب فخذيهِ الى الورآء ويسند رجليهِ على قمّة رأسهِ بمعنى ان موءخر رأسهِ يلتصق بعظم منكبيهِ . وبهذا الانقلاب الغريب كان يسير على يديهِ وصدرهُ مسنوداً قليلاً على الارض . وان هذا الدور ليس فيهِ ما يبهج الناظر بل انهُ يبرهن على ان الانسان بواسطة التمرين المستديم يستطيع ان يعمل بجسمهِ ادواراً غريبة لا يستطيعها سواهُ

﴿ في العدّآئين ﴾

يختلف لدى المقابلة تمام الاختلاف تركيب العدّآء الطبيعي عن تركيب المصارع . وذلك لان الاول يكون بارز الجسم ضخم البنية وثقيلها والثاني ضامر الجسم سريع الحركة وخفيفها . بحيث ان العدّآء لا بدَّ من ان يكون ذا صدر حسن التركيب ورئتين صحيحتين وتنفس طلقٍ للغاية . اذ يسرع تنفسهُ في اثنآء عدوهِ وتتقارب ضربات قلبهِ ويصبح فيهِ الدوران الرئوي كثير النشاط . ولقد لاحظوا بوجه عامّ

ان مدة العدو وسرعتهِ هما في حالةٍ متعاكسة، وان المحترفين مهنة العدو لكيما يحتفظوا على قوتهم يمرنون انفسهم على خطوةٍ مضبوطةٍ لا يحيدون عنها ابداً . اما العدو السريع والمستمر فانهُ يحدث نزلةً رئوية ويجوز ان يسبب الموت او ان يكون داعياً لانفلاجٍ عضالٍ كثير الخطر . ومن الشواهد على ذلك خروج ذلك الجندي اليوناني من ساحة الوغى في بلاته وهو ثملٌ من مشهد تلك الملحمة وقد جدَّ في العدو من ميدان القتال حتى ابواب مدينة اثينا ولما بلغها لم تعد لهُ قوةٌ سوى ان يلفظ هذه الكلمات « افرحوا ان اليونانيين هم المنتصرون وسقط اذ ذاك على الارض ميتاً (١)

ذكر بلينوس في كتابهِ السابع حادثةً تُعزى الى احد اللاسيدامونيين وهو الذي قطع الف ستاد في يومٍ واحد . وكان البارعون في مدينة اصبهان ليحرزوا وظيفة عدّاء في حاشية ملوك الفرس قد برهنوا في جملة ايامٍ متتابعة على كونهم يستطيعون ان يعدوا ست وثلاثين ميلاً في اثنتي عشرة ساعة

ينهك متوحشو امريكا قواهم في العدو ورآء الحيوانات الاكثر خفةً ويلتحقون بها . فقد ذكر باريزه ان رجلاً مربوع القامة كان يقطع في كل يومٍ مسافة عشرين ميلاً بدون ان يناله اقل تعب ولقد

(١) وقد انبأتنا شركة روتر في ٧ اغسطس سنة ١٩٠٨ بهبوب زوبعة على البعثة الدانمركية المسافرة الى غرونلند فرمت برئيسها اريكسن وباثنين من رفقائه على قطع الجليد وقد هلكوا بعد ان فرغت مؤنتهم

وقد حمل هذا الخبر احد الاسكيمو وما كاد يرويه حتى مات منهوكا

شاهدهُ يعدو امام خيل البريد . وكان مراراً يضطر الى ان يمهل خطواتهِ حتى انهُ لا يذهب اسرع منها . . . . (١)

قطع موريس رومّل بن ويستورف في شهر يوليو (تموز) سنة ١٨٢٥ المسافة الكائنة بين هانان وفرنكفورت ذهاباً وإياباً وهي ثمان غلوات في ساعتين وخمس عشرة دقيقة . لاسيما وان فرساناً كانوا يركبون اجود الخيل لم يتمكنوا من مجاراتهِ والالتحاق بهِ حتى نهاية شوطهِ . ففي سنة ١٨٢٦ قطع مرتين متوازيتين المسافة الكائنة بين موانى نونلّي وسانت كلود وهي ستة آلاف تواز(٢) في اربع وثلاثين دقيقة ، فكانت سرعة عدوهِ مائة وستة وستين توازاً في الدقيقة

كان البارع ويست من ويندسور يقطع الف ومائة متر بأقلّ من خمس دقائق ، وثمانية آلاف متر في الساعة ، وانهُ كان يعدو مدة خمس ساعات متوالية . ولقد تراهنوا معهُ على رهنٍ ذي قيمةٍ فقطع مسافة مائة الف متر في ثمان عشرة ساعة ؟

اذا ما نظرنا الى الشواهد المتعددة الدالة على مقدار العدو وسرعة العدّائين يظهر لنا بلا جدلٍ ان الذي اوردهُ بلينوس في كتابهِ السابع

---

(١) ذكر صاحب الاغاني في الجزء الثامن عشر من كتابه ان من العدائين في العرب الذين ما كانوا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل اذا عدوا هم السليك بن السلكة ، والشنفري ، وتأبط شراً ، وعمر بن براق ، ونفيل بن براقة

وروى الامام الحافظ ابو عمر بن عبد البر وغيره ان ابا خراش الهزلي الشاعر واسمه خويلد بن مرة كان يعدو على قدميه فيسبق الخيل

(٢) يبلغ التواز ست اقدام

هو اوفرها اهميةً والاكثر منها خرقاً للعادة . فقد ذكر ان شخصاً كان عند اسكندر المكيدوني يُدعى فيلونيد ذهب من أليس الى قورنثية في تسع ساعات ، وان المسافة الكائنة بين هاتين المدينتين هي خمس وعشرون غلوة ؟

فسرعة كهذه في العدو لم يشاهد لها نظير حتى يومنا الحاضر ومن المحال ان عدّاءً انكليزياً او عربياً يستطيع ان يضارع فيلونيد ويلتحق بهِ . لاسيما وان الخيل الاكثر نشاطاً والاوفر عزماً تنتهك قواها على اثر قطعها مسافة من خمسة الى ستة اميال ، اذا كان ذلك في منتهى الخبب . اما هذه الحادثة فانها وان تكن تاريخية لكنهُ مشكوك فيها ومرتاب بامرها (١)

(١) وهنا نذكر السباق الذي جرى في ١٣ فبراير (شباط) ١٩٠٩ من مديرية الجيزه الى حلوان في مسافة ثلاثين كيلومتراً اجتازها بساعتين وخمس دقائق وسبع عشرة ثانية المدعو ابرهيم نصر ابرهيم عسكري في فرقة البيادة بين ٤٣ عداءً من المتسابقين

الفصل التاسع عشر

﴿ في المتكلمين من بطنهم ﴾

تُطلق تسمية التكلم من البطن على الانغام التي يأتيها البعض بواسطة صوتهم وهي ما كانت اقرب او اكثر بعداً منهم . لا سيما وان هذا الفعل يُعتبر امراً خارق العادة عند الذين يجهلون سببهُ وفعلاً طبيعياً بالنظر الى الاشخاص الذين يلمّون بحالة تركيبهِ وكيفية ايجادهِ وذلك ما نلخص بيانهُ في الاسطر الآتية

يدفع المتكلم من بطنهِ هواء الرئة نحو فتحة الحلق بحيث يكون فمهُ على التقريب مغلقاً وسقف حلقهِ منزّلاً . وهو يدفع الهواء تارةً ضعيفاً وطوراً قوياً بالنظر الى فعل الصوت الذي يرغب في ايجادهِ حتى تأتي الاصوات المستخرجة مصادمةً سقف الحلق . ففي اثناء هذا التمرين تنقبض عضَل الحنجرة وقصبة الحلق والحجاب الحاجز (١) وتعمل عملها بنوع قويّ وكيفية ثابتة . اما الفم فانهُ يكاد يكون مفتوحاً ليعدّل مخرج الصوت . وكذلك اللسان والشفتان فانهما بالكاد تفعلان

(١) Diaphragme عضلة تفصل الصدر عن المعدة وتسمى بالحجاب الحاجز

الحركات الضرورية لتلفظ الكلمات . فيتضح مما تقدم انهُ بواسطة هذا التدرّج في تخريج الصوت لا تجد لها الاصوات مخرجاً حرًّا في القناة الصوتية بل انها تظل صمآء ورآء غطآء الحنك وفي موءخر الفم فيحدث الصوت ضعيفاً وهو اكثر تعمية واقل وضوحاً . ويحصل لهُ هذا الضعف من تصعيد النفَس بوجه الاطلاق . الامر الذي يتمسك بهِ المتكلم من بطنهِ ويحافظ عليهِ حتى انهُ يضطر في بعض الاحيان الى ان يصعّد نفَسهُ متقطعاً نظراً الى الصوت الذي يرغب في اظهارهِ

يكون صوت المتكلم من بطنهِ قليل الرنّة لان حلقات فتحة حلقهِ تصبح كثيرة التمـدد وكذلك التلفّظ يصير قليل الوضوح وسببهُ ان اعضآء التلفّظ تعمل قليلاً جداً في صوت المتكلمين من بطونهم . وبالجملة ان نوع هذا التكلم هو ناتجٌ عن تصادم الهوآء في داخل الحنجرة في اثنآء تصعيد النفَس وليس هو من الخارج كما يخيّل للسامع ان الصوت آتٍ لهُ من بعد

لمّا كان الجهل فيما مضى هو السبب الوحيد والداعي الاكبر لوجود المتكلمين من بطنهم فقد اتسع بذلك مجالٌ واسعٌ لابتداع حيَل كثيرة وحدوث حوادث فريدة في بابها توجب الدهش وتقضي بالحيرة والاستغراب

بذل لويس برابان خادم غرفة الملك فرنسيس الاول كل ما في استطاعتهِ للاستظهار على التكلّم من البطن ، وذلك ليقلّد صوت رجل مات من زمنٍ بعيد ويقنع ارملتهُ بوجوب تزويجهِ بابنتها . لا سيما وانهُ

قد استعمل ذات الحيلة ليعِد كما قيل والدة الابنة بمائةالف فرنك وذلك بواسطة احد الصيارف ؟ . . . .

ذكر خوري الشابيل وهو الذي كان يؤلف كتاباً في كيفية التكلم من البطن نادرةً قد تمَّ حدوثها على مشهدٍ ومسمعٍ منهُ وهي هذه :

كان المدعو سان جيل رجلاً طيب الخلق باش الوجه وهو في زمانهِ من ابرع المتكلمين من بطنهم . دعاني في احد الايام الى داخل محلهِ ليوقفني على مبلغ مقدرتهِ على التكلم من بطنهِ . وبينما كنت واياهُ جالسين وجهاً لوجه على مقربةٍ من موقد نارٍ نصطلي ، ونتجاذب اطراف الحديث . اذ سمعت احد الاشخاص يناديني عن بعدٍ باسمي باجلى وضوحٍ وبصوت انسانٍ غريبٍ لم اكن اعرفهُ ، الامر الذي اهتززت لهُ وتأثرت منهُ ، ولما كنت متنبهاً من قبل لما سيكلمني بهِ المذكور من بطنهِ . فوجهت لهُ كلامي بقولي لهُ انك اذن دعوتني لتكلمني من البطن فاجابني على سؤالي هذا بابتسامةٍ وقد سمعتهُ يدعوني ثانيةً من جهةٍ أُخرى . بحيث كان يخيّل لي ان الصوت خارجٌ من سقف البيت . وقد عمل امامي جملة تجارب على هذه الصورة فكان صوتهُ يطير من جهةٍ الى أخرى ويأتي بهِ من حيث شاء وهو مفهومٌ تماماً

واليك دوراً آخر اتاهُ هذا المتكلم من بطنهِ وقد حضرتهُ بذاتي وكدت اغرب من الضحك وابهت من الاستغراب

كنت وسان جيل نتنزهُ في احد الايام مع صديق لهُ وهو ضابط ضخم الجسم شامخ الانف لم يكن يدور حديثهُ سوى على الحروب

وخوض المعارك والتمرينات العسكرية. وقد خطر لسان جيل ان يخفض من غلواء صديقهِ ويخضد شوكة ادعآئهِ ويردعهُ عن التحدث دائماً بامور وظيفتهِ ، وذلك ان يجري معهُ النادرة الآتية . وهي انهُ لما كنا سائرين في جهة من غابة سان جرمان ظن الضابط بانهُ يسمع هذه الكلمات من اعلى شجرةٍ كنا بالقرب منها «ان كثيرين لا يستطيعون استخدام الحسام الذي يتقلدونهُ . . . . »

— من هو هذا الوقح القليل الحيآء اردف الضابط على الفور

فاذ ذاك اجابهُ سان جيل انهُ لا بدَّ من ان يكون راعياً يصطاد فراخ الطير من اوكارها

— ان هذا الشخص لفي منتهى القحة وغاية الفجور قال ذلك الضابط وهو يهز برأسهِ متهدداً

فصاح بهِ ذلك الهاتف تقدم الى الامام هل انت خائف ؟ وكان يظهر ان الصوت آتٍ من اعلى الشجرة

فصاح وقتئذٍ الضابط بصوتٍ جهوريّ كلاَّ كلاَّ . . . ثمَّ مكّن قبعتهُ برأسهِ وتأهب للهجوم

— ماذا تريد ان تعمل قال لهُ ذلك سان جيل وهو ماسكٌ بيده هل هم يهزأون بك ؟

واذ ذاك صاح الهاتف ان غلاظة الجسم لا تدل دائماً على القوّة والبسالة

— هذا ليس صوت راعٍ قال الضابط لسان جيل وهو يكاد

يتمزق غيظاً ويلتهب غضباً. بل اني ساجعل هذا النذل ان يندم على ما أبداهُ من القحة وما اظهرهُ من التطاول وقت لا ينفعهُ الندم

— انظرا ايها الشاهدان ان هيكتور هاربٌ امام اشيل [1] صاح الهاتف هذا وقد نزل الصوت الى اسفل الشجرة

فوقتئذٍ لم يعد في امكان الضابط ان يمتلك غضبهُ ويسكن ثائرهُ بل انهُ اشهر في الحال حسامهُ وطعن بهِ جملة طعناتٍ علّيقةً كثيفة كانت تحيط اسفل الشجرة . واذ ذاك خرجت منها ارنبةٌ وطفقت تعدو بكل قواها . فوقتئذٍ قال لهُ سان جيل ان هـذه الارنبة هي هيكتور وانت هو اشيل الشجاع وكانت هذه النكتة (الهزلية) كافية لتسكين روع الضابط واطفآء شعلة غضبهِ وقد ضحكنا جميعنا ضحكاً مفرطاً من خروج الارنبة من العليقة ووجود هذه الصدفة الغريبة

(١) هيكتور اكبر شجاع من حامية طروادة انتصر على اشيل وقتله كما ورد ذلك في الياذة هوميروس

الفصل العشرون

﴿ في الرياضة البدنية ﴾

كانت الرياضة البدنية شائعةً بوجهٍ عامّ في المدنية القديمة اكثر من شيوعها في مدنيتنا الحاضرة . وذلك لان وسائل الهجوم والدفاع لم تكن ابداً نظير ما هي عليهِ اليوم . بل كانت الشعوب المتحاربة في تلك الاعصر اشد اضطراراً الى تنشيط قواها الطبيعية من عصرنا الحاضر . اذ كانت التمرينات البدنية معتبرةً كانها فرضٌ الزامي وكان قسمٌ كبيرٌ من آداب الشعب مشغولاً بها وقائماً عليها . فكانت الرجال الاشداء والمصارعون الاقوياء اكثر عدداً واشد عزيمةً مما هم عليهِ الآن . ولقد حفظ لنا التاريخ اسماء تمريناتهم والوسائل التي كانوا يمارسونها ويتمرنون بها حتى بلغوا بقوتهم وفرط حذاقتهم تلك المنزلة الرفيعة التي لم يستطع احدٌ من بعدهم ان يطاولهم فيها ويتوصل اليها . اما هذه الوسائل فكانت على نوعين اولهما تمرينات متنوعة يمارسها القوم تحت ادارة احد المروّضين . وثانيهما القانون الذي كانوا بموجبهِ يتناولون الاغذية . ولنذكر هنا بعضاً من هذه التمرينات فنقول

العدو بقياس الستاد - [1] كان يقسم هذا التمرين الى اربعة انواع وذلك ان يدور العدّاء حول محيط الستاد دورتين او اربع او ست ويقطع المسافة وهو مدجج بالسلاح من مفرقهِ حتى اخمصهِ

القفز — كان يقسم الى جملة انواع وهو اما ان يكون القافز بشخصهِ فقط او انهُ يحمل اثقالاً في يديهِ وعلى منكبيهِ او يكون مكمّل الشكّة

الديسك — وهو مطشّةٌ [2] من حجر او معدن كانوا يرشقون بها احياناً باليد ومراراً بواسطة سير جلدي يفعل فعل المقلاع

الكفاح — وهو من التمرينات الاكثر قدماً كان يمارسهُ المصارعون ويقسم عندهم الى نوعين الاول ان يتكافح المتكافحون وهم منتصبون على ارجلهم . والثاني ان يتكافحوا وهم متدحرجون على الارض. وكان المغلوب يقرّ بفشلهِ وانكسارهِ وذلك ان يرفع امام الخصم سبابتهُ

الملاكمة — وهي التي كان يتوقف امرها على ان يتصدى الملاكم لخصمهِ بلكم الوجه لحين ماتنكسر السنان وتنسمل العينان وتتشوه الخلقة . وان المهارة الفائقة في هذا الكفاح الذميم الذي يعيد لنا تمثيل ادوارهِ الملاكمون الانكليز كان يتوقف أمرهُ على تجنّب ضربات الخصم ومقابلتهِ بالضرب على رأسهِ لصدعهِ وجندلتهِ

---

(١) الستاد مقياس يوناني يقابله ماية وخمس وعشرون قدماً

(٢) المطشة قطعة مستديرة ورقيقة من حجر او معدن ويعبر عنها العامة في سوريا بالدوش

على انهُ اذا رغب المطالع في ان يلمّ بحالة هذا التمرين المهلك وما يعقبهُ من النتائج الوبيلة ، فما عليهِ الاَّ ان يطلع على حادثةٍ مسطرة بين حوادث تاريخ الامة اليونانية . وهي ان شاباً مصارعاً قد اشتهر بانتصاراتهِ العديدة في الملاكمة . ذهب عقبى احدى معاركهِ ليقدم لوالدتهِ اكليل نصرهِ وعنوان افتخارهِ ، فاذ وقع نظر الوالدة على ابنها وهو ادرد واعور مجدوع الانف مشوّه الخلقة ، أبت ان تنظر الى وجههِ وتستعرفهُ ابناً لها

البنكراس — يتألف هذا الترويض من الملاكمة والكفاح ويتطلب خفةً قوية وعزماً شديداً . لا سيما وان جميع المصارعين لم يكونوا اكفاء لممارسة البنكراس والتمرين عليهِ ، بل كان الشخص الذي يأتيهِ يفوق اقرانهُ بالعزم ويعلوهم قدراً ورفعة

اما قانون تناول الغذآء عند المصارعين فكان مركباً من لحمٍ مشوي ، وتين يابس ، ومن الجبن ، وقليلٍ من السمك . فضلاً عما كان للرياضة البدنية من العلاقة الهامّة بتناول الاغذية الجافّة . وكان استعمال الخبز الفاتر ، ودلك الجسم ، ومسحهِ بالزيوت ، وجلدهِ بالسياط ، وممارساتٍ أخر كانت بوجه التقريب عامّةً . ثمَّ انهُ كان لتناول الغذآء والتمرينات والراحة والسهر والنوم اوقاتٌ معينة ينبّه اليها بواسطة ناقوسٍ خشبي . فضلاً عن ان مدة التمرينات واوقات الغذآء كانت تتم بالنسبة الى عمر وقوى التلامذة . اما القناعة والعفة فكانتا من الفروض الالزامية التي يجب على التلامذة ان يتمسكوا بها ويحافظوا جهدهم عليها

توجد عند الامة الانكليزية طريقةٌ للترويض الصراعي يدعونها بالترينرز وتكاد تكون نتائجها كثيرة الشبه بالتي كان يستعملها الاقدمون. وتحدث هذه الطريقة الانكليزية انقلاباً وتغييراتٍ كبيرة ليس فقط في الحيوانات بل في الاولاد والرجال ايضاً حتى يجوز للانسان ان يرفضها ويراها غير قابلة التصديق[1]

(١) راجع في الفصل الثالث والثلاثين الانقلاب الطبيعي الذي يحصل بطريقة بقويل

الفصل الحادي والعشرون

﴿ في الكهربآئية البشرية والحيوانية ﴾

قد يغلب على الظن بان الكهربآئية هي محرك الطبيعة الذي عنهُ تصدر الحرارة والحياة ، وان جميع الاجسام تحتوي على ما قلّ او كثر منها ، وانهُ لا يتمّ تركيبٌ كيماوي الاَّ بواسطتها والاشتراك بها

تتولد الكهربآئية بالاحتكاك في عددٍ كبير من المواد الآلية . اما الكهربآئية بالملامسة او الغلواني فانها لا تتولد فقط بملامسة المعادن المختلفة الطبع بل ان الكربون والغرافيت و بعض اجزآء من القوام الحيواني نظير العضلات والاعصاب والنسيج الخلوي يمكنها ان تقوم مقام المعادن المحركة للكهربآئية وتفعل فعلها . فاذا تلامس مثلاً فخذ ضفدعٍ بقطعة لحمٍ طرية فيظهر في الحال في الفخذ دلائل التشنج واشاير الاختلاج . الامر الذي نبّه العالم بونتزن ليركّب مجهّزاً غلوانياً بواسطة اغشية يضعها على التعاقب من اللحم والاعصاب . و بمثلهِ صنع كونتز مجهّزاً يابساً بواسطة موادٍ آلية وذلك بدون وساطة اي معدنٍ ما . فهو قد مدَّ فوق ورقاتٍ مستديرة محلولاً ثخين القوام مركّباً من موادٍ عضوية

وركّب بهِ مجهّزاً . وقد اعتنى بان يفرق بين اغشية المحلول العضوي المذكور المختلفة طباع موادهِ بطبقاتٍ من الورق ، وقد حصل لهُ من هذا المجهّز النتائج الآتية

قد تلامس آح البيض بالمادة الصمغية . ووافق الدم نظير عنصرٍ جاذب . واتفقت المادة الصمغية مع السحلب . والمادة المختمرة مع سكر القصب . والملح البحري مع سكر اللبن . وملح القلي مع دهن الخروف . ودم البقر مع النشاء الخ . . . . . فاستنتج من ذلك ان الاجسام الآلية تصدر عنها الكهربائية نظير ما تصدر عن المعادن بالذات

مما هو معلومٌ عند الكثيرين بانهُ توجد جملة اسماكٍ متنوعة ذات كهربائية . وهي نظير الرّعاد[1] (التوربيل) ، والجيمنوت ، والترادون ، والانفيل دي سورينام . وتوجد الآلة الكهربائية في سمك الرّعاد موضوعةً في جهتي الرأس وفي اعضائهِ التنفسية . وتتركب هذه الآلة من مثلثات طولها خمسة او ستة اشبار موضوعة الواحدة منها

(١) ورد عن الابشيهي فيما يختص بسمك الرعاد قال : ان في البحر سمكا يسمى الرعاد اذا دخل في شبكة فكل من جر تلك الشبكة او وضع يده عليها وعلى حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يمكن من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى فاذا رفع يده زالت عنه الرعدة فان اعادها عادت اليه الرعدة وهذه ايضاً من العجائب

وذكر القزويني عن الرعاد قال : الرعاد سمكة صغيرة مخدرة جداً اذا وقعت في الشبكة والصياد ماسك حبل الشبكة يرتعد من برودة هذه السمكة . والصيادون يعرفون ذلك فاذا احسوا به شدوا حبل الشبكة في وتد او شجر حتى يموت فاذا مات بطلت خاصيته ..... ؟؟

بجانب الاخرى . وتكوّن كل مثلثة انبوبةً رقيقة محاطةً باوعيةٍ واعصاب . وتوجد في هذه الانابيب صفوفٌ مرنة من اغشيةٍ منحرفة تُفرق الواحدة منها عن الاخرى بسائلٍ هلامي . فضلاً عن وجود جملة خيوطٍ عصبية تتفرع في هذه الاعضاء . وان الصدمة الكهربائية التي يحدثها سمك الرّعاد في يد من يقبض عليها هي ذات قوةٍ كافية لتمتد حتى مؤخر كتفهِ . ويقال ايضاً ان النفضة الصادرة من سمك الانغيل دي سورينام هي كافية لان توقف حصاناً عن جريهِ . ثمَّ انهُ عقبى التجارب العديدة التي اجراها ماتوجي وراقبها في سمك الرّعاد قد لخص منها الملحوظات التالية

اولاً : ان الكهربائية التي يصدرها سمك الرّعاد تحدث من تأثير ارادة هذا الحيوان

ثانياً : ان كل حركةٍ خارجية تظهر فوق جسم الرّعاد تنتقل اولاً الى رعامي دماغهِ الكهربائي وذلك بواسطة خيوطٍ عصبية يتم بها تصدير الكهربائية

ثالثاً : ان جميع الفعال المتنوعة التي يحدثها العضو الكهربائي تفعل ذات الفعل في التشنج العضلي

فالنظر الى ذلك يتساءل المرء اذا كانت الكهربائية الحيوانية مصدرها من الآلة الكهربائية الموجودة في جسم الحيوان . او انهُ توجد علاقةٌ بين فعل الاعصاب وصدور الكهربائية ؟ فان العلم حتى الآن لم يتوصل الى اكتشاف هذا السر وحلّ هذه العقدة

تنبعث الكهربآئية من جميع الحيوانات ما قلَّ او كثر بالنظر الى تنوّعها والاحوال التي توجد فيها . فان الهرّ مثلاً متصفٌ بهذه الخاصية ولكن بكيفيةٍ زائدة . بحيث انهُ يكفي لذلك ان يُفرك ريشهُ على عكس سبلتهِ في مكانٍ مظلم حتى تحدث فيهِ الكهربآئية وينبعث منهُ الشرر

ثمَّ يتساءل المرء اذا كانت خاصية تصدير الكهربآئية التي تنبعث من تأثير الارادة موجودةً في الانسان او هو متخلقٌ بها . ذلك لان جميع التجارب التي اجروها من هذا القبيل كانت كلها سلبيةً حتى الآن ، ولم تنوّه عن شيءٍ من هذا القبيل . وان جملة علماء ومن جملتهم ويبر قد لاحظوا شدة تأثّر الابرة المغنطيسية في الوقت الذي يتشنج جسمهُ بقوّة عضلاتهِ . وكذلك العالِم بريغو قد اجرى من هذا القبيل تجربةً مدهشةً للغاية . وذلك انهُ غرز ابرةً في ربلة عضلةٍ من عضلاتهِ وبعدهُ أخذ يشنّج بارادتهِ هذه العضلة . ففي الحال التي تكهربت فيها الابرة قد جذبت اليها برادة حديدٍ قد وضعها بالقرب منها

على ان انبعاث الكهربآئية من الانسان لا يجوز ان تشابه تلك التي تصدر من الحيتان والتي سبق لنا ايراد تفصيلها . لان هذا الانبعاث الكهربآئي وان يكن قليل الظهور لكنهُ موجودٌ وحاصلٌ لا محالة . وذلك ان مجموع الاعمال الكيماوية المتنوعة التي اجروها في الاجسام الحيّة قد انتجت دلائل كهربآئية ودلت عليها باجلى وضوح . الاَّ ان الكهربآئية البشرية ليست هي خاضعةٌ لسلطان الارادة الشخصية نظير ما لسمك الرعّاد . بحيث انها لا تنتشر الاَّ بتأثير الفعال العضوية

والاحوال الموجودة فيها . وانهُ بالنظر الى التجربات الدقيقة التي اجروها في اوقات مختلفة من اليوم وفي حالاتٍ متباينة لعددٍ من الاشخاص المختلفي الصفات قد وسعت مجالاً لتقرير السياق الآتي

اولاً :ان الكهربآئية البشرية في حالة صحة الانسان هي ايجابية

ثانياً :ان الكهربآئية البشرية تفوق بشدة قوّتها تلك الحاصلة من معدن الزنك والنحاس المؤتلفين في الوعآء الكهربآئي

ثالثاً : ان الاشخاص الجافيّ البنية والحادّي الطبع ذوي المزاج العصبي يمتلكون مقداراً من الكهربآئية اشد فعلاً من الاشخاص الدسمين البليدين اصحاب التركيب اللمفاوي

رابعاً : ان الكهربآئية الحاصلة بوجه الاجمال يبلغ معظمها وقت المسآء اكثر من باقي ساعات اليوم

خامساً : ان تعاطي المشروبات الروحية تزيد مقدار الكهربآئية

سادساً : يتمتع النسآء على الغالب اكثر من الرجال بالكهربآئية السلبية ولكنهُ بدون ان توجد لذلك قاعدةٌ حتمية يمكن التعويل عليها. وقد وجد العالم غارديني كهربآئيةً سلبية في اثنآء نزيف الحيض

سابعاً : تنقص الكهربآئية الحيوية حتى لم يبقَ لها اثرٌ في زمن الشتآء حينما يكون الجسم بارداً . ثمَّ يعود مفعولها للظهور عندما يدفأ الجسم وتعود لهُ الحرارة

ثامناً : تنحط الكهربآئية الى درجة الصفر في الزمن الذي فيهِ يصاب الشخص بدآء النقرس او الزكام ثمَّ تعود الى اسمى حالاتها السابقة

بعد الشفآء

فهذه هي التقارير التي قررها العلمآء بوجه التقريب بالنظر الى الكهربآئية البشرية وان هذه التقارير وان تكن لم تؤدِ الى مبحثٍ خطير وامرٍ ذي بال ، الاَّ انهُ توجد مسألةٌ يترتب على الفيزيولوجيين (علمآء منافع الاعضآء) ان يوجهوا لها عنايتهم ويعيروها جانب مباحثهم وهي هذه

هل ان الاعصاب مجوفةٌ ويدور في داخلها سائلٌ شبيه بالسائل الكهربآئي ؟ او انهُ ليس في الاعصاب تجويفٌ وهي لم تُستخدم الا كموصل للسائل العصبي او الحيوي ؟ ثمَّ ان السائل العصبي هل هو حاصلٌ من العضوين الدماغي والنخاع الشوكي نظير مفرزات الجسم المتنوعة الحاصلة من الاعضآء ؟ بحيث ان الكبد مثلاً يفرز بلا انقطاع الصفرآء والكليتين تفرزان البول الخ . . . وان الدماغ وهو عضوٌ مقدارهُ هكذا عظيمٌ في الجسم الانساني فما هي مفرزاتهُ اذاً ؟

فاذا توصلوا بواسطة تجارب ثابتة وامتحاناتٍ جلية الى ان يكتشفوا وجود هذا السائل العصبي الذي يفترض وجودهُ فريقٌ كبير من العلمآء . فتكون هذه خطوةٌ واسعة خطاها العلم في ميدان الاكتشاف وتكون نتائجها عظيمةً اخصهُ بالنظر الى القسم الطبي المسمى بالتيرابتيك . لانهُ مما هو واضحٌ ان كل انحرافٍ في الصحة يُعرف ان سببهُ الحقيقي هو تغيرٌ في الوظيفة العصبية . لا سيما وان الادلة المتنوعة الطارئة على العضو الموجوع ما هي سوى نتيجة هذا التغير . فاذا كان في الامكان

ان يتوصل المرء الى هذا الاكتشاف وهو ان كل داءٍ بالنظر الى طبيعتهِ يأتي مسبباً عن افراطٍ او نقصان في المفرز العصبي ، فلم يعد يلزم اذاً سوى ايجاد الوسيلة المقتضية لاعادة توازن الوظيفة العصبية التي بها تُستأصل العلة من اصل مصدرها ويحصل بذلك على الشفاء . اذ انهُ عوضاً من معالجة الاعراض المرضية حسبما يجرون عليهِ الآن . فحينئذٍ يكافحون مباشرةً اصل السبب ويجتثون شأفتهُ . واذ ذاك يدخل فن الطب في عصرٍ جديد يرتاح بهِ العالم البشري ويخفف عنهُ ضروباً من الآلام والأدواء التي تثقل كاهلهُ وتضني جسمهُ

الفصل الثاني والعشرون

﴿ في حياة الجنين ﴾

قد افضنا في البحث حتى هذا الفصل في الجنس البشري وانواعهِ واصناف انواعهِ . ثمَّ اعددنا كيفيات تغيراتهِ وغرائب تراكيبهِ ، لكنَّا لم نذكر بعد الكيفيـة التي تتخذها الطبيعة في فعلها التناسلي . فهذه هي النقطة التي يجب علينا تكميلها والقيام باستيعاب فراغها

يرجع امر بقآء الانواع الحيّة واستمرارها في عالم الوجود الى ناموس التناسل وعمل التوليد . بحيث يتم هذا العمل باقتران الاعضآء التناسلية من كلا الجنسين ووجود الكفاية والموافقة بين المتقارنين . وذلك ان الانسان يتبع غريزياً هذا الناموس الطبيعي و يتنعم بافضليةٍ يستطيع بواسطتها ان يتناسل في جميع الفصول و ينمو في كل اطراف المعمور ، وهي افضليةٌ لم تنلها باقي الانواع الحيّة من عالمي الحيوان والنبات

توجد جميع المسائل المختصة بالفعل التناسلي مفصلةً في كتاب قانون الزواج [1] لكننا نلمّ هنا باختصارٍ بالملحوظات التي تتعلق بالاعضآء

(١) وهو المؤلف الذي سنمثله الى الطبع في اول فرصة

التناسلية من كلا الجنسين ، و بالعمل العجيب الذي يتم في احشآء المرأة بعد التلقيح . وقبل ان نأتي على ذلك نقوم باثبات المقابلة الكائنة بين آلتي التناسل في كلا الجنسين وهي كالآتي

آلة الرجل التناسلية		آلة المرأة التناسلية
الانثيان	يقابلهما	المبيضان
البربخ	يقابلهُ	الجسم المشرشر
الحويصلة المنوية	يقابلها	الرحم
القناة الناقلة	،،	البوق
القناة القاذفة	،،	مجاري الغدد الرحمية
القضيب	يقابلهُ	البظر
الصفن او كيس الانثيين	،،	الشفران الكبيران والصغيران

فيستدل من هـذا الجدول على ان كل عضوٍ من آلة الجنس الواحد لهُ مقابلٌ يماثلهُ في الجنس الآخر . وان من هذا التناسب ينشأ الامتزاج في فعل التناسل . ومن هذا الامتزاج يحصل التلقيح . فتكون النتيجة الطبيعية بالاجمال من فعل التناسل هي توليد مخلوقٍ يأتي مشاكلاً والديهِ وممثلاً لهما

وقبل ان نأتي على وصف الاعضـآء التناسلية لكلا الجنسين نرجو حضرات المطالعين الكرام ان يعذرونا عند ايرادنا مسمّيـات

هذه الاعضآء بحيث انهُ لا يمكنا الوصول الى الغرض المقصود الاَّ بتبيانها وذكر مسمياتها (١)

القسم الاول

﴿ في اعضآء الرجل التناسلية ﴾

تتكون آلة الرجل التناسلية في الظاهر من القضيب او العضو الذكري ومن الانثيين ، ووظيفتهما افراز السائل المنوي . وتتألف في الداخل من حويصلتين منويتين مركزهما بين المثانة والمستقيم (٢) وهما حويصلتان يقرب حجمهما من حجم الجوزة الصغيرة معدتين لخزن السائل المنوي الذي تنضجهُ الانثيان . ويزعمون بان هذا السائل قبل ان يبلغ الانثيين يمرّ بالمجاري المنوية التي تُعدّ تقريباً بالفين وخمسماية مجرى ويبلغ طولها الفي متر ؟

تتركب الانثى البيضية من عددٍ لا يقبل التصديق من المجاري المنوية الملتفة فوق بعضها البعض نظير شلة الخيطان . اما القناة المنوية

(١) نرى ان البيان فيما يختص بوظائف الآلة التناسلية نظير البيان عن جهاز الرأس والصدر والمعدة الخ ... فاذا كان لكل عضو من الجسم مفعول يقوم بنفع الجسم فالعضو التناسلي له الافضلية لقيامه بنفع الجسم خصوصا والنوع البشري عموما . اذ عليه يتوقف امر تناسل المخلوقات واستمرارها في عالم الوجود

(٢) هو المعي الغليظ الذي ينتهي بباب البدن

فانها تذهب من الانثيين وتدخل في البطن وتنزل من خلف المثانة وتمر بجانب الحويصلتين المنويتين وتتفرع منهما قناةٌ تسمى القناة القاذفة . وتمر بالبروستتا وتذهب منفتحةً في الاحليل او المجرى البولي بجانب غدةٍ صغيرة تسمى الجبل الحقيقي . وعليهِ لكي يأتي الفعل التناسلي بالغرض وينتج ثمراً يجب ان تناسب اقسام هذا العضو التناسلي بعضها بعضاً وتشترك جميعها بالفعل التناسلي معاً

القسم الثاني

﴿ في اعضآء الانثى التناسلية ﴾

خُلقت اعضآء الانثى التناسلية اكثر اتساعاً واوفر تركيباً من اعضآء الرجل، وهي لهذا السبب اكثر عرضةً للانحراف واوفر استعداداً للاعتلال وعدم الانتظام . لاسيما وان هذه الاعضآء لا يمكن ان يبتّ الحكم بقبولها التوليد بمقتضى الكشف على اقسامها الخارجية فقط بل يجب ان تكون ايضاً الاقسام الداخلية حسنة التركيب ومناسبة لذلك. وعليهِ فالشروط التالية هي من جملة الشروط المقتضية لتوليد النسل والتي لا يمكن التخلي عنها او انقاص واحدٍ منها وهي — حوض حسن التركيب - وركان متسعان ومستديران بارزان الى الخارج ويحيطان بقطر الصدر — وان تكون المساحة بين الوركين احدى عشرة عقدة

ويكون قطر العانة من ثمان الى سبع عقد — والفتحة التي تحت العانة خالية من اي عائقٍ يمكن ان يحول بين اتمام الفعل التناسلي او يسبب لهُ الضرر

تمثل المرأة دوراً اجلّ مقداراً واكثر اهميةً من دور الرجل في توليد الجنس البشري . بحيث انها هي التي يتغذى الجنين من دمها ثمَّ من لبنها ، وهي التي ترشد خطواتهِ الاولى في سبيل هذه الحياة . فعاد يلزمنا من الضرورة ان نتمعن ملياً ونفصّل بدقةٍ تركيب اعضائها التناسلية وما لها من المفعولات في عمل التوليد

﴿ في اعضاء المرأة الخارجية ﴾

الفرج — وهو فتحةٌ او فلقٌ عامودي الشكل في القسم الاعلى من الحوض العظمي محاطٌ من الجانبين بشفرين كبيرين وهو يمتدي بقطبةٍ عليا وينتهي قبل مسافة سنتيم او سنتيمين من باب المستقيم بقطبةٍ سفلى

ثمَّ انهُ يوجد بقرب القطبة العليا للشفرين الكبيرين جسمٌ صغيرٌ مشابهٌ للقضيب ينتهي نظيرهُ بشبه ثمرة البلوط ذات خشفةٍ ويسمى بالبظر . وهو عضوٌ قابلٌ للتمدد بالمقدار الذي بهِ يكون مشابهاً للقضيب فهو من هذا القبيل مدعاةٌ للظن في كثيرٍ من الاناث بانهن من نوع الخنات

الشفران الصغيران — هما قطعتان من الغشاء المخاطي موضوعتان

داخل الشفرين الكبيرين يمتدّان من اعلى البظر ويتكوّن منهما ما تُدعى خشفة البظر . ويعرّجان في الاسفل على حافتي مدخل المهبل حتى يندغما بالشفرين الكبيرين هنالك ، ويكون لونهما احمر ، ولا يتجاوزان الشفرين الكبيرين في البنات الفتيات . لكنهُ كلما تقدمن في السن ولا سيما اللواتي قد ولدنَ بنين يذبل الشفران الصغيران فيهما ويصبح لونهما رصاصياً ويطولان حتى يخرجا بالكلية من الفرج . ففي بعض الظروف يضطر الطبيب الى قطعهما ليوقف نموهما ويمنع الورم الذي يحدث بسببهما

يكون الشفران الصغيران في بعض نسآء الاقاليم الحارّة اوفر نموًّا بكثير من نسآء الاقاليم المعتدلة ويستعمل جملة شعوبٍ من اليهود والمسلمين عادةً جارية عندهم وهي ان يقطعوا هذين الشفرين . لا سيما وان تابلية نسآء الهوتنتوت ما هي سوى تمددٌ هائل في هذين الشفرين حتى انهما يخرجان من الاعضآء التناسلية ويتدليان على الفخذين

المهبل — وهو قناةٌ عضلية غشآئية طولها من خمس حتى سبع عقد تذهب متصلةً بمدخل الرحم ومبطنٌ داخلها بغشآءٍ مخاطي يفرز سائلاً دسماً كيما يساعد على زلج الاطراف ويسهل فعل القران

غشآء البكارة — قد تكلموا كثيرًا عن هذا الغشآ الكثير الشهرة الذائع الذكر وهو غشآءٌ هلالي الشكل لهُ في البنات العذارى خرقٌ صغير يخرج منهُ الحيض الشهري . وعند ازالتهِ يحدث سيلان دمٍ هو برهانٌ قاطع على البكارة وعلى وجود الانثى حتى ذاك الحين بتولاً عذراآ

ولقد تضاربت الآراء بامر هذا الغشآء فقد اثبتهُ البعض ونفاهُ الاخرون وان كثيرين من علمآء التشريح المدققين قد فتشوا عليهِ في آلافٍ من البنات الابكار المختلفات الاعمار، فاعتبروهُ كأنهُ امرٌ قصصي لا يجب على المرء ان يوجه همهُ اليهِ ويعوّل عليهِ . اذ طالما وجدوا ان فتحة الرحم تكون مسدودةً بغشآء احياناً رقيقاً واوقاتاً صلباً صفيقاً يمكن ان يعارض دخول القضيب بتمامهِ او قسماً منهُ . الاَّ ان هذه حالاتٌ استثنآئية واختلالٌ في التركيب لا يجب ان تُعتبر قياساً يقاس عليهِ . فضلاً عن ذلك فقد اثبت هؤلآء المشرّحون انفسهم انهُ توجد في مدخل المهبل في الغشآء المخاطي ثنيةٌ هكذا واضحة وهي التي قد ردتها بعض تخيلات الشعرآء الاقدمين الى غشآء البكارة . وينبه علمآء التشريح بنوعٍ اخص الى ان يتحرز المرء من هذه العلامة الداعية للشبهة والموجبة للارتياب في امر عفة الانثى. بحيث قد برهنت التجربات العديدة لهم واجلت لعيانهم ان بعضَ النسآء فضلاً عن كونهنَّ بالحقيقة بتولات لكنهنَّ ذوات تركيبٍ رخو قابل لافراز السوائل البيضآء التي تفرزها اعضآؤهنَّ التناسلية باكثر غزارةٍ واقل طرأةٍ من كثير من النسآء العواهر اللواتي يحترفنَ هذه الحرفة من سنين عديدة . ثمَّ انهُ يحتوي مؤلف الاستاذ بارنت دي شاتليت الباحث في الفسق والفحشآء على شواهد مدهشة وحوادث غريبة من هذا القبيل . الامر الذي يضطرنا الى ان نترك هذا القميص البتولي المخضب بدم البكارة للامم السافلة العريقة في الهمجية والمتوغلة في حمأة الجهل

والبربرية [1] تلك التي لم تبزغ عليها حتى الآن اشعة المدنية ولا استنارت بضيآء العلم والعرفان . وان لا نقضي حكماً بعفاف العرس وصونها بالنظر الى هذه الاشارة الكثيرة الشبه القابلة للتصنع والاحتيال

الرحم او بيت الاولاد — وهو كيسٌ عضلي نظير ثمرة الكمثرى المفلطحة موضوعٌ في التجويف الحوضي بين المستقيم والمثانة (انظر في الرسم ٢٢ حرف ا) معدٌ لحضانة الجنين مدة تسعة اشهر بعد التلقيح ويتصل بالمهبل من طرف فتحة عنقهِ . وهو ذو تمددٍ عظيم وانقباضٍ قوي ليس لهُ في الاناث الابكار سوى سبعة سنتيمترات طولاً وثلاثة عرضاً مع انهُ يملأ تقريباً جميع معدة النسوة اللواتي قرب زمن وضعهنَّ ويدفع من كل جانب احشآءهنَّ المعدية

البوقان او القناتان — (انظر في الرسم ٢٢ حرفي ب ، ب) وهما مجريان مخروطا الشكل مرنا الجسم يبلغ طولهما من اربع حتى خمس عقد ينفتحان في الرحم عند نهاية جانبيهِ الايمن والايسر وينتهي طرفاهما الاخران بشبه مضربٍ مقسم الى اهدابٍ وهو ما يسمى بالجسم المشرشر . وان مركز هاتين الفتحتين في البطن ، وذلك ما يفسر عنهما بالحبل الخارج الرحم او الحمل الجوفي . ويمثّل البوقان دورين في نهاية الخطارة . اولهما انهما يطبقان فوق المبيض اثنآء القران ويحملان لهُ الجرثومة الملقّحة . وثانيهما انهما يعيدان الى الرحم البيضة الملقّحة بعد

(١) ورد في رحلة المستر تشرتشل في اواسط افريقيا انه يقال من ان السودانيين لا يشترطون البكارة في نسائهم

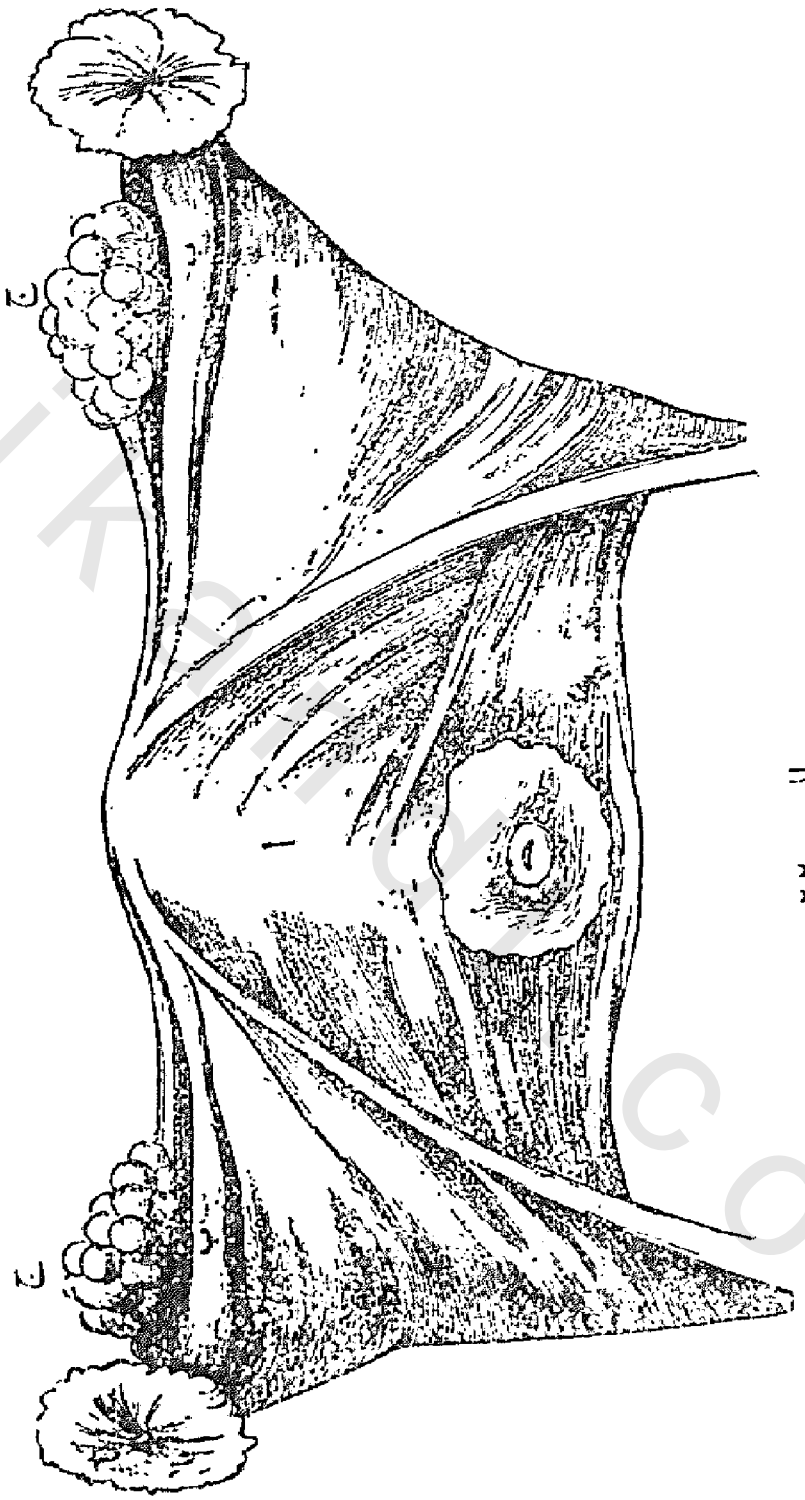

الرسم ٢٢

حدوث التلقيح . اما نسيجهما فهو اسفنجيّ شبيهٌ بجسم القضيب الكهفي . لاسيما وان هذا النوع من النسيج هو ضروري لهما جداً ليقوما بالوظيفة التي اختصا بها

المبيضان — وهما جسمان يقرب حجم كل منهما حجم الجوزة الصغيرة مركزهما في جانبي البطن على بعد بضع عقد من الرحم (انظر في الرسم ٢٢ حرفي ج ، ج)

وظاهرهما املس يكاد يكون مسنماً في البنات العذارى لكنهُ يصبح ذا غضونٍ موشّى بندبٍ صغيرة في النسآء الوالدات . ويرتبط كل منهما برباط الرحم من الطرف الواحد وبالبوق المشرشر من الطرف الآخر . ويكون طول المبيض نحو ثلاثة سنتيمترات ، وعرضهُ سنتيمتر ونصف ، وكثافتهُ ثلاثة ارباع سنتيمتر . ويتراوح ثقلهُ بين اربعة حتى ثمانية غرامات ، ولهُ قوامٌ رخو وشكلٌ اسفنجي . ويوجد داخل الخلايا التي فيهِ خمس عشرة حتى عشرين حويصلة صغيرة يشبه حجم كل منها حبة الدخن (الذرة البيضا) وتقيم فيها البيوض البشرية منتظرةً ان تأتيها جراثيم التلقيح لتتقلح بها

ويُعد المبيض من الاعضآء التناسلية الاكثر تغيراً في زمن البلوغ بحيث يكون ثقلهُ قبل البلوغ ثقل عشر قمحات فيأخذ يزداد نمواً بعدئذٍ حتى يبلغ جزئين من ثمانية اجزآء من الاوقية (١)

يسبب نزع المبيضين وكذلك الانثيين العقم وانقطاع النسل ولقد

(١) الاوقية هنا هي كناية عن اثني عشر درهما وهي ١/١٢ من الليبرة

ذكر الاستاذ روبرتس في رحلتهِ الى آسيا واختلاطهِ بشعوبها ومواطنيها ان بعض امرآء تلك الجهات نظير اندراميت ملك الليديانيين يستأصلون المبيضين من بعض النسآء اللواتي يرغبون في استخدامهنَّ على شاكلة الخصيان . ولقد شاهد هذا الرحّالة في بماي كثيرًا من هؤلآء النسآء التعسات اللواتي يطلقون عليهنَّ اسم هيجورة وقد استأصلوا منهنَّ هذا العضو التناسلي بلا شفقةٍ ولا رحمة . وقد شاهد ايضاً انهُ ليس لهؤلآء النسآء مضيقٌ فان حوضهنّ هكذا ضيقٌ حتى انهُ يشابه حوض الرجال. وتوجد العانة التي تدعى بجبل الزهرة فيهنَّ مسطحة . فضلاً عما لهنَّ من بعض صفات الترّجل في سيرهنَّ ونبرات اصواتهنَّ . ويظل عضوهنَّ التناسلي اصمّ وتمتنع فيهنَّ دورة الحيض الشهري . اما نزع المبيضين فانهُ لا يشابه استئصال البظر وهو ما يفعلهُ بعض الشعوب لاطفآء تهيّج الانثى وتخضيد شوكة شهواتها التناسلية

القسم الثالث

في بيض النسآء الشهري - وحصول التلقيح في بوق الرحم

تجدد في هذه الاثنآء استقرآء قديم العهد يقرب من تعليم ايفرار هوم ومن مقتضاهُ ان البيضة يتم تلقيحها في ذات الرحم . ولما كان هذا الاستقرآء غير مسندٍ ولا هو مدعومٌ بما يؤيدهُ فلا بأس من ايرادهِ

وذكر بيانهِ واليك ذلك

يكون مبيض الاناث في زمن البلوغ مغطى بحويصلاتٍ تبلغ كل منها حالة البلوغ عندما يأتي دورها ويحلّ زمانها. وان الحويصلة الناضجة البالغ حجمها حبة الدخن تنشق منفلقةً وتخرج منها بيوضٌ تتعلق بالبوق ومنهُ تسقط في الرحم. ويتجدد في كل شهر في زمن الحيض هذا الحادث متكرراً ، وهذا ما يدعونهُ بالبيض الشهري . ومن ثمَّ فالمرأة تدفع في كل شهرٍ البيوض الغير الملقَّحة وبمثلهِ الملقَّحة (les ovipares) فيحصل التلقيح بالموافقة بين نضج الحويصلات وحالة القران . ثمَّ انهُ بعد خروج البيوض من الحويصلات الصغيرة التي كانت تحويها . تعود فتمتلي هذه الحويصلات بنقط دمٍ تتشرب منهـا هذه النقط شيئاً فشيئاً وتدفع بذلك اطراف الحويصلة ولم يعد تُشاهد فيها سوى ندبةٍ صغيرة في محل الفلق . ولما كان الامر يتم على هذا المنوال فالندبات التي توجد في المبيض لا يوافق عددهـا عدد الحمل فقط ، بل تعداد البيض الشهري ايضاً . وكذلك يوجد استطلاعٌ جديد لا يقلّ عن الاول اهميةً بل ينقضهُ تماماً . ويستفاد منهُ ان التلقيـح يتم في بوقي الرحم . فاذا كان التلقيح لا يتم ابداً في المبيض بل في البوقين المذكورين فكيف يمكن ان يُفسّر عن الحبل المبيضيّ ، وهو الحمل الخارج عن الرحم اي الذي يتم في المبيض او البوق او المعدة ، اذا كانت البيضة قد تلقحت حقيقةً في الرحم؟ فلا بدَّ من ان يتقرر اذ ذاك بان البيضة بعد ان تلقحت في الرحم امكنها ان تنتقل بطريق البوقين الى المبيض وهذا

امرٌ يُعدّ من المستحيلات

اما الامثال على الحمل البطني او الخارج عن الرحم الذي يُعد من الشواذات وخوارق العادة فهو امرٌ محقق وبمعزلٍ عن مواقع الشك ومحال الارتياب . وقد زفّ الينا الاساتذة سانتوريني ، وريولان ، وغراف ، ودوفرناي ، وهايكتون ، ونوك ، وميلّو ، وكثيرون سواهم شواهد عديدة على نوع هذا الحمل الغريب والشاذّ . وقد شاهد الاستاذ ميلّو جنيناً لهُ من العمر خمسة اشهر في احد بوقي الرحم حتى انهُ بلغ بهِ تمدد نسيج البوق مبلغاً جسيماً . فحادثٌ كهذا وامثالهُ مما يبرهن لنا على ان البيضة النامية في البوق لا بدَّ من انها لاقت عائقاً في ذات البوق فنمت فيهِ الى حين ما فارقت الحامل الحياة . وهذا امرٌ عادي بالنظر الى هذا الحمل الشاذّ والخارق العادة

ثمَّ اذا سلمنا افتراضاً ان البيضة تلقحت اولاً في الرحم ثم انتقلت الى البوق فيكون هذا امراً مردوداً لا يمكن قبولهُ ابداً . فينتج من ذلك ان مبدأ التلقيح في الرحم لا بدَّ لنا من رفضهِ وتركهِ جانباً . نظير ما اعتبرهُ جميع العلماء افتراض خرافةٍ وسخافة في الاستقراء . وان العلم الوحيد والاصح المختص بالتلقيح هو ما سنأتي على تفصيلهِ في القسم الذي يلي وهو استقراءٌ صحيحٌ مؤيدٌ بسلسلة تجارب فيزيولوجية جديدة لم يحصل في نتائجها اقل تغيير ولا ادنى اختلاف

القسم الرابع

في التلقيح والكيفية التي يتم بها ، والنوادر التي ترافقه وتحدث معه

قرَّبت الشهوة التناسلية الرجل من المرأة واحكمت بينهما أواصر الميل واسباب الحنو والانعطاف ، فكان هذا التقرب بين كلا الجنسين المتوقف عليهِ دوام النسل وتعاقب البشر يُدعى قراناً

قال المثل اللاتيني Omne vivum ab ovo وهو ان كل مخلوق حي هو من البيضة . فالمرأة تنتج البيضة والرجل يمدها بالحياة . فاذا اندفع الزرع المنوي في الرحم يتمدد بوقاهُ وينفتحان ليوسعّا مخرجاً للجراثيم المنوية التي تصعد راقيةً فيهما ، واذ تكون قد بلغت ثلثيهما الاعلين تحجم هنالك عن مسيرها وتقف مستقرةً في اطرافهما . وكذلك من الجهة الاخرى اذا بلغت احدى بيضات المبيض حالة البلوغ تنفصل عنهُ ، وذلك ما يحدث عادةً في كل بيضٍ شهريّ ، وتذهب ملتصقةً في البوق فتلتقي بالجرثومة الملقِّحة التي تكون هنالك بانتظارها عند مدخل البوق فتعلق بها وتفعل في تلقيحها . وبعدئذٍ تنزل البيضة الملقَّحة من القناة الناقلة وتسقط في داخل الرحم وتأخذ تغتذي منهُ وتتأصل فيهِ ، ومن ذلك الحين تبتدي حياة المخلوق الجديد الذي يلتزم ان يجوز في مدة تسعة اشهرٍ سلسلة تقلباتٍ وتكييفاتٍ ضرورية لتمام نموّهِ وكمال خَلقهِ . فاذا اتفق بسببٍ من الاسباب او من جرّاء بعض

التأثر والانفعال قد تأخرت حركة هذه التقلبات وتوقفت عن مجراها. فيجوز ان يُقضى على الجنين في احشآء امهِ او ان يصحب معهُ عند مولدهِ نقصاً في جسمهِ او مسحةً وحشية في تركيبهِ

لقد امتحنوا في استقرآء الجرثومة الوالدية ان يستعيضوا عنها بالذرة الحيوية الطيبة العرف. ذلك لان السائل المنوي يصحب معهُ رائحةً تشبه رائحة زهر الشاه بلوط لا سيما وان هذه الرائحة تعتبر بالنظر الى الجنس البشري كأنها خصوصية بهِ ولا توجد في خلاف سائلٍ من سوائلهِ. فلا بدّ لها اذاً من ان تشغل دورها وتكمل فعل الخاصية التي وجدت لاجلها. ومن جهةٍ أخرى اذا كان المجهر يظهر لنا في نقطةٍ من الزرع المنوي أليافاً تتقلب في كل نوعٍ وتتحرك الى كل جهة. و يتقلّب اللقاح الزهري بمساعدتها و يضطرب متحركاً. فينتج عن ذلك ان هذا اللقاح مختصٌّ بحركةٍ شبيهة بحركة الجراثيم المنوية. سيما وان الابحاث المختصة بتلقيح الانثى بدون مساعدة القران الجنسي ستكون العضد الاكبر لتأييد استقرآء الرائحة الملقّحة او الذرات التلقيحية

من المعلوم والامر المقرر ان الروائح على اختلافها هي ذراتٌ غير منظورة ولا يمكن ان تلمس و يشعر بها. تنفصل من بعض الاجسام وتأتي مؤثرةً في حاسة الشم على ضروبٍ متباينة. فضلاً عن ان هذه الذرات الدقيقة من خاصيتها ان تنفذ من اصغر المنافذ وادقها، وتختلط بجميع السوائل، وتتشربها كل الاجسام تقريباً، وتلتصق بجميع الاشياء التي تلامسها وتتصدى لها

وتشغل الذرة الطيبة العرف او التلقيحية ذات الدور الذي تشغلهُ الجرثومة المنوية، بحيث انهُ اذا بلغت الرحم تلج في البوقين، وتصعد بسهولة نحو المبيض، وتمر فوق الحويصلة البالغة فتنديها وتعمل في تلقيحها. وفي الوقت الذي فيهِ تتلقح هذه الحويصلة البيضية فانها تنتفخ ثمَّ تنشدخ في اليوم الخامس او السادس بعد التلقيح، فتفلت منها بيضةٌ تذهب ملتصقةً في البوق المقابل لها وهو المسمى بالقناة الناقلة. ثمَّ انها تجوز هذه القناة وتسقط في الرحم وتأخذ تغتذي منهُ بذات الكيفية التي اشرنا اليها قبلاً عن الجرثومة المنوية

اما هذه الكيفية السهلة التي بها تصعد الذرة الطيبة العَرف الى المبيض حتى تلقّح فيهِ الحويصلات البالغة فهو استقراءٌ يترجح تصديقهُ ويقبلهُ العقل. وهو يشير مفسراً عن بعض الحملان الخارقة العادة التي حملت بها بعض الاناث والتي يُظن بكونها من الامور المستحيلة التي لم تحصل ولا يمكن حدوثها

وسترى فيما يلي الكيفية التي بها يتمّ التلقيح في المبيض والطريقة التي تجوز البيضة بواسطتها القناة الناقلة حتى تبلغ الرحم المعد لقبولها والمهيأ لحضانتها. وسنتبع ذلك بالتقلبات المتوالية التي تحدث في البيضة الملقّحة وتطرأ عليها لنبرهن على ان المخلوق الانساني يأخذ مبدأهُ الاصلي من الدرجة الاولى في السلّم الحيواني، ثمَّ يصعد مرتقياً الدرجات المختلفة فيهِ. ذلك قبل ان يتوصل الى الشكل الانساني المعروف فيهِ والمتخلق بهِ جنسهُ

القسم الخامس

في حركة البيضة البشرية في اثناء حياتها داخل الرحم

في اليوم الاول والثاني — بعد حصول التلقيح يُخال ان البيضة غارقةٌ في مادة الرحم المخاطية . وان في آخر اليوم الثاني تشنبك في اطراف هذا العضو وتتأصل فيهِ

في اليوم الثالث — تُشاهد في وسط السائل الشفاف القليل الاحمرار الذي تحويهِ البيضة نقطةٌ صغيرة ضارب لونها الى الصفرة وهذه هي الجسم الاصغر الذي هو اصل المخلوق العتيد

في اليوم الرابع — يخثر السائل الذي تحويهِ البيضة ويصير منظرهُ هلامياً ، وكذلك يزداد اللون الاصفر فيهِ تشرباً ويزيح عنهُ الاغشية او الغلاف البيضي وهذا هو الرسم الاول للمخلوق الحيّ . بحيث يكون شكلهُ على شاكلة الجراثيم النقوعية

في اليوم الخامس — يتخلق الليف البشري بشكل علقة ملتفة شبه ثلاثة ارباع الدائرة (انظر الرسم ٢٣)

في اليوم السادس — يُشاهد تضخّمٌ في طرف من طرفي العلقة المتكيف شكلها نظير حشرة الضفدع

في اليوم السابع — يكبر الرأس اما باقي الجسم فيستمر محافظاً

الرسم ٢٣

الرسم ٢٤

الرسم ٢٥

الرسم ٢٦

الرسم ٢٧

الرسم ٢٨

الرسم ٢٩

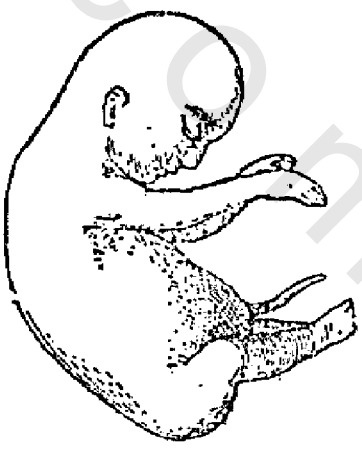

الرسم ٣٠

الرسم ٣١

obeikandl.com

الرسم ٣٢

الرسم ٣٣

على صورة حشرة الضفدع

في اليوم الثامن والتاسع — يظهر في الجسم برعومان على جانب طرفيها لحمٌ وهذان هما مبدأ الاطراف السفلى او الساقين

في اليوم العاشر — يطول البرعومان ويقترب واحدهما من الآخر

في اليوم الحادي عشر — يرتسم الصدر والمعدة

في اليوم الثاني عشر — يصبح العامود الفقاري منظوراً ومفصلاً ويقرب شكلهُ من سلسلة حيوان الاورينتورينك (١)

في اليوم الثالث عشر — يرتقي المخلوق درجة ذوات الاربع

---

(١) وهو حيوان له منقار الطير وجسم الحشرة وهو الممر الذي ينتقل به من عالم الطير الى مرتبة الحيوانات ذوات الاثدي

فيتسع صدرهُ وينقبب ، ويتسع بطنهُ ويكون لهُ بعض الشبه بالقرد

في اليوم الرابع عشر والخامس عشر — يلاقي المخلوق آخر تكييف يختص بنوعهِ . وان اعضاءهُ العليا والسفلى وان تكن حتى الآن غير مكملة الخلقة الاَّ انهم يعرفون فيهِ الشكل الانساني و يسمونهُ تصويراً ولنأتي ايضاً على متابعة اوجه نموّ هذا التصوير

من السبت الثالث حتى الرابع — يصبح التصوير اكثر جموداً وتتركب فيهِ اجزاؤهُ المختلفة وتُشاهد فيهِ البثرتان اللتان يتكوّن منهما الذراعان (انظر الرسم ٢٤)

من السبت الخامس حتى السادس — ترتسم ملامح التصوير فيعادل حجم رأسهِ مايقارب جميع باقي جسمهِ ، و يستمر التذنيب في مؤخر العامود الفقاري ، وتستطاع معاينة الحبل السري وينمو الرأس ، وتستطيل في الوقت ذاتهِ البثرات لتكوّن الاعضاء ، ويكون طول التصوير حينئذٍ من ستة حتى سبعة خطوط [1] وثقلهُ من تسع عشرة حتى عشرين قمحة (انظر الرسم ٢٥)

من السبت السابع حتى الثامن — يصبح طول التصوير خمسة عشر خطاً وتبرز الاعضاء من الجذع وترتسم العينان والفم والمنخاران لكنهُ لم يُعرف حتى الآن جنسهُ اذا كان ذكراً او انثى . وكذلك جميع درجات النموّ تأخذ بالبروز شيئاً فشيئاً

(٢) الخط مقياس قديم وهو جزء من اثنى عشر من العقدة

من السبعة التاسعة حتى العاشرة — ينقص فيهِ التذنّب ويضمر شقٌّ في ناحية العانة وتلوح فيهِ ظواهر التأنيث ويُشاهد في هذا الشق طلع بثرةٍ يتكون منها فيما بعد البظر او القضيب (انظر الرسم ٢٦)

من الشهر الثالث حتى الرابع — تزيد اشكال الجسم بروزاً ويأخذ التصوير في هذا الدور من الحياة اسم جنين ويكون طولهُ سبع عقد (انظر الرسم ٢٧)

في الشهر الخامس — يستطيع المرء ان يفرق بين الجنين فيشاهد في المخلوق اما الأديم الذي سيحوي في داخلهِ الانثيين اذا كان ذكراً ، واما البظر اذا كان انثى . ويكون اذ ذاك طول الجنين من ثمان حتى احدى عشرة عقدة (انظر الرسم ٢٨)

ولا بدَّ من انهُ قد لاحظ المطالع ان المخلوق حتى الشهر الرابع يكون محافظاً على الشكل الانثوي الامر الذي دعى بعض علماء الفيزيولوجيا الى ان يخالوا انهُ يجب لبلوغ المخلوق شكل التذكير ان يرتقي درجةً واحدةً علاوةً عن الانثى

في الشهر السادس — يحمرّ الصفن وهو اديم الانثيين وينكمش في الذكور ويصبح الفرج اكثر بروزاً ويفرق البظر بين الشفرين في الاناث ويكون طول الجنين وقتئذٍ من احدى عشرة حتى اربع عشرة عقدة (انظر الرسم ٢٩)

في الشهر السابع — يختلف طول الجنين بين ثلاث عشرة

وست عشرة عقدة (انظر الرسم ٣٠)

في الشهر الثامن — تنفتح العينان ويكتسي جلد الرأس بالشعر الاول ويكون طول الجنين من ست عشرة حتى ثمان عشرة عقدة (انظر الرسم ٣١)

في الشهر التاسع — وهو آخر مدة الحمل يصبح طول الجنين من ثمان عشرة حتى عشرين عقدة ، ويبلغ ثقلهُ من ست حتى سبع ليبرات (انظر الرسم ٣٢)

ففي آخر السبة الاربعين عادةً اي من مائتين واربعة وسبعين يوماً حتى مائتين وتسعين يوماً يتم الوضع الطبيعي للجنس البشري . بحيث تضع الانثى على الوجه الاعمّ مولوداً واحـداً واحياناً توآمين ونادراً ثلاثة توائم الخ . . . وما ذلك الاَّ في حالاتٍ استثنآئية نادرة الحدوث

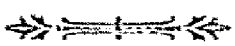

الفصل الثالث والعشرون

في الاذكار والاناث والاسباب المعينة كلا الجنسين

افاض كثيرٌ من المؤلفين في حل هذه المسألة الخطيرة والاحجية المبهمة التي ظلت حتى يومنا هذا مطبقةً غامضة ، فذهبت مباحثهم ادراجها ولم يستطيعوا الى حلها سبيلاً . وقد ابدى البعض من هؤلاء ما عنّ لهم من الاراء بهذا الصدد فاصبحت أراؤهم في يومنا الحاضر كأنها افكارٌ صبيانية لم يعد يُعتدّ بها ويُركن اليها . ذلك لان منهم من ترآى لهم وجود التذكير والتأنيث في البيوض البشرية ، وقد خصوا مبيض الانثى الشمال بالبيوض المذكرة ومبيضها اليمين بالبيوض المؤنثة. ومنهم من اعتبروا المبيض كحوضٍ ليس الاَّ تنصبّ فيهِ الجراثيم المنوية . وهم يعلقون تعيين الجنس على عمل الانثيين . ومن رأيهم ان الخصية اليسرى تولّد الذكور واليمنى الاناث . ولا بد من انهُ قد جهل هؤلاء القوم ان رجالاً كانوا معدومين احدى الانثيين ونساء احد المبيضين مع ذلك قد اولدوا اولاداً من كلا الجنسين بدون تخصيص ولا تفريق بين التذكير والتأنيث . الآمر الذي قد جعل استقراءهم

هذا ساقطاً من نفسهِ ولم يعد يعوّل عليهِ . فقد ادّعى الطبيب ميلّو بانهُ كان يكفيهِ ان يقارن امرأتهُ وهي ملتويةٌ الى الجانب الايسر حتى تلد لهُ الذكور ، والى الجهة اليمنى ليرزق الاناث . وبناءً على هذا المزعم الباطل والمسند الواهي قد ألف مؤلفاً دعاهُ بفن التوليد لكلا الجنسين بمقتضى الارادة

ولما كانت هذه الافتراضات الوهمية لا حقيقة لها وليس لها اثرٌ من الصحة فقد قُضي عليها بان تُدرج في اكفان النسيان و يُغفل امرها . وعاد من مقتضيات علم الفيزيولوجيا الحديث ان يوضح على قدر المستطاع هذه المسألة الغامضة التي ظلت حتى الآن في عالم الغيب وديجور الابهام

ولقد اجرى بعض كبار الفيزيولوجيين جملة امتحاناتٍ رغبوا ان يبينوا فيها كون تعيين الجنس يتوقف امرهُ على حالة التركيب ومقدار النشاط الحيوي المتمتع بهما احد الزوجين . بمعنى انهُ اذا كان نشاط الزوج التناسلي يفوق نشاط زوجتهِ كان جنس المولود ذكراً . و بعكسهِ اذا كانت الارجحية متوفرةً للزوجة فيكون ثمر القران مؤنثاً . الاَّ ان هذا الاستقراء وان يكن اكثر انطباقاً على القوانين التكوينية والوقائع التناسلية مما تقدم ، مع ذلك فانهُ لا يبين مدققاً باي كيفيةٍ تستطيع البيضة والجرثومة المنوية العديمتي الجنس بتاتاً ان تهبا جنساً للتصوير المخلوق منهما . واذا سلمنا جدلاً بكون هذا المخلوق هو من والدين مختلفي الجنس وان من يمتلك الاغلبية منهما يورّث جنسهُ للمولود العتيد .

فلنقف اذن متسآئلين لاي سبب يتم ذلك وعلى اي كيفيةٍ يكون. فهذه هي المشكلة التي نروم ان نبسط لها تمهيداً على قدر المستطاع فنقول

ان تجاربنا الخصوصية وتحليلاتنا الكيماوية للسائل المنوي قد بلغت بنا الى هذا الاكتشاف واوصلتنا الى هذا الاستطلاع. وهو ان التلقيح التذكيري يتوقف امرهُ على حالة المني ودرجة الازوت فيهِ. وبعكسهِ التلقيح الانثوي فانهُ يحصل كل مرةٍ تكون درجة الازوت فيهِ اقل من الاول. فاذا عُلم ذلك مجملاً فمن اين يتأتى لان تكون علة جنسية المولود الفعالة هي خواص المني الكيماوية فهذا مما نجيب عليهِ مفصلاً في كتابنا قانون الزاوج (١)

وانه بالنظر الى هذا الفكر الاستقرآئي يمكن ان يحصل الزوجان على الجنس الذي يرغبانهُ وذلك ان يتبعوا في مدة خمسة عشر حتى عشرين يوماً القانون الغذآئي وان يجروا بموجب الطريقة المفصل عنها

(١) قال القزويني زعم بعضهم ان السبب للتذكير والتأنيث زيادة حرارة خلقها الله تعالى للمادة التي يخلق منها الذكر ونقصانها في المادة التي يخلق منها الانثى. وكذلك تبرز اعضاء التناسل من هذا وتخفى من هذه. ومنهم من زعم بان الاغلب على خلقة الذكور وقوعها في جانب الايمن من الرحم. وفي خلقة الانثى وقوعها في جانب الايسر. وربما يعين على الاناث الفصل الحار، والبلد الحار، والريح الجنوب، وسن الكهولة. كما ان اضدادهُ تعين على الذكور الى غير ذلك من الاسباب

وقال ابن سينا في قانونه: ان من جملة اسباب الاذكار هو مني الذكر وحرارته وغزارته وموافقة الجماع في وقت طهر الانثى. ومن جملة اسباب الاناث سن الشباب دون الصبا والشيخوخة. وقد ذكر جملة اسباب اخرى التي لم يعد يلتفت اليها في الوقت الحاضر ولا تنطبق على الارآء العصرية

في مؤلفنا قانون الزواج (١)

ثمَّ انهُ بالنظر الى الاعتراضات المتنوعة التي يمكن ان توجّه ضد استقرآئنا هذا فاننا نجيب عنها بالافتراضات الآتية وهي

اولاً — لقد اصبح من الاعتبارات الثابتة الاكيدة ان القران الذي يُعقد لزوجين فتيي العمر جداً يستمر قرانهما عقيماً في مدة السنوات الاولى لزواجهما ، واذا اثمر هذا فيكون ثمرهُ ضعيفاً وعلى الغالب من جنس الاناث — ثانياً : ان الزوجين اللذين قد انهك قواهما الافراط الشهواني او ذوي التركيب الرخو والمترهل يتم معهم نفس الامر ويكون نصيبهما ذات النصيب الاول — ثالثاً : ان الاشخاص المتقدمين كثيراً في السن لا تكون مواليدهم في الغالب الاَّ من جنس الاناث ، او انهم يأتون بمخلوقاتٍ تحبي البنية قلما يصلون الى سن البلوغ. فيستنتج من هذه الاحوال المتنوعة ان السائل المنوي اذ يكون كثير الضعف وقليل النضج لم يحوِ الاسباب المقتضية لدفع البيضة نحو الحركة الذكرية ، وبعكسهِ الاشخاص الاقوياء اولي التعقل والحزم اولئك الذين يسيرون في سبيل العيش القانوني ولا يجازفون بأمر حياتهم فهؤلاء يخلفون على وجه التقريب اولاداً ذكوراً

اما بالنظر الى درجات الزرع المنوي الحيوية فانهُ توجد ثلاثة انواعٍ للتلقيح — اولها التلقيح الذكري وهو يشمل النوع الاول كأنهُ

(١) هو المؤلف الذي نحول اليه انظار المطالع بين حين وآخر وسنزفه الى عالم المطبوعات في اول فرصة

يكون اكثر نشاطاً واوفر قوة — ثانيهما : التلقيح الانثوي وهو الادنى من الاول مرتبة — وثالثهما : التلقيح الاكثر من النوعين الاولين ضعفاً واوفرهما نقصاً وهو الذي لا ينتج سوى تصاوير اجنّةٍ تدفعها احشآء الحامل الى الخارج قبل الميعاد المحدد لها والتي تسقط حيةً وتكون غير قابلة الحياة (١)

الاَّ انهُ ربَّ معترضٍ يعترض بقولهِ ان الضرورة تقضي بالنظر الى ما تقدم ان لا يخلّف الرجال الاشدآء الاَّ ذكوراً ولا ينسل الضعفآء المهزولون سوى اناثاً او سقوطاً . فاعتراضٌ كهذا ليس هو قوي الحجة ثابت البرهان كما يخالهُ المطالع لاول وهلة . بحيث انهُ يسقط من تلقآء ذاتهِ اذا رغب المعترض ان يراعي فيهِ الف حالةٍ يمكنها ان تؤثر في نوع ومقدار السائل المنوي، والتي لا يمكن الاستدلال عليها من ملامح الاشخاص وظاهر بنيتهم

المثل الاول — ربَّ رجلٍ شديد العزم قوي التركيب استطاع اليوم ان يخلّف مولوداً ذكراً ولم يستطع في اليوم التالي الاَّ ان يخلّف ابنة . بحيث يكون زرعهُ المنوي قد فقد الخاصية الاولى التي كان متمتعاً بها . اما من جرّآء افراطٍ مادي او عقلي ألمَّ بهِ . واما لداعي تغييرٍ او

(١) دقات النبض الجنيني تسمع في الشهر الخامس من ابتدآء الحمل وتكون على رأي معظم الاطبآء في الجنين الانثى من ١٤٠ — ١٦٠ دقة في الدقيقة مع سرعة وضعف نوعاً في النبض . اما في الذكر فيكون عدد الدقات من ١٢٠ - ١٢٨ - ١٣٠ فقط وتكون اقوى واكثر امتلاءً ويؤخذ ذلك على سبيل الترجيح لا التأكيد

اختلالٍ طرأ على وظائفهِ العضلية

المثل الثاني — اذا حصل التلقيح على الطريقة الثانية واتفق وكانت الاغلبية للام فالثمر يكون انثوياً . وبمقدار ما تكون هذه عفيفة الطبع صحيحة القوى بمقدارهِ تورّث الابنة اخلاقها وصفات تركيبها . وبعكسهِ يكون المولود اكثر هزالاً واشد ضعفاً كلما كانت الام اوفر تطرفاً واكثر افراطاً . حتى تكون حياة المولود على شفا الخطر وابواب المنيّة

المثل الثالث — لايختلّف التلقيح في النوع الثالث سوى مخلوقاتٍ اقل او أكثر نحافةً وضعفاً ، ويترتب على الزوجة في هذا الحال ان تكون متمتعةً بصحةٍ حسنة وتركيبٍ قويّ . فاذا فقد هذا الشرط الاخير فالثمر لا يكون عادةً الاَّ سقطاً او مخلوقاً غير كامل البنية يعاجلهُ الفناء ولا يتجاوز قسماً كبيراً من سبيل العمر

وفي التالي اذا اتفق وكان كلا الزوجين مهزولين منهوكي القوى وحالتهما تشابه حالة الشيخوخة فالتلقيح لا يتم ابداً بل يستمر القران عقيماً ولا يأتي باقل ثمر

فيستنتج مما تقدم ان الاذكار والاناث وحسن تركيب الجنين او قبحهِ وما يكتسبهُ من القوة او الضعف يكون كل ذلك مسبباً من صفات الزرع المختلفة وحالة الزوجين الصحية. وهذه الصفات هي سببٌ لانواع التلقيح المختلفة . ثمَّ انهُ توجد من جهةٍ أُخرى كيفيات تتخلل انواع التلقيح المختلفة ، لكنهُ يعسر على المرء ادراكها وهي على ما يُظن مبدأ اختلاف الامزجة التي تُلاحظ في الاسر الكبيرة

ثمَّ انهُ تضاف الى هـذا الاستقرآء الاساسي مسألةٌ بمنزلٍ من الاهمية وهي ابتلاع اعضآء الانثى التناسلية للذرات المنوية على درجاتٍ متفاوتة وحالاتٍ متنوعة . فاذا عُلم ذلك ظهر السبب الذي من اجلهِ تستمر بعض النسآء الحسنات التركيب الصحيحات المزاج عقيماتٍ او انهنَّ يلدنَ مخلوقاتٍ ضعفآء ومواليد نحفآء . فالانثى هي التي تمثّل في هذا الاستقرآء الدور الاكثر اهمية . بحيث تكون اعضآؤها التناسلية ذات خواصٍ تقبضية تبتلع ما قلَّ او كثر للذرات المنوية . حتى انهُ يأتي الامر مطابقاً لانواع التلقيح المختلفة البادية الذكر . وذلك بالنظر الى جنس المولود وصفاتهِ وكيفية تركيبهِ

يلتزم الرحم في اثنآء الفعل الجنسي ان يقوم بعملهِ ويبتلع السائل المنوي . وكذلك يلتزم البوقان بعدهُ ان يتمددا ويوسّعا ممرًّا للذرات المنوية التي تصل منهما الى البيضة وتلقحها . ففي الحالة التي يختل فيها ابتلاع الرحم للسائل المنوي ويقل تمدد البوقين عن الحالة المعتادة يمتنع التلقيح . واذا تمَّ لا ينتج الاَّ ثمراً ضعيفاً يسقط سريعاً في اكثر الاوقات قبل اوانهِ وقبل المدة التي حددتها الطبيعة لهُ . ثمَّ اذا اتفق وكان الرحم محروماً من القوة التقبّضية فانهُ يترك السائل المنوي ان يسقط منهُ في حين وصولهِ اليهِ . ومن جهةٍ أُخرى اذا كان مصاباً بنقصٍ في تركيبهِ يستمرّ عنقهُ مغلقاً ولا يصل اليهِ الزرع المنوي . وفي التالي اذا كان البوقان مطبوقين ففي هذه الحالات يستمرّ القران عقيما ولا يُرجى منهُ ثمر

وبالاجمال يجوز ان يكون جنس المخلوق العتيد تابعاً للاوصاف المكتسبة من السائل المنوي وصفة تركيب المرأة . الاَّ انهُ يجب ان المتقارنين يبذلان كل قوة ارادتهما ويصممان جميع رغبتهما على الجنس الذي يرغبان في ايجادهِ . بحيث ان الحوادث المدهشة التي يقدمها لنا اصحاب التنويم هي برهانٌ جلي وحجةٌ قاطعة على ما للارادة من المقدرة والمفعولات في المخلوق العتيد (١)

(١) وآخر ما اتصل بنا من امر الاذكار والاناث زعم الدكتور روميه العالم الفرنساوي بقوله انه اذا كان الزوج اضعف من امرأته اتي المولود ذكراً واذا كانت الزوجة اضعف من الزوج اتى المولود انثى . وعنده ان الطبيعة ميالة بسبب غير معروف الى استبقآء النسل . فاذا كان الزوج ضعيفاً خافت انقراض نسله فتعطيه مولوداً ذكراً والعكس بالعكس . والامر متوقف على تحديد مقدار الضعف أو القوة في احد الزوجين بالنسبة الى الآخر

وقد ايد زعمه هذا بجملة براهين منها ان المواليد في مدة الحرب تكون اكثرها ذكوراً لتغيب الشبان والكهول الاشدآء في ساحة الوغى

وكذلك في توليد الماشية اي انه اذا اراد الراعي او صاحب القطيع ان تلد بقرته عجلة اضعفها بالفصد واذا اراد عجلا فصد الثور والنتيجة تكون على الغالب صادقة . الى غير ذلك من الاحصاآت المختصة باعمار المتزوجين التي تعود جميعها الى المبدأ السابق الذكر

اما هذا المبدأ فيخالف تمام المخالفة مبدأ هذا التأليف ولا بدَّ من يوم في المستقبل ينقشع فيه الستر عن هذا السر الخفي الذي تضاربت فيه الاراآء وكان انشودة الكثيرين واذ ذاك تتغير حالة هذا العالم تغييراً كبيراً لم يخطر على بال انسان

القسم الاول

﴿ في الحمل الفضولي ﴾

وهو ان يحوي الرحم في داخلهِ تصويراً وجنيناً معاً . الاَّ انهُ لا يجب ان يخلط المرء هذا الحادث النادر بالحمل المضاعف الذي يحدث من تلقيح جملة بيضاتٍ في وقتٍ واحد ، ونزولها الى الرحم حتى تكون سبباً لوضع توأمين او اكثر . فهذا ما سنأتي على بيانهِ فيما يلي في فصل التلقيح

انقسم علماء الفيزيولوجيا في امر الحمل الفضولي الى قسمين. فالبعض يعتبرون الحمل الفضولي حادثاً خارق العادة نادر الوقوع . والبعض يرفضونهُ بتةً كأنهُ امرٌ مستحيل لا يمكن حدوثهُ . ويستند اصحاب المذهب الثاني في نفيهِ نفياً باتاً وعدم امكان حدوثهِ على هذه المستندات . وهي ان فتحة البوق الداخلية تكون مسدودةً تماماً بالطلاء المخاطي الذي ترشحهُ اطراف الرحم عقبَ سقوط البيضة فيهِ بزمنٍ قليل . ويكون انسداد البوقين حاجباً يمنع كل اتصال بين الرحم والمبيض ، ويعارض في حدوث اي تلقيحٍ جديد بعد التلقيح الاول . وفي نظرهم ان الاجنّة التي يُوضع الواحد منها عقبَ الآخر ببضعة ايام ما هي الاَّ نتاج جملة تلقيحاتٍ متقاربة جداً قبل ان يكون الطلاء المخاطي قد احكم سدّ

البوقين وقطع خط الاتصال . على ان ما يحدث من هذا القبيل في وضع الاجنّة يجب ان نعتبرهُ من جملة المواليد المتأخرة ، ولا يجوز ان نعدّهُ حملاً فضولياً . اما الفيزيولوجيون الذين يؤيدون امكان حدوث الحمل الفضولي ويقرّون بهِ فهم محقون ايضاً . وذلك لان المرأة التي تكون قد تقدمت في حملها وجازت منهُ مدةً طويلة ، يصبح الرحم والبوقان فيها مطلقين حتى يجوز لها ان تتلقح في هذه الاثناء وتحمل حملاً طبيعياً ثانياً . ففي حالةٍ كهذه يكون حملها فضولياً . لا سيما وان المرأة التي لها رحمٌ ذو تجويفين مختلفين (انظر الرسم ٣٤ و ٣٥) فانهُ يمكن ان تتلقح اليوم من جهةٍ وثلاثة اشهرٍ فيما بعد من الجهة الاخرى . ويكون هذا الحمل الاخير فضولياً ايضاً . فيستنتج من ذلك ان رأي الذين ينفون نوع هذا الحمل لا ينقض ابداً رأي الذين يعتبرونهُ ويقرّون بامكان حدوثهِ

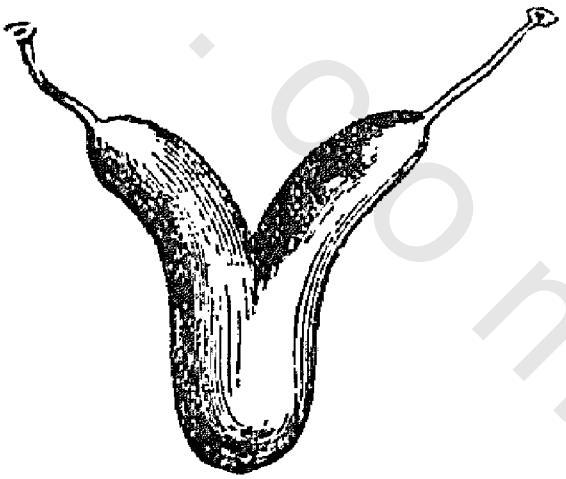

الرسم ٣٤

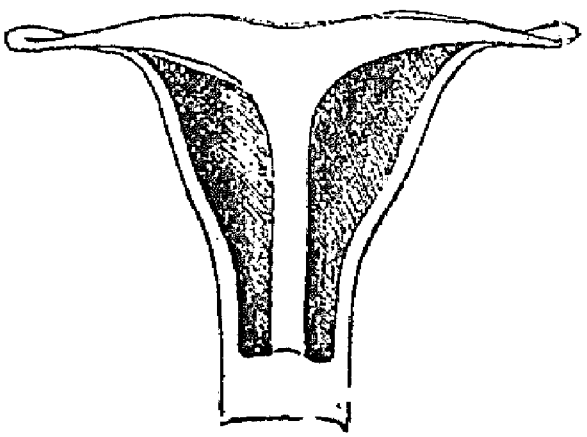

الرسم ٣٥

ومن جملة الشواهد على التلقيح المزدوج الكثير التقارب ما اوردهُ بيفّون وهو امرٌ جديرٌ بالنظر وخليقٌ بالاعتبار . وهو ان امرأةً من بلدة شارلستون في الكارولين الجنوبية وضعت مولودين في برهة بضع ساعات وقد وجدوا ان احدهما كان ابيض البشرة والآخر خلاسياً . فكانت هذه الشهادة الواضحة والحجة الدامغة على قلة صون هذه المرأة واستلامها لغير حليلها سبباً اجبرها على ان تقرّ معترفةً بان زنجياً كان خادماً عندها دخل غرفتها في احد الايام بعد ان فارقها قرينها بمدةٍ قليلة وقد تهددها بالقتل ان لم تجبهُ الى طلبهِ فاضطرت اذ ذاك الى ان ترضخ لهُ مكرهةً لا راغبة

وضعت زنجية من بلدة غواديلوب مولوداً خلاسياً وفي اليوم التالي زنجياً ولقد اقرت معترفةً بانها قد تواصلت في يومٍ واحد برجلٍ زنجي وآخر ابيض

سُفدت فرسٌ من حصان وبضعة ايام فيما بعد من حمار ، وقد ولدت مهراً ثمَّ بغلاً . وكذلك تسافدت جملة كلباتٍ بصنفين من الكلاب وقد ولدت صغاراً من كلا الصنفين

ولنذكر الآن بعض امثالٍ عن الحمل الفضولي الحقيقي وهي من الروايات الصادقة التي لا يُشكُّ بها ولا يرتاب في امر صحتها . فقد ذكر فالمونت دي بومار في تاريخهِ الطبيعي الحادث الذي يلي . وهو ان زنجيةً في ريمان الصبا من بلدة فرجيني ولدت اولاً زنجياً وبعد جملة ايام مولوداً خلاسياً . ثمَّ انهُ بعد ان مضت سنتان على ذلك وضعت

هذه الزنجية ثلاثة اولاد في مدة خمسة عشر يوماً جاء اثنان منهما خلاسيين والثالث زنجياً جميل الصورة شبيه اللون بخشب الابانوس . وان طبيباً مشرحاً من تلك الطارئة (المستعمرة) قد اجرى لهذه الزنجية كشفاً تشريحياً عقبى وفاتها فاتضح لهُ ان لها رحماً ذا تجويفين وذلك ما كان قد قررهُ عنها في اثناء حياتها

اورد كاسّان تفصيلاً وافياً عن امرأةٍ وضعت في الخامس عشر من شهر مارس (ادار) ابنةً وفي الثاني عشر من شهر مايو التالي ابناً وقد الجأهُ هذا الحمل الفضولي من جنسين مختلفين ان يخال ان لرحمها تجويفين . وبعد ان مضى بضع سنين على ذلك قد اتفق ان كاسّان قام بتشريح جثتها وقد تجلّت لهُ حقيقة امرها (١)

يُشاهد في مؤلف خزانة العلوم الطبية ان امرأةً حملت خارج الرحم واستمر معها الحمل ثلاث سنوات ؟ . . . . . وفي اثنائها تلقحت مرةً ثانيةً ووضعت مولوداً مكمل الخلقة . لكنهُ حدث معها بعد وضعها هذا المولود بمدةٍ عوارض خطرة اقرَّ الاطباء بوجود جنين داخل تجويف معدتها . وقد عمل لها مشرّحٌ ماهرٌ عملية جراحية في بطنها توصل بها الى اخراج جنينٍ منها قد دبَّ الفساد في النصف من جسمهِ . وقد صحت هذه المرأة ورزقت جملة بنين فيما بعد

(١) قال ابن سينا ان سبب التوآم والحبل على الحبل كثرة المني وانقسامه الى اثنين فما بعده ووقوعه في التجويفين . وعلى الاكثر ذلك من جماع واحد . وفي القليل ما يعلق جماع على حبل . وان اعلق فيكون في نساء خصبات الابدان كثيرات الشعور والدم

يحتوي مؤلف الوقائع الطبية على كثيرٍ من امثال الحمل الفضولي في النسوة ذوات الارحام البسيطة او المزدوجة . وقد نشر غرافيل جملة ملحوظاتٍ مدهشة على الارحام ذات التجويفين وهي التي كانت تصحب على الغالب معها حملاناً يبعد زمن تلقيحها ما قلَّ او كثر عن الحملان السابقة لها

وقد نشر مؤخراً الاستاذ كروفيليه في مجموعة علم التشريح والفيزيولوجيا ملحوظاً من أهم الملاحيظ على الحمل الفضولي . و بالاجمال ان عدد المؤلفين الذين اثبتوا الحمل الفضولي هو عظيمٌ لا يستهان بامرهِ وان رواياتهم هكذا مسندةٌ ومؤيدة حتى انهُ لم يعد في الامكان نفيها وعدم الاقرار بها

القسم الثاني

﴿ في الولادة السابقة والمتأخرة ﴾

انهُ بالنظر الى القانون المدني ان المواليد السابقة اي المولودة قبل اوانها وهي التي تقبل الحياة تُحدد مدة حملها حتى ستة اشهر . والمواليد المتأخرة عن ميعادها حتى عشرة اشهر . الاَّ ان الفيزيولوجيين يرون انهُ توجد شواذاتٌ لهذه القاعدة العامّة وخصوصاً في المواليد المتأخرة عن زمن ولادتها . الامر الذي دعاهم الى ان يوجهوا نحو هذه القاعدة

القانونية سهام اعتراضهم و يحملوا عليها حملةً شعواء

ذكر شنيدر بعض مواليد كانت مدة حملهم في احشاء امهاتهم من احد عشر حتى اثني عشر شهراً . واورد الطبيب ذاكياس ذكر مواليد استمرّوا في احشاء امهاتهم اثني عشر وثلاثة عشر شهراً . وذكر فليكس بلاتيروس تاريخ مولودٍ استمرّ خمسة عشر شهراً في بطن امهِ (١)

كتب طبيبٌ من مدينة ايكس في سنة ١٧٦٤ الى استاذٍ لهُ في الندوة الطبية الباريسية ما مفادهُ

« انهُ من غرائب الطبيعة التي لم يستطع العلم حتى الآن ان يشرحها و يبين مسبباتها ما اتفق حصولهُ لزوجتي وقد وقفت عليهِ وتحققتهُ بنفسي. وهو ان قرينتي تضع ابناءها في مدة تسعة اشهرٍ تماماً وبناتها في عشرة اشهر . وان الاغرب من ذلك هو انهُ في السبعة الحملان التي وضعتهم منهم ثلاثة ذكور واربع اناث لم يحصل معها الاختلاف في مدة الحمل الاَّ في الاربع بنات فقط

ظهرت لامرأةٍ من بلد دول في فرنش كونتي في الشهر التاسع لحملها جميع الدلائل والعوارض التي تشير الى دنو زمن وضعها . وذلك كانقطاع الاغشية ونزول الماء الخ . . . . الاَّ ان هذه الدلائل قد اختفت ولم يعد لها اثرٌ بدون ان يتم الوضع . وقد عادت هذه المرأة

(١) ذكر الدميري ان من حملته امه اكثر من مدة الحمل سفيان بن حيان ، ولد لاربع سنين خلون في بطن امه . ومحمد بن عبد الله بن حسن الضحاك ابن مزاحم ، ولد وهو ابن ستة عشر شهراً خلون في بطن امه . ويحيى بن علي ابن جابر البغوي كذلك . وسلمان الضحاك ولد ابن سنتين خلتا في بطن امه

الى سابق عهدها وطفقت في مباشرة اعمالها الاعتيادية . وقد استمرّ الجنين في احشآئها مدة ثمانية وعشرين حولاً ! . . . . ولم يكن بعد ذلك وقد بلغت هذه المرأة من العمر السن الخمسين الاَّ وعادت دلائل الولادة للظهور معها وادركتهـا الوفاة على اثرها . ولقد اظهر الكشف التشريحي الذي اجروهُ لها عن جنينٍ جافٍّ محفوظ في احشآئها ؟

وجد ميلاّن في رحم امرأةٍ عجوز جنيناً متحجراً . وعرضوا من زمنٍ قريب في انكاترا جنيناً متعظماً (اي صار كالعظم) ضمن رحمٍ غضروفيّ الجسم تقريباً وهو لامرأةٍ توفيت ولها من العمر ستون حولاً . بعد ان ظهرت عليها جميع دلائل الوضع وعوارض الولادة . ولقد قدّروا في هاتين الحالتين ان اقامة الجنين في الرحم كانت على الاقل خمس عشرة سنة

الاَّ ان فريقاً من الاطبآء يرفضون التصديق بمثل هذه الاجنة . وغيرهم بعكسهم يعتبرونها كأنها حوادث ممكنة وقابلة الحدوث

القسم الثالث

﴿ في البلوغ العاجل ﴾

سوف يحصل في مستقبل الايام مما لا شك بهِ مباحث علمية وتحرّيات مدهشة عن اسباب البلوغ العاجل اي الحاصل قبل اوانهِ .

وذلك فيما يختص بالحالتين الطبيعية والادبية . لان الذي قد توصلوا الى معرفتهِ حتى الآن هو ان نموّ الجسم السابق عن المدة التي خصصتها الطبيعة لهُ مسببٌ من تهيّج زائد طي الاعضاء يسير بواسطتهِ نموّ الجسم بسرعة هائلة وحالةٍ غير معتادة . وذلك لان البلوغ العاجل ينتج دائماً عن ضررٍ في التركيب الانساني يفني الجسم قبل اوانهِ ويعجّل لهُ في دنو الاجل

تحفظ لنا كتب التاريخ اسماء بعض من هؤلاء المخلوقات الذين كانوا يُدعون بدون حقٍ ولا مناسبة بممتازين . ولا بدّ من ان يتشوق المطالع الى الوقوف على الاحوال والاسباب الاكثر شهرةً والاوفر غرابةً التي ميزتهم واطارت سمعتهم ولنذكر هنا بعضاً منها فنقول

ولد في سنة ١٧١٩ المدعو مونتكال في كانديالك على مقربةٍ من نيم . وقد ظهرت دلائل البلوغ الخارقة العادة في ذاكرتهِ قبل الاوان المعتاد . ففي الشهر الخامس عشر قبل ان يستطيع مونتكال التكلم كان يعرف احرف الهجاء اي انهُ كان يشير باصبعهِ الى الاحرف التي كانوا يسألونهُ عنها ؟ وفي منتصف السنة الرابعة من عمرهِ كان يترجم كورنيليوس نيبوس من بدئهِ حتى نهايتهِ . وقبل ان يبلغ سن الخامسة قد نال جميع الجوائز الاولوية التي خصصوها للفرقة التي كان يتعلم معها . وفي سن السابعة كان يحسن علم الحساب والهندسة والتاريخ المقدس . وبعد سنة من ذلك كانوا يعدونهُ نظير احد الرياضيين البارعين وعالماً من علماء الآثار مشهوراً . وفي سن الثالثة عشرة قد نال اكليل الفخر من جمعية

العلوم في نيم وأعطي لقب عالم ؟ . . . . . ومما يقضي بالأسف انهُ لم يبلغ مونتكال الاربعة عشر ربيعاً من عمرهِ حتى امضّهُ داء الانحطاط واقعدهُ الهزال وقصف منهُ غصناً رطباً وقدًّا نحيلاً . بحيث قدادركتهُ الوفاة في سن الخامسة عشرة وهو في حالة التغفل والبلاهة (خرافة ولا شك انها قصة واردة عن النساء الثرثارات)

ولد فرنسوى دي بوشاتو في سنة ١٦٤٥ وكان يحسن القرآءة والكتابة والحساب وهو لم يزل في السنة الخامسة من عمرهِ . وقد اظهر رغبةً فطرية في الفنون العقلية حتى انهُ قد انصبَّ بكليتهِ على الرسم والتصوير والموسيقي والشعر حتى اتقنها ونجح فيها نجاحاً باهراً . ولما بلغ سن العاشرة كان شاعراً مشهوراً وكاتباً نحريراً وقد ادرج نظمهُ في صحيفة المركير كالان . وقد رغبت الملكة حنة والدة لويس الرابع عشر ومازاران في مشاهدة هذا المخلوق العجيب ، ولما امتثل بين ايديهما ووقعت اعينهما عليهِ اصبح الاثنان مذهولين ومتعجبين من كبر عقلهِ وفرط ذاكرتهِ حتى صار الفتى الممتاز بعد قليلٍ من الزمن موضوع دهش واستغراب الحاشية الملوكية باسرها . الاَّ انهُ لم يبلغ من العمر السنة الثالثة عشرة حتى تمكن الضعف منهُ واستحكمت فيهِ حلقاتهُ وقضى نحبهُ بداء الانحطاط والهزال

اما الاكثر شهرةً من جميع امثال هؤلاء فهو المسمى بيك دي لاميراندول وهو الذي طبقّت شهرتهُ الآفاق وسار ذكرهُ في كل حدب وصوب ولم يضارعهُ ندٌّ ولا نظير . ولكي لا نطيل الشرح في تعداد ما

اظهرهُ بيك في صغر سنهِ من الامور المدهشة والاحوال الخارقة العادة . نكتفي باعادة لمحةٍ من ترجمتهِ نقلاً عن واضعيها وناسجي بردها . وهي انهُ كان يعرف اثنتي وعشرين لغة يوم كان في سن الثامنة عشرة ؟ . . . وكان اذا تُلي عليهِ كتابٌ مرةً واحدة يقوم باعادتهِ غيباً من مطلعهِ حتى ختامهِ . ولما بلغ بيك سن الثالثة والعشرين كان يحفظ على وجه التقريب كل المعارف البشرية ، فكان يساجل مناظريهِ بفصاحتهِ المعهودة ويفحمهم وينتصر عليهم . ونحو اوائل السنة الرابعة والعشرين من عمرهِ شخص بيك الى روما ليتمرن في المناظرة والجدال على اكبر مرسحٍ كان قائماً في ذلك العصر . وحين وصولهِ اليها اعلن بيك انهُ مستعدٌ الى ان يجيب على جميع المسائل العلمية واللاهوتية التي تُعرض عليهِ . وهو يؤيد رأيهُ فيها ويبتّ حكمهُ عليها بدون ان يترك واحدةً منها . فكان هذا الاعتقاد بمقدرتهِ والاعجاب بنفسهِ قد احدث لهُ اعداءً كثيرين قاموا يسعون الى خزلهِ والتآمر عليهِ . متهمينهُ تارةً بالكفر وطوراً بالزندقة . ولما كان بيك من اسرةٍ كثيرة الغنى عظيمة الجاه فكان ذلك حائلاً قد صدهم عن تسفيلهِ والحاق الاذى بهِ . الاَّ ان البابا اينوسان الثامن قد اقتصر على دحض ثلاث عشرة مسألةً من مسائل بيك العلمية التي كان يبلغ عددها الف وار بعمائة مسألة . وعلى اثر ذلك ترك بيك الفتى روما خجلاً من الاستقبال البارد الذي لاقاهُ فيها . وانعكف على انشاء جملة تآليف في الفلسفة واللاهوت احدثت دوياً عظيماً في ذلك العصر واصبحت اليوم راقدةً تحت اطباق

السكولاستيك (وهو مزيجٌ من الفلسفة واللاهوت) المبهمة والعقيمة التي لا تجدي نفعاً ولا تنتج ثمراً . ولقد اصبح ميل بيك الى الدرس والمطالعة هكذا شديداً حتى انهُ ترك العالم بكليتهِ وانعكف معتزلاً في احد قصورهِ حتى ادركتهُ الوفاة وهو في سن التاسعة والعشرين . وفي رواية البعض الواحدة والثلاثين . على انهُ يوجد في هذه الترجمة كثيرٌ من الغلو والتعظيم ولا بدّ من ان كاتبها هو من البريتولوجيست (١)

فيتضح مما تقدم ان البلوغ العقلي اذا حدث في المرء قبل اوانهِ فيكون شؤماً على صاحبهِ ومدنياً يوم معادهِ . بحيث تفنى حياتهُ بسرعةٍ قوية من جرآء هذا الموقد المشتعل الذي يبعث في الجسم اشعتهُ الحادة وحرارتهُ المذيبة . ومن هذا القبيل جرت الامثال السائرة كقولهم سيقتلهُ ذكآؤهُ هذا لا يطول عمرهُ لفرط ذكآئهِ وما هو بمعناهُ (٢)

الاَّ اننا نردف الآن حوادث البلوغ العقلي العاجل بحوادث أُخرى عن البلوغ الطبيعي قبل اوانهِ التي كثيرٌ منها لا تقبل التصديق ولا يجوز الاقرار بصحتها وان تكن مأخوذةً عن مؤلفين اجلآء لهم

(١) هم الذين يقرون خصائص المدارك البشرية بالنظر الى تركيب جمجمة الرأس

(٢) اشتهرت قصة الغلام الذي تقدم الى ابي العلآء المعري وسأله عن البيت الذي يقول فيه

وانّي وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

فاجابه الفيلسوف العربي بالايجاب

فقال له الغلام ان الاوائل وضعوا تسعة وعشرين حرفاً للغة العربية فهل لك ان تزيد عليها حرفاً واحداً . فالتفت ابو العلاء الى من كان حوله وقال لهم ان هذا الغلام لا يطول عمره لفرط ذكائه . وهكذا كان

في مؤلفاتهم شهرةٌ واسعة وسمعةٌ طائرة

نقرأ في صحيفة الوقائع التشريحية للاستاذ جونسون شاهداً عن بلوغ ابنةٍ سن البلوغ وهي في السادسة من عمرها . ولقد كانت حسنة التركيب وكان نهداها شاخصين تمام الشخوص وفيهما الحلمتان بارزتان ومحاطتان باكليلٍ اسمر اللون نظير ما للنسوة المراضع . الاَّ ان هذه الابنة النادرة الخلقة توفيت في السنة السابعة من عمرها

ذكر الدكتور بيليته في مؤلفهِ الفيزيولوجي عن غلامٍ يدعى جاك فيولا وُلد في ضواحي آلياس وقد بلغ طولهُ في السنة الخامسة من عمرهِ اربع اقدام وثلاث عقد . وفي السنة السابعة خمس اقدام وكان ضخم البنية بالغ الحلم قد اكتسى اديم بشرتهِ بالشعر نظير رجلٍ في سن الثلاثين. وتوفي هذا الغلام في سن التاسعة وكانت وفاتهُ بدآء الانحطاط والهزال (هذه من النوادر)

ولد نويل فيشه في العاشر من شهر مارس (ادار) سنة ١٧٢٩ في نورماندیا وقد بلغ الحلم في الثالثة من عمرهِ وفي أواخر السنة الرابعة كان طولهُ اربع اقدام وثمان عقد وتوفي في أواسط السنة السادسة من عمرهِ (غير قابلة التصديق)

اما الشاهد الاكثر غرابةً والابعد تصديقاً على البلوغ العاجل هو ما ذكرهُ الاستاذ كومارمونت احد اطبآء مدينة ليون الذي ادرج في معجم العلوم الطبية قصة مولودةٍ انثى ظهر في الشهر السادس انتفاخٌ في ثدييها اقلق والدتها وشغل بالها . الاَّ انهُ قد استمرت صحة هذه

الابنة الصغيرة جيدة ولم يظهر فيها اقل انزعاج . ولقد تجدد قلق الام لما بلغت ابنتها سن الخامسة اذ شاهدت جبل الزهرة فيها (اي عانتها) قد اكتسى بالشعر، و بعد ذلك ابتدأ فيها ظهور الحيض، واخذ يتكرر معها في كل شهر نظير ما يحدث عادةً للاناث البالغات . وكانت رقبتها آخذةً بالنمو وقد اصبحت مستديرةً وثابتةً في حركاتها وسكناتها . وكانت ملامح وجهها حسنة واعتيادية تمثل ملامح النسوة الكهلات . اما هذه المخلوقة النادرة المثال فقد توفيت نحو اوائل السنة السابعة من عمرها وفي ذاك الحين كانت تُشاهد فيها جميع سيمآء الهرم وعلائم الشيخوخة

تنبيه : ان اكثر هذه الحوادث مأخوذة من كتاب سِير الحوادث النادرة وهو مؤلف قلما يعتقد بهِ ويعتمد عليهِ

القسم الرابع

﴿ في التلقيح ﴾

تعني لفظة التلقيح ناموساً من اعظم نواميس المادة المركبة ألاوهي الخاصية التي للنبات والحيوان لينمو ويتناسل بفعل اشتراك الاجناس . واننا نوقف هنا المطالع هنيهةً على التلقيح الهائل الذي للنبات والجراثيم النقوعية والحيتان والحشرات مكتفين بان نشير الى ذلك بالارقام

ساق الدرة يحمل	٢,٠٠٠	بذرة
″ زهرة الشمس	٤,٠٠٠	″
″ الخشخاش	٣٢,٠٠٠	″
″ التبغ	٤٠,٠٠٠	″
شجرة الدلبة	١٠٠,٠٠٠	″
″ الدردار	٣٠٠,٠٠٠	″
″ القرنفل	٧٠٠,٠٠٠	″

وليس هذا جميعه بشيء يذكر بالنظر الى التلقيح الغير قابل التصديق الذي لبعض الحيوانات . ضار بين صفحاً عن الجراد والبعوض التي ترف بغزارةٍ في سمآء بلاد التتر والقطر المصري تلك التى تكاد تظلم الشمس بها . وهي التي تفترس في بضع دقائق جميع النباتات التي تسقط فوقها وتدب عليها . بل اننا نكتفي بذكر بعضٍ من اصناف الحيتان وذلك كالآتي

سمكة الهارنغ	تجلب	١٣,٠٠٠	بيضة
″ الكارب	″	٣٤٠,٠٠٠	″
″ البيرش	″	٣٨٠,٠٠٠	″
″ الاسترجون	″	٧,٣٣٣,٠٠٠	″

على انهُ كلما ارتقى الحيوان درجةً في سلّمهِ قلّ فيهِ هذا النموّ في التلقيح حتى يُشاهد ان عدد البيوض يقلّ في كبار الحيتان والدبابات . ثمّ ان عدد البيض في عالم الطير هو محددٌ وكذلك الحيوانات

الولودة لا تتجاوز ولادتها اثني عشر حتى خمسة عشر مولوداً . وفي التالي الحيوانات الكبيرة ذوات الاثداء لا تجلب انثاها سوى بضعة مواليد

اما الوضع في الجنس البشري فتضع الانثى بوجهٍ عامّ مولوداً واحداً لكنهُ يتفق احياناً ان تلد توأمين ونادراً ثلاثة توائم واكثر ندوراً اربعة توائم . وان العدد بعد ذلك هو شاذٌّ للغاية ويجب ان يعتبر من الولادات الخارقة للعادة تماماً المرتاب بامر صحتها

ذكر الاستاذ ليبلتيه في مؤلفهِ الفيزيولوجي ان امرأةً من مدينة مانس كانت اماً لثلاثة وعشرين ابناً وقد ولدت تسع ولادات كانت جميعها توائم — وقد ولدت امرأةٌ أخرى ثلاثة بنين توائم وكانوا حسني البنية صحيحي التركيب ومتمتعين بصحةٍ جيدة — وقد تألمت امرأةٌ من ضواحي مدينة بريلون لمشاهدتها موت اربعة بنين لها توائم وضعتهم في اقل من ساعة ؟ ؟ ؟ ووضعت زوجة احد الآكرة في بلدة القديس ريمي في ٢٢ ابريل (نيسان) سنة ١٧٦٦ خمس بنات توائم وولدت جميعهنّ في قيد الحياة (قصة) (١)

اورد العلامة الفيزيولوجي بيرداش ذكر احدى النساء التي

(١) ورد في صحيفة المقطم في تاريخ ٩ ستمبر سنة ١٩٠٨ ما هو : وضعت امرأة في حي المناصرة التابع لقسم الوسكي اربعة اطفال ذكراً وثلاث اناث معاً فتوفي ثلاثة منهم في اليوم الخامس من ولادتهم وعاشت ابنة . واغرب ما سمعناه من بعض الاطباء ان هؤلاء الاطفال ولدوا اصحاء كاملي الخلقة وكانت الاناث ملتفة بغشاء واحد والولد وحده بغشاء آخر ، ولم تشعر الام بتعب في اثناء الحمل ولكنها وضعتهم في الشهر السابع منه . ولم تعسر ولادتها بل ولدتهم في نصف ساعة وكان وزن الطفل ساعة ولادته رطلين مصريين تقريباً وطوله نحو ٢٧٠ سنتيمتراً اه

وضعت خمسة توائم في يومٍ واحد وقد ذكر ان ثلاثة منهم ولدتهم امواتاً والاثنين الباقيين في قيد الحياة (مشكوك بها)

امتثل احد كونتات مدينة ايسبورغ بين يدي الامبراطور هانري وفي معيتهِ بنوهُ وهم اثنان وثلاثون ابناً وثمان بنات ؟ — كان جول دي ترازيني الذي رافق القديس لويس الى فلسطين هو المولود الثالث عشر من ولادتين فقط ، وهذا ما يشير اليهِ معنى اسمهِ المركب من ثالث عشر ومولود ؟ .... خلّف احد الصناع في مدينة مسكو سبعة وتسعين ابناً وذلك من زوجتين كانتا تضعان لهُ توأمين او ثلاثة توائم . وقد خصص القيصر منزلاً جميلاً اسكنى هذا الوالد العديم المثال (خرافة مزدوجة)

رزق الاربعة غير الاوائل ثلاثة واربعين مولوداً منهم ثلاثون ابناً — اورد اوزياندر ذكر امرأةٍ ولدت اثنتي وثلاثين مولوداً في احدى عشرة ولادة . وقال انها كانت المولود الاول من ثلاثة مواليد توائم . وكانت والدتها قد رزقت ثمانية واربعين ولداً (خرافة لا شك فيها)

قد تحقق فيراي وجود جملة أسر لا تخلف الاَّ مولودين اوثلاثة او اربعة مواليد في كل ولادة ؟ . . . . . وفي التالي نأتي على ذكر قصةٍ بدون ان نكلف النفس الى تصديقها والاقرار بصحتها . وهو ان جدعوناً جديداً ولد في الدانيمارك جمع اولادهُ واحفادهُ البالغ عددهم مائتين وسبعة وتسعين شخصاً وذهب في مقدمة هذا الجيش ليعرض خدمتهُ للملكهِ . وقد بادر الملك واحلّ ملتمسهُ محل القبول (غير مصدقة)

اما المزاج والمناخ والاخلاق والاغذية فكل هذه لها اكبر تأثير على الاعضآء التناسلية وعلى فعل التلقيح وذلك ما قلَّ او كثر لان الامزجة اللمفاوية الدموية اكثر انمآءً للنسل من باقي الامزجة. وكذلك البلاد المعتدلة البرد والرطوبة فانها تنشّط على نموّ النسل واكثار البنين. ففي بلاد اسوج والدانيمارك وفي قسمٍ من روسيا تخلّف المرأة في مدة حياتها من ثمانية حتى عشرة مواليد وكثيرات من النسآء يخلفنَ عشرين او ثلاثين مولوداً. ومما يخطر في الذهن تلك اللمحة التاريخية التي رغب فيها ملك ايزلندا في سنة ١٧٠٧ ان يكثر اهالي تلك الجزيرة على اثر فقدانها ما يقارب العشر منهم. وذلك من جرآء مرضٍ وبيل فتك في سكانها فتكاً ذريعاً واوردهم موارد الحمام. فقد اصدر الملك امرهُ بان جميع النسآء والبنات اللواتي يخلفنَ من اربعة حتى ستة اولاد لا يزدرى بهنَّ ابداً بل بعكسهِ يحرزنَ الصيت الحسن والسمعة الشريفة. ولقد ثار في البنات الفتيات ثائر الحمية على ما قيل وقمنَ مجتهداتٍ بنشاطٍ مفرط وغيرةٍ شديدة في تكثير ابنآء وطنهنَّ. الامر الذي اقتضى بعد مدةٍ من الزمن اصدار ارادةٍ ثانية لايقاف هذا النموّ المتكاثر. بحيث اصبحت المواليد توضع من كل حدب وجانب بكثرةٍ فائقة ولولا ذلك لغصت رحبات ارض الجزيرة بالاهلين

ومن الحوادث التي يمكن للمرء ان يستدل منها ويحكم بها على كثرة انمآء النسل ووفرة الخلف ذلك ما اوردهُ ديرهام. وهو ان امرأةً كانت والدةً لستة عشر مولوداً منهم عشرة فقط كانوا اولاداً لها

شرعيين ولما بلغتها الوفاة وهي وقتئذٍ في سن الثالثة والتسعين كانت تعد هذه المرأة مائة واربعة عشر مولوداً وهم احفادهـا ومائتين وثمانية وعشرين شخصاً وهم بنو احفادهـا وتسعمائة ولدٍ وهم اولاد هؤلآء الاخيرين . وكانت جملة العدد الف ومائتين وثمانية وخمسين خلفاً لها مولودين من نسلها وشاهدتهم في اثنآء حياتها . ومما لا ريب فيهِ انهُ اذا وجد نموٌّ كهذا في جميع اطراف المعمور فالارض تضيق بسكانها في وقتٍ قريب . وتصبح مساحتها على اتساعهـا غير كافيةٍ لاعالة الأُسر البشرية

توجد اشخاصٌ قد امتازوا عن بقية البشر وذلك باحتفاظهم خاصية التوليد وهم في العمر الاكثر تقدماً والاوفر كبراً . بحيث شوهد في القرن السابع عشر ان المدعو طوماس بارّ قد تقـاصص قصاصاً علنياً تجاه مدخل احدى الكنائس للجريمة التي اجترمها وهو انهُ رزق مولوداً من ابنةٍ وهو وقتئذٍ في سن المائة وواحدة ؟ — وكذلك ليوبوبان البالغ من العمر مائة وثلاث سنوات خلّف مولوداً من قرينتهِ البالغة سن الثالثة والثمانين والتي صارت منهُ في السنة التالية اماً لمولودٍ ثانٍ — ومن هذا القبيل ايضاً قد هنأوا الدكتور ديفورمل بولدهِ الرابع عشر بينما كان هو في سن المائة (هذه حوادث قليلة التصديق ومرتاب بامر صحتها)

وليست هذه الخاصية مختصة بجنس الذكور فقط ، فقد ورد ان نسآء وضعنَ اولاداً وهنَّ في السن الذي فيهِ يكون غالب النسآء قد سقطنَ في دركات الهرم ومنحدر الكبر . فقد ذكروا من هذا القبيل ان

المرأة سيكس لماً كان عمرها في سن الثالثة والتسعين وضعت ايناً في السادس عشر من شهر ابريل (نيسان) سنة ١٧٦٠ ؟ — واصبحت مرغريتا كروبسكون من مدينة موسكو اماً وهي في سن السادسة والتسعين ؟ — ووضعت بائعة جلود في ذات المدينة ولدها الاخير وهي في سن المائة والاثنين والعشرين (خرافة)

تنبيه نلتزم في الحوادث النادرة والتي هكذا خارقة العادة بان نشك بها ونرتاب بامر صحتها وان تكن مقتطفة من مؤلفاتٍ لمؤلفين ذوي سمعةٍ كبيرة وشهرةٍ واسعة

الفصل الرابع والعشرون

﴿ في عاهات الاعضآء التناسلية في كلا الجنسين ﴾

يرى المطالع شرحاً وافياً عن هذه المسائل التي تتناول النسل وهيئة الاسرة في كتابنا قانون الزواج وهو المؤلف الكثير النفع الذي نحول اليهِ نظر المطالع بين فترة واخرى . ونكتفي هنا بذكر العاهات والا فات المتنوعة التي تطرأ على الاعضآء التناسلية والتي تجعل القران الجنسي غير مستطاع ولا ترجى منهُ ثمرة

﴿ العنّة والعقم في كلا الجنسين ﴾

تكون الافات والادوآء التي تصيب الاعضآء التناسلية في كلا الجنسين مختلفة الانواع كثيرة التعداد منها ما يجعل القران صعب المراس ومنها ما يجعلهُ غير مستطاع

وسنتكلم الآن عن العقم وهو العاهة الناتجة عن نقصٍ في التركيب او عن عللٍ طرأت على الآلة التناسلية ، او من جرآء افراطٍ في القوى العصبية . وهو الذي يقضي على الجسم بالتلف وعلى العقل بقلة الشعور وانحطاط المدارك

اما العنّة فمعناها الحرفي عدم المقدرة على ممارسة الفعل الزوجي وسببها الرئيسي الارتخاء وضعف عضلات الانتصاب المتأتيين عن نقصٍ في المحرك العصبي ، وضعف في جسم العضو الكهفي الذي لم يعد يصل اليهِ الدم الكافي ليتم بواسطتهِ فعل الانتصاب

وتختص العنّة بالرجل اكثر من المرأة . بحيث ان تركيب اعضائها التناسلية تساعدها في كل حينٍ على ان تستسلم لفعل القران بصفة مفعولٍ بهِ لا فاعل . وتراها بعكس الامر تُكافئ على هذا مكافأةً سيئة. وذلك لان العقم وعدم امكان التوليد مما يسيء المرأة بنوعٍ اخص اكثر من الرجل

يتأتى العقم في الرجل عن نقصٍ في تركيب اعضائهِ التي تفرز السائل المنوي او من جراء علّةٍ قد ألمّت بهذه الاعضاء ، حتى اصبحت غير صالحةٍ لتأدية وظيفتها والقيام بعملها التناسلي . وكذلك المرأة فان اقل تغييرٍ يحدث في آلتها التناسلية يجعلها غير صالحةٍ لتوليد النسل

والفرق بين هاتين العلتين هو ان العنّة تصحب معها العقم بوجه التقريب دائماً . مع ان العقم لا يمنع بنوعٍ خاص الفعل الجنسي . وذلك لان الرجل الفاقد الانثيين والذي هو بالطبع عقيمٌ هو قابلٌ للانتصاب العصبي . والشاهد على ذلك اولئك الخصيان الفتيان الذين تستخدمهم بعض النساء المحجور عليهنّ لتسكين ثائرهنّ وشفاء غلتهنّ . واذ اننا قد بسطنا اوجه التمييز بين كلمتي العنّة والعقم فعاد في الامكان ان نستخدم هاتين الكلمتين بدون تمييزٍ ولا تفريق لتأتي بهما على

بيان القران العقيم والفاقد الثمر

تقسم العنّة والعقم الى ثلاث مراتب (١)

الاولى — تحدث العنّة المطبقة والمستديمة العديمة الشفآء كلما وجد نقصٌ في اعضآء التناسل الداخلية او الخارجية . اما لوجود يبوسةٍ تصلّبية او انطباقٍ فيها لا يقبلان الاصلاح ولا تنجع فيهما المداواة . ومتى كان احد الزوجين من اشخاص هذه المرتبة فلا بدَّ من ان يكون الزواج عقيماً ولا ينتج نسلاً

الثانية — تختص بها العاهات الاتية التي يمكن في بعض الاحيان اصلاحها وجلب الشفآء لها — وذلك ان تكون في الرجل الخشفة مسدودة او توجد فتحةٌ في اعلى او اسفل الصماخ البولي الخ .... وان يكون المهبل في المرأة مسدوداً او يكون انطباقهُ ضيقاً او اتساعهُ متناهياً . او يكون الرحم او البوقان او المبيضان مصابة ببعض الادوآء — او توجد سوائل بيضآء تفرزها الاعضآء بغزارةٍ وبدون انقطاعٍ التي بهما ترتخي الاعضآء الخ الخ . . . فيستطيع اذاً والحالة هذه الفن الطبي التشريحيّ ان يرى لهذه الادوآء المتنوعة علاجاً . فاذا لم ينجع فيها الدوآء فهي لا شك بانها غير قابلة الشفآء

---

(١) قال ابن سينا ان مني السكران والشيخ والصبي والكثير الجماع لا يولد . ومني موؤف الاعضاء قلما يولد سليما . قال واذا طال القضيب جداً طالت مسافة حركة المني فوافى الرحم وقد انكسرت حرارته الغريزية فلم يولد في اكثر الامر . ولقد افاض ابن سينا في تبيان الاسباب المسببة العقم واكثرها تنطبق تمام الانطباق على ما نوهت عنه علماء هذا العصر

الثالثة — تتعلق بها العنّة المسببة من العلل العصبية كالارتخاء التام المتأتي عن الانغماس في حمأة الفسق ومغارز الفجور بنوعٍ متناهي ، او الشهوة الحادة ذات المفعول القوي ، اوعدم الميل والتخيلات المستمرة زمناً طويلاً ، والملنخوليا ، وجميع الآلام المحزنة والشديدة . فاذا كان من اصيب بهذه الادواء هو في حالة الفتوّة وغضاضة العمر فيستطيع فن الطب والقوانين الصحية ان تصلح تركيبهُ . وتعيدهُ الى حالتهِ الاعتيادية . ولا يُفهم من ذلك ان تستعيض الاعضاء التناسلية نشاطها القديم وقواها السالفة بل يكفي لذلك ان تزول العنّة و يمتنع العقم (١)

يذكر البعض نظير ملامح تتعلق بعلم الفراسة وهم يستدلون بها على الرجل المصاب بالعنّة والذي ليس باستطاعتهِ اتيان الفعل الزوجي . وذلك ان يكون الشعر فيهِ اشقر اللون وصافيهُ وقليل المقدار ، والوجه اجرد ودسماً وفاقد اللون ، والزغب في اديم بشرتهِ صافي اللون ناعم الملمس ونادر الوجود ، وتكون رنّة صوتهِ حادة ، وعيناهُ كابيتي اللون وخامدتي اللمعان ، واثاياهُ صغيرتي الحجم وعلى التقريب ذابلتين ، وعقلهُ بليداً الخ . . . . . ويستدل على المرأة كأنها عقيمة وقليلة الصلاحية لايلاد البنين وهي العيّة عن التكلم ، الذابلة القد ، ذات الشعر الاشقر الفاقد اللون ، المترهلة الجسم ، القليلة الحركة ، العديمة المروءة ، والتي فيها النهدان قليلا البروز (اذ توجد علاقةٌ هامّة بين الرحم

(١) راجع الشرح الوافي بهذا الشان في كتابنا قانون الزواج الذي سبق ونوهنا عنه

وهذين العضوين) . وبمثل ذلك النسوة ذوات البظر الطويل ، واللآتي اديم بشرتهنَّ اسمر اللون مشعر وجاف اللمس . واحداقهنَّ حادّة النظرات ، يبرزنَ بمظهرٍ كأنهنَّ يفترسنَ الرجل بسهام لحاظهنَّ ويكلفنهُ للنزال الغرامي والمعترك العشقي . فمثل هؤلآء النسوة يكنَّ على الغالب عقيماتٍ وفاقدات النسل

على ان الغاية من الزواج هي ايلاد البنين وتأليف الاسرة فاذا حرم الشخص من هذه النعمة ولم يبلغ تلك الامنية ليشاهد نفسهُ مولوداً من جديد في ولادة ابنآئهِ كانت مصيبتهُ عظيمةً وخطبهُ جسيماً . لاسيما وقد كان الناس يحسبون فيما مضى ان حرمان الشخص من البنين هو نظير قصاصٍ نزل عليهِ من السمآء . اما اليوم فانهم عوضاً من ان ينزلوا العقم في منزلة قصاصٍ سماوي ، فقد اكتفوا باعتبارهِ كاحد انواع الادوآء التي تثقّل كاهل الجنس البشري وتنغص حياة الزوجين

على انهُ اذا استمر القران عقيماً وكانت تراكيب الاعضآء في كلا القرينين حسنة بادية للعيان ، فيعسر جداً على الاختصاصي المدقق ان يخصص ايًّا من الزوجين هو محروم الثمر مسبب العقم . ولقد حقق ارباب هذا الفن ان العقم يتفق وجودهُ بوجهٍ اعمّ في المرأة لداعي ان آلتها التناسلية هي اكثر اتساعاً من آلة الرجل . لذلك لابدَّ من ان تكون هي اكثر تعرضاً للاختلال واشد قبولاً للاعتلال . كانقطاع المواصلة بين مسالك اعضآئها الخارجية والمجاري الداخلية . وذلك من الرحم الى المبيض فهذه هي اسبابٌ بلا شك موجبة العقم . وتليها

اسبابٌ ثانوية نظير التركيب النحيف والعصبي، والغلمة الشديدة وانقطاع الطمث، وغزارة الحيض الفائقة . فضلاً عن وجود جملة ادواءٍ أخرى تستند مسبباتها ما قلّ او كثر على الاعضاء التناسلية التي تنتج بذرة داء الهيستريا وتساعد على نموها . وهو الداء المتنوع الاشكال المتضارب الصفات يأخذ مبدأهُ متدرجاً من الارياح السيداوية الاكثر خفةً حتى التشنج العصبي والرجفة واصطكاك الاسنان . فاذا لم يكن العقم ناتجاً عن حاجزٍ آلي فلا يجب ان ييأس المبتلى بهِ ويستسلم الى الحزن والقنوط . بحيث ان الطبيعة تجهز في بعض الاحيان الدواء بعد مايكون قد يئس العليل وخابت حيل الاطباء

ويورد لنا التاريخ ذكر جملة حوادث من هذا القبيل وهو انهُ بعد ان استمرت بعض النساء عقيماتٍ مدة سنين طويلة قد تلقّحنَ بحادثٍ فجائي واصبحنَ بعد ذلك والداتٍ جملة مرار . وكثيرٌ من الباحثين لم يستطيعوا ان يكشفوا سبب هذا الانقلاب الفجائي . لكن البعض منهم قد لاحظوا حالةً واحدة وهي انهُ اذا كانت بعض العلل تؤدي الى ضعف الباه وتكون سبب العنّة ، فيوجد خلافها بعكسها تزيل الحاجز وتكون مجلبة التلقيح . وذلك باحداثها صدمةٍ قوية في الاعضاء التناسلية تصلح معتلها وتغير حالتها تغيراً محسوساً . وقد اخترنا من الف شاهدٍ من هذا القبيل ما اوردهُ ذاكياس الشهير وهو كالآتي

تزوج احد الرسّامين من مدة خمس عشرة سنة ولم يفارق زوجتهُ ابداً وكان كلا الاثنان قائمين بايفاء الزوجية حقها احسن قيام . لكنهما

لم يرزقا مولوداً تقرّ بهِ اعينهما و يكون واسطة عقد زواجهما وا كليل حبهما المتبادل . ولقد كانت رغبة الزوج في البنين شديدة حتى انهُ قد استشار الف والف مشعبذٍ للحصول على ولدٍ بدون ان يعلم زوجتهُ . وكانت هذه بالمثل مدفوعةً بالرغبة عينها قد سلكت ذات الطريقة في خفيةٍ عن زوجها ، لكنهُ قد ذهبت اتعاب الاثنين ضياعاً ولم تتكلل مساعيهما با كليل النجاح . ولقد أُبتليت الزوجة في احد الايام بداءٍ عضال وهو حدوث التهابٍ شديد في اسفل معدتها اذاقها من الآلام الواناً وجعل حياتها على شفا الخطر وابواب المنية . ثمَّ قُدر لها ان تنجو من هذا الداء الوبيل وقد تعافت بعد ست اسابيع وعادت الى سابق عهدها . ولم تمضِ تسعة اشهرٍ على ذلك حتى رزقت مولوداً جميلاً وهي اذ ذاك في سن السابعة والثلاثين . ثمَّ رزقت فيما بعد ثلاثة بنين من قرينها هذا وعاش جميع الاولاد ليكونوا تعزية والديهم وقرّة اعينهم

وقد اورد هذا المؤلف ملحوظاً آخر عن رجلٍ ترمّل من ثلاث زوجاتٍ بدون ان يرزق منهنَّ مولوداً . ثمَّ تزوج برابعة وعلى اثر نزيف دمٍ حصل معهُ لابدَّ من انهُ قد اندفعت بهِ القوى المنوية قد رزق جملة مواليد من زوجتهِ هذه الاخيرة

فهذان المثلان يوصلاننا بالطبع الى هذه النتيجة ، وهو ان رجالاً اختصاصيين يتابعون باعتناءٍ دقيق و بتيقظٍ فائق الادواء التي تصيب في بعض الاحيان الاشخاص المسموع عنهم انهم عقيمون . وان من هؤلاء الاشخاص من كان يرجع الى صحتهِ وتعود اليهِ الخاصية التي

بها يلقّح او يتلقّح . فلما ادركوا هذه الحالة امكنهم ان يفاجئوا اسرار الطبيعة . و يقفوا على احوال تقلباتها وتغيّر مفعولاتها . الامر الذي قد صار من الممكن انهُ اذا عالجوا هؤلآء الاشخاص معالجةً تطابق واقعة الحال امكنهم ان يحدثوا في اعضآئهم الصمآء انقلاباً من النوع الذي اتينا على ذكرهِ . ذلك لان الازواج الذين يرغبون من صميم فؤادهم ومن اقصى امانيهم ان يرزقوا مولوداً ليكون موضوع غبطتهم وخلفاً لهم من بعدهم . فيحتسب هؤلآء الاشخاص خاصية التلقّح نعمةً لا تُقدّر قيمتها . فاذا نالوها بعد الانتظار تكن هذه مبدأ سعادتهم وداعي هنآئهم

يوجد عقمٌ سببهُ الاشمئزاز والنفور بين الاعضآء التناسلية من كلا الزوجين وذلك ان العضو الواحد يرفض قبول العضو الآخر ، وربما استمرت حالة هذا النفور بين الزوجين سنين عديدة . الاَّ انهُ متى زال هذا الاشمئزاز انتهى العقم واصبح الزواج مثمراً . فعلى القرينين ان يسعيا جهدهما لمقاتلة هذا النفور وقطع اسباب هذا الاشمئزاز

الفصل الخامس والعشرون

﴿ في الانافروديزي او فقدان الشهوة التناسلية ﴾

تُطلق لفظة انافروديزي على حالة الجمود وعدم الحركة التي تتصف بها بعض الاعضآء التناسلية مع عدم الميل الى كل ما يتعلق بالفعل الجنسي . وتتميز هذه العلة عن داآء العنّة وضعف الباه وهو ان في العنّة لا تمتنع الشهوة التناسلية . مع انهُ تعدم في الانافروديزي هذه الشهوة بالكلية ولم يعد لها تأثيرٌ اصلاً . فهي اذاً سبب من أسباب العنّة لان الشخص المبتلى بها يكون فاقداً بالمرة الشهوة الجنسية ومحروماً من الاميال التناسلية[1] ويعدّ الاشخاص المصابون بهذه العلة من النوادر جداً ويُشاهد غالبهم في جنس الاناث اكثر من الذكور . وتوجد امثلةٌ على نسآء هكذا باردات الطبع جامدات الجسم اللآتي يتقدمنَ الى الفعل الجنسي بحالةٍ من الجمود تشبه حالة الجثة الهامدة . ومع ذلك لا يمتنع في بعض احوالٍ كهذه حدوث التلقيح في هؤلآء النسآء . بل انهُ يتم فيهنَّ على احسن كيفيةٍ واصلح منوال . ويذكرون من هذا

(١) الحصور من الرجال الذي لا يقرب النساء ؟

القبيل أيضاً بعضاً من العلماء والنساك الذين قد اماتوا فيهم كل انواع الشهوات واوصلوا اعضاءهم التناسلية الى حالة الجمود التام ، وذلك من جرّاء استمرارهم مدةً طويلة على مطالعةٍ دائمة وتفكرٍ مستمر

يمتنع وجود الشهوة التناسلية في اصحاب الامزجة اللمفاوية المفرطة وفي الاشخاص ذوي التراكيب الشاذّة الخلقة اولئك الممتلئة انسجتهم بالسوائل وهم اصحاب الالياف الرخوة المنحطة القوى والمتخدرة ، فمثل هؤلاء لا تفعل فيهم المؤثرات الاكثر مفعولاً . فهم يولدون ويعيشون على وجه البسيطة كأنهم اجسامٌ جامدة وتماثيل فاقدة الحركة لاتؤثر في شخصهم الكمد اشعة الحب ولا تحركهم مفاعيل الصبابة . بينما يُشاهد جميع الناس يتغنون طرباً باناشيد الغرام في زمن ربيع الشباب وتهزّهم اللذة التناسلية الى احراز النسل . وهي اللذة التي لايمكن قهرها والتغلب عليها . فجمود النفس وعدم تأثر الحواس في تلك الاثناء هو لا محالة داءٌ كامن في الشخص قد يمكن مقاومتهُ والاستظهار عليهِ وذلك بواسطة تدابير الجذب التي سنوضحها فيما بعد

اما اذا فقدت الشهوة التناسلية من بعض الاشخاص الذين هم في ريعان الشباب وغضاضة العمر من جرّاء افراطٍ مادي او عقلي ، او عقبى امراضٍ طويلة الزمن منهكة القوى . فيستعمل لها اذ ذاك الوسائل ذاتها المبين عنها في معالجة العنّة المسببة عن افراط كلا الجنسين باللذة التناسلية . الاَّ انهُ متى كان الشخص مائلاً نحو الشيخوخة وان يكن قبل اوانها لداعي كثرة تطرفهِ وشدة افراطهِ من تناول المنبهات وتعاطي

المعجونات فمثل هؤلاء لا يفعل فيهم العلاج ولا تفيدهم المداواة (١)

تُعد الشراهة والتطرف بالملاذ التناسلية سبب وجود العدد الاكبر من المخلوقات الضعيفي الباه الفاقدي النسل. وذلك ان الفتيان الاغرار والقليلي المدارك والاختبار يرمون بانفسهم بشغفٍ لا مزيد عليهِ في وسط الدعارة ومهاوي الشهوات النسائية ، ويروون بالاتكال على بنيتهم وما يتمتعون بهِ من الصحة والقوة ان يستنشقوا جميع الطيوب ويوردون كل الموارد . لكنهُ متى انقضت ايام دور الفتوّة فتراهم ينهضون من سقطتهم ذابلي الجسم منهوكي القوى وجلين مما اتوهُ من الفسق وما افضت اليهِ حالة صحتهم من الفساد . فينعكفون وقتئذٍ على فن الطب مستنجدينهُ لمساعدتهم والاخذ بناصرهم . وهم يستفتون اربابهُ عن السر الذي بهِ تستيقظ اعضاؤهم الراقدة في سبات الكلال ومضجع الوهن. لكنهم على الغالب يقصدونهُ مبطئين بعد فوات الزمن اللازم اذ ان شهواتهم الجنسية لا تزال في حالة ثورانها . اما اعضاؤهم التناسلية فقد اصبحت غير كفء لايفائها مرغوبها وتسكين ثائرها

قد يستمر زواج الرجال والنساء المنهوكي القوى وكذلك نظيرهم الشيوخ والمتقدمات في السن عقيماً . واذا انتج يكون ثمرهُ مواليد مهزولي البنية ضعيفي التركيب . فاذا بلغ هؤلاء سن البلوغ واتى دور قرانهم فهم لا يخلفون سوى مخلوقاتٍ معلولة وتراكيب مغشوشة . وعلى هذه الكيفية ينحط النسل وتتسفل الذرية ، وذلك ما يُشاهد في العواصم

(١) راجع كتابنا قانون الزواج بما يختص بالعنة

وامهات البلدان المعروفة بساحات المدنية وميادين الحضارة المنطوية على كثيرٍ من الادواء وضروبٍ من العلل والآفات

تُعدّ الوسائل المعدة لمقاومة ضعف الباه كثيرةً نظير الاسباب المسببة لهُ . وهي مفصلةٌ في موءلفنا قانون الزواج لكننا نذكر هنا باختصارٍ اهمّ الوسائل التي يشير اليها علم الطب تلك التي قررتها الحكمة ودلت عليها التجارب وهي : قطع الاسباب التي كانت مجلبة الداء ، والحذر من الافراط ، والاقلاع عن التخيلات المفزعة ، وانعاش القوى المنهوكة ، واعادة مجموع الجسم الى نشاطهِ الاول اذا كان ذلك في الامكان

الاَّ انهُ متى كان الشخص المصاب غير متجاوز حدود العمر ومتى كان ضعف الباه متأتياً لهُ عن داءٍ عصبي ، او حدّةٍ قوية في الشهوة التناسلية ، او من جرّاء شعورٍ شديد في الاحترام الحبي ، او عن خجلٍ او جبانةٍ متناهية . فيجب في الاول تعديل هذه الحالة العقلية والاستعاضة عنها بالنشاط العقلي ، وذلك بواسطة الملاهي والتمرّنات الطبيعية . اذ يرجع امر معالجة هوءلاء الاشخاص الى فن التطبيب العقلي والرياضة البدنية وعلم قانون الصحة

يسبب هذا النوع من العنّة اضراراً لا يستقلّ عددها ولا يستهان بها . لا سيما وان الاعضاء التناسلية هي ذات ارادةٍ خصوصية وتعنّتٍ لا نظير لهُ . فهي تكون على اهبة الاستعداد في الوقت الذي يكون صاحبها مستغنياً عنها . ومتى حضرت الفرصة السانحة لاستخدامها فهي

ترفض تلبية الطلب ومطاوعة داعي الحال . وهذا ما صادف الشاعر كانولّ في اليوم الذي ضربت لهُ معشوقتهُ ليزبي اول ميعادٍ للوصال

فجمودٌ على هذه الكيفية في العضو التناسلي في الرجال الذين لا يزالون فتيي العمر اقوياء البنية قد وجد نظيرهُ في كل زمان ومكان. حتى كانوا قديماً ينسبون سببهُ الى السحر والى مجهّزاتٍ قد أُعطيت خفيةً لمن قد أُبتلي بهذا الداء . او الى فئةٍ من السحارين كانوا يدعونهم عقادي البنود وكانوا يهابونهم ويخشون بأسهم . بحيث انهُ لم يكن يكتفي هؤلاء بعقد البنود للطبقة السفلى والمتوسطة من الناس بل انهم كانوا يتعرضون للامراء والنبلاء ويعقدون سحرهم للملوك ايضاً . فقد اورد هيرودتس المؤرخ ان اماسيس ملك مصر قد ارتبك جداً لدى اقترابهِ من المملكة لواديسيا التي كان مولعاً بها اشدّ الولع . وقد ذكر المؤرخ سوزمين ان هوتوريوس بن تودوسيوس الكبير قد صادفهُ ذات الارتباك بازاء قرينتهِ في اول ليلة قرانهِ . وقد عقد البارع برنهوت عقد البند مراراً كثيرة الى ابنهِ اذ جعلهُ غير قادرٍ على ان يعانق هرمنبرغ التي كان يحبها حب العبادة . وقد مثلت ماري دي باديلا ذات الدور مع بطرس دي كاستيل (١)

---

(١) يقال عنّ فلان عن امرأته اي منع عنها بالسحر

كانت بعض النساء في الجاهلية يتعاطين الرقي والنفث في العقد من فنون السحر وهو ان يعقدن عقداً في خيوط او في وتر وينفثن عليها اي ينفخن مع ريق. وقد استعاذ منهن القرآن فقال اعوذ برب الفلق من شر النفاثات في العقد

يقدم لنا تاريخ الازمنة الغابرة جملة شواهد من هذا القبيل واكثرها محتملة الشك وقابلة الارتياب فعاد ايرادها هنا ضرباً من التطويل لا يزيد برهاناً ولا يجدي نفعاً

اما اذا كانت العنّة قد تسببت عن ضعفٍ وانحطاطٍ عامّ في الجسم او من جرّاء الافراط بالفسق والتمادي في الدعارة او عن ادواءٍ أخرى وبيلة، فيصبح من الضرورة مبدائياً اصلاح وتقوية جميع النظام الجسمي وعدم اقلاق العضو التناسلي في اثناء سباتهِ الى ان يصحو من غفلتهِ من تلقاء ذاتهِ. ثمَّ انهُ يُعتمد في اصلاح النظام الجسمي على المقويات الجيدة والاطعمة المغذية والزكية الرائحة واخصها ما كانت مجهّزة من الجنس الحيواني. مثال اللحوم المشوية شيًّا قليلاً والمرقات الخ. . . ويفاخرون ايضاً بالشوكولاتا ويعدونها من المقويات اذا خفقت بمقدارٍ وافر من مح البيض، وكذلك بالخبز البارد القريب زمن خبزهِ، واخصهُ ما كان ذا رائحةٍ زكية، وبالاستحمام والدلك والفرك والتنزه في الخلاء. وبالتالي جميع التمرينات التي تنشط المجموع العصبي وتساعد على الافراز وتقوي شهوة الطعام. لكنهُ اذا اجتمع في الاشخاص الافراط في زمن الشبوبية مع فوات سنيّ العمر فيصبح عسراً جداً اذا لم نقل مستحيلاً ان يعاد الى الاعضاء التناسلية الحيوية الضرورية لارواء شغفها وقضاء اللذة الجنسية بها. فحينئذٍ يقرع اولئك الاشخاص المعنّين باب العلم ويستميحون من فن الطب ان يوقفهم على السر الذي بهِ يجددون قواهم ويعيدون شبابهم الطبيعي. فيجيبهم العلم بانهُ ليس في امكانهِ ان

يعمل عملاً يقاوم بهِ ناموس العمر وحكم الزمن . ولما كان جلّ مراد اولئك الفاسقين هو ان يتمتعوا باللذة الحيوانية مهما اقتضت الحال وكلفهم الامر . فلم يعد لهم مرجعٌ آخر سوى ان يلجأوا الى فن التدجيل الذي يقدم لهم منبهاتٍ وعقاقير يتعاطونها ويرغبون فيها . فلا يلبثون بعد هذا قليلاً حتى يعدموا المقدرة على اتيان الفعل الجنسي . فحينئذٍ ينزعون الى مركباتٍ شديدة ومعجوناتٍ محرقة تدفعهم نحو فوهة القبر بدون ان تسكن هياجهم وتبرد اضطرامهم

الفصل السادس والعشرون

﴿ في المنبهات والمقويات العصبية ﴾

تطلق هذه الاسمآء على كل سائلٍ او مجهزٍ طبي او مادةٍ غذآئية صالحة لتقوية الباه وايقاظ الشهوة التناسلية . وذلك اما باحداث تهييجٍ في الاعضآء التناسلية مباشرةً او بتقوية المجموع العصبي جملة

ويوجد بين المواد الغذآئية ماتنسب اليهِ خاصية ايقاظ الشهوة الجنسية واحداث التهيّج في العضو التناسلي . ومن هذه المواد الكمأة ذات الرائحة الزكية ، والموريل ، والارونج وهما من فصيلة الفطر . ويتبع ذلك الخرشوف ، والكرفس ، والكرنب وهو من نوع القرنبيط . والخردل ، والقرفة ، والقرنفل ، وجميع المواد العطرية بوجهٍ عامّ . واللحم الاسود وبعض طير الصيد ، والاسماك واخصها الرّعاد ، وسمك اللما ، والسكال . فهذه جميعها من المنبهات الجيدة والمقويات العصبية . حتى ان شعوب الايكتيوفاج يُعدون من القوم المفرطين بمباشرة النسآء ونسآؤهم من الامهات الكثيرات النسل (١)

(١) قال ابن سينا في معالجة ضعف الباه . وبعد ما ذكر ضروبا من الوصفات قال : واعلم ان الاعتماد اكثره على الاغذية ومنها يتوقع غزارة المادة وانتعاش القوة

ومن ذلك ايضاً السرطانات البحرية ، والسرطانات العادية ، والبيتونكل ، والمحارات عموماً التي عرفت جميعها نظير مهيجاتٍ لاعضاء التناسل والتي لها مقطوعية وافرة اخصها في ولائم ايام المرافع

وان بين المواد العلاجية اصول الساتيريون ، والبورق ، والعنبر السنجابي ، والجنسنج ، والشرفي ، والفانيل واخصها المسك . وقد اثبتوا جميع هذه المواد من المنبهات واعتمدوا عليها في ذلك .... وقد زعم وكيلارد بانهُ قد نبه بواسطة حبوبٍ ممسّكة اعضاء شخصٍ ذابلة لهُ من العمر ثمانون حولاً ؟

ثمَّ ان الدلك بالطيوب فوق أعلى الفخذين وعلى عظمي الحوض وفوق الصلبين ، والاستحمام الموضعي ، ووضع قليل من لزقات الخردل فوق الاعضاء التناسلية ، وغسلها بالماء البارد . فهذه جميعها وسائل تُعد من المنبهات ويمكن للشخص ان يستعملها بدون ان ينتج عنها اقل ضرر

كان الجَلد معتبراً في كل زمنٍ نظير علاجٍ اضافي للتقوية في معالجة كثيرٍ من الادواء العصبية . وعلى هذا الاستناد كان يرغب طيطس تلميذ اسكلبياد ان يجلدوا بالسوط عنيفاً الاشخاص المعتوهين ليردّوا لهم عقلهم ويعيدوهم الى رشدهم . لقد اقرَّ كوكلان اوريليانوس وسينكا وراسيز وكامبانيلاّ وكثيرون خلافهم على ان الجلد بالسياط هو علاجٌ مقاوم لانسداد المعي وحمّى الربع والهيستريا الخ .... ويؤكدون بان استعمال ذلك باعتدالٍ للاشخاص الضعفاء البنية يمكن ان يكسبهم السمن ويمن عليهم بالرباله . وكذلك قد اتفقت جميع الاراء على ان

استعمال الجلد هو نظير منبه للاعضاء التناسلية

اما الاوايل المستعملة في الجلد فهي اليد ، والقضبان المغطسة احياناً في الخل او في خلاف سائلٍ مهيج ، والسوط وهو اما ان يكون من اديمٍ او حبلٍ ، وكذلك القرّاصات

كانت الكهربآئية مستعملةً نظير منبهٍ للاشخاص المصابين بضعف الباه او الفاقدي القوى التناسلية . وقد نجح بعض الناس بهذا النوع من المعالجة بعض النجاح — ففي سنة ١٧٨٠ اعد طبيبٌ في مدينة لوندرا مكاناً اقام فيهِ مضاجع كهربآئية لها صدماتٌ تدريجية من المجهز الكهربآئي . وقد ذكروا ان الطبيب المذكور قد لاقى في ذلك نجاحاً واستطاع ان ينعش الاعضاء الذابلة وينبهها من غفلتها ، ويعيد القوة التناسلية الى الاشخاص الذين كانوا يحسبون انفسهم انهم قد فقدوا هذه القوة مدى العمر

ويوجد ايضاً نوعان آخران من المنبهات وهما كثيرا الخطر وعواقبهما وخيمة حتى يُعدّ استعمالهما والالتجاء اليهما ضرباً من الحمق وطفرةً من الجنون . واننا لم نقصد من ايراد ذكرهما الاّ لنبين للملأ مقدار مفاعيلهما السيئة وعواقبهما الوبيلة ليتجنبهما الناس نظير تجنبهم المواد القتالة والسموم المهلكة . ونخص من ذلك الفسفور والزرنوح (الذباب الهندي) اذ ان جميع الاشخاص الذين لم يعقلوا في تعاطيهم هذه السموم قد فاجأتهم المنون بعد ان تكبدوا من جرّائها آلاماً مبرّحة واوجاعاً مذيبة لا تقبل التكييف ولا يحدها الوصف

انتسبت وفاة الشاعر لوكراس الى جرعة زرنوح اعطتــهُ اياها معشوقتهُ لوسيليا . وقد ذكر امبراويز بارّي ان احدى الوصيفـات قدمت الى معشوقها لوناً من الطعام ورشت فوقهُ زرنوحاً وهي تقصد من ذلك ان يكثر حبهُ لها ويزداد تقرباً منهـا . فأسفر الامر عن حدوث سيلان دمٍ من اسفل حبيبها قضى نحبهُ على اثرهِ

اما في عصرنا الحاضر فلقد اطبق اللحد على كثيرين من الشبان الاذكياء والرجال البارعين الذين كان يرجى لهم مستقبلٌ زاهر ومقامٌ في الهيئة القومية رفيع . لكنهم قد لجـأوا في ضعف باهمهم الى هذه المقويات المهلكة والمنبهات الوبيلة التي تأكل الاعضاء وتقرض حبل الحياة فكانوا كالساعين الى حتفهم بظلفهم

القسم الاول

﴿ في المركّب العشقي ﴾

تطلق هذه التسمية على كل مجهز او شرابٍ يحتوي على الخاصية التي لا شبيه لها في اضرام نار العشق وتنبيه الاعضاء التناسلية . واجبار الشخص الذي يتعاطاهُ على ان يعشق شخصاً آخر

ولقد برع سيرسه ، وميدي ، وارميد ، في فن تجهيز المركب العشقي . وكذلك رعاة جزيرة صقلية . وقد اشتهرت سحرة الاعصر

المتوسطة بهذا الفن وعرفوا بهذه البراعة . اما اليوم فقد اصبحت باعة هذه المركبات اكثر ندوراً من ذي قبل لانهُ اذا كان الناس فيما مضى يصدقون بخواص هذه المركبات ويعتقدون بما لها من المفاعيل وهم في حالة الجهل والغباوة فيجب علينا ان نعير عصرنا هذا ايضاً لانهُ لم ينجُ من هذه الخرافات ولم يتطهر من هذه الادران . لان عدداً كبيراً من البشر ما زالوا يعتقدون بهذه المركبات وبما هو على شاكلتها كالسحر والعفاريت واشياعهما . وكثيرٌ من المخرقين يروجون هذه البضاعة المزجاة ويغررون الجهلة بهذه الخزعبلات التي كان من الواجب ان تقصيها مدنية العصر وتبددها اشعة العلم والعرفان

كان المركب العشقي بوجهٍ عامّ مجهّزاً من المنبهات ومن مواد حرّيفة وفي بعض الاوقات سامّة . واحياناً كان خليطاً نتناً من موادٍ مختلفة الاجناس والخواص، التي كان يخال لمتعاطيها كأنهُ يغترف من بحر الفتوة ويورد موارد العشق . ويستطيع المطالع ان يحكم على خواص هذه المركبات وما تحويهِ من المواد والمفاعيل لدى اطلاعهِ على المجهز الآتي

يؤتي بماء آسن قد وحلتهُ السلحفاة والقنفذ في زمن سفادها ، وبروث الحيوانات التي تفرط بالسفاد ، وبمنحوتٍ من قرونها . وكذلك بمرارة بعض الدبابات ، وعصب الكرابود ، وكلية الوعل وزبل الحمام الخ .. ومن ثم كانت هذه العناصر وامثالها المواد الرئيسية لهذه المركبات التي احرزت في مدةٍ طويلة من الزمن الشهرة الواسعة والانتشار السريع . وكذلك قد كان يضاف اليها اعتيادياً عصير اللفّاح ، والسفانيدا ،

واليوفرب ، والفلفار ، وخلاف حشائش كريهة الرائحة — وكذلك مسحوقات قد تجوزت من رأس افعى وذنب عقربة — ونباتات محرقة ومن الاسكاريوط ومن اليراعات او الدود المضيء والزرانيح وكل ما كانوا يعلمون انهُ اكثر حاديةً واوفر تهييجاً

ويستطيع المرء ان يتصور باسهل ما يمكن المفاعيل التي تحدثها هذه المركبات المحرقة والمواد الآكلة في جسم الانسان الذي يتعاطاها. رغبةً منهُ ان يتحصل بواسطتها على الفتوة والميل الجنسي . وهو الذي لا يلاقي بها سوى النزاع المخيف والآلام المبرّحة حتى يضجع على فراش القبر البارد وهناك يسكن منهُ ذاك الهياج المتقد وتنطفي في اعضائهِ تلك النيران المشتعلة . واننا نذكر من هؤلاء لوكلّس المبدخ الذائع الصيت الذي امضى آخرةً محزنة للغاية وكان سببها مركباً من هذه المركبات . ولوكراس الشاعر المتقدم الذكر فانهُ قضى نحبهُ عقبى شربهِ ذلك المزيج المحرق الذي اعطتهُ اياهُ لوسيلا معشوقتهُ. وقد نسبوا تعته كاليغولا الى المركبات التي كان يجهزها لهُ جيزوني . هـذا واننا اذا تصفحنا التاريخ المصري لوجدنا سلسلةً عظيمة من الاناس الاغرار والقوم المعتوهين على اختلاف الطبقات وتباين النزعات الذين كانوا يتجرعون السمّ الزعاف بملء ارادتهم وتمام ارتياحهم لدى تعاطيهم هذه المركبات القتالة والمنبهات المهلكة (١)

(١) قال ابن سينا ويجب ان لا يجامع الا على شبق صحيح لم يهيجه نظر او تأمل او حكة او حرقة بل انما هاجه كثرة المني وامتلاؤه . ومن قوله في الارجوزة المنسوبة اليه

واحفظ منيك ما استطعت فانه ماء الحياة يراق في الارحام

الفصل السابع والعشرون

﴿ في آفات الجماع والتهيّج الشبقي ﴾

تكون الشهوة التناسلية الغير المعتدلة في اثناء الجماع متأتيةً تارةً من الاعضاء التناسلية وطوراً من المخيخ (اي مؤخر المخ) . ثمَّ انهُ تتولد عن نشاط الاعضاء التناسلية ذات القوة الفائقة امراضٌ شنيعة التي يسمونها بدآء الغلمة (نيمفومانيي) و بدآء الشبق (ساتيريازي) الخ .... فحرارة الاعضاء التناسلية في زمن الفتوة هي التي تحدث التهيّج وتسبب الغلمة . بحيث يكون الفعل الجنسي وقتئذٍ فعلاً طبيعياً . اما في الشخص المتقدم في العمر متى اصبحت اعضاؤهُ التناسلية تعبةً و بالاحرى رثةً بالية ، فيكون اذ ذاك مصدر المنبه الشهواني من المخيخ ، حتى انهُ تصير الشهوة الجنسية اكثر شدةً كلما نقصت القوة الحيوية من الاعضاء التناسلية واصبحت غير كافية لها

وعلى هذه الحالة تُشاهد اولئك المخلوقات المبتلين بضعف الباه منصبين على جميع انواع الفحش والبغاء الاكثر تسفلاً والاوفر اشمئزازاً أملاً منهم ان ينبهوا اعضاءهم الفاترة القوى و يبعثوا فيها باعث القوة

والنشاط . حتى انك تشاهد ان غالب هؤلاء القوم قد اتسمت وجوههم بسمات الفجور ولاحت عليها امارات الرذيلة . ولاسيما وهم في الاكثر عقيمون واذا نسلوا لايخلفون سوى مخلوقاتٍ هزيلة وتراكيب ضئيلة. فضلاً عن كونهم مصاباً خطراً على الهيئة الاجتماعية والآداب القومية . اذ ان الفساد الجنسي يدفع صاحبهُ الى فساد القلب وتسفّل الاخلاق. وقد لاحظوا ذلك في كثيرٍ من الشواهد عن جملة اناسٍ تعسين قد وجدوا في الطبقتين العليا والسفلى، وهم اولئك الاسافل الذين عاثوا في الارض فساداً وارتكبوا انواع الفجور وضروب الموبقات ، وتلطخوا بكل انواع المآثم والقبائح ، وخضبوا ايديهم بدم القتل ، وقضوا باقي حياتهم في وسط غباوةٍ وحشية تقشعر منها الابدان ويتبرأ منها عالم الحيوان

ومما يُعد من هؤلاء الفساق امرآء اسيا وامرآء بابل ومن هم على شاكلة نيرون وطيباريوس وكاليغولا وهيليوغابال وبورجيا فهؤلاء لم يكونوا الاَّ هولاً وحشية في منظرٍ بشري . قضوا جملة حياتهم متلهفين لسفك الدماء ومتشوقين لقضاء انواع الدعارة وضروب الفحشاء . حتى انهم قد ارتكبوا في مدة حياتهم كل انواع الموبقات الاكثر قبحاً والاوفر تسفلاً . ويُخيّل للمطالع ان التاريخ لم يحفظ بين تضاعيفهِ اسماءهم الاَّ ليجعلهم موضوعاً لسخط البشر ووقفاً للعنة الخلف

لقد اصبح من المؤكد ان الشهوة الجنسية هي اكثر اضطراماً واطول مدةً في النساء مما في الرجال . ذلك لان آلتهم التناسلية تفوق

كثيراً باتساعها آلة الرجل فهنَّ مع هذه الحالة يمارسنَ في داخلهنَّ عملاً شاقًّا للغاية ويصبرنَ على كتم الآلم وقمع الشهوات . اما من جهةٍ أخرى فترى البعض منهنَّ يظهرنَ باشد مظاهر الشناعة ، ويبرزنَ باجلى حلل القبح والفجور . ذلك لان المرأة المفطورة على العفاف والحياء لا يليق بها ان تتمرغ في حمأة القبائح وتتيه في بيداء الفحشاء . فهي اذا شذّت عن سبل الحياء وتجاوزت حاجز الصون والعفة فلا يعود لها من رادعٍ ، فهي تسير في هياجٍ مفرط وتسقط في النقائص الاكثر خجلاً والاوفر تسفلاً وقبحاً

ولقد حفظ لنا التاريخ بالمثل ايضاً اسماء عددٍ من هؤلاء النسوة المنهتكات ليجعلهنَّ موضوعاً للسخط ومثالاً تصب عليهِ بنات جلدتهنَّ جامات اللعنة والاحتقار . ومن هؤلاء أليفانتي ، وفيليني ، وتايس ، وانهُ عقبى تهيّج هذه الاخيرة المفرط اصدرت امرها باحراق هيكل برسيبوليس البديع الصنع والذائع الشهرة — كلو باترا قد برعت بنقائصها اكثر مما برعت بجمالها — اغريبين كانت متخلقةً بالقساوة بمقدار تخلقها بالدعارة — كارتيلاّ لم تتذكر ابداً انها كانت عذراء — مسالين الغيورة اصبحت بسرسامها الشبقي مثلاً من الامثال — سامي تلك التي طبعت في ذهن ابنها هيوليوغابال اميالها الفسقية — وكذلك كاترين دي ميديسي — ولوكراس بورجيا — ومرغريتا دي بورغون وخلافهنَّ كثيرات اللواتي يطول بنا الشرح اذا رمنا تعداد اسمائهنَّ وتبيان دعارتهنَّ . وصفوة القول ان ما كانت تأتيهِ هؤلاء النسوة من الفعال

الفظيعة وما يتخلقنَ بهِ من الاخلاق السافلة لما يحمر لهُ وجه الانسانية وتندى منهُ جبهة المومس الاكثر تهتكاً وفجوراً . وكانت اعياد الزهرة وامثالها التي كانت تجري فيها تلك المشاهد الاكثر دناءةً وقبحاً والتي لم تأتِ بمثلها لا ساردا ولا بابل ولا ماس ولا سيباريا ، وهي البلدان المعروفة بمراحيض الفسق ومستنقعات الفجور . فهذه لا تضارع بفواحشها وقبائحها تلك التي كانت تجري في روما في زمن القياصرة ، يوم كان الفسق فيها طلق العنان فسيح المنهج حتى انهُ لم يُشاهد الى ذلك الحين نظيرهُ ولا سمع بمثلهِ من قبل . وانهُ فضلاً عن زعم بعض البيسيميست (المتفائلين سوءًا) فان الهيئة الاجتماعية الحاضرة قد تسامت نوعاً عن مثل هذه الفحشآء وارتقت اخلاق البشر ارتقآءً حسيًّا

اقرأ في التاريخ القديم تشاهد فيهِ ان صولون عند اليونانيين قد شاد اماكن للفسق ليدفع عن النسوة الشريفات صدمات الفساق وهجمات الزناة — وكانت المرأة في بابل تلتزم على الاقل ان تفسق مرةً واحدةً في حياتها — وكانت البنات الفتيات في تراس مطلقات الحرية ولهنَّ الارادة المطلقة ان يستسلمنَ لعشاقهنَّ — وكانت المرأة في روما تستطيع ان تتاجر بجمالها شرطاً ان تشعر بذلك الهيئة الحاكمة. حتى ان النسآء الوطنيات فيها لم يكنَّ يحسبنَ ذلك عاراً ان هنَّ احترفنَ تلك المهنة واحرزنَ هذا الامتياز

فيستنتج من الحوادث المتقدمة ان المدنية الحاضرة قد ترقت عن المدنية القديمة بالنظر الى الاخلاق والعادات . لكنهُ ليس من الغريب

ان تتلاحظ بين وقتٍ وآخر برهاتٌ من الزمن تتجلى فيها مظاهر الفسق ويتسع نطاق الفجور، فما ذلك الاَّ لان الاعصر نظير سنيّ العمر التي يتقلب المرء اثناءها بين حسنٍ ورديءٍ ونافعٍ وضارّ . فضلاً عن كون الامم العظيمة تتناوبها ادوار الصحة والاعتلال وتتعاقب عليها ازمنة الرفعة والانحطاط

القسم الاول

في داء الغلمة (النوفوماينا)

يُعرف هذا الداء الشديد ويستدل عليهِ من العلامات الآتية : رغبةٌ محرقة في الشهوة الجنسية — ترك الحياء بتةً — غلمةٌ شديدة ومكروهة — تهيّجٌ فرجيّ يصحب معه هذياناً مستمراً — ضغط تهيّج المهبل على الخصائص العقلية وجعلها مستعبدةً لها . ثمَّ انهُ قد مضى زمنٌ مديد واصحاب هذا الفن يعزون داء الغلمة الى تهيّجٍ والتهابٍ في المهبل والبظر . الاَّ ان فن الطب والتشريح قد اوضح اليوم ان هذا الداء الوبيل يتأتى عن النشاط التناسلي المتقد مصحوباً بهيجان المخيخ الناشئ عن العزوبة وتأثيراتها

وكذلك بالمثل وجود المزاج العصبي الدموي المسمى مزاجاً تناسلياً — والبلوغ السابق لاوانهِ — والنمو العظيم في المخيخ وكذلك في الاعضاء

التناسلية — والرغبة في الفعل الجنسي المضيّق عليها كثيراً وعلى مدةٍ طويلة من الزمن — والنظر الى الاشيآء المحركة للشهوة التناسلية — والمحادثات العشقية. وفي الاجمال قد اعتبروا ان جميع المهيجات التناسلية نظير اسبابٍ فعالة لدآء الغلمة. وقد اتفقت جميع الاطبآء وقرّ رأيهم على ان الزواج هو العلاج الافضل والاكثر مقاومةً لهذه العلة الشنيعة وذلك ما نشاهدهُ في الملحوظ الآتي

دُعي الدكتور آليبار صاحب مؤلف فيزيولوجية الآلام الباطنية ليبذل سعيهُ في معالجة ابنةٍ شابّة من اسرةٍ اريستوقراطية كانت قد أُبتليت بدآء الغلمة قبل مدةٍ من الزمن. ولما لبى الطبيب المذكور الدعوة طفق آل الابنة يشرحون لهُ مرض ابنتهم وحالتها المحزنة. بحيث انها كانت في اثنآء نوباتها المرضية تقلع عنها ستر الحيآء وتستسلم للدعارة والفجور وهي في منتهى التهيّج وابلغ حالات الاضطرام. الامر الذي دعاهم الى ان يحبسوها في طبقةٍ من المنزل لتنفرد فيها وتعتزل مرأى الذكور. وذلك لان نظرةً واحدة كانت تقع منها على احد الرجال لحريةٌ ان تثير فيها التهيّج التناسلي وتجعلها في حالةٍ من اسوأ الاحوال. حتى انهُ لما رقي الدكتور آليبار الى الطبقة التي كانت تقيم فيها هذه الابنة المنكودة الطالع فقد كان شاهداً عياناً على الحالة التعيسة التي شخصوها لهُ عن هذه الابنة. ذلك لانه لم يقع نظرها عليهِ حتى طفقت توجه نحوهُ الكلمات والاشارات الاكثر قبحاً واشمئزازاً، واستمرت على ذلك الى حين ما فارقها وتوارى عن ناظريها. فحينئذٍ خاطب الدكتور آليبار

اهلها بقولهِ لهم ان الداء المبتلاة بهِ ابنتكم قد احدث فيها اضراراً جسيمة وحالاتٍ خطرة لكن هذه لم تبلغ المقدار الكافي لجعلها الداء عقيماً لا يرجى معه شفاء

اما بالنظر اليَّ فقد تراءى لي انهُ يوجد لذلك علاجٌ واحد وهو الزواج . ويجب عليكم ان تسعوا اليهِ جهدكم وباقرب ما يمكن . لان الآلام التي تنتاب ابنتكم تسير فيها متأصلةً من يومٍ الى آخر ، حتى يعود من الصعب استئصالها منها . فهمّوا لذلك ولا تتوانوا اذا كنتم ترغبون في خير ابنتكم ونجاتها . ولما كانت العليلة تتصنط من خلف الباب وقر باذنها ما اشار اليهِ الطبيب فعزمت على نفسها عزماً ثابتاً وهو انهُ في اليوم ذاتهِ اركنت الى الفرار تاركةً منزلها الابوي بدون ان يشعر بها احد . ولما علم آلها بفرارها اخذوا بالسؤال عنها والتفتيش عليها جملة اسابيع ذهب في اثنائها تعبهم ادراجهُ ولم يعثروا منها على أثر

وبينما كان الدكتور آليبار مجتازاً عند منتصف الليل باحد مفارق الطرق في باريس وقع نظرهُ على الفتاة الاريستوقراطية فعرفها لساعتها فضلاً عن تنكرها وتبديل ازيائها . وهي كانت تتبختر على الرصيف محترفةً حرفة المومسات و بنات الصبابة . فاذ ذاك ابتدرها الطبيب بلهجةٍ قاسية بقولهِ لها ماذا تعملين هنا ياتعسة ؟ فاردفت عليهِ الابنة بقولها لهُ اني قد اتبعت امرك يا جناب الطبيب وقد نلت الشفاء

وبالحقيقة قد كان لها ذلك لانهُ بعد ان امضت مدة شهرٍ على تلك الحالة التي اروت في اثنائها ظمأ غلمتها واخمدت نيرانها عادت خجلةً

الى آلها وقد نالت الشفآء تقريباً . فما عتم هؤلآء حتى بادروا في الحال وعقدوا لها زواجاً شرعياً نالت بهِ البرء وتمام الشفآء

على اننا نذكر هاهنا ما اوضحهُ الفيزيولوجيون وعلمآء قوانين الصحة والاطبآء من ان العزوبة هي سببٌ من اسباب داء الغلمة الاكثر تواتراً . وهذه هي نوعٌ من انواع الجنون الشبقي الذي يوحي دائماً الى صاحبهِ الغمّ و يبعث بهِ على الحزن والاكتئاب

على انهُ في اليوم الذي تبلغ فيهِ الآلة التناسلية تمام نموها تأخذ الشهوة الجنسية بان تدفع الجنس الواحد نحو الآخر ، بدون ان يوجد حائلٌ يحول بين هذا التجاذب ويقف في وجه هذا الميل . لا سيما وان وضع حاجزٍ امام هذه الشريعة الطبيعية لهو مستحيلٌ لا بل مضرٌّ يتأتى عنهُ النفاق وتتسبب منهُ الجرائم ، ولقد ترك لنا الاقدمون مثالاً عن بنات الملك بريتوس واشباههِ

ان تهيّج الاعضآء التناسلية في النسآء ذوات المزاج الشبقي اللواتي قد أُجبرنَ على العزوبة بمقتضى الاحكام الرهبانية لهو مذيبٌ وفي منتهى الشدة . وذلك انهُ في الوقت الذي تدعوهنَّ فيهِ اعضآؤهنَّ التناسلية الى اتمام الشهوات الجنسية يشمل التهيّج جميع اعضآء الجسم ويتحكم فيها ويجعلها في حالة القلق والاضطراب . واذا بلغ اشتداد هذا التهيّج مبلغهُ وعلا اوجهُ ولم ينل مرامهُ ، فاذ ذاك يظهر تهيّج اعضآئهن التناسلية بحالة شنيعة وصورةٍ مستنكرة ، حتى تصبح المرأة حينئذٍ كأنها غارقةٌ في بحر السرسام وتائهةٌ في ميدان الهذيان . وتكون

جميع افعالها وقتئذٍ صادرةً عن الآلام التي تعذبها وتمزق احشاءها . وقد شوهدت نساءٌ كنَّ مبتليات بداء الغلمة فكنَّ يسقطنَ على الارض في اثناء اشتداد الداء ويتلوينَ بداء الصرع

قد اقتطف كثيرٌ من الاطباء ملحوظاتٍ عن العلل المتأتية عن العزوبة وعيش الاديار الرهباني ، فجاء عددها هائلاً لا يستخف بهِ ولا يستهان بامرهِ . وقد نشر هوفمان تاريخ راهبةٍ استمرت زمناً طويلاً معرّضةً لادوار داء الغلمة التي كانت تنتابها . ولقد ذكر تيسو شاهداً نظير المتقدم عن ابنةٍ شابّة قد سطت على افكارها الشرائع الرهبانية فكانت مضطرةً الى ان تقاوم بمجموع قواها انقياد مزاجها الشبقي . وهي لم تلبث قليلاً حتى ذهبت ضحية شهواتها الجنسية وغلمتها المتقدة . ولو انها لبّت نداء الطبيعة واصغت سمعها الى الافكار الاكثر مطابقةً لها وللمعقول ايضاً ، لرأيتها مالت الى القران وارتبطت بميثاق الزواج

على انهُ فضلاً عن التعديلات التي تمَّ اجراؤها في قوانين الرهبنات والتغيرات التي طرأت على الاخلاق والعقول لم يزل اطباء اليوم يبينون النتائج الخطرة التي تنتج عن المعيشة النسكية وحالة البطالة . سيما وان الطريقة الرهبانية التي يسعون الى نزعها من مخيلة النساء لا يمكن التوصل اليها في عصرنا الحاضر . فضلاً عن ان حالة الزواج قد اعتبرها اغلب الناس اليوم كأنها اكثر نفعاً للعمران مادياً وادبياً من حالة العزوبة ذات الانانية والعقم

القسم الثاني

في داء الشبق (الساتيريازي)

تطلق لفظة الشبق المستمر على الدعارة المكروهة المصاب بها بعض الرجال وتأتي لفظة الساتيريازي من الساتير اي الوعل المنصوص عنهُ في اساطير الاقدمين كونهُ دائماً على اهبة الاستعداد للسفاد وشفاء نيران شبقهِ

اما الشبق في جنس الذكور ونظيرهُ الغلمة عند الاناث فهو من الادواء المخيفة والعلل القبيحة لكنهُ لحسن الطالع نادرٌ جداً وقليل الحدوث وتدل عليه الادلة الآتية

انتصابٌ دائم في الاعضاء التناسلية — هيجانٌ مستمر تقريباً — سباتٌ مضطرب من جراء الاحلام الشهوانية ومتقطعٌ بالاحتلامات المنوية — اعضاءٌ شهواتها التناسلية متواصلة الحلقات لا تكاد تأتي فعل الانزال حتى تستيقظ وهي اكثر اشتهاءً واشد اضطراماً . ولاسيما وان في استطاعتها ان تأتي الفعل الجنسي في كل وقتٍ وفرصة . ثمَّ ان تكون العينان ملتهبتين تقدحان شرراً ، والوجه محتدًّا ومستشيطاً ، والفم مزبداً ، والملامح مرتجفةً ، وهو ذو مخيلةٍ محاطة ليل نهار

بالهواجس الخلاعية والتخيلات الفسقية وهو يفتش دائماً على ارواء شبقهِ الصادي وتسكين شهواتهِ التي لا تعرف الملل . ويظهر الرجل الشبق امام النساء بحركاتٍ دنسة ويتلفظ على مسمعٍ منهنَّ باقوال الفحش والخناء . حتى انهنَّ يلتزمنَ تجنبهُ والابتعاد عنهُ اذا وجدنَ معهُ على انفراد . ذلك لانهُ من الجائز ان ينقضَّ عليهنَّ ويغتصبهنَّ في وقت احتدادهِ واشتداد تهيّجهِ

اما مسببات الشبق المفرط فما هي الاَّ اسباب العامة بالذات . ألا وهي توتّرُ عصبي تناسلي في ابلغ حدتهِ واقصى اشتدادهِ

يذكرون بين حينٍ وآخر عن وجود تراكيب لا تهتم للفعل الجنسي وليس لهُ عندها قيمة (١) . فهذا من الجائز لكنهُ يعد من الشواذات النادرة ، ومبدأهُ الاصلي عدم وجود انتظام طبيعي في تركيب الاعضاء التناسلية . وذلك لان الطبيعة التي لم توجد شيئاً من الاشياء عبثاً و بلا فائدة فهي لم تعطِ الرجل والمرأة اعضاءً ليهملا امرها ولا يستعملاها . بل اننا نشاهدها تقاصص بادواءٍ وبيلة الاغبياء الذين يتعدون شرائعها ويحاولون ان يخلّوا بنواميسها ونظاماتها . ولهذا نرى بوجهٍ عامّ ان الذين قد أُبتلوا بداء الشبق المفرط هم الاشخاص الذين قُضي عليهم بالعزوبة ومنعوا عن الزواج ، ولم يصب الاَّ نادراً جداً اولئك المتزوجين . فعليهِ

---

(١) كان ابو مسلم الخرساني يقول ان الجماع جنون ويكفي الانسان ان يجن في السنة مرة واحدة . قيل واحصي الذين قتلهم ابو مسلم في حروبه وغيرها فكانوا ستمائة الف !

متى كانت الشهوة التناسلية متسلطةً على احد الاشخاص واجتمعت فيهِ ايضاً الافكار المتقدة والعزوبة الاجبارية وأضيفت الى ذلك حالة مزاجهِ فيصبح فيهِ التهيّج الدماغي في قلقٍ لا مزيد عليهِ ويفضي بهِ الامر الى السرسام وفي بعض الاحيان الى التعته والجنون

ويذكرون من هذا القبيل عن جندي اوقعهُ مزاجهُ الشبقي في حالة الهياج وقد قضي عليهِ شنقاً في مدينة مونبيليه لجريمةٍ فاضحة كان قد اجترمها . وتفصيل الخبر انهُ بينما كان الجندي المذكور سائراً في الخلاء قد اعتراهُ هيجانٌ شبقي مفرط اذ وقع نظرهُ على فتاةٍ صادفها في طريقهِ . ولما كان مدفوعاً بدافع الشبق الشديد انقضَّ كالباشق فوقها ولم يكترث بالفلاحين الذين تألبوا عليهِ واخذوا يشبعونهُ ضرباً بالعصي والحجارة بلا شفقةٍ ولا رحمة . اما هو فبدون ان يلتفت الى صراخ الجمع المنهالين فوقهُ يرضرضون عظامهُ ويمزقون جسمهُ ويعملون على تخليص الابنة منهُ . كان منقضًّا فوقها وعيناهُ تقدحان ناراً وملامحهُ ترتجف متشنجةً وهو في حالة الجنون المخيف قد شفى غليلهُ وسكّن شبقهُ الثائر

ذكر الاستاذ بورده عن ثلاثة شبانٍ شبقين ظهر فيهم الافراط التناسلي وهم في سن الصغر ، بحيث دلَّ على ذلك نمو اعضائهم التناسلية نموًّا هائلاً وبلوغهم السابق لاوانهِ . وكان سن هؤلاء الثلاثة الشبقين من الحادية عشرة حتى الثالثة عشرة وهم مربوعو القامة ومختلو الشعور . وكان الشبق فيهم مستديماً ولم يكن لهم فكرٌ آخر سوى ان يسكّنوا

هياج شبقهم ويخمدوا ذاك الضرام المتأجج فيهم . ثمَّ ان واحداً منهم قضى نحبهُ على اثر استنزافهِ زرعهُ المنوي وذلك قبل ان يبلغ السنة السادسة عشرة من عمرهِ . وقد اصيب الاثنان الاخران بجنونٍ شبقي مخيف كان الداعي الى ان يكبّلا بالقيود ويوضعا في مصح المعتوهين

الفصل الثامن والعشرون

﴿ في العاهات الدماغية ﴾

قد تكلمنا حتى الآن عن الانحطاط الطبيعي ومسبباتهِ وما ينتج عنهُ ، لكنهُ يوجد انحطاطٌ آخر اكثر مخافةً من الاول وهو الانحطاط العقلي او الجنون . بحيث اننا اذا نظرنا الى جميع الآفات التي تصيب الانسان وتطرأ عليهِ رأينا هذه بلاجدل الآفة الاكثر هولاً مما سواها . ذلك لان الانسان لا يسمو على الحيوان الا بتفوقهِ العقلي وسعة مداركهِ فاذا فقد هذه الافضلية الثمينة التي يتميز نوعهُ بها ، يسقط اذ ذاك الى مساواة البهيمة ويصبح في بعض الاحيان اكثر تسفلاً منها وانحطاطاً عنها . وذلك لفقدانهِ العقل وعدم تمتعهِ نظيرها بالسليقة التي ترشدها وتسدد خطواتها . وهذه هي الحالة التعسة والمحزنة التي يوجد فيها الانسان المصاب باختلاط الذهن . اما اسباب اختلاط الذهن وعدم انتظام خصائص المدارك فمبدأها الاصلي وجود تغيير خاص في العضو الدماغي . كما ان هذا التغيير في طبيعة الاعصاب عامةً يصيب بنوعٍ خاص اقسام الدماغ التي تترأس المدارك وتدير حركة الافعال الصادرة عنها

يقسم الجنون الى اربع مراتب وهي البله والتعته والسرسام والمانيا(١)

اما البله فهو نقصٌ في الذهن او حرمانٌ من العقل يتفق حصولهُ دائماً مع وجود آفةٍ او نقصٍ في نموّ الدماغ . ويقسم الى ثلاثة انواع اولها سخافة العقل او الرعونة . ثانيها البلاهة وهي ان يكون التعقل والفهم مفقودين وتحديد الاشياء فطرياً صرفاً . ثالثها التعته وهو فقدان الادراك ثمَّ السليقة ايضاً . فالاشخاص المصابون بهذه الآفة الوبيلة هم معتوهون صرفاً ويعيدون عن كل انواع الحس والشعور . بحيث تكون حياتهم اشبه بحياة النبات فضلاً عن عدم تمتعهم بغريزة البقاء . وذلك لان الكثيرين منهم كانوا يموتون جوعاً اذا لم يوجد من يعتني بامرهم ويعطيهم ما يأكلون . ومثلهم في ذلك مثل الاولاد الصغار في اول ادوار الحياة

يوجد نوعٌ من التعته يأخذ مبدأهُ بضعف الخواص العقلية تدريجاً ويعقب ذلك تلاشي هذه الخصائص في زمن قريب . اما الغريزة الحيوانية فانها تستمر باقيةً فيهم ، ومن الجائز ان يعقب التعته السرسام . ويشيرون ايضاً الى صنفٍ آخر من نوعهِ يفقد المرء منهُ الادراك والغريزة معاً . ويعد هذا من نوع فقدان الارادة . لا سيما وان الاشخاص المصابين بهِ ليست لهم المقدرة على السمع والمشابهة والتمييز وما هم الاَّ اوائل صماء لا ريب بها

(١) L'idiotisme, la démence, la monomanie et la manie

ولقد ذكر الرئيس ابن سينا مراتب اختلال المدارك على هذا النسق وهي : اختلاط الذهن ، والهذيان ، والرعونة ، والحمق ، والمانيا ، والمالنخوليا ، والقطرب

اما السرسام فهو اختباطٌ جزئي يدور حول فكرةٍ معيّنة ، فاذا عاكست المسرسم وقعت معاكستك على امياله اكثر من وقوعها على مداركهِ — ثمَّ انهُ ربما استمر السرسام زمناً طويلاً بدون ان يطرأ عليهِ تغييرٌ محسوس . لكنهُ متى عمَّ جميع المدارك ولم يترك لها برهةً للادراك والتعقل ، فحينئذٍ ينتهي الامر بدخول المسرسم في دورٍ آخر . وسنشاهد فيما بعد ان المسرسمين يأتون حركاتهم واميالهم مدفوعين اليها من مؤثرٍ خاص مقتنعين بهِ كل الاقتناع . لاسيما وان لافعالهم باعثاً وغايةً يقصدون بهما بوجه عامّ امراً معيناً . ثمَّ انهُ تظهر في بعض المسرسمين الخصائص العقلية كأنها صحيحة لكنهم مع ذلك يكونون خاضعين الى قوةٍ لايمكنهم قهرها والتغلب عليها . حتى انهم يرتكبون افعالاً مرذولة يستكرهونها هم انفسهم . فسرسامٌ كهذا يكون في بعض الاحيان خطراً جداً وهو الذي كان السبب لقيام مشاكل كبيرة بين عالمي الطب والشرع لفي مكانٍ من الخطارة والاهمية

اما المانيا فهو الجنون في اسمى درجاتهِ ، وان الخاصة التي تتميز بها هذه العلة هي هذيان عامّ مع اضطرابٍ متناهي مائل الى الغضب واحياناً الى الهياج . وقد يصبح هذا الهذيان العقلي في بعض الاحيان متقطعاً ويترك مخرجاً ليخترقهُ وميض الادراك . الاَّ ان مدة هذا الوميض قصيرةٌ لايلبث المصاب حتى يعود فيسقط ثانيةً في الحالة التي كان قد خرج منها مدة بضع لحظات . ومتى كانت المانيا متأتيةً عن افراطٍ وقتي في الوظائف الدماغية ففن الطب او بالاحرى الطبيعة

تستطيع ان تزيلهُ وتبددهُ. وبالعكس متى اصبح هذا الافراط عادةً فهو يقلب نظام الوظائف الدماغية وتصبح المانيا غير قابلة المداواة. وما الانسان بازآء هذه الاحوال سوى آلة تدل حركاتهُ العديمة النظام على ان النابض (الزنبرك) الذي عليهِ يدور قسطاس عملهِ قد اصبح مكسوراً

يبدي صاحب المانيا في اثنآء اشتداد جنونهِ اضطراباً فائقاً وهياجاً هائلاً، فهو يصرخ ويصخب ويدير عينيهِ المفزعتين ويستسلم الى الافعال الشديدة اذا لم تؤخذ من قبل الاحتياطات اللازمة بشأنهِ. فهم يوثقونهُ بالاغلال الحديدية نظير وحش مفترس وهناك يصر باسنانهِ ويصرخ صراخاً مفزعاً ويجتهد في كسر اغلالهِ ويستنزف كل عزمهِ الى ان يسقط في مكانهِ خائر القوى منهوك العزيمة. ثمَّ تتجدد معهُ هذه النوبات في اوقاتٍ متفاوتة الى ان تفيض روحهُ وتسكن انفاسهُ في وسط اشتداد جنونهِ الاخير

اما المسرسمون فهم مخلوقات متقلبو الاهوآء اصحاب اخلاقٍ في منتهى الغرابة واقصى حالات الدهش، قد يعسر في بعض الاحيان على المرء ان يستمر مجدًّا ثابت الجأش لدى محادثتهم وتبادل العبارات معهم. وذلك لان حديثهم يدور بلا انقطاعٍ على الافكار التي تخالجهم وتجول في مخيلتهم. فاذا تابع الانسان افكارهم ألفاهم يعودون اليها تباعاً وبدون انقطاع. ومن ثمَّ فالمسرسم لا يستطيع التصبر اذ رآك لا توجه سمعك الى مايقولهُ. فاذا انت لم تستعمل الحكمة معهُ وعملت على مقاومتهِ فانهُ يغتاظ ويغضب وينتهي بهِ الامر الى الشتيمة والسباب

اذا استمريت على مقاومتهِ ورغبت في معاكستهِ . فما عليك اذاً الاَّ ان تجاريهِ حسب اميالهِ وتنطق بلسانهِ وانت اذ ذاك الصديق المخلص لهُ

يوجد في حالات السرسام كثيرٌ من المميزات التي يتميز بها المسرسمون لداعي اختلاف اخلاقهم وتباين اميالهم . وذلك كالسوداء والهستريا والوساوس والبحران الذي يشتدّ وقعهُ خصوصاً في بعض اشخاص الطبقة المثرية المتربعين فوق اسرّة الترف والمتفيئين ظلال البطالة . وكذلك بالمثل في ارباب التآليف الذين اضناهم العمل وأمضهم السهاد — ونظيرهم مدّعو الرؤيا والنساك والمعترون بالارواح والموسوسون . فهؤلاء يُشاهدون بين الاشخاص المنذهلين ذوي الدماغ الضعيف اولئك الذين يعمل فيهم التصور على اتلاف مداركهم بسرعةٍ قوية ، حتى تكون آخرتهم مشؤمة اذا كانوا لم يقلعوا عن الوساوس الملازمة لهم ، و يجتهدوا في ان يبعدوا عن مخيلتهم تلك الافكار السائرة على نمطٍ واحد ووتيرةٍ معلومة و يستعيضوا عنها بافكارٍ جديدة

ولما كانت الغاية من هذا المؤلف مزدوجة وهي افادة مطالعيهِ وتفكهتهم فلابدع اذا اوردنا هنا بعض ملحوظاتٍ مقتطفة من مؤلفاتٍ جليلة لرجالٍ بارعين درسوا خصيصاً هذه الانواع المرضية ومحصوها تمحيصاً

القسم الاول

﴿ في السرسام القتال ﴾

اورد الاستاذ مند خبر مرضعٍ كان قد ابتلاها مغصٌ عصبي وحركةٌ معدية خاصّة يصحبها ضجرٌ واغتمام . وذلك على أثر ما لاقتهُ من الكروب وما تحملتهُ من الاتعاب لملازمتها مهنة الارضاع زمناً طويلاً . وبينما كانت في احد الايام منفردةً في غرفةٍ مع ولديّ احدى السيدات اللذين كانت تقوم بارضاعهما ، فاوقع نظرها على سكينٍ متروكٍ على المنضدة حتى استحوز على مخيّلتها فجأةً فكرٌ فظيع وهو ان تقطع عنقيّ هذين الرضيعين وتتخلص منهما . ولقد شعرت اذ ذاك بحركة معدتها اكثر مما كانت تشعر بهِ من ذي قبل . سيما وقد حدثت في معدتها قرقعةٌ وعلت وجهها انفاسٌ حارّة وكان يخيّل لها انها تسمع صوتاً يأمرها بان تقتل الولدين . ولما رأت ذاتها مضطربةً من جرآء هذه الوساوس التي كانت تقيمها ثمّة تقعدها . خرجت من تلك الغرفة واسرعت الى المطبخ نحو الطباخة وطلبت منها بالحاحٍ ان تقيم مقامها بضع دقائق في القرب من الولدين . الاَّ ان هذه رفضت ملتمسها مدعيةً بانها في شغلٍ شاغل . فاذ ذاك عادت المرضع الى جانب الولدين واخذت تحاول نزع هذا الفكر من مخيّلتها تارةً بالغناء وطوراً بالتناعس . وما كادت تغفو حتى

استيقظت والفزع يهدّ عزائمها والاضطراب يقطع اوصالها من جرّاء هذا الفكر الردي الذي لم يعد في امكانها مقاومتهُ والتغلب عليهِ . الاَّ انهُ لحسن الطالع انفتح اذ ذاك باب الغرفة ودخلت ام الولدين وبمعيتها اخت المرضع . فما وقع نظرها عليهما حتى هدأ روعها قليلاً لكنها تنهدت تنهداً عميقاً وصاحت بأعلى صوتها اشكرك يا الهي اشكرك . ثمَّ غطت وجهها بيديها وانخرطت في البكاء . فلما رأت ربّة المنزل واخت المرضع ذلك منها ظنتا بأنهُ قد اصابها مسٌّ من الجنون(١)

فما الرأي بهذا السرسام المخيف الذي يستحوز على الانسان الذي لم يزل الى حين ما اصيب بهِ هادىء الطبع عديم الاذى ، فيدفعهُ الى ارتكاب اقبح الجرائم حتى الى القتل والذبح ؟ . . وذلك ان يهدر دماً طاهراً هو اقدس الدماء عندهُ كقتلهِ ابيهِ او امّهِ او امرأتهِ او اولادهِ . . . فالعلم الذي خدم وسيخدم الانسانية لا يستطيع مع الاسف ان يجيبك الاَّ بقولهِ: هذا هو السرسام القتال . ولكن لماذا

(١) حكي عن الشيخ ابي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح من انه بعد ما اصيب بالوسوسة في آخر حياته كان يوماً جالساً في منزله فخيل له كأن رجلين وقفا في بابه . فقال احدهما للآخر هذا الشيخ ابو نصر الجوهري وهو شيخ كبير قد جمع اموالا كثيرة فهلم نقتله ونستولي على امواله . فقال الاخر ان سمع مني فانا ارى له ان يقتل نفسه بيده ولا يدع سبيلا لامثالنا ان تمتد ايديهم اليه . فقال الشيخ اصبت والله ، وعمد الى سكين بجانبه فوضعها على عنقه وحز . فلما سال الدم انتبه فلم ير احداً

يكون هذا السرسام سبب هذه الجرائم الفظيعة وبأي واسطةٍ يستطيع فنّ الطبّ مقاومتهُ والتغلب عليهِ، اخصهُ بأن يستأصلهُ من الشخص المبتلى بهِ ؟ فالجواب على هذا ليس هو من المحققات الاكيدة لكنهُ يُقتصر على هاتين الوسيلتين وهما قميص[1] المجانين والسجن. ولا يعلم لذلك خلاف وسائل. اذ ان جميع الوسائل التي قد اختبرها فنّ الطبّ حتى يومنا هذا ظلت عقيمةً ولم تحصل منها فائدة

لقد اصبح من المؤكد ان السرسام على انواعهِ ينتقل بطريق الوراثة الطبيعية وهو ان باباڤوان التعس الذي كان يبتهج لدى ذبحهِ اولادهِ — وبطرس ريفيار القاتل والدتهُ واخاهُ واختهُ — وقاتل الاستاذ دلبيش وآلافٌ من الاشخاص سواهم الذين يطول بنا الشرح اذا رمنا تعدادهم وايراد حوادثهم كان مولدهم من اناسٍ مسرسمين ظهرت فيهم اعراض السرسام واختلال الشعور. ولقد اوضحنا الوسائل المقتضية للتغلب على الوراثة المرضية في الفصل الثالث من هذا المؤلف وهي تطابق موضوعنا الحاضر تمام الانطباق. ولاسيما واننا مقتنعون بأن الهيأة الاجتماعية ستنال فوائد جمّة في نموّها اذا راعت اصول الزواج والتطبع الفيزيولوجي التي رسمنا حدودها وبينا نواميسها. وسوف يستفيد المطالع من مطالعته كتابنا قانون الزواج اذ يجد فيهِ عن هذه المسائل شرحاً وافياً

---

(١) هو ملبوس قصير يلبسونه للمجانين والمجرمين

١

﴿ سرسام المنتحرين ﴾

ليس هذا النوع من السرسام إرثيًا فقط بل انهُ يتهدد في بعض الاحيان بعض الأسر مماثلاً بذلك الداء المعدي القتال . فقد شوهدت أسرٌ بجملتها تنتحر افرادها وأسرٌ أخر كانت مبتلية بهذا الداء وقامت تبحث بدون جدوى على مقاومة هذا السحر المرضي المهلك للتغلب عليهِ . ولقد كثرت الاحصاءات عن البرسام الانتحاري حتى لم يبقَ محلٌّ للشكّ بوراثة هذا الداء وانتقالهِ من السلف الى الخلف . ونحن متخذون الحادث الآتي من بين الف حادثٍ من امثالهِ

سمَّ الجدّ الاكبر لاسرة بيرك نفسهُ في سنة ١٧٣٠ وقطع ابنهُ جدّ الاسرة عنقهُ في سنة ١٧٦٣ — ثمَّ رمى الابن وواحدةٌ من بنات هذا الاخير نفسيهما في الماء في سنة ١٧٨١ وقد ترك كلٌّ منهما ذرّيةً كثيرة التعداد كان مجموعها تسعة وعشرين شخصاً من ذكورٍ واناث . ثمَّ انهُ في برهة ثمان سنوات قضى سبعة عشر عضوًا من هاتين الاسرتين نحبهم بالانتحار . والى هنا ينتهي الاحصاء لكنهُ من الممكن ان يكون قد حدثت غير انتحاراتٍ بين اولاد هؤلاء الآخرين

فيا ايها الجنس البشري كم من العجائب نشاهدها في كيان

طبيعتك وكم من المدهشات تطرأ على تركيب خلقتك، فاذا كان نموّ دماغك هو الذي اجلسك فوق قمّة السلّم الحيواني ورفعك على باقي المخلوقات ، فهو ذاتهُ الذي منحك ايضاً الافضلية التعيسة لان تكون مبتلىً بلفيفٍ من الادواء المخيفة والعلل المسفلة التي لم تُصب بها باقي المخلوقات الحيّة

٢

﴿ في داء السوداء التي لم يسبق لها نقصٌ في الادراك ﴾

يُعد نوع هذه السوداء من نصيب السعداء المترفين الذين يتغطرفون في الثروة ويتيهون في بيداء البطالة ، اما الطبقات العاملة فهي بعيدةٌ عنها وسليمةٌ منها، وهذا ما عرفهُ جميع الاطباء ووقفوا على حقيقة امرهِ

يؤثر عن احد الاغنياء انهُ لدى خروجهِ من احد المطاعم حيث انفق خمسين فرنكاً ثمن غدائهِ لقيهُ سائلٌ مسكين بسط اليهِ يد السوء ال بقولهِ لهُ انا جائع . . . فما كان من الغني الاَّ انهُ قد انتهرهُ واجابهُ قائلاً انت سعيدٌ لانك جائعٌ اذ اني ادفع بما عندك من شهوة الطعام ثمناً غالياً اذا كان في وسعك ان تبيعني اياها . على ان جواباً كهذا يصف بالتمام الرجل الشره صاحب الانانية الذي ليس لهُ همٌّ آخر سوى ان يشتري معدة وقابلية الغير

اما الحادث التالي الذي اوردهُ فرنسوى لوريت في مصنفاتهِ

عن الجنون لهو حريٌّ بأن نوردهُ هنا ونحوّل انظار المطالعين اليهِ . ولربما افادت مطالعتهُ اولئك الاغنياء المتفيئين ظلال البطالة والمتربعين في دست الترف

كان احد المثريين العظام جلّ ما يسعى اليهِ هو ان يجعل حياتهُ هنيأةً وعيشهُ رغيداً . ولكي يتخلص باديء بدءٍ من هموم العيال والفرائض التي يلتزم بها بالنظر الى تأديب البنين والاعتناء بامرهم ، فقد استمر عاذباً ولم يشأ ان يرتبط بعقد الزواج . ومن ثمّ لكي لا يشغل بالهُ في ادارة ثروتهِ متجنباً كل خسارةٍ تزعجهُ وتقلق فكره ، فقد وضع جميع ما يمتلكهُ من المال في مصرف الحكومة متقاضياً ريعهُ . ولما كان هذا المثري الكبير مطلق الحريّة وغير مرتبطٍ باي عملٍ من الاعمال ، فقد كان في امكانهِ ان يرتاد جميع البلدان ويسيح في كل صقعٍ وواد . لكنهُ لم يفعل ذلك مخافة ان لا تتوفر لهُ معدّات الراحة في الحلّ والترحال . اما بالنظر الى مداركهِ فقد كان متنوّراً وذا عقلٍ راجح وعلى ما قيل ذا قلبٍ طيّب . لكنهُ مع ذلك كان يودّ ان يكون كل شيء عائد النفع اليهِ . ولربما اجاب ذلك السائل المسكين بما اجاب بهِ ذلك الغني المتقدم الذكر

وقد كان المذكور معرضاً عن معاشرة الناس ومجتنباً مخالطتهم ولم يكن يستقبل في منزلهِ سوى بضعة اشخاصٍ ويستمر بعض الاحيان اشهراً بتمامها بدون ان يقابل زائراً او يخرج من منزلهِ . حتى انهُ اذا رام الخروج فيكون خروجهُ في العربة ، واذا نزل منها ليستنشق

الهواء بضع دقائق فيكون متبوعاً من احد حرسهِ الاشدّاء خوفاً من ان يطرأ عليهِ حادثٌ او يحلّ بهِ مكروه

على انهُ لما كانت الهيأة الاجتماعية . تطلب واجباتٍ يلتزم كل فردٍ ان يقوم باعبائها ، فالسيداوي المشار اليهِ قد قطع كل علاقةٍ لهُ مع الهيأة الاجتماعية وعاش في عزلةٍ عنها . ثمَّ ان الرجل المتنوّر يبحث في الصحف والمؤلفات عن بعض الملاهي المفيدة والمطالعات الملذّة ، فكان المذكور لا يقرأ ابداً لانهُ يرى في المطالعة تعباً ومشقة . فماذا كان يعمل اذن ؟ . . . ينام ويضجر ، ويشرب ويأكل ، ثمَّ يعاود النوم ايضاً . فهذا الذي كان مقتصراً على عملهِ وليس لهُ شاغلٌ سواهُ

ولقد كان من مقتضيات مأكلهِ ومشربهِ ان يكون اللحم ناعماً ، والخبز طريّاً ، والخمر معتّقاً ، والحلويات الفاخرة ، والشمبانية المبرّدة ، والقهوة الحارّة . وهو يأمر وتنفذ اوامرهُ في الدقيقة والثانية . ولاسيما وانهُ كان يتعب اذا خلع ثيابهُ حتى امتنع فيما بعد عن خلعها وامسى ينام فيها . وكذلك يتعبهُ المشي . فكان يستمرّ جالساً ومرفقاهُ مسنودان على منضدةٍ مكسيةٍ بالحرير ومحشيةٍ بالريش الناعم ، ورجلاهُ ايضاً مركوزتان على كرسيٍّ . واخيراً حتى لا يتعب صوتهُ بتصدير اوامرهِ فلم يعد يتكلم ابداً وصار يأمر بالايماء والاشارات . ثمَّ كان ذهابهُ الى المرحاض يسبب لهُ عناءً فاستبدل مقعدهُ بكرسيٍّ متعرّكٍ كان يجلس فوقهُ لحين ما يحضرهُ وقت النوم . ولقد تجاوز المذكور اخيراً في حب النفس والسويداء حتى ابتلي بفيضان الدم المبشر بداء

النقطة . وذلك انهُ رقد في احد الايام رقدةً لم تكن لها يقظةٌ انتقل منها الى الراحة الابدية ولم يأسف على موتهِ احد

القسم الثاني

﴿ في اختباط المؤثّر العصبي ﴾

يذكرون من جملة اختباط المدارك الوسواس ، والخيالات الباطلة ، والجولان في النوم ، وخلاف عاداتٍ عقلية تتأتى عن الاختباط في المؤثّر العصبي

﴿ في الوسواس ﴾

اما الوسواس فهو شعورٌ وهميّ او هذيان حاسّةٍ او جملة حواسّ . وان الاشخاص العصبيين السوداويين ، والهيستاريين ، والبرسامبين ، وهم الذين يطلقون عنان التفكر في التأمّلات العميقة الطويلة المدة ، او يستسلمون الى الاهوآء المحزنة والهواجس المكدّرة ، هم اكثر عرضةً من سواهم للوسواس . وكذلك الفزع الوهمي الراسخ في الذهن من جرّآء الافكار الخرافية وقصص الارواح التي يخيفون بها الولدان . وبالمثل النزلات الدماغية الخ . . . كل هذه اسبابٌ تقرب من هذا الاختباط العقلي وتفعل مفعولهُ . ونقتصر هنا على ايراد شاهدين فقط

من هذا القبيل

كان الدكتور هيبار الذي عالج بسامي درايتهِ وصائب مداركهِ جملة حوادث عن الوسواس والتخيلات الباطلة التي تنمو في بعض الادواء العصبية. قد اورد الحادث الآتي

قصد شخصٌ من عليّة القوم الدكتور غريغوري راغباً في استشارتهِ ومسارًّا اياهُ بهذا السرّ وهو قولهُ لهُ: انني اتناول في كل يومٍ الغداء نحو الساعة الخامسة بكل هدوٍ وسكينة، وعلى الاخص بقابليةٍ جيدة للغاية. لكنهُ متى قرعت الساعة السادسة ينفتح باب قاعة الطعام الذي اكون قد قفلتهُ بكل احتراز، فتدخل منهُ عجوزٌ ساحرة قبيحة الوجه مخيفة المنظر فتتقدم نحوي وتخاطبني ببعض كلماتٍ تكون في الغالب مبهمةً لا استطيع فهمها. واذا انا لم اجبها على سؤالاتها بالتمام فهي تضربني بالعكاز الذي في يدها فاسقط عن كرسيي واستمرّ مدةً متفاوتة الزمن فاقد الشعور عديم الوعي. ثمَّ يتجدد معي نفس الحادث ويلازمني في كل يوم. وهذا هو مرضي الوحيد. فسألهُ اذ ذاك الدكتور غريغوري اذا كانت هذه العجوز قد ظهرت لهُ في حضور شخصٍ ثالث. فأكد لهُ المريض بقولهِ انني لم اتجاسر على ان اطلع على ذلك احداً خشية من ان يدعونني معتوهاً

لقد احسنت في القول اجابهُ الدكتور وهل تسمح لي ان نتناول الغداء معاً وننظر اذا كانت هذه العجوز الخبيثة تستطيع ان تفاجئنا وتكدر صفاءنا نحن الاثنين. وقد قبل العليل برأي الطبيب وافترقا

وموعدها الغد

جلس الاثنان في اليوم الثاني على مائدة الطعام واتمّا غداءهما بكل هناءٍ وانشراح . وقد اظهر الدكتور غريغوري من الرقة والتفنن في الحديث مما يسرّ الفؤاد ويطيب الخاطر ، قصداً منهُ ان يحوّل المريض عن الفكر الذي يلازمهُ ويطرأ على مخيّلتهِ . وكان يمرّ الوقت ولم يبدُ اقل دليلٍ على ظهور العجوز . الاَّ انهُ ما كادت تقرع الساعة السادسة حتى صاح الموسوس واومأ بيدهِ بقولهِ هذه هي الساحرة وسقط مغشياً عليهِ . فحينئذٍ تأكد الدكتور غريغوري ان هذا الوسواس الدوريّ متأتٍ لصاحبهِ عن نزلةٍ دماغية تلازمهُ كل يوم ، وربما كانت مقدّمة لداء النقطة . وعليهِ امر الطبيب ان يفصد العليل فصادةً وافرة ، ومن ذلك اليوم لم تعد تظهر لهُ الساحرة

القسم الثالث

﴿ في الرؤيا الباطلة ومدّعيها ﴾

يؤثّر الاعتقاد بالمستحيل والافكار الخرافية الراسخة في الذهن من بدء العمر بنوعٍ مطلق في المخيّلة التي تنمو متوالياً في بحر الحياة . بحيث انهُ متى اصبح الدماغ مقرًّا لنموّ النشاط الحيويّ المتواصل فيتراكم السائل العصبي فيهِ ويترك مجالاً لحدوث طواريء دماغية تبشر بابتداء

الانقلاب فيهِ . ذلك لان نتيجة هذا النشاط بوجهٍ عامّ هي تسامي احدى الخصائص العقلية على ما سواها . فمدعوّ الرؤيا او الوحي الذين نعنيهم بقولنا هذا بتحفظٍ ما هم سوى اناسٌ موسوسون يكونون دائماً من الاشخاص الذين قد تسلطت فيهم خاصية التصوّر على باقي الخصائص العقلية . لا سيما وان سلطة هذا التصوّر في مدعيّ الرؤيا تأخذ مبدأها وتستمد مفعولها من التصوّف وشدة الورع وحب العجائب . وذلك ان التصوّر المحدود ، وحصر الفكر ، والفزع الشديد ، والأمل والرجاء المستطيلان ، والرهبة القويّة . كل هذه يمكنها ان تسبب التخيّلات الباطلة ايضاً . ويوجد مدعوّ الرؤيا من الطبقتين العالية والسافلة بدون تخصيصٍ ولا تحديد . ويزيد عددهم بمقتضى تفشّي الجهل . وينقص بمقدار تنوّر الازمنة وانتشار ضياء العرفان . فالاعصر المتوسطة تلك الازمنة التعيسة التي يسمونها باعصر التعصب والظلمات كانت مخصبةً بمدعيّ الرؤيا والموسوسين على اختلاف نزعاتهم وضروب مزاعمهم . وان ازمنتنا الحاضرة التي يسطع فيها وميض العقل وتخفق فوقها ألوية العلم هي بعكسها معوزةٌ من مدعيّ الرؤيا وعلاّم الغيب . واذا اتفق وجود واحدٍ من هؤلاء المخرقين المعتوهين فلا يلبث قليلاً حتى يعدّونهُ فاقد العقل ويبعثون بهِ الى مصحّ المعتوهين

ولقد كانوا قديماً يعتقدون بالفايق الطبيعة اما اليوم فاصبحوا لا يودّون ان يصدقوا بمثل هذه المعتقدات فضلاً عما يبذلهُ اولياء العجائب من الجهد والبراعة ، وما يأتونهُ من التنبئات والمظاهرات المتقنة التي

يلفقونها ويتظاهرون بها . بحيث يتعذّر على الهيأة الاجتماعية الحالية المتمتعة بالمدارك القويمة والعقل الصحيح ان تصدّق بمثل ذلك . ولا سيما وان العلم الذي يتسع نطاقهُ وتتشعب مباحثهُ يوماً فيوماً بلا انقطاع يزفّ الينا على وجه التقريب حكمهُ الطبيعي على هذه الامور المزعوم بانها فايقة الطبيعة

ينمو النشاط الدماغي بنوعٍ خاص في الاشخاص المنقطعين للعبادة والمحبوسين في الاديار والنساك المقيمين في الصوامع الذين يقضون جلّ حياتهم في التأمّلات العقلية والنزوع الى البطالة والكسل. فكان اذا بلغ النشاط الدماغي فيهم احدى الدرجات يحرّك فيهم عوامل الرؤى ويدفعهم الى الانذهال والوسواس (١) وتصبح فيهم الرؤى على انواعٍ مختلفة نظرًا الى حالة الشخص الطبيعية والادبية . ثمّ انهُ يوجد امرٌ لا بدَّ من ملاحظتهِ، وهو ان الرؤيا او الوحي تختصان دائمًا بمخلوقاتٍ غير هيولية يتعذّر علينا فهمها وادراكها اذا كانت مخيّلتنا لا تجعلها هيولية . وعلى هذه الكيفية تراهم قد خصصوا اشكالاً لارواح ذلك العالم فهم يلبسونها ويزينونها ويظهرونها على هذه الصورة للاحداث حتى تتجسم لديهم هذه الافكار وتعظم في مخيّلتهم. وبمقدار ما يهتز هؤلاء لها وترسخ في اذهانهم ينتهون اخيرًا الى الاعتقاد بتمام صحتها وبكونها من الامور الاكيدة

(١) توجد شيعة في الهند تدعى الجوكية وهم قوم يميتون اجسامهم بالصوم والتقشف ليقفوا بذلك على علم الغيب

وُجد مدعوّ الوحي في كل زمان وكان عددهم في القديم اكثر جدًّا من يومنا الحاضر ـ فقد كان سوقراط يتحادث مع الابليس إيتس ـ وكان يدعي بلاطون بانهُ يتخاطب مع الآلهة ـ ورأى بروتوس في عشية معركة سهل فيليبس شبحًا انبأهُ بقرب اخرتهِ ـ وقد لمح قسطنطين في السماء صليب الغلبة ـ وتماسك لوتيروس بالشيطان من شعر رأسهِ ورمى دواتهُ عليهِ الى غير ذلك من ارباب الكهانة والوحي الذين كانوا يقابلون وفود الجن ويجالسون الابالسة ويتخاطبون معهم الخ . .

ونحن هنا لم نذكر سوى بضعة اسماء تاريخية بحيث اننا لو اتينا على تعداد جميع مدعيّ الوحي الذين سار ذكرهم في العالم واودع اكثرهم في ملاجي المعتوهين لطال بنا الشرح ولم نأتِ على نهاية عددهم . اما بالنظر الى علم البريتولوجيا (١) فان الاختباط الدماغي المسبب الوحي هو متأتٍ عن نموّ عضو التعجب نموًّا مفرطًا . وان هذا الافراط هو سببٌ من الاسباب الذي يقود صاحبهُ غالبًا الى الجنون . وبناءً على هذا المبدأ يُشاهد في جميع مدعيّ الوحي المعتوهين نموٌّ متسعٌ في فسحة جبهتهم المقابلة لعضو التعجب . واما منا تاريخ لوتيروس الذي يقدّم لنا مثالاً موافقًا لما تقدم . فقد كانت اعضاء التعجب والتباحث نامية نموًّا فايقًا في هذا المصلح البارع فضلاً عما تضطرهُ حالة حياتهِ الى ان يكون متكهنًا وموسوسًا ، وذلك لفرط مماحكاتهِ وتوسيط العزّة

(١) هو علم يبحث عن الخصائص العقلية وافعالها في الانسان بمقتضى تركيب الجمجمة

الالهية والشيطان في مباحثهِ ومجادلاتهِ اللاهوتية قد توصل اخيراً الى أكلهِ ونومهِ مع الشيطان وهو ما اخبر عن نفسهِ في الجمل الآتية

يستطيع الشيطان ان يضع براهينهُ بوقتٍ سريع وكيفيةٍ مستعجلة، ولهُ صوتٌ ثقيلٌ وجهوريٌ، وهو يماحك بنشاطٍ قويٍ وحماسٍ شديد، وهو في لمحة البصر يضع المسألة ويحلها . ونحن لا يمكننا ان نكون سوى لاهوتيين نظريين ان لم يكن الشيطان مشنوقاً عندنا من عنقهِ. اما بالنظر اليَّ فاني اعرف الشيطان اكثر من معرفة الجميع لهُ، اذ اني اكلت معهُ كيلة ملح، وهو يسرح في غرفتي، ويطوقني من عنقي، وينام معي مراراً كثيرة اكثر من نوم كاترين معي

القسم الرابع

﴿ في السومنا مبوليزم او الجولان في النوم ﴾

تُطلق هذه اللفظة على النوم الذي في اثنائهِ يتكلم الشخص النائم ويجول ويعمل كأنهُ في صحاوة العقل وتمام اليقظة . وقد احتسب كثيرٌ من الفيزيولوجيين هذه الحالة نظير داءٍ عصبي دماغي يفعل بنوعٍ خاصٍ في الدماغ بدون ان يغير وظائفهُ . فيتراءى لنا مع ذلك انهُ اذا اصبحت حالة الجائل في النوم اعتياديةً ملازمةً لهُ، واخرجت صاحبها من دائرة الحدّ المعتاد، فمن الجائز ان تكون بدءاً للتعته العقلي والجنون

المستديم . وذلك لان الجولان في النوم الذي نظيرهُ الوسواس والتخيّل الباطل وخلاف ادواءٍ عقلية ، لهُ صفةٌ معروفة وهي هجوم الحدّة النومية على حالة اليقظة ، ولهُ اتصالٌ قريبٌ بالجنون

يعمل الجائل في نومهِ اعمالهُ بدون تردد ويتصرف بها بحذاقةٍ ومهارةٍ عظيمتين . وقد يغلط في بعض الاحيان لكنَّ ذلك نادرٌ منهُ اما في الاجمال فانهُ يجد بوضوحٍ غرضهُ الذي يسعى اليهِ ، ويعمل بتدقيقٍ ويتصرف في جميع اعمالهِ بخفةٍ مدهشة ونباهةٍ غريبة . اما زمن الشبوبية فهو العمر المعدّ للجولان في النوم من باقي اعمار الحياة وان الجائلين الذين يفوقون سواهم يُشاهدون بنوعٍ اخص بين الاشخاص النحفاء الجسم العصبيّ المزاج . وامامنا في كل يومٍ قصص عديدة اقل او اكثر غرابةً عن هذه الحالة النومية ، نكتفي هنا بايراد الحادثتين التاليتين على سبيل المثال وهما الاكثر دهشاً واعجاباً

كان احد الصيادلة وهو عالمٌ كيماوي في مدينة باقي ينهض كل ليلةٍ في اثناء نومهِ ويذهب يعمل في معملهِ . بحيث انهُ كان يوقد كوانينهُ هنالك ويدير انبيقهُ ويعمل اعمالهُ كأنهُ في حالة اليقظة التامّة . فضلاً عن ملامستهِ المواد الاكثر خطراً بدون ان ينالهُ منها اقل ضرر . وعليهِ كان اذا بقيت عندهُ بعض تذاكر صفاتٍ لم يكفهِ الوقت لتجهيزها في يومهِ الماضي فهو كان يخرجها من الدرج الموضوعة فيهِ ، ويصفّها متتابعةً الواحدة في جانب الاخرى ، ويباشر بتجهيزها باعتناءٍ فائق وبما تقتضيهِ جميع التحوّطات اللازمة . وكان

الاغرب من ذلك تناولهُ الميزان واختيارهُ وزنات الغرامات واعشارها وميئاتها، ويزن بها بدقة الصيادلة مقادير المواد الاكثر صغراً المحتوية عليها تذاكر الصفات . وبعد ان يسحقها ويمزجها ويجربها يضعها في زجاجةٍ او يعملها صرراً نظراً لنوع العلاج . ثمَّ يعنونها، واخيراً يضعها فوق احد الرفوف ليسلمها الى صاحبها عند الطلب . ومتى انهى عملهُ كان يطفي الكوانين ويعيد كل شيءٍ الى محلهِ ويقفل راجعاً الى فراشهِ اذ يظل فيهِ راقداً الى حين يقظتهِ المعتادة

وقد لاحظ الاستاذ سوف على ان الجائل في نومهِ تكون عيناهُ دائمًا مطبوقتين فاذا كان تذكرهُ بالمحلات التي يلازمها والفكر الراسخ فيهِ لتكميل اعمالهِ كافيين لان يقوداهُ الى مكان عملهِ، فقرأتهُ تذاكر الصفات وتجهيزها مع جهلهِ محتوياتها يستمرّ غامضاً لا يقبل التأويل

اورد الدكتور اسكيرول حادثًا شبيهاً بالاول عن احد الصيادلة الذي كان يذهب في نومهِ ويجهّز الصفات التي يجدها على منضدتهِ . وقد رغب احد الاطباء ان يمتحن اذا كانت القوّة الحاكمة تفعل مفعولها في هذا الجائل في نومهِ، او انهُ يعمل اعمالهُ بدون ان تشاركهُ في ذلك ارادتهُ . ولهذا وضع لهُ على منضدتهِ الصفة الآتية

زئبق مصعد	٢	غروس (١)
ماء مقطر	٤	اواق

(١) يعادل الغروس ثقل سبعين قمحة

وان يؤخذ هذا جرعةً واحدة

فلما قام الصيدلي في اثناء نومهِ ونزل حسب عادتهِ الى معملهِ أخذ الصفة وقرأها جملة مرارٍ وقد اعترتهُ الدهشة اذ انهُ طفق يخاطب ذاتهُ بهذا الكلام وهو يلفظهُ متقطعاً . ولما كان الطبيب كاتب الصفة مختبئاً في احدى زوايا المعمل فقد كتب ما تلفّظ بهِ الصيدلي كلمةً فكلمةً وهو هذا

انهُ مما لا شك فيهِ ان الطبيب قد غلط في كتابة صفتهِ هذه لان قمحتين غير محتملتين ايضاً اما هنا فقد كتب بوضوحٍ تامّ غروسين وهذين يعادلان اكثر من مايةٍ واربعين قمحة ..... وذلك ما يكفي لتسميم ثلاثين شخصاً .... وقد غلط الطبيب بدون شك ... واني ارفض ان اجهّز هذه الصفة

الفصل التاسع والعشرون

﴿ في الاعتبارات الادبية والفيزيولوجية المختصة بالزواج ﴾

يُترجم عن الحب فيزيولوجياً وهو تلك النار التي توقدها الطبيعة في قلوب جميع المخلوقات « بغريزة التوليد » . وان تقرّب الجنسين من بعضهما بعضاً في قصد الانماء والاكثار ما هو الا نتيجة هذه الغريزة التي لا يمكن قهرها والتغلّب عليها

على انهُ يوجد للحب وجهةٌ خلاف الوجهة الطبيعية ، وذلك ان الرجل والمرأة يتبادلان الحب ليس فقط لقضاء رغائب الجسم وتسكين ثائر اهوائهِ . بل هما يتحابّان ويتوادّان ايضاً امتثالاً لرغائب القلب وتلبية الاميال النفسية . فضلاً عن كون هذا الحب الآدبي هو أكثر استمراراً من الحب الجسماني . فهما يتحابّان في زمن الزواج لان مرائر الحياة يحتملها الاثنان باوفر سهولةٍ مما يحتملها الشخص الواحد . وهما يتحابّان ايضاً لان البنين الذين يأتون مكوّنين الاسرة الجديدة يشدّون كل يوم بالاكثر أواصر الحب الزوجي ويثبّتونهُ ويؤيدون دعائمهُ . بحيث يُعتبر الزواج على كذا الحالتين نظير التكملة التي تجب لكل

مخلوقٍ بشري بالغ الجسم مكمل الخلقة . و بدونهِ تستمر الحياة الطبيعية والآدبية غير كاملتين

يحسب الرجل المتمدن الحب كأنهُ عاطفٌ قوي وينبوعٌ غزير لكثيرٍ من الفضائل والخلال الكريمة . فهو يوقظ فيهِ عامل الرأفة والانعطاف ، و يبعث فيهِ شعور الرحمة والحنان ، ويحضّهُ على الجود وبذل النفس ، ويعظّم فيهِ الاخلاق ، ويخلق في قلبهِ الشعور والاحساس ، ويرفع نفسهُ الى افق التصوّر وعالم الخيال . ذلك لان الرجل في زمن شبوبيتهِ يؤلّه المخلوق الذي يحبهُ ويعظّمهُ حتى يصبح حبهُ لهُ من نوع العبادة . ويكون هذا الحب بالنظر الى اهوآئهِ طاهراً عذباً سامياً ولا تُشاهد فيهِ مظاهر البهيمية الاَّ عند مباشرة الفعل الجنسي

فاذا كان الحب يبعث في الانسان الحرارة وينمي فيهِ العواطف الكريمة فبدونهِ تستمرّ حياتهُ جافّة باردة وذات انانيةٍ فائقة . الامر الذي يقضي بالتخوّف والفزع من الشخص الذي لم يبزغ عليهِ شعاعٌ من اشعّة الحب ولم يظهر فيهِ ميلٌ من اميال الزواج . اذ يُشاهد بين العازبين والاشخاص المعرضين عن الزواج العدد العديد من الحسّاد والمجرمين اولئك الذين يُعدّ منهم غالب المنتحرين

اما حالة الرجل الطبيعية الكاملة فهي الزواج وهذا في الهيأة الاجتماعية هو الاتحاد الشرعي بين الرجل والمرأة . وما النسل والاسرة الاَّ الغاية المطلوبة منهُ . فعلى هذا الاساس يكون الشرط الاول من

شروطهِ هو التركيب الجيّد وصلاحية الاعضاء التناسلية فاذا اخلّ احد الزوجين بهذا الشرط الاساسي فيستمرّ القران عقيماً وتفقد الغاية الطبيعية من الزواج

اما مسألة تحديد زمن الزواج فقد كانت دائماً الشغل الشاغل لاكثر المشترعين والفلاسفة وأخصّهُ الفيزيولوجيين . ذلك لان بعضهم نظير لوكرغ واريستوط قد اعتبروا مدة زواج الرجال لغاية سن الثلاثين، والاناث لغاية سن التاسعة عشرة . وقد اصاب خلافهم وهم سوقراط و بلاطون وامبيدوكل في تحديدهم سن الخامسة والعشرين للرجال والثامنة عشرة حتى العشرين للنساء

لكنهُ اذا نظرنا الى بلاد الهند والصين والاقاليم الحارّة في افريقيا رأينا ان القران يتمّ فيها في سن العاشرة الى الاثنتي عشرة للاناث ، والخامسة عشرة الى الثمانية عشرة للذكور . وقد ورد ان محمداً (صلعم) اقترن بخديجة [1] زوجتهِ لما كان عمرها خمس سنوات وباشرها اذ بلغت سن التاسعة . اما في الاقاليم الباردة فانهُ يمتنع فيها الزواج قبل سن السادسة عشرة حتى العشرين وسبب هذا الفرق هو تأثير الطباع ومفعول الاقليم في حالة البلوغ اذ تقرب مدة البلوغ في المناطق الاستوائية وتبعد في البلاد الباردة . ومما يجب اعتبارهُ كقاعدة عمومية تُطلق على جميع الاشخاص بقطع النظر عن

---

(١) كذا وردت والحقيقة عائشة كما نقل ابن عبد ربه في عقده عن الرسول محمد (صلعم) انه تزوج عائشة في السادسة من سنها وابتنى عليها في التاسعة

المناطق التي يقيمون فيها، هو ان الاشخاص لا يكونون ذوي استعدادٍ للتناسل الاَّ بعد مرور جملة سنواتٍ على ظهور حالة البلوغ فيهم. تسمّى هذه المدة بزمن الاستعداد للزواج[1] لتمييزها عن زمن البلوغ المتقدم عليها. ذلك لان زواج الحديثي البلوغ يستمرّ عقيماً في مدة السنوات الاولى ولا ينتج منهُ نسل

اما الزواج الفيزيولوجي وهو المطابق لنصوص الشرائع البشرية والموافق لرغائب الطبيعة فانهُ لا يجب ان يتم حصولهُ الاَّ في اليوم الذي فيهِ يكتسب مجموع الجسم تمام تركيبهِ وينال غاية نموّهِ. يوم يصبح الجسم ممتلئاً من القوّة مكتمل النشاط، وتبتدئ الآلة التناسلية بان تؤثّر على الدماغ. فوقتئذٍ يشعر الجنسان رغم ارادتهما بجاذبٍ يجذب كل منهما نحو الآخر. وهو اليوم الذي فيهِ تجري في الجسم ذرّات الدم المشتعلة، ويخفق القلب، وتترنح العواطف، وتصبح الحياة جميلة، ويسمو بالشخص التصور حتى يريهِ المستقبل مزيّناً بازهى الالوان ورافلاً بابهى الحلل. وهذه المدة هي زمن شعور القلب ونشوة الحواس ومجال الصبابة الذي يتم فيهِ القران ويحصل التنعم الزوجي باوفر تلذذٍ واكثر حماسة. فضلاً عن كون هذه المدة هي الزمن الذي فيه يخلّف المتزوجون الفتيّ العمر اولاداً جميليّ الخلقة اشداء البنية. ذلك لانهُ متى تجاوزت المرأة سن الخامسة والثلاثين والرجل سن الخامسة والاربعين فاذ ذاك تأخذ خصائصهما التناسلية بالتناقص

(١) ويسمي العرب هذه المدة سن الحلم وذلك من سن البلوغ حتى الزواج

وتبتدي بان تميل الى الضعف والانحطاط . حتى يتعذّر على الخلف اذ ذاك ان تجتمع فيهِ شروط الصحة وتتوفر فيهِ اسباب القوة والعافية. وهذا ما يدعو كلا الجنسين الى ان يقضيا فريضة الزواج في بحر المدة المعينة لهُ ليثمرا الثمر الحسن ويخلّفا النسل الطيّب

الاَّ انهُ لنكد الجنس البشري ان المتزوجين لا يراعون هذه الظروف دائمًا ولا يجري الجميع على هذه القاعدة الجليلة . وذلك لان الهيئة الاجتماعية العصرية لا تتوخّى من الزواج غير الجاه والمصلحة المادية . بحيث نشاهد الرجل الشابّ يعاف الفتاة اللطيفة والخود الجميلة ويذهب مقترنًا بامرأةٍ كهلة معتلة الجسم دميمة المنظر، لانها تنقدهُ المال وتكسبهُ العقار . وبمثلهِ الابنة الفتيّة التي تؤثر لما هي متخلقةٌ بهِ من الغباوة وفرط الخيلاء ان تضمّ الى صدرها الكهل الغني والشيخ المثري لتتيه بالحلل الفاخرة وتتزين بالحلي الثمينة وتظهر بمظاهر اليسر والابّهة (١)

---

(١) اصدر مؤخراً مجلس شورى القوانين في ولاية بنسلفانيا من اعمال جمهورية امريكا قراراً من مقتضاه انه لا يسوغ اعطآء رخصة لاي شخص يريد الزواج الا اذا قدم كل من الطالبين (الخاطب والمخطوبة) الى الكاتب المنوط به كتابة رخص الزواج شهادة من طبيب معتمد يشهد بها ويعترف باقصى تحرياته بان الطالبين غير مصابين بدآء السل الرئوي او الصرع او الجنون او البلاهة ونحوها من الامراض الوراثية

فيا حبذا لو يعمل بهذه الشريعة في جميع الممالك وبذلك يتحسن الخلف تحسنا بيناً وتنقص الادوآء والعلل التي تثقل كاهل الانسانية نقصا كبيراً

وقيل اذا بلغت العروس عند قوم الكفرة منزل بعلها فعندئذ يعلن سماسرة

ولقد برهنت التجارب ودلّ الاختبار على ان القران المعقود على هذه الكيفية يكون ثمرهُ مهزولاً جسماً وعقلاً . ومما هو معلومٌ ايضاً ان البنين الاواخر في الأسرة المتعددة الذرّية اولئك الذين ينسلهم الوالدان عندما يكونان قد شاخا وبلغا سن الهرم ، يكونون اقل قوةً واقصر اعماراً من اشقائهم المتقدمين عليهم

على انهُ فضلاً عن مطابقة العمر المختص بكلا الجنسين يحتّم الزواج الفيزيولوجي على الزوجين اختلاط الامزجة اي اتحاد المزاج الصفراوي باللمفاوي ـ الدموي . واتحاد الدموي باللمفاوي الخ .... اذ اصبح من المحقق ان البنين المولودين من الامزجة المتحدة على هذه الكيفية تنمو اجسامهم وهم متمتعون بالصحة والنشاط . مع ان قران الشخصين ذوي المزاج الواحد لا تكون هكذا نتيجتهُ حسنة . وكذلك اختلاط الهيئات الاجتماعية بالزواج اي اقتران الحضري بالبدوية او شخصين من بلدين مختلفين يحسّن تركيب المواليد تحسيناً كبيراً ويكسبهما فائدةً لا تقبل النقض (١)

الزواج وصولها فيجيء الفاحصون ليفحصوها واذ ذاك تجثو امامهم ثم تتجرد من ثيابها وتقف عارية فيأخذون في وصف ما يرون فيها من حسن او قبيح ويشرحون كل ذلك شرحا مفصلا بصوت جهوري . وبعد ان يتموا فحصها من كل جهاتها تدفع اليهم حبات من اللؤلؤ جزآء عملهم . وكذلك الرجل فانه يعرض ذاته امام منزل العروس فهو يقعد ثم يقف ثم يجثو على ركبتيه ثم ينهض ويدور حتى يتحققوا انه لا عيب فيه . (الكفرة قوم من سكان جنوبي افريقيا قيل سماهم به المسلمون من العرب عندما دخلوا بلادهم يقصد دعوتهم الى الاسلام

(١) كانت العرب تعتقد ان الرجل اذا تزوج قريبة له جاء ولده ضاويا

ونظير تعليمٍ عملي كثير النفع جزيل الفائدة تستدل بهِ الرجال الذين يودّون اختيار الزوجات ولا يعلمون من امر الفيزيولوجيا وعلم الفراسة شيئاً نأتي هنا على تقسيم الاربعة الامزجة وتفصيلها كالآتي (١)

المزاج الدموي

" الصفراوي } العصبي الصفراوي

" العصبي

" اللمفاوي

القسم الاول

﴿ في المزاج الدموي ﴾

يمثّل الرجل الدموي القوّة الطبيعية في اجلى مظاهرهـا واسمى صفاتها، فهو ذو هيكلٍ مستقيم ثابت ومتين، وتركيبٍ عضليّ متوفر النموّ، ومنكبين متسعين، ورأسٍ صغير، ووجهٍ مستدير، واديمٍ

نحيفا . ولذلك جاء في الحديث اغتربوا لا تضووا اي تزوجوا في الاجنبيات ولا تتزوجوا في العمومة

(١) جاء في كتاب السياسة في علم الفراسة للامام ابي عبدالله الانصاري ما نصه . ان المزاج اما ان يكون هو النفس او آلة لها في افعالها وعلى كلا التقديرين فالاخلاق الباطنة والخلق الظاهر لابد من ان يكونا تابعين للمزاج . واذا ثبت هذا كان الاستدلال بالخلق الظاهر على الاخلاق الباطنة جاريا مجرى الاستدلال

ابيض وصقيل ، ولونٍ زاهر ، وشعرٍ اشقر او خرنوبي ، وطبعٍ رشيق متخلّق بالخفّة ، يبوح بالسرّ ولا يقدر على كتمانهِ ، ويكثر من الادعاء بمقدرتهِ والاعجاب بنفسهِ . وهو مولعٌ بالاطعمة الفاخرة ، ميالٌ الى الافراح والتبذير والاتلاف ، ومغرمٌ بالازياء الجديدة وحضور المواسم والحفلات ومنتديات التمثيل . وهو مملّقٌ ، ظريف المحضر ، متسرع الحديث ، نشيط الحركة . الاّ ان اميالهُ نحو النساء قليلة الثبات . فهو اذا ملّ من مقامٍ يتركهُ في الحال ويذهب ليرتاد نجعةً اخرى ويورد شرعةً جديدة وعلى ذلك هو قليل الثبات ، طائشٌ ، كنودٌ ، وناكر الجميل ....

اما غيرتهُ في الحب فانها تلامس نفسهُ ولا تخترقها . اذ تلقاهُ نظير الفراشة (البشّارة) التي تعانق جميع الزهور بدون ان تثبت على واحدةٍ منها . اما اذا اغضبهُ انسانٌ ورماهُ بسهام قدحهِ وذمهِ ، فهو يحقد لكنهُ لا يطول زمن حقدهِ . بحيث انهُ ينتقم سريعاً وتكفيهِ بضعة ايامٍ لان ينسى السهم الذي اصابهُ والاهانة التي لحقت بهِ

وبالتالي فهو ميالٌ الى العشرة يوآلف باسهل ما يمكن ، ويودّ ان يكون محتاطاً بعددٍ عديدٍ من العشراء والخلاّن . اما النسوة الدمويات فهنّ عبلات الجسم ، ممتلئات البنية ، ناصعات اللون ، كثيرات التبرّج ، لطيفات الاخلاق ، محبوبات الطباع ، وتظنهنّ في حالة الحب والصبابة فرحاتٍ اكثر منهنّ مغمومات

القسم الثاني

﴿ في المزاج الصفراوي ﴾

يُعرف الرجل الصفراوي بلون اديمهِ الضارب الى الصفرة والسمرة ، وباشكال تراكيبهِ الجافّة والنادرة الوضوح ، وكذلك بوقفتهِ الثابتة ، وسيرهِ المحدود ، وحركاتهِ الثقيلة والقوية ، وملامحهِ الكمدة والمكفهرّة ، ونظراتهِ الحادّة والبرّاقة . ويغلب في صاحب المزاج الدموي التركيب الشرابيني . امّا في الصفراوي فان الدم الاسود او العروقي هو الغالب . ثمَّ تكون الصفراء فيهِ غزيرةً ودقائقها ممتزجةً فيهِ امتزاجاً شديداً . ومن المحتمل ان تكون هي سبب اهوائهِ الشديدة وكتمانهِ الغيظ . وان من خلقهِ التشامخ والعجرفة وقلة الصبر . يتظاهر بالعظمة وعلوّ الشأن وهو ممتلئ بالاطماع يسعى جهدهُ لاكتساب الثناء واحراز الاطراء والتمداح . الاَّ ان الرجل الصفراوي يتميز عمن سواهُ بذكائهِ ، وجرأة اقدامهِ ، وثبات جنانهِ ، واصرارهِ على متابعة الرأي الذي يبدو لهُ حتى بلوغهِ غايتهُ . ثمَّ يكون كلامهُ مختصراً وانشاؤهُ متسلسلاً وحرّيفاً (لذّاعاً) . وهو غضوبٌ شكس الطبع حادّ الاهواء ، فيهِ الاستعداد لكبر النفس والغيرة والحقد والانتقام ، وفي بعض الاحيان للقساوة . وتُشاهد بين الصفراويين

تلك النفوس النشيطة القابلة للفضائل الاكثر سموًّا وللجرائم الاشدّ تسفّلاً وهولاً . ويصف لنا التاريخ رجالاً يمثّلون المزاج الصفراوي، وهم نظير أشيل ، واجاكس ، وبيرحوس ، وانيبال ، وماريوس ، وسيلا ، وكثيرٌ من امثال هؤلاء الحكام (١) الذين بتروا رؤوساً كثيرة واهرقوا دماءً غزيرة بدون ان تحركهم عوامل الشفقة وتؤثّر فيهم مفاعيل الرأفة . ويُعدّ من امثالهم ايضاً اولئك الرجال الذين يتعصبون للديانة والسياسة

ويستطيع المرء ان يعلم مما تقدم ان الاهواء والرغائب في اصحاب المزاج الصفراوي تكون شديدةً ومستمرّةً فيهم . ذلك لان الحب والصداقة يدوم مفعولها في قلب الرجل الصفراوي نظير ما يستمر فيهِ الحقد وحب الانتقام . اما النساء الصفراويات فهنّ عموماً سمراويات اللون ، سوداويات الاعين، حادّات البصر ، يبدين العظمة والابهّة ، ويكْلَفنَ بالشخص الذي يتعشقنهُ ويكرسنّ انفسهنّ في سبيل حبهِ . الاّ انهُ الويل ثمّ الويل لهُ اذا فتر حبهُ او اظهر عدم الاكتراث بهنّ . فحينئذٍ يظهرنَ بمظهر الغيرة ويغضبنَ منهُ ويحقدنَ عليهِ ، ولا يحجمنَ عن الانتقام منهُ حتى ولو تسنّى لهنّ اشدّ الانتقام

(١) ويمكننا ان نعد بين هؤلاء السلطان عبد الحميد السابق

القسم الثالث

﴿ في المزاج العصبي ﴾

يتكيّف المزاج العصبي بنموٍّ عظيم في المجموع العصبي الدماغي الذي هو مركزٌ لشعورٍ بليغ وحميّةٍ فائقة مصدرها الوظائف الشاعرية . ويُعرف الاشخاص العصبيون بوجوههم النحيفة والكمدة ، وعيونهم البرّاقة ، وشعرهم الاسود ، وجسمهم الرقيق ، وعروقهم الكثيرة الظهور . ويُستدل من ملامحهم على السوداء واحياناً على الآلام والغموم . ويتقد اصحاب المزاج العصبي من جرّاء الذكاء وفرط النباهة المتخلقين بهما . حتى يكون الكثيرون منهم اصحاب مخيّلةٍ متقدة تضني اجسامهم وتعدمهم الحياة . ويصبح على الغالب شعورهم الفائق الذي لا يقابلهُ سوى بعض ملاذٍ نادرة سبباً لجملة ادواءٍ تحلّ بهم وتتمكن من ابدانهم . وذلك ما كان نصيب الخالد الذكر جان جاك روسو وامثاله

يأخذ المزاج العصبي في الغالب الحالة السيداوية ، فاذ ذاك يصبح الخُلق مقتماً مضطرباً مكتئباً واحياناً قاسياً . ومتى حلّت السوداء الشديدة محل الخُلق العصبي فتصبح الحياة اذ ذاك مرّةً والعيش مظلماً . واذا كانوا لم يتوصلوا بواسطة المعالجة البدنية ونظيرها العقلية

لاصلاح نوع هذا الداء العصبي الدماغي فلا يستمر المصاب طويلاً حتى يسقط في الداء السيداوي المطبق الذي تفقد به راحته ولم يعد له أملٌ بالحياة ويقضي ايامهُ مغموماً متألماً ، ويرى وجودهُ حملاً ثقيلاً عليهِ يتخلص منهُ غالباً بالانتحار

القسم الرابع

﴿ في المزاج اللمفاوي ﴾

يكون هذا المزاج بوجهٍ عامّ مزاج الاحداث واغلب النساء وخصوصاً نساء الاقاليم الشمالية . ويتميز عن باقي الامزجة بالاجسام الطريّة والرخوة التركيب واحياناً المترهلة . ويكون لون الشخص اللمفاوي قليل الحمار او ذا بياضٍ شاحب . ويكون قوامهُ غليظاً وثقيلاً كثير السمن اشقر الشعر وهو ذو حدقتين شهلاوين كمدتين خاليتين من اقل تعبيرٍ وادنى اشارة — ويكون اديمهُ كثير البياض مبسوطاً فوق نسيجٍ كهفيّ ممتلئ بالدهن قليل الصلابة . اما سيرهُ فهو ثقيلٌ ومتلبّك وتدل حركاتهُ واشاراتهُ على التواني والثقالة . بحيث يأكل الرجل اللمفاوي ويتكلم ببطء ، ويتحرك على مهلٍ ، ويعمل اعمالهُ جميعها بتمهّلٍ وتعب . وهو عديم الكبرياء منزّه عن الادعاء . يرى الرجال ذوي الاطماع يسرعون وراء الشرف ونيل النصر والافتخار وهو

مع ذلك لا يقتدي بهم ولا يلتفت اليهم . بل تلقاهُ يقتصد ويجمع بدون ان يفعل فيهِ التأثر وتستفزّهُ عوامل الغيرة والحماسة . ومما يقال انهُ يُشاهد بين الرجال اللمفاويين اولئك المسكون الشحيحون

اما الرجل اللمفاوي فانهُ يتألم بصبرٍ ويحتمل المصائب والنكبات بسهولةٍ وثبات جأش ، وتلقاهُ عديم التصوّر عديم الاشتهاء . لا يذهلهُ شيءٌ ولا يستفزّهُ امرٌ . يحتسب الجميل نظير الدميم ولا يفرق بينهما تقريباً . ويظل بازاء الامر الذي يحرّك الآخرين ويؤثّر فيهم بشدّةٍ وحمّية ساكناً بارداً كأنهُ قطعةٌ من صخر او قالبٌ من جليد

وكذلك النساء اللمفاويات فهنَّ لطيفات الطبع فاتراتٌ بليدات لا يداخلهنَّ الحقد ولا يمازجهنَّ التألّم يصبرنَ على المكاره ويجزنَ بهدوٍ شعاب الحياة الدنيا . واذا بزغ عليهنَّ في بعض الاحيان شعاعٌ من اشعّة الحب وسخّن روحهنَّ المتخدرة ، فلا يلبثنَ قليلاً حتى تنطفي فيهنَّ تلك الجذوة ويعدنَ الى حالة جمودهنَّ السابق . وبالتالي فهنَّ حليماتٌ صبوراتٌ عديمات الاذى تشاهد بينهنَّ الزوجات الامينات والامهات الصالحات

نرى الواحد من الاربعة الامزجة الرئيسية التي كيفناها واتينا على تفصيلها يتحد مع الآخر ليحدث المزاج المختلط . ذلك انهُ اذا اتحد المزاج الدموي باللمفاوي فيتكوّن منهما المزاج اللمفاوي الدموي . وكذلك اذا اختلط الصفراوي بالعصبي فيحدث عنهما المزاج الصفراوي العصبي الخ الخ .... اما الامزجة المختلطة فهي كثيرة التنوّع وتتطلب

دأباً طويلاً وملاحظاتٍ وافية لمعرفتها تمام المعرفة والتفريق بين انواعها حق التفريق . ذلك لان الالمام التام بالامزجة هو ضروري وبمكان من الاهمية . اخصهُ في معالجة الادواء التي تنتاب الجسم وتطرأ عليهِ . فدرسها درساً مستوفياً يعود على المعتلّين بالنفع وعظيم الفائدة

على انهُ اذا كانت الآباء والامهات يورّثون مواليدهم بعض الشيء من امزجتهم وخصائصهم ، وهذا مما لا يقبل الشك . فيحصل من ذلك ان زوجين صفراويين صرفاً ينسلان مخلوقاتٍ ذوي تركيبٍ صفراوي ربما كانت درجتهُ اسمى من درجة مزاج الوالدين . ولا ريب بان في الزيادة مضرّة . وكذلك ان اثنين لمفاويين بحتاً ينقص فيهما بالطبع النشاط الحيوي ، ربَّ انهما يولدان اولاداً اكثر بلادةً واوفر جموداً منهما حتى يصبح النقص الحيوي مستحكماً في نسلهم والنقص بالمثل مضرّة — الاَّ انهُ بعكس ذلك اذا اقترن صاحب المزاج الدموي او الصفراوي بالمزاج اللمفاوي . اي اذا اجتمع الافراط بالتفريط فينتج عن ذلك التوازن التكميلي وهو القاعدة التي يُستند عليها في تحسين اصناف الحيوانات الداجنة

يوجد بين جنسيّ التذكير والتأنيث بعض ملحوظاتٍ خصوصية قليلة الشيوع حتى يومنا الحاضر ، يتوقف عليها أمر التلقيح او العقم الموقّت . ويدور ذلك بلا شك على قلة الامتزاج الذي يحصل بين مزاجي الزوجين المختلطي المزاج . بحيث انهُ لكيما يكون الزواج مثمراً

يقتضي لذلك بعض امتزاجٍ مادي ومعنوي وموافقة في عموم الطبع ، يكون مصدرها الانعطاف الفطري والميل الغريزي . ولقد تحصل هذه الموافقة في ان تختلف طباع المتقارنين . وذلك ان الرجل الغضوب والشرس الخُلق محتاج الى شريكةٍ هادئة وزوجةٍ صبورة — والمرأة المتقدة الطبع الكثيرة الميل يجب عليها ان تختار مشاركة الرجل الاقل حميّةً وميلاً . اذ اننا نُشاهد فيما يلي انهُ كلما كان القران اشد تهيّجاً واكثر حدّةً ، كلما تعذّر معهُ التلقيح وامتنع النسل . ثمَّ انهُ اذا كان المزاجان كثيري الحميّة او شديدي البرودة ربَّ انهما يتنابذان ويتضادان فيقتضي اذاً والحالة هذه ان حرارة الواحد المتقدة تقوم باحماء فتور الآخر

ولننتقل الآن الى تبيان بعض العلامات الفراسية التي بواسطتها يستطيع المرء ان يعرف طباع الاشخاص وما عندهم من النشاط او الضعف بالنظر الى الفعل الجنسي (١)

يُستدل في الانسان على اللطف والدماثة والكرم من المحيّا المقبول الهادي ، والجبهة الساكنة ، والنظر الصافي ، والصوت العذب الذي يحلو وقعهُ على الاسماع وتصل نبراتهُ الى مخادع الفؤاد

وتُقرأ صورة الخباثة والقساوة والحفاء في الوجه اليابس المتقبّض ،

(١) جاء في كتاب السياسة في علم الفراسة للامام ابي عبدالله الانصاري ان رائضة البهائم يستدلون بالصفات المحسوسة للخيل والبغال والحمير وسائر الحيوانات التي يريدون رياضتها على اخلاقها الحسنة والقبيحة . فاذا كان هذا المعنى مظهراً للخصال في حق البهائم والسباع والطير فلان يكون معتبراً في حق الناس اولى

وفي العينين الغائرتين اللتين يعلوهما حاجبان كثيفان ، وفي الانف الطويل ، والشفتين الرقيقتين ، والصوت الاجّ الوحشيّ ذي النبرات الفظّة المصحوبة باشاراتٍ متقطعة . هذه جميعها طوالع سيئة ودلائل مستكرهة رديئة

و يُترجم عن الغيرة ، والحقد ، والحسد ، والشحاحة ، والفظاظة ، بعلو المنكبين وغور الرأس في الرقبة . وبمثلهِ بالقدمين المربعتين ، والانامل المعقّفة ، والاظافر الغليظة الشبيهة بمخالب الجوارح ، وبالجبهة المكفهرّة والمتغضنة غضوناً عامودية ، وبالعينين الغائرتين اللتين يتطاير منهما برقٌ اغبر ، وبالاجمال بالسيماء المتسم بها مجموع الشخص التي تشير الى كونهِ رجلاً شؤماً مكروهاً ومخيفاً

اما العينان فقد قيل عنهما انهما مرآة النفس التي يترجم بهما عن الشعور والاهواء النفسية . فالعينان الحسنتا الفتحة الواضحتان المتلألئتان تدلان على الذكاء والفهم . والعينان الشهاويان والسنجابيتان والكمدتان تشيران الى نفسٍ بليدة فاقدة الحماسة . وان العينين المستديرتين والسوداويين والبرّاقتين والنديتين تترجمان عن مزاجٍ شبق متقد وطبعٍ شكس . وكذلك ان العينين الزرقاويين والشهلاويين تشيران الى طبعٍ رقيقٍ ، فاترٍ هادئ ، وجبان

اما الانف الطويل الارنبة فانهُ يشير الى الخبث والدهاء . واذا كان متحركاً يشير الى طبعٍ ميال الى التهكم والاستهزاء . وان انفاً كبيراً ذا منخارين مفتوحين واذنين حمراويين وفماً متسعاً ذا شفتين

غليظتين متداليتين كل ذلك دليلٌ على الشبق والدعارة

ثمَّ ان وجنتين غليظتين وذقناً كبيرة وطلعةً جهمة (اي غليظة) وحمرآء تشير الى تركيبٍ لا فارق فيهِ . وان الرقبة العضلية والقصيرة هي رمز القوّة . وبمثلهِ الرقبة الطويلة والرقيقة هي عنوان الضعف والنحافة . اما الاشخاص ذوو المناكب العريضة والصدور المتسعة فالاعضآء التناسلية فيهم قليلة النموّ عادةً . وان الاشخاص الهرقليين المتمتعين بالقوّة البدنية فليس عندهم للحب مقام

يُستدل على المزاج المتقد من الملامح الآتية : وهو ان يكون الشخص ذا لحمٍ صلب ، والياف مشدودة ، واديمٍ كثيف ، وعينين سوداوين ، وشعرٍ اسود ونظراتٍ حادّة ، وجسم يابس وعصبي . وان النسوة الجافّات البدن ذوات النهود الضعيفة الكمدة اللون هنَّ اكثر تأثراً واشد ميلاً للحب من النسوة الدسمات ذوات الطلعة الطلقة . وكذلك النسآء اللواتي يوجد فوق شفتهنَّ العليا وفي صدرهنَّ شعرٌ فهؤلآء من المفرطات بالطبع الشهواني

نزفّ بنوع اخص هذه السيمآء الفراسية والاعتبارات المزاجية الى الاشخاص الراغبين في الزواج او القائمين بعقدهِ لبنيهم . الاَّ انهُ في بعض الاحيان وان تكن هذه الملامح الفراسية قابلة للالتباس وغير منزّهة عن الغلط ، مع ذلك فهي بوجهٍ عامّ من الامور المقررة الكثيرة النفع الصحيحة الدلالة يمكن للراغبين في الزواج ان يراعوها في

الشخص الذي يميلون اليهِ ليكون زواجهم اسعد حالاً واسلم عاقبة (١)

---

(١) اجمعت حكماء العرب على ان احسن الرؤوس تكوينا وادلها على كل محمدة هو الرأس المعتدل وضعه ومقداره مع مناسبة للبنية . وصفته ان يكون مستدير الشكل كانه كرة غمزت باصبعين عند صدغيه الى داخله ، وفيه نتوء يسير من مؤخره عند القمحدوة ، ومن مقدمته وهو ما تحت الناصية ومن ام الرأس مواطن البطون الثلاث . فانه اذا كان كذلك دل على العقل التام ، والفهم الحسن السريع ، والفكرة الصحيحة ، والتخيل الصائب ، وقوة الحفظ ، والتذكر ، والاتصاف بالصفات الحميدة

الفصل الثلاثون

﴿ في الدلائل الصحية المختصة بالنسل ﴾

يتعلق هذا الفصل بالزوجين خاصةً محتوياً على التعاليم الصحية والقوانين التي يجب عليهما ملاحظتها لينسلا اولاداً حسني التركيب مكملي القوى

على انهُ اذا كانت الشبان الاغرار يحتسبون الفعل الجنسي نظير شعور لذةٍ وعمل انشراح . فالرجل المدرك والرزين لا بـدَّ من ان يعتبرهُ عملاً من اجلّ الاعمال وفي منتهى الاهمية . بحيث اننا نرجع ونكرر ما نوهنا عنهُ سابقاً وهو ان حسن تركيب النسل او قبحهُ يتوقف قسمٌ كبيرٌ منهُ على الاحوال العقلية والطبيعية التي يوجد فيها الوالدان لدى قيامهما بتـأدية الفعل الجنسي . ذلك لان الرجل الذي يكون في حالة النقه من داءٍ المَّ بهِ او المنهوك القوى من جرّآء اتعابٍ عقلية او بدنية ، يجب عليهِ ان يتجنب مباشرة امرأتهِ و يعوّل للتقرّب منها على تدبيرٍ موافق يصلح بهِ ما اختلَّ من مجموع قواهُ البدنية

ومما يدخل في هذا الباب ايضاً الجماع المتوافر القريب التواتر ،

فهو مؤذٍ للزوجين ومسببٌ لهما الاضرار . ذلك لانهُ اذا تمَّ التلقيح بعد ان يكون الزوجان قد انتهكت قواهما وانهدت عزائمهما فلا بدَّ من ان يتأثر الثمر من هذا الضعف و يتخلق بهِ . وبعكس ذلك اذا تجامع الزوجان بعد ملازمتهما تدبيراً صحياً مدة خمسة عشر يوماً توصّلا بهِ الى ازالة ذلك الضعف المكتسب . فيمكن والحالة هذه ان ينسلا مخلوقاً صحيحاً ومولوداً متعافى

ومما يجب على الزوجين مراعاتهُ هو ان يمارسا الفعل الجنسي باعتدال وبدون ان يفرطا بمباشرتهِ مطلقاً . بحيث ان التطرف فيهِ يضرّ بالنسل و يضعفهُ ضعفاً شديداً . ولكي تكون نتيجة القران حسنة يلزم لذلك جمع الحواس والملاطفة والتستر لان الفزع والاضطراب والفظاظة في اثناء تأدية الفعل الجنسي مما يُضعف بها النسل وتكون من الحواجز التي تحول بين التلقيح الجيّد والصحيح

ويأتي من هذا القبيل ايضاً اتقاد الشوق المفرط ، والهيجان السرسامي الشديد المصحوب بالتشنجات والاختلاجات العصبية التي توخّر الرحم عن ابتلاعهِ للذرّات المنوية ، وتوقفهُ في الغالب عن ذلك تماماً — ثمَّ ان مخالفة الاصل في مباشرة الفعل الجنسي هي ايضاً من الامور المعاكسة للحالة الطبيعية ومضرة بالعمل التناسلي . بحيث قد نسب كثيرٌ من الفيزيولوجيين ردائة تركيب المولود وضعفهِ الى الفتور وقلة الحماسة اللذين يبديهما بعض الازواج في اثناء تأديتهما هذا الفعل الخطير . مع انهم يكادون يتقدوا حرارةً ويذوبوا تشوقاً اذا ما واصلوا

الخليلات واجتمعوا بربّات الصبابة والخلاعة . فعلى الوالد الذي يبغي حقيقةً ان يرزق بنين اصحآء ومتعافين ان يبذل جميع خصائصهِ الذاتية لدى قيامهِ بهذا الفعل الخطير الكثير الاهمية الذي ينيلهُ ذاتاً ثانية شبيهةً لهُ

ومما يجب على المرء مراعاتهُ ايضاً هو ان يتجنب الفعل الجنسي عقبى تناولهِ غذآءً وافراً . ذلك لان التشنج الشديد الذي يحدثهُ القذف المنوي من الجائز ان يوقف عمل الهضم ويسبب انسداد الامعآء وضيق الانفاس واحياناً دآء السكتة

تُعد من العوامل التي تعطّل نشاط العضو التناسلي الاطعمة الفاخرة ، والمشروبات الكحولية ، والحمية عن الاطعمة المغذية ، وتعاطي الحوامض ، وملازمة العفة زمناً طويلاً ، ذلك لان التفريط في الفعل الجنسي نظيرهُ الافراط بهِ ، وهما العاملان اللذان يتلفان الاعضآء التناسلية ويفقدانها القوة والنشاط

على انهُ وان يكن في امكان المرأة ان تستسلم بدون عنآء كثير للفعل الجنسي مراراً عديدة اكثر من الرجل ، فمع هذا يجب عليها ان تكون قنوعةً ولا تفرط في هذه اللذة الجنسية . اذ مما هو مقررٌ بان النسآء اللواتي يفرطنَ فيها كنَّ يبتلينَ فيما بعد بجملة ادوآء في الاعضآء التي تتكون منها آلتهنَّ التناسلية

يفيد الاستحمام بالمآء الحارّ اولئك النسآء ذوات التركيب الجافّ والصفراوي ، وذوات المخيّلة المتقدة . اللواتي لا ينسلنَ سوى

مخلوقاتٍ ضعيفة وهزيلة وفي الغالب يستمرّنَّ عقيماتٍ بدون ثمر. فمتى ليّن الاستحمام اعضاءهنّ التناسلية يسهل على هذه ابتلاع الزرع المنوي ويكون ذلك مجلبة التلقيح — ولقد اوردنا استعمال المهيّجات المعتدلة التي يجب على الاشخاص ذوي التركيب اللمفاوي البحت ان يستعملوها وان يتبعوا التدابير التي سنتكلم عنها في الفصل التالي فهي بلا شك من التوصيات الحكيمية التي لا بدّ من انها تؤثّر في الخلف لا محالة

وليست جميع الايام مناسبةً لتخليف النسل، وليس مباحاً للازواج ان يباشروا نساءهم في اي يومٍ من ايام الشهر. اذ انهُ بالاستناد على ابحاث كثيرين من الفيزيولوجيين انهُ يتعذّر حصول الحمل بمقدار ما تكون المرأة قد ابتعدت عن مدة الحيض. وبعكسهِ يصبح التلقيح من الامور المؤكدة تقريباً متى تمّ الجماع قبل او بعد سيلان الحيض. فبناءً على هذا المبدأ يترتب على الازواج الذين يرغبون في النسل ان يباشروا نساءهم اربعة ايامٍ قبل ظهور الحيض او اربعة ايامٍ بعدهُ. وبعكسهِ ان الذين لا يودون ان يثمر جماعهم يمكنهم والحالة هذه ان يقتربوا من نسائهم في باقي ايام الشهر

توصيةٌ في منتهى الاهمية — يجب على المرأة الحامل ان تتجنب كل انواع التعب وكل تأثّرٍ فعّال ومستكره، والافراط في اي نوعٍ كان. ذلك لانهُ في مدة الحمل تكون الاعضاء التناسلية مقرًّا لاعظم حركةٍ حيوية، ومركزاً لاحساسٍ مفرط. فأقل انزعاجٍ في المجموع العضوي، واصغر تشنّجٍ رحميّ يمكن ان يؤخّر حركة الجنين ويعيق

نموَّهُ او يطبع فيهِ تغييراً رديئاً . ويجب على النسآء اللواتي حملهنَّ شاقّ ، والمعرّضات للانتكاسات الصحية ، ان يبتعدنَ عن ازواجهنَّ في الوقت الذي يشعرنَ فيهِ بانهنَّ حوامل ولا يقربنَ منهُ الاَّ شهرين بعد الوضع . فاذ ذاك ينقص عـدد المواليد المشوّهي الخلقة ، وتقل العوارض التي تصحب الوضع من قبلهِ او بعدهِ

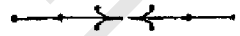

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ في تأثير تصوّر الحامل على الجنين ﴾

كان تأثير التصوّر على الجنين مبالغاً فيهِ في كل زمنٍ من الاشخاص المتحزبين لهُ والمائلين اليهِ . بحيث كان يعزو البعض الى تصوّر الوالدة قوةً فائقة على ثمرتها . وكان ينفي البعض ذلك بتةً . اما بالنظر الينا فاننا نذهب مع الذين يتراءى لهم ان افكار واهواء الام من الجائز في بعض الاحوال ان تغيّر شكل تصوير الجنين وتخالف سيرهُ . ولا بدَّ من انهُ على هذا الاستناد سار ذلك المثل المأثور وهو « ان العقلي يؤثّر على الطبيعي »

ينطوي تحت تأثير التصوّر على الجنين افتراضان اولهما ان التصوّر الذهني من الجائز ان يستحيل الى مادة . وثانيهما قد يجوز ان يحصل التأثير بدون ان يكون للارادة والاعصاب اتصالٌ بهِ . ذلك ما تبرهنهُ لنا التجارب في كل يوم . لاننا نشاهد بالحقيقة ان الفكر والتصوّر الذهني يميان دائماً فينا سيلان الاخلاط ويكيّفان الدورة الدموية . وكفى بذلك ان نفتكر بطعمٍ من الاطعمة اللذيذة التي توافق ذوقنا ، او

باحدى الحلويات حتى يملأ الافراز اللعابي فمنا . ويكفي لذلك ان يفاجئنا فرحٌ او فزعٌ حتى يحمرّ او يصفرّ وجهنا ، او تستعجل او تبطيء ضربات قلبنا. وعلى هذا الاستناد يُحتمل كثيراً ان تكون الانفعالات والصدمات العقلية التي تتأثر بها الام في اول زمن الحمل يرنّ صداها في تصوير الجنين الذي لم يزل في الحالة الهلامية ويتأثر بها . فلدى حصرنا مفعول التصوّر الذهني في التصوير الجنيني على هذه الكيفية اصبحنا مضطرين الى الاقرار بان بعض الزيادة او النقص الذين يحدثان بطريق الشواذ في جسم الجنين يكون هذا التعليل مصدرهما

ويجب علينا من جهةٍ اخرى ان نصدق بعض التصديق بتلك الحوادث التي اوردها لنا اولئك الرجال العقلاء والمتنورون ، فضلاً عن الملحوظات والتقارير التي تركتها لنا الاساتذة العظام نظير ابوقراط ، واريستوط ، وبلينوس ، وغاليان ، وستالح ، وڤان ، وهلمونت ، وهوفمان ، وبوهرهاف ، وبلومیناش ، وديكارت ، ومالبرّانش ، ولوق ، وڤولتير ، وبيرّانت ، وبرادلاي الخ . . . . اذ قد اعترف جميع هؤلاء الرجال الذين قد اشتهروا بذكائهم واتصفوا بفرط معارفهم بمفعولات التصوّر الذهني في الجنين وتأثيرهِ عليهِ (١)

على انهُ يوجد امتزاجٌ مدهش بين اعضاء الانثى واعضاء الجنين بمعنى ان التغيّر الحاصل في اعضاء الام تتأثر بهِ اعضاء الجنين

(١) ذكر الدميري في مؤلفه حياة الحيوان . انه متى صورت صورة صبي حسن الوجه ونصبت قبالة المرأة بحيث تراه وقت الجماع خرج الولد شبيه تلك الصورة في اكثر الاعضاء

المقابلة لها . ذلك ما نشاهدهُ فيما يلي وهو ان اعضآء الام تحدث في بعض الاحيان تغيّراً في اعضآء الجنين مشابهاً لها

اصيبت غزالةٌ حاملة بطلقٍ ناري في الجانب الايمن من رأسها وقد ولدت بعد ذلك شادناً فيهِ جرحٌ في الجهة عينها

وضعت امرأةٌ شريفة المحتد في زمن ابوقراط مولوداً زنجياً مفلفل الشعر متغضّن الاديم ، وقد حكموا عليها بالقصاص لان زوجها اتهمها بالخيانة والزنا . الاَّ ان ابا الطب ابوقراط نظر في الامر فظهر لهُ ان صورة اميرٍ اسود كانت موضوعةً بجانب فراش المرأة ، وانهُ بمقتضى تصوّرها الشديد لهذه الصورة حصل التأثر الذهني وسبّب وجود هذا المولود الشاذّ الخلقة

ذكر هيليودور ان اميرةً حبشيـة سوداَء اللون نظير الابانوس ولدت ابنةً بيضاَء نظير الثلج . ذلك لانهُ في اثناَء حملها كانت عيناها متجهةً دائماً نحو تمثالٍ رخاميّ جميل الصورة يمثّل اندروميد (١)

فزعت امرأةٌ حامل من رجلٍ مستجدي قدّم لها ولداً كسيحاً دميم المنظر في قصد ان تنيلهُ احساناً وقـد لازمها الخوف مدة حملها

---

(١) ولا بأس من ان نورد هنـا ما جاء في سفر التكوين في الاصحاح الثلاثين عن الاغصان المرقطة التي وضعها يعقوب قبالة الغنم عند ورودها الماء وهي بنصها

واخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضراَء من لبنى ولوز ودلب . وقشر فيها خطوطا بيضاء كاشطا عن البياض الذي على القضبان واوقف القضبان التي قشرها في الاجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب . تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا الخ ..

من ان تضع مولوداً شبيهاً لذلك الكسيح . ومع ذلك قد وضعت مولودها فجاء تام الخلقة صحيح الجسم . الاَّ انهُ في اثناء حملها الثاني قد عاد فلازمها ذات الخوف وقد وضعت في هذه المرّة مولوداً كسيحاً شبيهاً للذي كان قد قدمهُ لها ذلك المستجدي

ومما يسهل فهمهُ في هذه الاحوال المختلفة ان التصوّر او بالاحرى الدماغ قد اوصل تأثيرهُ الى الرحم وقد فعلت تقبضات هذا العضو في تصوير الجنين فعلاً حيلياً (ميكانيكياً) كانت نتيجتهُ اما توقفٌ عن النموّ ، او نموٌّ زائد ، او نقصٌ في التركيب

وضعت احدى النساء في اواسط القرن السابع عشر مولوداً مكتسياً جسمهُ بالشعر واذ شاهدتهُ القابلة التي كانت قائمةً بتوليدها فزعت وولت هاربةً ظناً منها بانها تلقت دباً صغيراً بين ايديها . وقد ضجّت المدينة في الحال بأمر هذا الحادث وحكم على هذه الوالدة التعسة ان تزجّ في اتون النار لداعي اجترامها الفعل الوحشي . اما المحامي الذي تولّى الدفاع عنها فانه قد نفى التهمة الموجهة اليها بقولهِ ان المدّعى عليها بريئةٌ مما نسب اليها . وما ذلك الاَّ لانها كانت في اثناء حملها تنظر بتيقّظٍ كليّ الى صورةٍ منقوشةٍ تمثّل القديس يوحنا المعمدان مرتدياً جلد الخروف . ثمَّ اردف على ذلك بانهُ من ذلك الحين لم تنقطع هذه المرأة يوماً من الايام عن ركوعها امام هذا التمثال وتقدمتها الصلاة الحارّة لهذا القديس — ولقد استطاع المحامي لحسن الحظ ان يجعل مدّعاهُ مقبولاً ويبرّيء المرأة مما اتهموها بهِ . ولا سيما

وان في تلك الازمنة الفائضة بالخرافات والشعوذات كان لاستحضار القديسين وبمثلهم الابالسة تأثيرٌ عظيم

اورد شمبت انهُ في مدة حبرية البابا مارتان الرابع وضعت امرأةٌ رومانية ذات شهرةٍ بين قومها مولوداً كان كل جسمهِ مكتسياً بالشعر

وقد ذكر بلينوس الطبيعي قصة امرأتين من نساء زمانهِ وضعت الواحدة منهما مولوداً شبيهاً بالفيل لانها كانت نظرت بامعان واحداً من هذه الحيوانات الغليظة الاجسام . وولدت الاخرى مولوداً من نوع الثعبان لانها فزعت من احدى الدبّابات في مدة حملها

اورد يوليوس اوبسيكونس وهو المغرم بالغرائب والنوادر انهُ نحو اواسط القرن الخامس عشر ولدت امرأتان ايطاليتان الواحدة منهما كلباً والاخرى هرًّا

وانهُ من الامر الغريب الذي لا يمكن تصوّرهُ ما ذكرهُ البارع بايلي بين كتاباتهِ وهو ان فرساً ولدت عجلاً وان امرأةً وضعت هرًّا اسود، وقد ابقوا على العجل وتركوهُ يربى اما الهرّ الاسود فقد احرقوهُ حياً بامر المجمع المقدس لزعمهم ان هذا لا يمكن ان يكون مولوداً الاَّ من الشيطان

اما هذه الامثال الاخيرة فانها تشير الى ثلاثة امور فقط . الاول انهُ يوجد بعض علماء سريعي التصديق . والثاني ان لبعض الكتبة تصوُّراً مولعاً بالغرائب نظير ما للنساء . والثالث انهُ من الواجب ان يساء الظن ببعض المرويات ورواتها

اما بالنظر الى الغدد الجسمية التي تكون على شكل الفرصاد (الفراوله) والكرز والخوخ والمشمش والتين والعنب وعنب الثعلب (الكشمش) الخ .... التي توجد في جسم المولود منذ مولدهِ فلا شك بان اعين الوالدين او الاشخاص السريعي التصديق هي التي ترى وجه الشبه بينها و بين الاثمار التي على شاكلتها . بحيث انهُ لا يوجد ادنى تشابه بين هذه الغضون الجلدية و بين الاثمار الشبيهة لها. وتوجد بالمثل ايضاً بقع خمرٍ او قهوة او شكولاتا الخ .... تلك التي يستبعد ان تكون من نتاج التصوُّر الذهني، وهي التي تُشاهد على الغالب في الاولاد الذين يكون والدوهم مصابين بادواءٍ جلدية . اما هـذه البقع فمركزها في طبقـة الاديم السفلي وهي لا تقبل المحي واذا ما رغبوا في ازالتها يجب ان ينزعوا النسيج الذي هو تحت الاديم . وان التقطيب الذي ينتج عن ذلك يكون اكثر دمامةً واشد قبحاً مما لو استمرت البقعة على حالها الاولى

الفصل الثاني والثلاثون

« في التغير التي تطرأ على المخلوق البشري من جرآء الغذآء والتطبع الجسمي »

اذا تمّ عقد الزواج بين الرجل والمرأة فاول امرٍ يجب عليهما مراعاتهُ والاهتمام لهُ . هو ان يوجّها كل اعتنآئهما نحو المولود العتيد ليقدّما الى الهيأة الاجتماعية عضواً صحيح البنية ، سليم العقل ، مكمّل التركيب . اما الطريقة التي يجب اتباعها للحصول على هذه النتيجة الحسنة فهي تنحصر في الاسطر التالية

لما تضع الام المولود الجديد فاول امرٍ يجب ملاحظتهُ ، هو ان تقوم بمساعدة الطبيعة على سيرها الطبيعي وبزجرها عن ميلها المعوجّ . ثمّ ان تجعل للطفل غذآءً منظّماً بواسطتهِ تقوى اعضآء جسمهِ التي هي اوائل الحياة . وكذلك ان تتابع التدابير الصحية التي هي ثمرة التجارب الناجحة بعد تكرار الامتحان والاختبار . وذلك لتضمن للانسان العتيد النموّ الكامل في خصائصهِ الطبيعية والعقلية . اذ ان هذه هي الغاية التي يجب على الوالدين والمربّين ان يوجّهوا نحوها جلّ اعتنآئهم ويبذلوا في سبيلها معظم اجتهادهم . وليست هذه التربية في

الحياة الحيوانية هي من قبيل الخيال او الرجم بالغيب ، كما يخالها البعض وتتبادر لاذهانهم . بل هي من الحقائق الواضحة والامور الراهنة التي تتجلّى للمطالع من السياق الآتي

انا اذا حوّلنا الطرف في بادئ بدء نحو العالم النباتي نشاهد ان زهور الحقل تصبح مثناةً او مثلثة الطبقات لدى غرسنا اياها في حدائقنا . وكذلك تأخذ فيها بعض الاشجار ان تثمر اثماراً اكبر حجماً واذكى طعماً من التي من نوعها في الحقل . وبمثلها بعض الغرسات التي تكتسب نموًّا هائلاً وقدًّا باسقاً . وكل ذلك بواسطة الوسائل التي يزفّها الينا علم الزراعة . وقد اكد المسيو بوفيس بانهُ قد رشّ بطيخاً ببول المواشي على حسب طريقتهِ فبلغ ثقل الواحدة خمس وثلاثين حتى الاربعين ليرةً بدون ان تفقد شيئاً من طعمها ورائحتها

على اننا اذا انتقلنا الى العالم الحيواني نجد ان نموّ شكل الحيوان يرجع دائماً الى كيفية التغذية والتطبع الفطري . وفضلاً عن ذلك فقد بيّن العالم دومريل ان امر اذكار النمل واناثهِ يتوقف على نوع التغذية ومقدار الهواء الذي ينالهُ منهُ . وقد توصّل الاستاذ ميلم ادوار الى ايقافهِ تغيّر شكل صغار الضفدع وذلك بحرمانها من النور والهواء . بحيث انهُ جعلها ان تنمو وتكتسب حجماً كبيراً وهي باقية على شكلها الاصلي . ومن ثمَّ ان بيض الاوز والدجاج التي ينقفونها بالوسائل الصناعية قد تخلّف تغيّراً شاذًّا في بعض اجسام جسمها ، ويعزون ذلك الى مقدار الحرارة التي تصيب ذاك القسم في اثناء الحضانة

على انهُ بمقدار ما يرتقي المخلوق في السلّم الحيواني بمقدار ما يكون لتطبعهِ اكثر اهميةً واشدّ تأثيراً . ذلك لان الشعوب التي كانت في الازمنة الغابرة عريقةً في الخشونة ومتأصلةً في الهمجية قد احرزت بطريقة التربية الطبيعية النشاط والجراءة والاستخفاف بالآلام حتى بالموت ايضاً . ولقد احرز اليونانيون الاقدمون جمال البنية وبلغوا منهُ اسمى المراقي مع ان اسلافهم المصريين والبسالجة كانوا بعيدين عنهُ بمراحل شاسعة . ولقد زعم هيرودتس المؤرخ بان اليونانيين مدينين بهذا الجمال الطبيعي الى قانونٍ من قوانين صولون القاضي بمراعاة نسبة العمر والمزاج في انتخاب الازواج . فضلاً عن تلك الصور والتماثيل التي كانت تمثّل الخلقة البشرية في اسمى درجات الظرف وابلغ سيآء الجمال، فلا يبعد ان تكون هي العاملة على تحسين الجنس . ذلك لان كثرة وجودها في الميادين العمومية والمعالم الفخيمة ومنازل الخاصّة كان ذا تأثيرٍ فعّال اثّر في هذا الشعب النشيط الفائض بالعبقريين وارباب الفنون واثّر بشدّةٍ في تصوّر النسآء الحوامل

اما قوم الاتراك في ايامنا الحاضرة الذين يبهرون الانظار بملامحهم المعتدلة وبنيتهم القوية يتسلسلون مباشرةً من قوم التتر الذين لا تختلف سيآؤهم كثيراً عن الشكل الصيني . وان سبب تحسّن الصنف التركي وبلوغهِ هذه الرفعة من الجمال الطبيعي، هو اقتران رجالهِ بالنسآء القوقاسيات وعلى الاخص باليونانيات ، يوم كان الرقّ منتشراً وضارباً اطنابهُ في تلك الممالك الجميلة والربوع الخصبة

كانت لبعض القبائل في افريقيا وامريكا واستراليا عادةً قديمة وهي ان يشدّوا رؤوس الاطفال و يضيّقون عليها حتى ينموّ القزال (مؤخر الرأس) ويقلّ نموّ مقدّمهِ . ثمَّ ان هذه العادة وان تكن قد زالت في يومنا الحاضر ، الاَّ انهُ مع ذلك قد استمرَّ شكل الرأس مستطيلاً نظير بطيخة القاوون ، وذلك ما يبرهن على ان الشكل يكون في الاصل عملياً ثمَّ يصبح على التوالي طبيعياً

كان العقل مشكاة الانسان في كل نقطةٍ وجد فيها من الكرة الارضية ، فكان بهِ يستنير ومنهُ يستدل على معرفة الاشياء وما لها من الخصائص والمفاعيل . حتى انهُ من فرط ما قرع الانسان بهِ باب الطبيعة وتتبع نواميسها ، امكنهُ ان يستطلع اسرارها ويقف على دخائل امرها ومكنون اسبابها . حتى توصّل اخيراً الى اكتشاف بعض نواميس المادة الحيّة ، واستطاع ان يوقف او يعجّل الحياة حسب مرادهِ ورغائبهِ ، وان يجعل المخلوق شديداً قويّاً او ضعيفاً هزيلاً . ولدينا في كل يومٍ شواهد عديدة على تحسين الانواع وتغيّر اشكالها التي قد توصّل البعض الى ايجادها في الحيوانات الداجنة

نرى النتائج التي احرزها بقويل كثيرةً وبمنزلٍ من الاهمية لا نستطيع تخطئتها ورميها باقل نقص ومذمة . ذلك لانَّ هذا العالم البارع بعد ان قضى خمسة عشر عاماً في التجربة والاختبار ، قد توصّل اخيراً الى ان يوجّه العصارات المغذية الى هذا العضو او ذاك ويمنعها عما يشاء . بحيث ان البقر التي كان يربّيها للذبح كانت ذات

ساقاتٍ قصيرة ، وكرشٍ ضيّق ، وعظامٍ دقيقة ، واديم رقيق . وبخلاف ذلك كان صدرها والمسافة التي بين وركيها واسعين ولحيمين جداً ، وكان مجموعها العضلي يوازي ثلثي ثقلها . وقد تراءى لبقويل ان القرون في البقر التي تُربّى للذبح هي عديمة الفائدة ، فلهذا قد اوجد صنفاً من البقر بدون قرون . اما انكلترا فانها مدينةٌ لهذا المربّي الشهير ببقرها الجسيمة الابدان وبكبار خيلها وضانها الجيّد

ولقد شاع استعمال طريقة بقويل في جميع اوروبا واخذ فن تربية الماشية يتحسن يوماً فيوماً ، وعُرفت افضل الصفات العضوية التي يجب ان تحرزها الحيوانات حتى تكون سمينةً او هزيلةً او عضلية . وقد اختبروا العلف الانسب لانواع التغذّي على اختلافهِ ، وقد اطلقوا على هذه الطريقة اسم الترويض . وهي التي يجوز تطبيقها على الانسان باحسن ما يمكن . ويبرهن لنا على ذلك قوم الانكليز انفسهم في ملاكمينهم وحوذييهم بحيث يكتسب الاولون نمواً هائلاً في مجموعهم العضلي . ويفقد الآخرون سمنهم وربالتهم حتى ينقص منهم مقدار نصف ثقلهم

ثمّ ان التدابير الترويضية لا يتناول مفعولها الانسجة الدهنية والعضلية فقط ، بل انها تصلح كل الاعضاء وتنقّي جميع اقسام الجسم كالقلب والرئتين والدم الخ . . . . ويحيط تأثيرها ايضاً بكل وظائف المجموع البدني . ونعيد الكرّة هنا على المسألة الغذائية التي سبق لنا الكلام عنها في الفصل العشرين من هذا المؤلف . ولنبيننّ من جديد

انواع الترويض الجاري استعمالهُ في انكلترا فنقول

تتعلق التدابير المقتضيـة لانماء الاقسام اللحمية في التعويل على الاغذية القليلة المقدار الحاوية كمية وافرة من الاسباب المقوية. وذلك نظير اللحوم المشوية ومرقات اللحم الخ .... وايضاً بعض المسهلات التي تُعطى للشخص بين وقتٍ وآخر، فانها ذات فائدتين وهما تنظيف الامعاء واثارة شهوة الطعام

ثمَّ انهُ ما خلا ذلك ان يلازم الشخص يومياً رياضةً بدنية (جمنستيك) تكون في الاول قليلة التعب، ثمَّ يأخذ بالزيادة متدرجاً بكيفيةٍ غير محسوسة، حتى يتوصل بها الى التقبّضات العضلية الاكثر شدةً وعزماً

اما التدابير المقتضية لتقليل السمن فينحصر امرهـا في الحركة وقلة التغذية، وهو ان يتناول الشخص غذاءهُ بمقدارٍ قليل جداً ويقتصر في ذلك على اللحوم البيضاء الخالية من الدهن الكثيرة التوابل. ثمَّ على الخضر المطبوخة بالماء بدون سمن او خلاف مادةٍ دهنية، وعلى الفاكهة والمشروبات المحمّضة المدرّة البول. وكذلك على الخمور البيضاء والقهوة السوداء الخ .... ويضاف الى ذلك ايضاً الاطعمة المعرّقة والمسهلات الملحية مـع مراعاة المدى في تعاطيها. وكذلك الرياضة البدنية الطويلة المدة التي لا يجوز الاستغناء عنها. ويشيرون ايضاً بركوب الخيل والدرّاجات ولعب السيف والترس والرقص والسباحة. وبالتالي بالنزهات الطويلة المسافـة والسير على

الاقدام الى درجة التعب . وانهُ اذا اتبعوا هذه التدابير جيداً فلا بدَّ من ان تضمر بواسطتها اكبر البطون و يفقد الشخص السمن والرِّبالة . ولقد تكلم الدكتور ويلد الانكليزي عن امرأةٍ فتيّةٍ ذات سمنٍ مفرط قد اتبعت في مدة شهرين هـذه التدابير فنقص سمنها سبعاً وتسعين ليبرة

على انهُ متى لم يكن الهزال متأتياً عن داءٍ عضوي فالطريقة التي يُتوصّل بها الى السمن تقوم بتوجيه العصارات المغذية الى النسيج الخلويّ . بحيث انهُ قد اتضح من التجارب الجديدة ان مواد الاطعمة الدهنية تذهب مقيمةً ذرّةً فذرّةً في حلقات النسيج الخلويّ . وعليهِ تكون اللحوم الدهنية ، والزبدة ، والزيت ، والنشائيات ، والدقيق المجهّز بكثيرٍ من المواد الدهنية ، هي من المسمنـات التي يجب ان يقتصر عليها الراغبون في السمن والمتشوقون اليهِ . اما بالنظر الى المشروبات ، فان الجعة وشراب التفاح الجديد العهد ، واللبن ، وشراب العسل ، والاستحمامات بالماء الفاتر ، والغذاء عند الخروج من الاستحمام ، والرقاد في الفراش زمنـاً طويلاً بمقدار ما يستطاع السبات ، و بعض فصاداتٍ قليلة تُعمل للشخص بين حينٍ وآخر ، و بعض المسهلات التي بها تهيّج المعدة وتستيقظ القابلية . وبالتالي قليلٌ من الرياضة وكثيرٌ من الراحة . وقد اورد الدكتور الانكليزي المشار اليهِ ذكر امرأةٍ اخرى كانت مهزولةً وانها بواسطة هذه التدابير الصحية قد سمنت واصبحت جسامتها هائلة

فيستنتج مما تقدم ان التغذية تجري مفعولها في جميع اقسام المجموع الجسمي لكنهُ من الممكن بخلاف ذلك ان توجّه العصارات المغذية الى القسم الذي يُرغب ان توجّه اليهِ ، وتمنع عن ذلك القسم وتلك الجهة المرغوب عنها ، وهذا ما نبرهن عنهُ فيما بعد (١)

اما بالنظر الى غذآء الاولاد الرواضع فان رجالاً اختصاصيين قد اوضحوا اخطار المواد المغلية وخلاف اغذيةٍ من هذا النوع ، التي يلجئون اليها عند نقصان لبن المرضع وعدم كفايتهِ للطفل الرضيع . بحيث يموت فريقٌ من الاولاد من جرّآء هذه الاغذية ويظهر على الذين يسلمون من يد المنية ملامح واضحة تدل على قبح تركيبهم وضعف بنيتهم . ولقد تبين ما خلا ذلك ان الضعف والهزال اللذين يتسببان في الاشخاص في حالاتٍ متعددة يكون سببها نوع هذه التغذية

على ان خير غذآء يُعطى للطفل متى لم يعد لبن المرضع كفواً لهُ هو نقيعٌ يُصنع من لباب الخبز والماء المحلّى بالسكر . ثمَّ انهم يستعيضون

---

(١) افرد ابن سينا فصلا في قانونه فيما يختص بتسمين عضو عضو كاليد او الرجل او الشفة او الانف الخ ... واشار الى ان هذا لا يحصل من جهة المأكول والمشروب فان ذلك عام للبدن . بل من جهة جذب الغذآء اليه وصبه عليه في تحويله الى طبعه ، وذلك بالدلك المحمر بالخشونة ، وبالادوية المحمرة ، وبصب الماء الفاتر ، وبخلاف وسائل اخر . واجمع جالينوس ومن تابعه من الحكماء على ان الدلك الدائم والتمريخ بالزفت والزيت يعظم كل عضو من الجسد ويسمنه ويزيد في اقطاره اذا فعل به ذلك مراراً . ولا خلاف عندهم ان هذا العضو اذا فعل به ذلك عظم عما كان عليه . والعلة في ذلك ان الغذآء ينصب فيه فيسمن

عن هذا الاخير بالمرق متى كان الطفل محتاجاً للتغذّي الوافر

توجد عللٌ تصيب مجموع الاعضاء بتمامها وهي نظير داء الكساح الذي يضعف العظام ويزيغ السلسلة الفقارية عن حالتها الطبيعية، وكذلك الداء الخنازيري، والداء الدم الخ .... فهذه العلل يمكن شفاؤها بواسطة تغذيةٍ خاصة بها . اما نظير ما يُعرف بهِ الكساح وهو ان سببهُ نقصٌ في التناسب بين مركّب الفوسفات الكلسي والمركّب الهلاميّ الذين تتكون منهما العظام . بحيث ان مفرزات هذا الاخير اي الهلاميّ اذا كانت اكثر غزارةً من الفوسفات او بالعكس، فيصبح من السهل ان يُساعد على زيادة افراز الواحد وتقليل مفرزات الآخر . ومتى تمكّنوا من الوصول الى هذا العمل يتلاشى داء الكساح وتستعيض العظام قوّتها الطبيعية

فيستنتج مما تقدم ان الاولاد المكسّحة عظامهم والمحدودبين من جرّاء الكساح يجب عليهم ان يلازموا تدبيراً غذائياً موافقاً ويمارسوا رياضاتٍ بدنية بالنسبة الى نوع علّتهم . لان هذه المداواة هي اكثر فائدةً من العصائب التجبيرية وخلاف قطع حيلية (ميكانيكية) التي بها يحصرون الجذع والاعضاء المتكسّحة

ويفيد ذلك بالمثل جميع العلل التي تصيب اخلاط الجسم ومواده الصلبة او أوائل الاعضاء برمّتها . فهم يكافحون هذه الادواء ويتغلبون عليها بواسطة الاغذية الصحية والتمرينات المقتضية فهي خيرٌ من التعويل على ما سواها

اما بالنظر الى الامراض الوراثيـــة فهي من الاسباب الاشدّ مفعولاً في الانحطاط الطبيعي . وقد سبق و بيّنا ان الوالدين ينقلون بدون ادنى ريب بعض العلل الى ابنآئهم . فالتدابير الغذآئية المقرونة ببعض الرياضة البدنية تُساعد نوعاً ما على اتلاف تلك العلل الموروثة . اما الوسيلة الاصح والاكثر مفعولاً في مكافحة هذه الادوآء الوراثية والتمكّن من اتلافها، فانها توجد في اقتران الجنسين بواسطة الزواج . لان الرجل والمرأة اذا اقترنا وكان كلاهما مبتليين بالدآء الخنازيري مثلاً ، فالمخلوقات التي ينسلانهـــا تأتي مبتلية بذات الدآء . مع انهُ بخلاف ذلك اذا اقترنت المرأة ذات الدآء الخنازيري برجلٍ صحيح الجسم ، فلا بدَّ من ان يحصل تعديلٌ في سُلالة البنين و ينجو غالبهم من علة والدتهم . واذا اتمَّ الابنآء الذين قد ورثوا هذا المرض السيّيء نظير والديهم زواجاً مناسباً لواقعة الحال، فالوراثة المرضية يضعف حالها في النسل و ينتهي الامر بزوالها تماماً في العقب الرابع ، ان روعي في ذلك الاختلاط بالقران

اما مسألة البنين وامر الاسرة فهي من اجلّ المسائل خطارةً واعظمها اهمّيةً ندعو بلجاجةٍ حضرات المطالعين الكرام المبتلين بعلّةٍ من العلل السالفة الذكر ان يتفكّروا مليًّا في الامور التي ذكرناها لهم و بسطنا تبيانهـــا امامهم ، عساهم ان لا يقتصروا على ما يستخلصونهُ منها من النفع الشخصي بل ان من الواجب عليهم ان يخصّوا ايضاً بنيهم حتى احفادهم

القسم الاول

في ادوار الحياة البشرية مقسومة الى ثلاثة عشر دوراً (١) مع بيان التغييرات المتوالية التي تطرأ على الحياة الطبيعية والعقلية معا

١

سن الطفولية — وذلك من يوم ما تضع الام الجنين حتى السنة السابعة — لا يبتدي الطفل المولود بان ينظر ويبتسم ويبكي الاَّ بعد مرور اربعين يوماً على يوم مولدهِ . وهو في تلك المدّة لا يعرب عن شيء سوى عن شعور الالم والحاجة . اما في الشهر السادس فتظهر فيهِ اشاير الارادة . وفي السابع يبتدي فيهِ التسنين ويستمرّ على هذه الحالة تقريباً حتى منتهى السنة الاولى . ثمَّ انهُ في بحر السنة الثانية يأخذ بالمشي والبأبآء . وفي السنة الثالثة يصبح ذا رغبةٍ وارادة . وفي الرابعة تظهر فيهِ طلائع الذاكرة . وفي الخامسة تبتدي فيهِ اشاير الحكم على الاشياء . ومن السادسة حتى السابعة ينمو فيهِ الجسم والعقل بالنظر الى مقدار الحيوية الموجودة فيهِ ، وقوة التركيب والحالة الصحية المتمتع بهما . وعند انتهاء هذه المدّة الاخيرة وهي الدور الاول من ادوار الحياة تبتدي الاسنان بان تسقط وتتبدّل ويصبح الولد شاعراً بجميع الاشياء وبكل ما يجري حولهُ

(١) معدل الدور الواحد سبع سنوات على وجه التقريب

٢

سن الحداثة — وذلك من ابتداء السنة الثامنة حتى نهاية الرابعة عشرة — «وهو دور الأمل». لان الولد يشير في ذلك الحين الى ما سيكون يوماً من الايام بالنظر الى حالتهِ الطبيعية والعقلية معاً. اما ما يجب مراعاتهُ في هذا الدور فهو تطبّع الولد الرياضي ليتنشّط فيهِ نموّ الجسم وتمرّن وظائفهُ العضويـة على الحركة والعمل. فعلى الوالدين ان لا يغرب عن ذهنهم هذا المبدأ وهو «ان العقل السليم في الجسم السليم» *Mens sana in corpore sana* (Une âme saine dans un Corps sain) اما بارقة الأمل التي تبدو من الحدث السن في هذا العمر فانها تتحقق ما قلّ او كثر بالنظر الى كيفية تطبّـع الولد والعوارض التي تطرأ على مجموعهِ الجسمي في اثناء هذا العمر. بحيث انهُ لو اسعدهُ الطالع وجاز هذا الدور الثاني ولم يصبهُ داءٌ من الادواء الخطرة والآفات الوبيلة، فيأتي الجسم والعقل بالنجاح السريع والنتائج الحسنة. الاَّ انهُ يتوقف امر ذلك على مزاج الشخص الذي يبتدي من ذلك الحين بان يرتسم في ذاتهِ، وعلى الارشاد الحسن الموجه اليهِ في اثناء تدريجهِ وتخريجهِ. ثمَّ انهُ يتم فيهِ عمل التسنين الثاني نحو اواخر هذا الدور، وتتنبه فيهِ الحواس وتأخذ خصائصهُ العقلية بالنموّ. واذ ذاك يفتر للحدث ثغر الحيـاة باسماً، ويبدو محياها لناظريهِ طلقاً جميلاً، وهو لا ينظر من جميع

جهاتهِ سوى الى اللعب والانشراح . فتلقاهُ سعيداً في عيشهِ فرحاً في غدواتهِ وروحاتهِ ، لكنهُ غير صبورٍ على اكتساب العلم والتثقيف

٣

سن البلوغ — وذلك من الخامسة عشرة حتى الاحدى والعشرين — « وهو سن الغرور والاماني ». تكون معائب هذا الدور هي حب الذات ، والزهو ، وقلة الحسبان ، وحب الاستقلال . فانك تشاهد فؤاد الشخص البالغ مفتوحاً لجميع الاميال والشهوات . غير ان الميل الذي سيشغلهُ عما قريب ويملأ فراغهُ هو الميل العشقي . ذلك لكونهِ لم يزل حتى الساعة يحمرّ وجههُ ويتنهد لدى نظرهِ احدى البنات وهو يطرق على الغالب بنظرهِ الى الارض ويظل ابكم .. لكنهُ لا يبطئ ذلك اليوم الذي قد خصصتهُ الطبيعة لهُ والذي فيهِ يستسلم بمجموع قواهُ الى التنعّم العشقي واللذة الجنسية . ففي هذا الحين يجب على الوالدين والمعلمين المنوط بهم امر تهذيبهِ وتثقيفهِ ان يضاعفوا سهرهم عليهِ ويزيدوا تيقّظهم اليهِ ، ليجتنّوا منهُ ذاك الميل القبيح المسمّى بالعادة السرية اي « جلد عميرة » وهي آفة هذه السن والتي عليها يتوقف امر انحطاط الشاب ماديًا وادبياً . ذلك انهُ بمقدار افراطهِ منها يذوي غصن ربيعهِ ويقصر حبل حياتهِ . وقد اتضح من الاحصاآت الطبّية ان نصف الاولاد الذين لم يبلغوا الدور الثالث كانت غالباً العادة السرية سبب داآئهم وانصرام حبل اجلهم . حتى يُعد من

السعداء اولئك الشبان الذين يكافحون ذاك الميل وينتصرون عليهِ مغتنمين مدة هذه السنين الجميلة لينوّروا بها عقولهم ويوسّعوا نطاق مداركهم

٤

سن الشبوبية — وذلك من الثانية والعشرين حتى السادسة والعشرين — «وهي سن الملاذ الشهوانية». ان الاهواء والاميال التي تقيم في المرء في هذا العمر هي العشق، واللذة الجنسية، والطيش، وقلة الثبات، والحماسة الخ .... ففي هذا الدور المتقد حرارةً والذي يبلغ في اثنائهِ المجموع العضوي ذروة الكمال تصبح الغريزة التناسلية متفوّقةً على مجموع افكار الشخص ومتسلطةً على كل اميالهِ وتصوّراتهِ. ولداعي هذه الحرارة المتقدة فيهِ يندفع الشابّ باحثاً على الخليلة ثمّ يتخلّى عنها ليذهب ورآء فتوحاتٍ أُخرى وموارد جديدة. اما بالنظر الى الزواج فلم يكن بعد فكرهُ قد نضج بشأنهِ. الاّ انك تلقاهُ يبحث عن اللذة الشهوانية بتواترٍ وبكل ما يتسنى لهُ. فهو يشتهي جميع اللواتي يستحسنهنّ ويبذل كل ما في وسعهِ للتقرّب منهنّ والحصول على مواصلتهنّ، بدون ان يتبصّر في الامر ويحسب للعواقب حساباً. ويستمرّ على حالتهِ هذه مدفوعاً بتيّار الملاذ وجاذب الشهوات الى ان تحلّ فيهِ خيبة الأمل ويلمّ بهِ البؤس ويسكن ثائر جشعهِ. فاذ ذاك يودّ ان يعود ادراجهُ ويرجع الى سابق عهدهِ، الاّ انهُ يكون في الغالب قد ابطأ عن العودة ولم يعد لاسترجاع ما اضاعهُ من سبيل

ولا تنطبق هذه الصورة المحزنة والحالة التعسة على جميع الشبان، اذ يوجد البعض منهم الذين يتفرّغون لاختبار امور الحياة ومطالعة سجل الدهر، اللذين بواسطتهما يعظم عقلهم وتتسع مداركهم وتتوطد فيهم قوّة الحكم على الاشياء. ذلك لان الخصائص العقلية تتمرّن في هذا الدور لتشرع فيما يلي بالاعمال المهمّة والمسائل الخطيرة

٥

سن الرجولية — وتلك من التاسعة والعشرين حتى الخامسة والثلاثين — «وهي دور التنعّم الطبيعي والعقلي، والسن المتصف بالطمع وحب الرفعة والميل الى الملاعب والنساء الخ» ..... ففي هذا الدور يصبح الجسم في معظم قواهُ، والنفس في اوج نشاطها. ويكون العقل قد تخرّج والمدارك قد تفتقت واتسع نطاقها. فاذ ذاك يعرف الانسان كيف يتجنّب الطوارئ ويتقي الحدثان. فهو يتقدم نحو الحواجز التي تعترض سبيلهُ بقدم وطيدة وجنان ثابت. وان الزواج المعقود في اثناء هذا الدور هو الاكثر مطابقةً للشرائع الفيزيولوجية والمبادي العمرانية. بحيث انّ ما بلغهُ الانسان من العقل والدراية والمقام الاجتماعي يؤهلهُ لان يُنعت بلقب الزوج ويكون ربّ اسرة. اذ يصبح ملتزماً في ذلك الحين بان يكرّس لوطنهِ والى لفيف اسرتهِ جميع المعلومات الثمينة والمحصّلات المفيدة التي يكون قد اكتسبها من جرّاء المطالعة والاختبار

ومما هو واجبٌ ان تستمر دائماً سن الرجولية . بحيث ان من جميع ادوار الحياة يُعد هذا الدور الاكثر كمالاً والاوفر قيمة . لكنهُ مما يؤسف لهُ ان هذا الدور هو ايضاً نظير جميع الامور البشرية التي لا تدوم الاَّ بضع سنوات فقط

٦

السن المتوسط او الشبوبية الثانية — وتلك من السادسة والثلاثين حتى الثانية والاربعين — «وهي ما يدعونهُ بسن الثبات» . ففي هذا الدور الذي تكون فيهِ الوظائف العضوية والخصائص العقلية قد بلغت اقصى غايتهـا . تصبح الرغبة في الاثرآء والطمع بالفخر والميل الى نيل الشرف والجـاه هي الاهوآء الشاغلة جميع لحظات الشخص وخطراتهِ . حتى يصير اذ ذاك اقل تعلقاً برغائب الحواس وقضآء الشهوات الجسميـة من ذي قبل . ذلك لان أملهُ بالكسب ورغبتهُ في المباهاة وتحصيل الرفعة والميزة في الهيأة الاجتماعية هي التي تشغل اكثر اوقاتهِ وتلهي معظم افكارهِ وتجعلهُ مهتماً بالوسائل التي بواسطتها يصيب مرماهُ وينال مبتغاهُ . حتى انهُ يتغافل عن التودد لامرأتهِ ويتهلّل في كل ما يجعله سعيداً في داخل منزلهِ ووسط اسرتهِ ومتى اصاب المرمى وتحصّل على المراكز الرفيعة وحاز الشرف الباذخ والمميزات الجليلة التي كان يتشوق اليها ويحث ركابهُ نحوها . فاذ ذاك يجمع كل قواهُ ويذهب ورآء طلب المزيد . ولم يزل على هذه الحالة

اسير طمعهِ الزائد وجشعهِ المفرط حتى يبلغ الدور التالي

٧

سن الكهولة — وتلك من الثالثة والاربعين حتى التاسعة والاربعين — «وهي سن الرغبة في التملّك وحياة الحكمة والتعقّل» . ذلك لان حب التملّك الذي كان قد طلع نبتهُ في الدور السالف تبسق في هذا الدور فروعهُ وترسخ اصولهُ في فؤاد الانسان الذي بلغ الذروة العليا من الحياة البشرية ، وقد عرف ملاذها ، وخبر مصائبها وتقلّب في سرآئها وضرآئها ، واكتسب بواسطة عملهِ وجدّهِ نصيباً من المال ، واصبح بوجهٍ عامّ ذا مركزٍ فيها . فحينئذٍ يشير اليهِ امام العقل بان يريح ذاتهُ من مشاق الاعمال ويتمتع بما احرزهُ من المقتنيات والممتلكات مذكّراً اياهُ بالسنين التي اخذت بان تثقّل كاهلهُ و بسن الاياب الذي اصبح على قيد شبرٍ منهُ . وهو العمر القاضي عليهِ بان يتنعّم مع اسرتهِ نعيم الهدو والطأنينة الذي لا يندم عليهِ ولا يعقبهُ أسف

فاذا هو اصغى سمعهُ الى هاتف الضمير و بذل الخبرة التي اكتسبها في تربية بنيهِ وتثقيف مداركهم وتسديد خطواتهم في سبيل الحياة الدنيا ، كان لهُ ذلك اعظم مكافأةٍ واوفر تنديةٍ ، وشعر بتلك اللذة الجميلة وهي قيامهُ بواجب الحياة خير قيام واعدادهُ للهيأة القومية اعضآءً حية ينتفع منهم الوطن ويرتقي بواسطتهم العالم الانساني

اما اذا تناسى هذه الواجبات المتكفّل بها والمؤتمن عليها ، وسار على خلاف مقتضاها فيكون نصيبهُ الغم وجزآؤهُ التأسف والحسرات

٨

سن الهبوط — وتلك من الخمسين حتى السادسة والخمسين — «وهي سن التفكّر» — يتصف هذا الدور من الحياة بالتبصّر والتدبّر والرغبة في الراحة . بحيث ان الرجل الذي امضّتهُ الاعمال ، وخابت منهُ في الغالب اكثر الامال ، يعود من هذه الرحلة تعباً منهوك القوى محتاجاً الى الهدو والراحة . وهو يُعدّ من السعدآء اذا استطاع ان يكتسب في ماضيهِ ويحتفظ بالوسائل التي بها يعيش الآن هادئاً مطمئناً . اما الاميال الشهوانية فلم تعد لها سوى سلطة ضعيفة على نفس من بلغ هذا الدور من الحياة . ذلك لان الرجل الخمسيني يعمل اعمالهُ بتوئدةٍ وحكمة . فهو كان فيما مضى طائشاً متهوّراً ، فاصبح اليوم محترساً هيّاباً . لا يتصرف بالامور الاَّ بتدبّرٍ واحترازٍ متناهيين مستفيداً من الامثولات التي تلقّاها من درس ماضيهِ ومستعيناً بها على التدبّر في امر مستقبلهِ

وقد اخذت حرارة جسمهِ بالبرود ، وفقد شعورهُ قسماً من حدّتهِ ولمعانهِ ، وقد وخط الشيب رأسهُ ، وبدأت تضمر غضون بشرتهِ ، واخذ يثقل جسمهُ ، وتكلّ حواسهُ وتفقد حسها الدقيق.

ولم تعد الاعضاء التناسلية تستيقظ فيهِ نظير السابق بل تقتضي لها مهيّجاتٌ فعّالة ومنبّهاتٌ قويّة لتحريكها وايقاظها من غفلتها . الاَّ انهُ ويحاً لاولئك الذين يبلغون سن الهبوط ويغترّون بتلك المهيّجات والمنبّهات التي تستنزف منهم القوّة وتحدث فيهم في بعض الاحيان طوارئ خطرة

فعلى الرجل الخمسيني ان يسلّم امرهُ الى رغائب الطبيعة ولا يقضي الفعل التناسلي الاَّ متى دفعهُ اليهِ امتلاء الحويصلات المنوية. فضلاً عن كونهِ ملتزماً بان يراعي الحكمة ويبتعد عن هذه الشهوات التي مصدرها الافكار الغرامية ومشاهد التهتك والخلاعة . وبان يتذكر بكونهِ قد اصبح على ابواب الشيخوخة فاذا رغب ان يتوقّى او يقلّل من عدد الادواء التي ستحلّ بهِ في اثنائها ، فعليهِ ان يكون قنوعاً متزهّداً في جميع الشهوات الجسمية والاهواء العالمية

٩

سن الشيخوخة الاولى — وتلك من السابعة والخمسين حتى الثالثة والستين — «وهي سن الاوجاع والحسرات» . ذلك لان الهرم واضطراب البال وذكرى الماضي ومرائر الحاضر هي التي تشغل هذا الدور التاسع الذي يصح ان نحتسبهُ كأنهُ خريف العمر . اذ فيهِ تنحطّ القوى ، ويبرد الفؤاد ، ويبيضّ الشعر ، وتسقط الاسنان ، ويتحدّب الظهر ، ويصير خُلق الشخص رزيناً ، ويبتعد عنهُ البسط والانشراح.

وانهُ بالنظر الى صفة مزاجهِ ومقامهِ الاجتماعي وحالتهِ الصحّية يقضي البقية الباقية من حياتهِ بالطمأنينة او العذاب وذلك ما قلَّ او كثر. وتعود كذلك الى مخيّلتهِ ذكرى ايام الشبوبية، فتذكرهُ بما كان يمتلكهُ من القوّة، وما كان يأتيهِ من النشاط والهمّة، وبأنهُ قد اصبح الآن شيخاً ضعيف القوى مهزول البنية معرّضاً لانواع التوعّك وانحراف المزاج. وبانهُ هو الذي كان يقضي ايام المواسم وحفلات الانس برشف كؤوس المسرّة وتعاطي ضروب السرور والصفاء. وقد حُرّم عليهِ الآن كل ذلك، ولم تعد لهُ سوى الغموم والحسرات التي تضني منهُ الجسم وتنخر العظم

فهذه الذكرى المحزنة هي التي تخيّم دائماً على مخيّلة من بلغ هذا الدور وتدور في خلدهِ وتقلق فكرهُ وتسبب لهُ الكآبة والحزن. اما الغريزة التناسلية وبمثلها الشهوات الغرامية فانها تنطفي بتمامها في الرجل الذي ناهز الستين. وانهُ اذا مرّت بسمعهِ لفظة الحب اهتزّت لها جوانحهُ واضطربت لاجلها افكارهُ، متذكراً بتلك الاويقات الحلوة التي مرَّت بهِ مرّ السحاب ولم يعد لها من معاد. وعند ذلك يحني رأسهُ مغموماً كئيباً ويتنهد تنهداً عميقاً

فهذه هي التذكارات المؤلمة التي تنتاب بدون انقطاع الرجل السنّيني وتقلق فكرهُ وتنبّه فيهِ عامل الأسف والتحسّر. فضلاً عن كون هذا الدور من الحياة البشرية هو الاكثر صعوبةً والاعظم ثقلاً والاشدّ مراساً. لانهُ من الجهة الواحدة يتصل بسن الكهولة

ومن الجهة الاخرى بسن الشيخوخة . فالانسان وان لم يكن قد صار حتى الآن شيخاً لكنهُ يشعر في كل يوم بكونهِ يبتعد عن الكهولة ويدنو من الشيخوخة . فاذا بلغ الدور التالي فحينئذٍ يدرك ان مدة حياتهِ على وجه البسيطة قد قاربت المنتهى ، وما عليهِ الاَّ ان يخضع بالمثل نظير جميع المخلوقات لشرائع الطبيعة التي لا تتغير ولا تخطئ مخلوقاً

١٠

سن الشيخوخة الثانية — وتلك من الرابعة والستين حتى الخامسة والسبعين — ان علامات الدور العاشر هي قريبة الشبه بالدور السالف لهُ . وان الفرق الوحيد بينهما هو في ازدياد السقم وتكاثر الاوجاع وتوفّر السآم في شيخ هذا السن . بحيث يصبح اشدّ شكاسةً واكثر ضجراً . لا سيما وان خُلقهُ المكتئب يجعلهُ ان يكون متسائلاً متطلباً . فهو يأمر ويرغب ان تنفّذ اوامرهُ في الحال . ويغتاظ ان اعرضوا عن سؤلهِ ولم يلبّوا طلبهُ . اما دائرة ملاذهِ وتنعّماتهِ فانها تضيق فيهِ يوماً فيوماً ، مع انهُ تستمرّ فيهِ لذة الطعام اذا كانت اعضاؤهُ الهاضمة في حالةٍ جيدة . ويدوم تنعّمهُ بالنزهة اذا كانت ساقاهُ تساعدانهِ على السير . وكذلك يلتذّ بقيامهِ مع جماعةٍ من الاصحاب يوافقون مزاجهُ وينطبقون على امياله ، ليتجاذب معهم اطراف الحديث ويشرح لهم عذوبة ماضيهِ ومرارة حاضرهِ ، ذلك اذا استطاع ان يوجد لهُ اصحاباً ويحافظ على صحبتهم . لان

الرجل السبعيني يكون في الغالب غير محتمل . وهو حسودٌ غيورٌ يؤنّب الشبان على تلهّيهم وانشراحهم . وما ذلك لانهُ لا يستطيع ان يجاريهم في مضمارهم ويقاسمهم افراحهم ، حاسباً اياهم من المسرفين الطائشين . لانهُ يرغب ان يراهم على شاكلتهِ هادئين مقتصدين . وفي الاجمال ان الغيرة تتناول جميع حركات واشارات الانسان السبعيني. اما بالنظر الى خصائصهِ العقلية فانها تنحط فيهِ في كل يومٍ وتبطيء حركة وظائفهِ الطبيعية ، وترتخي احشآؤهُ ، وتتوتر اعضآؤهُ ، ويتحدب بدنهُ ، وتنقص قواهُ ، ويسير سير العجز والهرم . وحتى انهُ يتوقّى انتكاس صحتهِ فهو يحتاط لنفسهِ كل الاحتياط ويعتني بامرها اشدّ الاعتناء . وفي الوقت ذاتهِ يتظاهر بكرههِ للدنيا وعدم تمسكهِ بالحياة مع ان جميع جوارحهِ تكون متعلقةً بها ويهلع فؤادهُ لمفارقتها ولو انهُ اصبح على قيد شبرٍ من حفرة الرمس او ادنى منها

١١

سن الهرم — وتلك من السادسة والسبعين حتى الاحدى والتسعين — «وهي سن التحرّز وعند الكثيرين سن الفخفخة والمباهاة» . ففي اثنائها تضعف الحواس كثيراً . وينتسخ البعض منها ، ولم تعد عينا الهرم تبصران الاشياء بوضوحٍ ، وتصبح اذناهُ صلبتين يلتزم محدّثهُ ان يرفع صوتهُ ليسمعهُ كلامهُ . لا سيما وان خيانة حواسهِ لهُ تجعلهُ دائماً ان يسيء الظن بنفسهِ وفي الاكثر بالغير . ويستيقظ

في غالب هؤلآء الشيوخ حب الذات . بحيث انهم يقومون مطنبين بماضي ايامهم ويبالغون في تعظيم انفسهم كأنهم كانوا من الاغنيآء الكرمآء والاذكيآء النبهآء . وربَّ انهم ينسبون الى ماضيهم صفاتٍ لم تكن فيهم ولم يمتلكوا منها شيئاً. وكذلك يزيدون في عدد سنيّهم ليزدادوا اعتباراً في اعين الغير، ويسمعوا منهم كلمات التمليق وعبارات الاطرآء

١٢

سن تمدد الاجل — وتلك من الثانية والتسعين حتى الثامنة والتسعين — «وهي سن عدم المبالاة» . يتصل قطب الحداثة بقطب الهرم في هذا العمر ويختلطان ، لكنهُ يوجد هذا الفرق وهو ان مجموع الاعضآء تنموّ في الاول وتتمدد . وتسير في الثاني الى التلف والتلاشي. حتى انهُ في السنوات الاخيرة من هذا الدور يسقط الشيخ في الاطوار الصبيانية فيضطر ذووهُ الى تأييد خطواتهِ المترجرجة وملاحظة احتياجاتهِ ورغائبهِ كأنهُ في الدور الاول من ادوار العمر. اما حواسهُ فتصبح ضعيفةً جداً، بحيث يتعكّر بصرهُ ويتطلب سمعهُ صدمةً قويّة ليدرك ويميّز الاصوات . ويضطرب حسّهُ ويجفّ جسمهُ وتبرد فيهِ الحياة العقلية وتستحيل الى العدم تقريباً . وتستمرّ فيهِ الحياة الحيوانية مقيمةً وحدها ، يحفظ كيانها ما يتناولهُ من الغذآء . بمعنى ان الشيخ البالغ آخر حدود الوجود لا يعود يحيا الحياة الانسانية بل انهُ يعيش

العيش النباتي ولا تنقطع من مجموع اعضائهِ هذه الحالة الاَّ بالموت

١٣

السن المئيني — وتلك من التاسعة والتسعين حتى المائة والخامسة وما فوق — ان هذا التمدد في حبل الحياة وان يكن اندر مما يُظن فهو من شواذّات الجنس البشري الذي تقتضي لهُ اسبابٌ طبيعية وعقلية لا تجتمع الاَّ في نذرٍ قليل من البشر . ففي هذا الدور وهو الاخير من ادوار الحياة تغلق ابواب السمع والنظر واللمس والشمّ والذوق على التعاقب في وجه المؤثّرات الخارجية حتى يصبح الشخص كأنهُ غريبٌ عن كل ما يجري حولهُ . وهو في العدم الطبيعي والعقلي الذي يسمونهُ طفولية الشيوخ ، وتكون حياتهُ اشبه بضوءٍ متلاشي ينبعث منهُ بريقٌ ضئيل ينطفي شيئاً فشيئاً حتى يخمد تماماً . وعليهِ فالمولود يُوضع في الحياة الدنيا بدون ان يشعر بمولدهِ . وبمثلهِ الانسان المئيني ينصرم حبل حياتهِ بدون ان يشعر بانصرامهِ . بحيث انهُ لم يعد لهُ في ايامهِ الاخيرة ضميرٌ يتفكّر بهِ لينتبه لوجودهِ

يبلغ المئيون زمن هذا الهرم بتدرّجٍ منظّمٍ متوالي . وذلك لما في تركيبهم من الميزة عمن سواهم . ثمَّ ان العدد الاكبر منهم ينطفي فيهم مصباح الحياة بعد ان يتجاوزوا سن المائة ببضع سنوات ، ويعيش العدد الاقل بضع سنوات ايضاً علاوةً على اولئك . وكذلك قد امتدّت سنوّ حياة البعض منهم حتى بلغت قرناً وربعاً او قرناً ونصفاً .

فهؤلآء من الشواذّ النادرة جداً التي تحتاج الى التحقيق والاثبات . اما ما قيل عن استمرار وجود البعض مدة قرنين او ثلاثة قرون فالاولى بهذا الزعم ان يطرح في الميدان القصصي ولا يجب ان يعتدّ بصحتهِ . ذلك لان الفيزيولوجيين والرجال المدققين يطعنون في صحة هذه الحوادث ويرجحون وقوع الخطأ في حساب السنين (١)

القسم الثاني

﴿ في تجدد الشباب عند بعض الشيوخ ﴾

نُشاهد في مجموعات العهد القديم والاعصر المتوسطة والحديثة التي تبحث في اسرار الطبيعة جملة مؤرّخات تختص بتجدد شباب الانسان يتعذر تصديقها ما قلّ او كثر . لا سيما وان هذه الحوادث قد شهدت

(١) قال ابن خلدون في مقدمته . اعلم ان السن الطبيعي للاشخاص على ما زعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين . ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه ، فتكون اعمار بعض اهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين او سبعين او ثمانين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها . واعمار هذه الملة ما بين الستين الى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك

وجاء في مزامير داوود ان حياة الانسان سبعون سنة وفي الاشداء ثمانون واكثرها تعب ووجع

لها علماء الاعصر الحاضرة . ذلك لانهُ من زمن البارع ميدلي حتى بارسليس، ومن ريمود لولي حتى باكون، كان فن تجدد الشبوبية والحياة موضوع الاجتهاد والسعي المتواصلين . واذا سأل سائلٌ وهل وُجد هذا السر ؟ فالجواب على ذلك انهُ مما يصعب علينا تصديقهُ . لكنهُ لامرٌ لا يقبل الانكار ان الطبيعة تأتي احياناً ببعض العجائب التي يستحيل على العلم تأويلها وكشف غوامضها. وان هذه العجائب التي قد خفيت عنا مسبباتها تجري في غالب الاحيان في السياق القصصي. فاذا اتينا نحن على ذكر حوادث تجديد الشباب التي اوصلها الينا التاريخ فنكون قد قمنا بتمثيل دور الراوي ليس الاَّ

اورد باكون ان الكونتة ديزمونت لما ناهزت المائة والاربعين شاهدت اسنانها قد تجددت ثلاث مرار وشعرها مرتين . وهو قد عزا سبب هذا الحادث وذلك العمر المديد الى استعمال شراب الذهب الذي اشار بهِ على البابا نيقولا الرابع نظير سرٍّ مقرٍّ لا شبهة فيهِ . ولقد ذكر باكون هذا الحادث الشديد الغرابة ثلاث مرارٍ الاولى في رسالةٍ لهُ عن اسرار العلم والطبيعة . والثانية في موءلفهِ ابوس ماجوس . والثالثة في كتابهِ المختص بشفاء الشيخوخة . فاي رأيٍ يستطيع بعد ذلك رجال القرن التاسع عشر والعشرين ان يبدوهُ بهذا الشأن ، هل يقبلون بهذا الحادث او يعتبرونهُ كأنهُ فلتةٌ من فلتات ذلك الرجل العظيم ؟

اورد بيتر لوتيشيوس ان رجلاً في سن الثمانين قد اقترن بابنةٍ

فتيّة في غضاضة العمر . ثمَّ انهُ اصابتهُ فجأةً بعد ذلك حمّى شديدة اضاع على اثرها شعر رأسهِ ولحيتهِ . لكنهُ شوهد في مدة نقههِ ان شعراً جميلاً اشقر اللون قد نبت في رأسهِ وعارضيهِ خلفاً لذلك الشعر الساقط الذي بيضتهُ الايام وكرّ السنين . وقد استعاض وجههُ غضاضة الشبوبية واصبحت امرأتهُ الفتاة بعد ذلك حاملاً

كتب فيلاسكه دي تارنت ترجمة حياة رئيسة موفيادرو مشيراً الى انهُ لما بلغت هذه الراهبة سن المائة شعرت بعادة الحيض التي كانت قد فارقتها من مدة اربعين سنة ، وزالت غضون بشرتها ، وطلع في فمها نظام اسنانٍ بديع الشكل ، وتبدّل شعرها الابيض والنادر بشعرٍ اسود اللون وغزير . وبالاجمال انهُ في اقل من ستة اشهر قد تحوّلت هذه الرئيسة من عجوزٍ دردبيس الى امرأةٍ فتيّة جميلة الطلعة تبلغ من العمر ثلاثين ربيعاً . واذ شاهدت هذه الرئيسة الصالحة هذا الانقلاب الغريب الذي حدث معها استولى عليها الخجل ورأت الاولى بها ان تغلق باب غرفتها في وجه محبي الاطلاع الذين كانوا يختلفون اليها من كل حدبٍ وصوب رغبةً منهم في مشاهدتها والوقوف على حقيقة امرها . واقتصرت في ذلك على مقابلة الاخصاء من اصدقائها والمنتسبين اليها

يرى المطالع في تاريخ الهنود للاب مافاي انهُ بعد ان اتى هذا المؤرخ على تفصيل الاحوال التي رافقت موت الملك غامبايا قد اورد الحادث الآتي

تقدم هنديٌّ من قبيلة الغنغار القدماء الى القائد البرتغالي بصفة كونهِ رجلاً مسنًّا لهُ من العمر ثلاثمائة وخمسة وثلاثون حولاً . ولما لم يستطع القائد تصديق زعمهِ هذا فقد ألّف لجنةً للبحث والاستقراء عن صحة دعواهُ وحقيقة أمرهِ . وقد اكّد الجميع ان عمر هذا الشيخ هو بالحقيقة كما قال هو عن نفسهِ . ذلك لان الهنود الاطول أعماراً بين رجال قبيلتهِ كانوا يتذكرون بانهم سمعوا ما قيل الى اجدادهم وهو ان هذا الرجل كان لهُ على الاقل ضعف عمرهم وكان هو فيما بينهم موضوع الدهش ومدار الاستغراب

اما هذا الرجل المسنّ البالغ من العمر ثلاثة قرون فانهُ كان قد حفظ في ذاكرتهِ جميع الحوادث التي حدثت في مدة حياتهِ . حتى كان كتاريخٍ حيّ يُرجع عند اللزوم اليهِ . وقد شاهد جملة مرارٍ في اثناء حياتهِ سقوط شعرهِ واسنانهِ وتجددهما ثانيةً . وانهُ كان قد امضى المائة الاولى من عمرهِ في الديانة الوثنية ثم قضى المائتين التاليتين في الاسلامية . وكان سلطان ذلك العصر قد انعم عليهِ بمرتّبٍ من المال ليستعين بهِ على قضاء معاشهِ . ثمَّ قصد فيما بعد القائد البرتغالي متوسلاً اليهِ لان يديم لهُ هذا المرتّب، فما عتّم القائد المومأ اليهِ حتى اجاب ملتمسهُ في الحال

اورد مؤرخ الملك فردينان لويز دي كاستانيوده الحادث ذاتهُ في قالبٍ آخر مؤدّاهُ، ان هذا الهندي حضر امام وكيل الملك وهو يتذكر بجميع الحوادث التي مرّت بهِ مدة القرون الثلاثة التي عمّر

فيها ، وكان يؤكّد بان اسنانهُ وشعر رأسهِ ولحيتهُ قد تجددت جملة مرارٍ في اثناء حياتهِ الطويلة . وانهُ مات ولهُ من العمر ثلاثمائة وسبعون حولاً ! ....

كانت تروج في الازمنة التي فيها علم التنجيم والفلسفة الهرمسية بالغتين ذروة المجد واسمى درجات الارتقاء الف قصةٍ فيما يختص بتجدد الشباب وطول مدة العمر . ذلك لان المنجمين كانوا يدّعون بان تمدّد العمر لا يمكن انتسابهُ الاَّ الى اقتران نجوم برج العذراء وخلاف قصصٍ من هذا القبيل

وكان الفلاسفة الهرمسيون والالشميست يسفّهون رأي اولئك المنجمين وهم في الوقت ذاتهِ منكبّون على البحث والتنقيب عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة ، مدّعين بانهم قد تحصّلوا على الطب العمومي الذي بواسطتهِ يستطيعون ان يمدّدوا زمن الحياة. وهم يستشهدون على هذا بالفيلسوف ارتيفانس الذي عمّر اكثر من ثلاثة قرون وذلك باستعمالهِ الاكسير . وكان يدّعي الاخوان روزكروى [1] مفتخرين بكونهم حائزين هذا الاكسير العجيب . الاَّ ان بطرس مورينيوس وهو اكبر علاّمةٍ من شيعة روزكروى قد حصر مدّعياتهم في كونهم يمتلكون ثلاثة اسرارٍ وهي

١ً : الحركة الدائمة

٢ً : فن تحويل المعادن

---

(١) شيعة كانت تدعي بانها قد امتلكت مقدرة فوق الطبيعة

٣ً : الطب العمومي

يدّعي الفلاسفة الهرمسيون بكونهم حائزين سرّ تمدد الحياة فاذا راجع المرء مؤلفاتهم المطوّلة التي اكثرها مملّةً وغير واضحة ، لا يستطيع ان يحكم اذا كان الذي يسمونهُ حجر الفلاسفة هو ذات السر الذي عليهِ يتوقف تحويل المعادن والطب العمومي

ولا بدع ان يصدّق جماعة روزكروى وخلافهم باكبر الاسرار المخالفة للنواميس الطبيعية ، وهي التي كانوا يصدّقونها ويعتقدون بامكان حدوثها. بل ان ما يقضي بالعجب هو ان رجالاً عظاماً نظير دسكارت ، ونوتون ، وبايلي وخلافهم من كبار العلماء يغترّون بمثل هذه السفاسف والترّهات ويضلون في هذا السبيل . الامر الذي لا يقبل التصوّر ولا يمكن ردّهُ الاّ الى هذا المبدأ وهو ان لكل عالمٍ هفوة ولكل صارمٍ نبوة

يحتوي المؤلف المسمى هرميبوس راديفيقوس على سلسلة امثالٍ تختص بتجدد الشباب يتفاوت فيها مقدار الدهش والاستغراب ، نضرب عنها صفحاً مكتفين بالشواهد التي اوردناها واتينا على بسط تفصيلها

اما الآن وقد وقف المطالع على ما كتبهُ الاقدمون بخصوص التغيّرات التي تتناول تجدد الشباب ، فعاد من الواجب ان نطلعهُ على ارآء الفلاسفة العصريين المختصة بهذا الشأن

لقد اصبح من الواضح في يومنا الحاضر ان في اجسام الشيوخ

من الحرارة الباطنية ذات الدرجة التي في اجسام الشبّان مع وجود هذا الفرق، وهو ان حرارة اولئك هي اكثر رسوخاً مع انها ليست هكذا غزيرة، ولا هي بالمثل كثيرة الانتشار والتمدّد. بحيث ان حرارة الشيوخ تنكتم في باطن اجسامهم مع انها تذهب من داخل جسم الشابّ لتشعّ في ظاهرهِ. ولهذا يستعملون للشيخ مهيجات الشبوبية اذا ابطأت فيهِ حركتهُ وفترت تمرّنات بدنهِ، ولم تعد رئتاهُ تقومان بوظائفهما الدموية. وقد ابطأ فيهِ تجدد الدم واصبحت بالمثل دورة دمهِ السطحية اقل نشاطاً. لا سيما وان جميع هذه المفاعيل المتحدة المتضامنة تعمل في تقليل مصادر الحرارة الحيوية شيئاً فشيئاً. ولما كانت الاشياء التي تحيط بجسم الشيخ المعمّر تتشرب حرارتهُ الغريزية فلهذا كان البرد يعتريهِ ويمضّهُ ويجعلهُ مضطراً الى ارتداء الالبسة الصفيقة والالتجاء الى مواقد النار وتعاطي المشروبات المقوّية

ومما لا يقبل الشك ان الحرارة الطبيعية التي تنتشر في انسجة اجسام الشيوخ هي اكثر صيانةً لهم من الحرارة الصناعية. وبناءً على هذا المبدأ قد اصبح كثيرٌ من المعمّرين صحيحي الجسم ومتعافين من جراء مساكنتهم اشخاصٍ فتيّي الجسم واصحاء واقوياء. ويذكر لنا التاريخ عن الشيخ داود الملك وفيما بعدهُ الامبراطور طيباريوس اللذين كانا يبيتان مع بناتٍ فتياتٍ ليستعيض جسمهما الرث حرارتهُ الاولوية — وكذلك لم يعتبر الفلكي تيشو برابه بهذه الوسيلة الدنيئة التي كان يشير بها احد الفلاسفة، الاَّ عند تجربتها وتحسّن صحتهِ

من جرّآئها — وقد اشار بورهـاف الشهير على عمدة بلدة ساردام الذي كان مبتلياً بدآء النقرس بان يبيت مع بناتٍ فتيّات . ولما عمل بمشورتهِ تحسنت حالهُ وزال منهُ المرض — وفي هذه الايام قد اشار الدكتور آليبار بذات الوسيلة على شيخٍ مركيز كان قـد شمل دآء الرثية (الريماتيزم) جسمهُ من كل جهـةٍ وجانب . ولم تكن حياتهُ من جرّآئهِ الاَّ حملٌ ثقيلٌ على كاهلهِ ، وقد امتثل هذا المبتلى لاشارة الطبيب ولم يمضِ على ذلك شهرٌ واحد حتى تحسّنت حالهُ ونال قليلاً من الصحة . لكنهُ مما يجب ملاحظتهُ ان الذي يكتسبهُ الواحد في هذه الحالة يفقدهُ الآخر . لانهُ اذا كان شباب الشيخ يتجدد من ملاصقة الشخص الفتي ، فان هذا الاخير يذبل جسمهُ في وقتٍ قريب بسبب هذه الملاصقة الباردة

وفي الاجمال ان قانون الصحة يشير على الشيوخ بان يجروا طبق بعض التعاليم التي لا يمكن اعتبارها نظير وسيلةٍ لتجدد الشباب بل للاحتفاظ بواسطتها على الصحة والعافية وذلك كالآتي

معاشرة الشبيبة — بحيث ان البسط والانشراح ونشاط الشبوبية تروّض حياة الشيخ المصفعة والمملة ، وتزرع في سبيلها بعض الرياحين التي تنفحهُ بأريجها في اثنآء مسيرهِ نحو مقام الرمس . ويُعدُّ الشيخ من السعدآء اذا امكنهُ ان يتناسى الادوآء المحدقـة بهِ والغموم التي مرّت عليهِ . لانهُ بذلك يتيسّر لهُ ان ينال قسطاً من دواعي السرور التي تقترب منهُ وتلتف حولهُ

ثمَّ مساكنة البنات الفتيّات ذوات الدم الوافر والصحة الجيدة لان النشأة المنعشة التي تتطاير من ابنةٍ فتيّة في ريعان الصبا وغضاضة العمر، تخترق جسم الشيخ الجافّ وتسخّن دمهُ الضعيف الفاتر وتحرّك فيهِ الاعضاء الذابلة . وكذلك الجمع بين الشروط الصحّية الاكثر مفعولاً في المحافظة على توازن الوظائف العضوية التي تتأتى عنها الصحة والعافية . والسكن في المنزل الطلق الهواء المتسع الارجاء والتغذّي بجيّد الطعام وبمقدارٍ يناسب القوى الهاضمة . والتنزّه والرياضة المعتدلة . وكذلك النوم والراحة فهما ضروريان ليستعيض بهما الشيخ عن متاعب اليقظة . وعليهِ اذا اضيف الى هذه الشروط الطبيعية الصفات العقلية كراحة القلب، وسكون الضمير، والطبع الهني، والخُلق الرضي، التي بها يجلب الشيخ اليهِ ميل اقربائهِ وعطف الملتفين حولهُ، يستطيع بذلك ان يمدّ في حبل ايامهِ وينزهها عن المتاعب والادواء واصناف المرائر التي ترافق عادةً هذه المدة الاخيرة من الحياة البشرية

اما ما يزعمون بهِ فيما يختص باجسام الشيوخ والعجائز التي يتجدد شبابها ويُستعاض سالف فتوتها فهذا لا يُقصد منهُ العود نحو الشبوبية كما يتبادر للذهن لاوّل وهلةٍ، بل كل ما في الامر ان تتجدد قوى بعض الاعضاء المستضعفة جداً او الفاقدة قواها بالمرّة . وقد ورد في مجموعة الوقائع الطبية بعض الحوادث عن اشخاص في سن الخمسين حتى الستين نبتت فيهم الاسنان والشعر مرةً ثانية . وكذلك

نساء في سن الخمسين قد تضخمت اثداؤهنَّ وتكعّبت بعد ما كانت ذاوية ذابلة . وشيوخٌ قد زال تغضّن اديم بشرتهم وتجددت فيهم اميال الشبوبية بعدما كانت قد خمدت من زمنٍ بعيد

ونحن موردون هذا الحادث الشاذّ عن رجلٍ ستّيني أُصيب من مدة اثني عشر حولاً بداءٍ عصبي في المعدة والامعاء ، اذ كانت تجتمع فيها الغازات وتستمر معهُ القرقعة بدون انقطاع ، وترافقهُ نوبٌ سوداوية في غالب الاحيان . ولقد استشار هذا النكد الطالع جميع اطباء باريس وتداوى عند اكثرهم في قصد ان ينال الشفاء او يخفف عنهُ على الاقل وطأة الداء ، فقد ذهب سعيهُ ادراجهُ ولم يفز من ذلك بطائل . فكان يشير البعض عليهِ بالخيار شنبر والسنامكي ، والبعض بالصمغ والعلق . واذ لاح لخلافهم ان معالجة زملائهم لهُ جاءت عقيمة. ترآى لهم ان يسبروا غور العلة بالافيون وحبوب الاثير . ولم يستصوب بعضهم هذا النوع الاخير فوصفوا لهُ الحقن واخراج الارياح من الامعاء . وبالتالي قد جرّبوا فيهِ جميع العقاقير الطبية التي كان يستعملها طبقاً لتعليمات الاطباء ، فكان يذهب ذلك فيهِ سدًى ولا يأتي بادنى فائدة . فضلاً عما اضرّت هذه العلاجات بجسمهِ وادنتهُ من باب القبر . وبينما هو على تلك الحالة وقع بيدهِ مؤلفٌ صحّي مدار ابحاثهِ على التدابير الغذائية المختصة بالشيوخ و بالاشخاص الذين في حالة النقه . وقد طالع في هذا الكتاب جميع التفصيلات المتعلقة بعلتهِ والوسائل المقتضية لمكافحتها . وما كاد يتم ذلك حتى ترك جميع

العلاجات جانباً وعكف على متابعة التدابير الغذائية المسطر عنها في ذلك المؤلف

الاَّ انهُ ما مرّت ثلاث اسابيع على ذلك حتى شعر بتحسّنٍ في جسمهِ الضعيف ، واصبح بعد شهرين يهضم طعامهُ جيداً ، وكان جهازهُ الهاضم يجري اعمالهُ بانتظامٍ حسن . ونحو اواخر الشهر الثالث على اجرآئهِ التدابير الصحّية بكل دقّةٍ واعتناء عادت اليهِ صحتهُ السالفة وقد احرز تمام الشفآء من هذا الدآء الوبيل

غير انهُ قد جرى للمذكور حادثٌ في تركيب جسمهِ يُعدّ من الغرائب . ذلك انهُ رأى على غفلةٍ سقوط شعر رأسهِ الابيض وبالمثل اضراسهِ المتخلّعة . وانهُ فضلاً عما نالهُ من الغمّ والكدر من جرآء هذا الحادث ، فقد رأى ان لا يستشير بذلك احداً ولا يري ذاتهُ لاي طبيبٍ كان من الاطبآء . وبعد مرور ستة اشهر شعر المومأ اليهِ بألمٍ شديدٍ في فكّيهِ ، وبحكّةٍ قويّة في أديم رأسهِ تحملها بمزيد الصبر . وقد اعتراهُ الدهش في احد الايام لدى مشاهدتهِ ظهور طلائع اسنانٍ في لثاهُ الوارمة . وما لبثت هذه الاسنان حتى كبرت في بضعة أيام وطوّقت فاهُ بنظامٍ منها بديع ! . . . . وكذلك ما كان قد اصاب أديم بشرتهِ المشعر من الصلع قد تغطى الآن بالزغب وبعد قليلٍ قد اشتدَّ نبتهُ واصبح شعراً اشقر اللون

اما هذا الحادث المدهش فليس هو فقط دليلاً على الطبيعة القادرة على كل شيء ، بل انهُ يشير الى امرين آخرين خليقين بالنظر

وجديرين بالاعتبار. اولهما ان القوّة الحيوية هي من الامور التي لم يتوصّل العلم الى حصرها حتى الآن، وهي في استطاعتها ان تأتي بحوادث خارقة العادة، وتبدي نتائج ليس في الامكان تصديقها. وثانيهما ان الفكر الصوابي يرشدنا الى ان نفضّل في حالة الادواء العصبية التعويل على التدابير الموضّحة في قانون الصحة والفيزيولوجيا فهي خيرٌ من تعاطي كثيرٍ من العلاجات المضرّة التي لم تتفق مفاعيلها حتى الآن

القسم الثالث

﴿ في مدة الحياة في العالم الحيواني ﴾

ان مدة الحياة بوجهٍ عامّ بالمعنى التقديري هي بالنظر الى مدة الزمن التي فيها يستمرّ الحيوان في البيضة او في جوف امهِ. وهو ان انثى الفيل تحمل مدة ثلاث سنوات فينشأ عن ذلك ان هذا الحيوان الجسيم البنية هو من الحيوانات التي تعمّر اطول الاعمار. وان الثور والحصان والكلب الخ .... التي لا يستمر نتاجها الاّ بضعة اشهرٍ لا تعيش اكثر من خمس عشرة وعشرين او ثلاثين سنة. وقد يشذّ البغل عن هذه القاعدة ويجوز ان تمتدّ حياتهُ حتى خمسين حولاً

ثمَّ تُقاس نسبة الحياة بخلاف ذلك بمقدار القوّة الحيويّة الواردة والصادرة من الجسم ، وبالمعنى التقديري ببطء النموّ ، وبخلاف ذلك بسرعتهِ . وعليهِ يصبح كلٌّ من الحصان والثور والحمار بالغاً في ثلاث سنوات و يستطيع ان ينتج في السنة الرابعة ، وهذه لا تعيش سوى خمسة وعشرين حتى ثلاثين حولاً . وتستطيع الشاة ان تكون اماً في السنتين من عمرها وهي لا تعيش الاَّ عشر سنواتٍ فقط . وكذلك تستمر الحياة ايضاً بالنظر الى بساطة التركيب ، فالزوفيت والديدان التي يُقتصر تركيبها على قناةٍ هاضمة فقط ، يوجد بعض اصنافٍ منها لا يقبل التلف والاندثار

وتتمتع الحيوانات ذوات الدم البارد بحياةٍ متينة تفوق التي للحيوانات ذوات الدم الحارّ . بحيث شوهدت سلاحف وضفادع مقطوعة الرؤوس وقد عاشت جملة اسابيع

اما مدة الحياة في الجنس البشري فلها تناسبٌ تامّ بمدة نموّ الجسم . فالانسان في الحالة الفيزيولوجية يمكنهُ ان يعيش حتى سبع مرات وهي المدة التي يجوزها من يوم مولدهِ حتى زمن بلوغهِ . وعليهِ بمقدار ما يحصل البلوغ قبل أوانهِ بمقدار ما تكون الحياة قصيرة . وبعكسهِ تتوفر ايام الحياة لمن تأخر فيهِ زمن البلوغ . ويشترط لذلك ان لا يكون هذا التأخر متأتياً عن آفةٍ في التركيب او علةٍ مرضية

وعليهِ فالحياة هي واحدةٌ على وجه هذه البسيطة ، لكن مدتها في السياق الحيواني هي كثيرة الاختلاف . بحيث انهُ اذا ابتدأنا بالحشرة

اليومية وهي التي تتولد وتموت في ذات اليوم ، وتوصلنا اخيراً الى سلحفآء البحر التي تعمّر على ما قيل خمسة حتى ستة قرون ، نشاهد عدداً غير متناهٍ يتخلل على التفاوت هذه المدة

فالسركاريا لا تعيش سوى بضع ساعات

والدفني " " بضعة ايام

والبيسرون " " شهراً واحداً على الاكثر

والنحلة تعيش اعتيادياً سنةً واحدة

وثعبان المآء يعيش سنتين

والتروكلوديت لا تتجاوز ثلاث سنوات

وارانب انكوريا تعيش اربع سنوات

وابن عرس يعيش من	٥	الى	٧	سنوات
والغرير "	٨	"	١٠	"
والهر "	١٠	"	١٥	سنة
والكلب "	١٥	"	٢٠	"
والثور "	٢٠	"	٣٠	"
والحصان "	٢٥	"	٤٠	"
والباشق "	٤٠	"	٥٠	"
والحمار والبغل "	٦٠	"	٨٠	"

والنسر ، والاردف ، والزاغ ، والبعير مائة سنة

والفيلة ، والسلاحف ، والتماسيح ، تعيش من ١٥٠ الى ٢٠٠

واخيراً بعض سمك البروشه التي يتجاوز عمرها مدة ثلاثة قرون !!

على انهُ يجب ان يكون الحدّ الطبيعي للحياة البشرية من الثمانين حتى المائة سنة ، لكنهُ يتخلل مدة العمر جملة احوالٍ طبيعية او عقلية تقصّر مسافة الحياة وتعجّل في انقضاء الاجل . اخصهُ في وسط مدنيةٍ فيها الملاذ الكثيرة والاميال المتشعّبة التي تهدم الجسم وتجفف الروح . حتى يمكنا ان نزيد على ذلك ان انسان البادية يكون حظهُ من الحياة اوفر من الانسان الحضري المثري الذي يكتسب السمن والربالة في ظلال البطالة ، ويعمل على اتلاف جسمهِ في النزوع الى الترف وقضاء الملاذ المهلكة (١)

تعيش البشر في المناطق المعتدلة اطول عمراً ممن يعيشون في البلاد الحارّة او الباردة ، ومع هذا فهم يستطيعون ان يعمّروا في اي اقليمٍ من الاقاليم متى استمرّوا محافظين على الشرائع الطبيعية وكانوا غير مستسلمين لاقل افراطٍ او تفريط

اما البلدان الكثيرة اليبوسة وبمثلها الشديدة الرطوبة فهي لا

---

(١) وصل الينا الاحصاء الاخير الذي اجروه في سنة ١٩٠٩ عن اعمار سكان العاصمة الفرنساوية . وهو انه يوجد في باريس الآن اربعة اشخاص قد تجاوزوا سن المئة — و١٧ رجلا و٧٨ امرأة بلغوا سن التاسعة والتسعين — و ٥٤٢ قد تجاوزوا سن الخامسة والتسعين ..... اما المعمرين الذين قد ناهزوا السن التسعيني فهم اكثر من عشرة آلاف . وعليه يتراءى لنا من ذلك ان باريس مصدر المدنية العصرية فضلا عما فيها من الدواعي المنهكة القوى والمقصرة الاعمار ، فهي مع ذلك البلد المتوفرة فيه اسباب الصحة وتمدد الاجل

تصلح لتمدّد الاجل . ونظيرها الاقطار المعرّضة الى تقلّبات الطقس التي تزعج الجسم وتضر بالصحة

ولقد اظهر الاختبار ان الانسان المقيم في الارجآء والبلدان المرتفعة يتقدم في العمر اكثر ممن سواهُ ، لكنهُ يوجد شواذٌّ لهذه القاعدة ، وهو ان المقيمين في جبال سويسرا هم اقصر اعماراً من المقيمين في جبال ايكوس

يظهر من احصآء عدد السكان في اقاليم اوروبا ان بلاد النروج ، والدانمرك ، واسوج ، وانكلترا ، وفرنسا ، وسويسرا هي الاكثر صلاحيةً لتمدد الاجل من باقي ممالك اوروبا . الاَّ ان سكان البادية في تلك الممالك يعمّرون اكثر من سكان المدن

يوجد ملحوظٌ في غاية الاهمية وهو ان غالب الرجال والنسآء الذين عمّروا كثيراً كانوا من المتزوجين ولا يُذكر من هذا القبيل الاَّ عددٌ قليلٌ جداً من العازبين . اما التقويم الذي رسمهُ المسيو دوفيلار على الوفيات في فرنسا فقد بيّن لنا فيهِ التقدير الآتي

يستطيع الانسان ان يؤمل من الحياة في سن العاشرة ٤٠ سنة

،،	٣٥	٢٠	،،	،،	،،
،،	٢٩	٣٠	،،	،،	،،
،،	٢٣	٤٠	،،	،،	،،
،،	١٧	٥٠	،،	،،	،،
،،	١٥	٦٠	،،	،،	،،

يستطيع الانسان ان يؤمل من الحياة في سن	٧٠			٧ سنوات
″	٧٥	″	″	٤ ¼ ″
″	٨٠	″	″	٣ ¼ ″
″	٨٥	″	″	٣ ″

اما في سن التسعين فقد يزول رقم الحدس والافتراض وتعتبر الاشخاص الذين يناهزون المائة كأنهم من الشواذّات التي لا يقاس عليها قياس . لا سيما وان هذه الشواذّات في ايامنا الحاضرة هي عديدة لتنقض زعم اولئك الاشخاص الذين يدّعون بان الحياة كانت اطول مدةً في زمن ملوك الرعاة مما هي عليهِ الآن . ونحن موردون جملة حوادث تاريخية لا تقبل الاعتراض وهي تبرهن على كون الازمنة الحاضرة بالنظر الى الحياة البشرية هي نظير الاعصر الغابرة

القسم الرابع

﴿ في تمدد الحياة البشرية ﴾

كان في سنة ١٨٢٥ يوسف بيندو وهو رجلٌ قد بلغ سن المائة والتاسعة عشرة وهو مولعٌ بشرب الراح وميّالٌ الى البسط والانشراح

بكيفيةٍ غريبة ، فضلاً عن تمتعهِ بجميع خصائصهِ العقلية ومحافظتهِ على قوى ساقيهِ

كان لاهاي وهو الرجل الذي امضى قسماً من حياتهِ متجولاً على قدميهِ في الهند والصين و بلاد فارس والقطر المصري لم يبلغ سن البلوغ الاَّ في الخامسة والاربعين . وفي سن السبعين اتمَّ عقد زواجهِ وقد رُزق بعد ذلك خمسة بنين وتوفي في سن المائة والواحدة والعشرين

توفي سيمون كلوفاس	في سن	المائة والعشرين
والسنيور سيسر الامريكاني	″	١٢٠
وجاف بايلي	″	١٣٠
ومرغريتا بوتر في انكلترا	″	١٣٠
وجام لورنس في ايكوسيا	″	١٤٠
وسيمون ساك من تريونيا	″	١٤٠
والكنتسا اليستون في ايزلندا	″	١٤٣
والمدعو افينغام	″	١٤٤
وقائد المئة توماس وينزلّو	″	١٤٦
وفرنسوى كوازيت	″	١٥٠
وتوماس بارّي	″	١٥٢
ويوسف سورينغتون	″	١٦٠

وترك هذا الاخير ابنًا لهُ من العمر مائة وثلاث سنين وخلافهُ مائة وتسع سنين

كانت تقيم في سنة ١٧٧٢ في مدينة ديب امرأةٌ تُدعى حنه كوشي بلغت من العمر مائة وخمسين حولاً وكان والدها قد عمّر قرناً ونصفاً وناهز عمها سن المائة والثالثة والسبعين

اورد هيلّر في موءلفهِ الفيزيولوجي ذكر المدعو هنري جوكانز الذي توفي في ٦ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٦٧٠ وكان قد ناهز سن المائة والسادسة والستين ولم تكن حرفتهُ الشاقّة وهي صيد الحيتان لتسبب لهُ اقل اعتلالٍ في جسمهِ . اذ كان وهو في سن المائة يقطع الانهر سابحاً في اليمّ . وقد استدعوهُ بصفة شاهدٍ على حادثةٍ مضت من مائة واربعين حولاً ، وقد حضر معهُ ولداهُ البالغ احدهما سن المائة والآخر سن المائة والاثنتين

كانت قد ناهزت لويزيا طروزو من امريكا الجنوبية سنْ المائة والخامسة والسبعين لما توفيت بحادثٍ من الحوادث

ذكر نيانوفيوس استاذ في دانتزيك عن شيخٍ لهُ من العمر مائة واربعة وثمانون حولاً وخلافهُ قد بلغ سن المائة والتسعين

ان من اغرب الحوادث على تمـدد الاجل ما اوردتهُ الغازتة الفرنساوية الصادرة في مدينة بطرسبرج في ٨ يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٥ . فانها بعد ان اوردت اسم الشيخ المسنّ و بعض التفصيل عن سياق حياتهِ ، ذكرت ان المومأ اليهِ كان يتذكر جيـداً وفاة ملك سوج غستاف ادولف الذي قُتل في معركة لوتزن سنة ١٦٣٢ . ثمَّ انهُ كان يبلغ من العمر ستة وثمانين سنةً في معركة بولطافا التي تمّت

في سنة ١٧٠٩ . وانهُ من هذه المدة الى سنة ١٨٢٥ توجد مائة وستة عشر حولاً . فاذا اضيف ذلك الى سنيّهِ السابقة وهي ٨٦ . فتكون جملة سنيّ حياة هذا الاب العمري هي مائتان واثنتان سنة

اما تمدّد الحياة فانهُ وراثيٌّ في بعض الاسر نظير باقي الصفات الطبيعية والعقلية التي يورّثها السلف للخلف . وقد ورد في الوقائع التاريخية عن جيسّاي الحادث التالي (١)

في ٣١ يوليو (تموز) سنة ١٥٥٤ لما كان الكردينال درمانياك مجتازاً احدى الطرقات الآ ونظر شيخاً يناهز الثمانين جالساً على عتبة دارهِ وهو مجدٌّ في البكآء . فلما رآهُ الكردينال على هذه الحالة تقدم نحوهُ وسألهُ عن سبب بكآئهِ فاجابهُ الشيخ ان والدهُ قد ضربهُ. فاذ ذاك دهش الكردينال من هذا القول وطلب في الحال ان يرى الوالد فاحضروا لهُ شيخاً مسناً لهُ من العمر مائة وثلاثة عشر حولاً وهو

(١) لما كان صاحب هذا الكتاب في سن الثامنة عاين وفاة جدة والده وقد ناهزت سن المائة وخمس . وقد خلفت ثلاث بنات واحدة منهن توفيت في سن السبعين بحادث من الحوادث ، والثانية التي هي ام والده توفيت في سن الخامسة والتسعين ، والثالثة لم تزل في قيد الحياة وقد بلغت سن المئة ثم ان جده « الياس غضبان » ابو والده توفي في سن السابعة والثمانين . وخلف ابنته البكر وهي لم تزل في قيد الحياة وقد بلغت الرابعة والثمانين . وابنه « رزق الله غضبان » الذي هو والد كاتب هذه السطور وقد ناهز الخامسة والسبعين وهو لم يزل حيا يرزق . وقد كان جميع الذين ذكرهم الى حين ما كانت تحضرهم الوفاة صحيحي الجسم والمدارك ولم تكن وفاتهم الا طبيعية فلا شك ان للسلالة تأثيراً كبيراً على تمدد الاجل

متمتعٌ بتمام الصحة . وبعد جملة سؤالاتٍ وجهها الكردينال اليهِ ، سألهُ عن الجريمة التي اجترمها ولدهُ حتى استحق القصاص . فاجابهُ بانهُ مرَّ من امام جدهِ بدون ان يحييهِ السلام . فما سمع الكردينال منهُ ذلك حتى زادهُ الامر دهشاً واستغراباً ، وطلب في الحال ان يسير بهِ نحو الجدّ ، فامتثل الشيخ امرهُ وادخلهُ في غرفةٍ متوسطة الحالة شاهد الكردينال درمانياك في صدرها شيخاً هرماً لهُ من العمر مائة وثلاثة واربعون حولاً . ثمَّ انهُ اخذ الكردينال يوجه اليهِ عبارات الحنو والانعطاف وقد اهداهُ في التالي بركتهُ وخرج من عندهِ وهو في ابلغ حالات الاستغراب (١)

---

(١) ولنذكر هنا طرفاً مما عثرنا عليه في مؤلفات العرب عن الرجال المعمرين الذين عمروا دهراً طويلا وتجددت في البعض منهم حالات الفتوة . حتى منهم من شهدوا لانفسهم في منظومهم على ما احرزوه من العمر المديد وان يكن مما يتعذر على المحقق تصديقه

ذكر المؤرخ المعروف بالاسحاقي ان قس بن ساعدة اسقف نجران عمر ٦٠٠ سنة وذلك لا شك خرافة من خرافات العرب

قالوا وكان من اطول من كان قبل الاسلام عمراً ربيع بن ضبع عمر اربعين وثلاثمائة سنة ولم يسلم ومن قوله لما بلغ مائتين سنة

اذا جاء الشتاء فادفئوني فان الشيخ يهدمه الشتاء
فاما حين يذهب كل قر فسربال خفيف او رداء
اذا عاش الفتى مائتين عام فقد اودى المسرة والفتاء

وعاش المستوغر بن ربيعة ثلاثا وثلاثين وثلاثماية وقال في ذلك

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا
هل ما بقي الا كما قد فاتنا يوم يمر وليلة تحدونا

فهذه الامثال الاكثر شهرةً على تمدّد الحياة الذي استطاع الانسان ان يحرزهُ ويتوصل اليهِ . لكنهُ كما سبق واوضحنا ان ابناء المئة هم من الشواذّات البشرية التي لا يجري عليها قياس . فضلاً عن وجود جملة احوال تكون سبباً في اتلاف الحياة وتقصير مدة العمر . ويدخل الانسان بوجهٍ عامّ من سن الستين في آخر ادوار الحياة وهي

وعاش اكثم بن صيفي الحكيم المشهور فيما رواه اهل الاخبار ثلاثمائة وثلاثين سنة . قالوا بل عاش مائة وتسعين سنة وقال حين بلغ ذلك

وان امرءاً قد عاش تسعين حجة الى مائة لم يسأم العيش جاهل
اتت مائتان غير عشر وفائها وذلك من مرّ الليالي قلائل

قالوا وعاش عبدالله بن ربيع الحميري مائة وخمسين سنة وقال في ذلك

اراني كلما هرمت يوما اتى من بعده يوم جديد
يعود شبابه في كل فجر ويأبى لي شبابي لا يعود

قالوا وعاش لبيد بن ربيعة مائة وعشرين سنة ويروى مائة واربعين وقال في آخر عمره

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

قالوا وعاش نصر بن دهمان مائة وتسعين سنة حتى سقطت اسنانه وابيض رأسه . فوقع قومه في امر احتاجوا فيه الى عقله ورأيه . فدعوا الله ان يرد عليه عقله وشبابه فرد الله عليه عقله وشبابه وفهمه واسود شعره . وقال سلمة ابن الخرشب في ذلك

نصر بن دهمان الهنيدة عاشها وتسعين حولا ثم قوم فانصاتا
وعاد سواد الرأس بعد ابيضاضه وراجعه شرخ الشباب الذي فاتا
وراجع عقلا بعد عقل وقوة ولكنه من بعد ذا كله ماتا

سن الشيخوخة . وانهُ من هذه السن الى حين وفاتهِ التي تكون اعتيادياً في بحر الخامسة والستين الى الثمانين ، تظهر فيهِ في كل سنةٍ علامات التأخر والانحطاط ، التي تأتي مثقلةً جسمهُ ومضنية قواهُ . اذ تضعف فيهِ القوة الحيوية ، ويفتقر الدم ، وتسير الدورة الدموّية باكثر بطء ، وتُنتهك قوى اعضآئهِ ، وتكسل عن تأدية وظائفها ، وتنحط جميع خصائصهِ البدنية والعقلية شيئاً فشيئاً ، ويزول البعض منها ، وتنطفي منهُ الحرارة تدريجاً ، ويفغر اللحد فاهُ ليضم اليهِ ذلك الشيخ الهرم ويواريهِ عن ارضٍ شهد آلامها واسقامها ، وخبر غرورها وشرورها ، وسقاها على الغالب بدموع الأسف والتحسّر

قالوا وعاش زهير بن ابي سلمي الشاعر المشهور مائة وعشرين سنة وقال لما بلغ اخر عمره

الا ليت شعري هل يرى الناس ما ارى من الامر او يبدو لهم ما بدا ليا
بدا ليا اني عشت تسعين حجة وعشراً وتسعا بعدها وثمانيا
فلم الفها لما مضت وعددتها بحسبتها في الدهر الا لياليا

قالوا وعاش انس بن نواس دهراً طويلا ونبتت اسنانه بعدما سقطت فقال:

اصبحت من بعد البزول رباعيا وكيف الرباعي بعدما شق بازله
ويوشك ان يلقي ثنيا وان يعد الى جذع تثكل اخاكم ثواكله
اذا ما اتغرنا مرتين تقطعت حبال الصبي وانبت منا وسائله

جاء في كتاب النصائح لابن ظفر ان عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغساني كان من المعمرين وعمر اكثر من ثلثمائة وخمسين سنة

روى الدينوري في المجالسة وقاله الحريري في الدرة ان عبيد بن شربة الجرهمي عاش ثلاثمائة سنة وادرك الاسلام فاسلم

هذا ما خلا كثير من المعمرين الذين ورد ذكرهم في التورات كما هو معلوم

الفصل الثالث والثلاثون

« في اشتعال الجسم البشري وهو نتيجة تكأحل (١) جميع انسجة البدن »

ان نوعاً من الموت البشري الاكثر غرابةً وهو اشتعال الأديم الانساني من تلقآء ذاتهِ استمرَّ سببهُ مجهولاً زمناً طويلاً ، وكان في اكثر الاحيان عرضةً للظن بوقوع جريمة القتل على الشخص المحترق

ويختص نوع هذه الاصابة باولئك الاشخاص الذين يدمنون المشروبات الروحية ويفرطون منها ، حتى تصبح انسجة جسمهم مشبعة من الكحول ومستحيلة اليهِ . ولقد اتفقت الملحوظات الفيزيولوجية والطبية على اثبات التشرّب الكحولي في جميع اعضآء الجسم على اختلافها واخصهُ في النسيج الدهني . لا سيما وان هذا النسيج هو مركّبٌ بوجه التقريب من الهيدروجين والكربون ، وهو في مدمني المشروبات الكحولية متكأحلٌ بمقدارٍ وافر فضلاً عن الكربون الموجود اكثر من المعتاد في دمهم . اما تنفسهم الرئوي والجلدي ، وغازات المعي الهاضم ، وجميع ابخرة الجسم فتكون مشبعةً من رائحةٍ كحولية.

(١) عربنا Alcooliser اي استحال الى كحول بلفظة تكأحل

فيحصل في امثال هؤلاء الاشخاص ان لهيب الموقد ، وشهاب الشمعة ، وشرارةً من جذوةٍ يكفي ذلك لعمل الاشتعال الفجائي في بقعة أديم البشرة التي تقع عليها تلك الشرارة او يصيبها ذلك الشهاب

وقد يحدث بعد ذلك ان من نقطة الغلاف الأديمي التي تكون قد علقت بها النار يسري منها اللهب و يمتد الى الاقسام المجاورة لها بسرعةٍ اشدّ كلما كان الأديم مبتلاً بالاكثر من عرق البدن. بحيث يكون هذا العرق متكأحلاً وهو لذلك شديد الالتهاب . اذ يمتد اللهب في قليلٍ من الزمن فوق سطح الجسم ويكون لونهُ وخفتهُ اشبه بلهب الكحول المشتعل . فاذا تأتى ذلك للشخص وهو في حالة الغفية او الرقاد ، فهو يختنق سريعاً ويصبح اللهب الذي يكون في باديء بدء خفيفاً وزرقاوي اللون اكثر كثافةً واشد بياضاً ، وتفرز الغدد الشحمية المتهيجة سوائلها الدهنية ، ويسطع الأديم ويذوب ، ويقوم النسيج الخلوي بتقديم طعامٍ جديد للاشتعال ، وهو الذي يمتدّ الى عموم الجسم ويفنيهِ في بضع ساعات. وهذه هي الدلائل الفيزيولوجية على الاشتعال البشري في كل انواعها وصفاتها

ويتراءى لنا ان الباحثين قد اغفلوا ملحوظاً هاماً جديراً بالاعتبار نقوم نحن بالاشارة اليهِ. وهو ان الاشتعال يحدث دائماً في خارج الاعضاء وليس في داخلها ، وتصل المواد الدهنية المتكأحلة الى سطح الجسم وتشتعل هنالك . ثمَّ يأتي خلافها من نوعها لتحلّ محل التي قد احترقت وتفحّمت . وهلمَّ جرّاً حتى يتم الاشتعال ويتحوّل الجسم الى رماد

واذ اننا قد بسطنا دلائل الاشتعال البشري وبيّنّا مسبباتهِ وصفاتهِ فلنأتي الآن على ذكر بعض حوادث من هذا القبيل وهي وان تكن نادرة الوقوع الاَّ انهُ قد جمع الاطبآء عدداً منها

نطالع في الوقائع الطبية المجلد التاسع والخمسين صفحة ١٤٠ الحادث الآتي

كانت ماري جوفره ارملة رجل حذّآء (صانع الاحذية) عبلة الجسم تناهز سن الخمسين ، وهي مولعةٌ من زمن مديد بالمشروبات الروحية الشديدة ، وقد قضت نحبها بالاشتعال الاديمي. وكان التقرير الذي قدّمهُ الطبيب المنتدب من قبل الهيأة الحاكمة لتحقيق نوع الوفاة هذا ملخصهُ

« لم اجد من بقايا ماري جوفره سوى مجموع رمادٍ وبعض عظامٍ متكلسة وان يداً ورجلاً قد نجتا من فعل النار ونظيرها القزال (موءخر الرأس) . وكان موجوداً في جانب بقايا الجثة منضدةٌ لم تمسها النار . وفوق هذه المنضدة مدفئةٌ للرجلين نارها منطفئة. وان الكرسيّ الذي كانت ماري جوفره على ما يظن جالسة عليهِ في اثنآء وقوع الحادث كان مقعدهُ حتى منتصف قوائمهِ متفحّماً ، ولم يكن اثرٌ للنار في موقد (شيمينه) الغرفة ، ولا في خلافهِ . وكانت جميع الامتعة التي فيها باقيةً على حالتها السابقة بدون ان يمسها اقل احتراق . بمعنى انهُ ما عدا الكرسي المذكور كان كل شيء قابل الاشتعال لم يشترك في احتراق تلك الجثة الذي تمّ حدوثهُ في مدة سبع ساعات »

ثم يقدم لنا ذات الكتاب هذا الحادث ايضاً وهو ان المرأة بواسو التي قد ناهزت سن الثمانين كانت من زمنٍ بعيد تدمن العرق والكيرش وخلاف مشروباتٍ فعالة

وكانت في احدى الليالي جالسةً في كرسيّها وقد خرجت خادمتها لقضاء غرضٍ لها . ولما عادت الى البيت وجدت سيدتها تشتعل ناراً فاخذت تصرخ مستغيثةً وقد اقبل على صراخها جملة اشخاصٍ رام احدهم ان يطفي اللهب بيديهِ فكان اللهب يلتصق بهما كأنهُ يغطسهما في خمر العرق . ثمَّ احضروا ماعون ماء وطفقوا يصبّون منهُ فوق الجسم المحترق لكنهم لم يستطيعوا اطفاءهُ بل كان اللهب يزداد اتقاداً ولمعاناً . وبالتالي انهُ فضلاً عن الجهد الذي بذلهُ الحاضرون لم يتوصلوا الى اطفاء الاشتعال الاَّ بعد ان تفحّمت اقسام الجسم الدهنية تماماً . اما الهيكل العظمي فقد استمرّ على حالتهِ فوق الكرسيّ وقد اسمرَّ لونهُ قليلاً بالنار . ولما رغبوا في تحريكهِ تفككت منهُ اليدان والرجلان والرأس

على انهُ في الامكان ان نورد سلسلة حوادث شبيهة بما تقدم قد ورد ذكرها في المقتطفات الطبية ، لولا اننا نخشى من ان يمل المطالع منها وقد اكتفينا بالشاهدين المتقدمين وها نحن نتبعهما بالحادث التالي الذي حصل من بضع سنواتٍ في مدينة كاين وهو هذا

كلفت الهيأة الحاكمة الدكتور ماريل طبيب التشريح ليعطي تقريراً عن حالة جثة المرأة توراس التي وجدت ميتةً في غرفتها

بالاحتراق . وقد تضمن التقرير شرح الحادث كالآتي

كان رأس المرأة قريباً من منصب الحطب على بعد ثمان عشرة عقدة من النار ، وكان باقي الجسم ممدوداً بانحرافٍ امام الموقد (الشيمينه) ولم يكن مجموع الجسم سوى كومة رماد . وكانت العظام الاكثر غلاظةً قد فقدت صلابتها ما خلا عظم النقرة ، وقسماً من عظم الصدغ ، وفقارتين من جانب الصلب ، وقسماً من قصبة الساق . وكان نصف الرجلين والذراع الواحدة محروقة

ولقد كان في ذلك اليوم بردٌ قارس ، وكان الموقد خالٍ من النار ولم يتلف من امتعة الغرفة شيء . حتى ان الكرسي الذي كانت جالسةً عليهِ المرأة توراس قبل سقوطها على الارض لم يُشاهد فيهِ اقل اثرٍ من اثار الاحتراق . بل كان الاثاث وادوات الغرفة على انواعها مطليةً بطلاءٍ دهني تفوح منهُ رائحةٌ شديدة النفرة . وكان يوجد في ارض الغرفة سائل مادةٍ دهنية نتنة سوداء اللون . وقد قالت الخادمة لدى اخذهم اقوارها ان سيدتها قد شربت في عشية يوم مصرعها ثلاث زجاجاتٍ خمراً وزجاجةً من الروم وكانت المدة التي تمَّ فيها اشتعال جثتها ست ساعات

فنستنتج من هذه الشواهد الثلاثة التي اتينا على ذكرها ومما هو على شاكلتها النتائج التالية

١ً — ان الادمان على المشروبات الكحولية هو شرطٌ لا بدَّ منهُ للاشتعال البشري . وان معاقرة هذه المواد مدةً طويلة من الزمن

يجعل الجسم بجملتهِ متشبعاً منها . ثمَّ انهُ يجوز بعد ذلك حدوث الاحتراق البشري اذا كان الشخص محاطاً بظروفٍ تساعد على الاحتراق . اما اذا كانت حوادث هذا الاشتعال هي نادرة الوقوع ، فيكون سببها ان معاقرة الخمور وتشبع الجسم من المواد الكحولية لم يبلغ الدرجة المقتضية لاتمام الاشتعال . وكذلك وجود انواعٍ من المفرزات الجسمية التي تتلف قسماً من المواد الكحولية المشروبة وتعارض في تكأكأ حل الجسم بها . ولولا ذلك لكان قسمٌ وافرٌ من السكيرين ومدمني الخمور مهددين بالاشتعال البشري

٢ً — يحدث الاشتعال البشري على الاخص في النساء الدسمات ، اكثر من حدوثهِ في الرجال . وربما كان سبب هذا ان انسجة جسمهنَّ هي اسفنجية بالاكثر ودهنهنَّ اغزر تتشرّب بكيفيةٍ اسهل المواد الكحولية . وبالتالي ان السمن والربالة المتخلقنَ فيهما يجعلانهنَّ اقل حركةً واشد ميلاً الى ملازمة الجلوس . سيما وان ولعهنَّ بالمشروبات الشديدة لا ينقص فيهنَّ من جرآء اخلادهنَّ الى البطالة والكسل بل يزداد فيهنَّ نمواً من يومٍ الى آخر

٣ً — يحصل تقريباً في جميع حوادث الاشتعال ان الرجلين والذراعين وبعثلهِ قطع العظام الكثيرة الصلابة انها تنجو من الاشتعال . وسبب ذلك ان هذه القطع لا تحوي من الدهن بالنظر الى باقي اقسام الجسم الاَّ مقداراً زهيداً

٤ً — ان الماء الذي يصبونهُ في الغالب لاطفاء الاشتعال البشري

لا يزيدهُ الاَّ ضراماً واتقاداً . وهذا لا بدَّ منهُ طالما يحدث نظيرهُ عندما يرشون الماء على الزيت او الكحول المشتعل

٥ً — ان اللهب الكحولي هو كثير الخفة وليس مفعولهُ في الامتعة والاشياء التي تلامس الجسم المشتعل الاَّ قليلاً جداً . ومما يقرب من هذا دائماً ان الجسم البشري في حالة الاشتعال يتقلب على الارض مبتعداً عن الاشياء التي تحتاطهُ . فهو يشتعل بدون ان يشرك باشتعالهِ هذه الاشياء ، ومع ذلك فقد شوهدت تلك المرأة التي اسمرَّ هيكلها العظمي وتفحمت قوائم الكرسيّ ومقعدهِ

٦ً — يكون الرماد المتحصل من احتراق المواد البدنية ذا دهنيةٍ والبقايا التي لم تتحول الى رمادٍ كثيرة التانة ، ويتكوّن ايضاً طلاءٌ اسود منتن على الامتعة وباقي اشياء المنزل الذي تمَّ فيهِ حادث الاشتعال البشري

اما نحن فقد اتممنا هنا ما يجب علينا تبيانهُ عن الاشتعال البشري فلا نظنَّ بعد هذا ان المطالع يستخف بحقيقة هذا الاشتعال الطبيعي الذي كانوا يحتسبونهُ قبلاً من الامور التي لا يمكن حدوثها . ثمَّ اذا كان البعض من مطالعي مؤلفنا هذا قد تملكت فيهم عادة معاطاة الخمور الشديدة المفعول فما عليهم الاَّ ان يتذكروا بما طالعوهُ في هذا الفصل

انتهى

فهرست الكتاب

			صفحة
خطبة الكتاب			٧
«		العلم سلم الارتقاء	١١
«		موضوع الكتاب	١٤
الفصل الاول		في تكون الارض	١٧
«	القسم الاول	في الطوفانات المختلفة	٣٦
«	القسم الثاني	في مولد الانسان الاول	٥٧
الفصل الثاني		في تاريخ الانسان الطبيعي	٦٠
«	القسم الاول	في النوع الزيتوني والزنجي	٦٩
«	١	فرع الهوتنتوت	٧١
«	٢	فرع البابوس وسكان اوستراليا	٧٤
«	٣	فرع الكافر	٧٥
«	٤	فرع الاثيوبيين	٧٦
«	القسم الثاني	في النوع الاصفر او المغولي	٨١
«	١	فرع الهيبربورين	٨٣
«	٢	فرع الامريكان الاصليين	٨٤
«	٣	فرع الملقيين	٨٨
«	٤	فرع المغول او الصينيين	٨٩
«	القسم الثالث	في النوع الابيض او القوقازي	٩٠
«	١	فرع الهنود	٩٢

obeikandl.com

			صفحة
تابع الفصل الثاني	٢	فرع الاسكنيين والتتر	٩٢
»	٣	فرع الاراميين	٩٤
»	٤	فرع البلاسجيين	٩٤
الفصل الثالث		في نمو الانواع البشرية	٩٧
»	القسم الاول	في الوراثة الفيزيولوجية	١٠٣
»	القسم الثاني	في وراثة الخلق الشاذ	١٠٦
»	القسم الثالث	في التطبع المادي والادبي	١٠٦
الفصل الرابع		في انحطاط الجنس البشري	١١٨
الفصل الخامس		في الهوَل اي شواذ الخلق	١٢٥
»	القسم الاول	في الهوَل المزيدة	١٢٨
»	القسم الثاني	في الهوَل ذوات الرأسين	١٣٧
»	القسم الثالث	في اصحاب الرؤوس الهائلة	١٤٠
»	القسم الرابع	في النسآء المتعددات الاثدآء	١٤١
»	القسم الخامس	في المخلوقات الناقصة الاعضآء	١٤١
»	القسم السادس	في تبدل الاعضآء وانقلابها	١٥١
»	القسم السابع	في النسآء ذوات الذقون	١٥٤
الفصل السادس		في الساتير	١٥٩
»	القسم الاول	في التريتون والسيرين	١٦٣
الفصل السابع		في شواذ خلقة الاعضآء التناسلية	١٦٨
»	القسم الاول	في الخنوثة	١٦٩
الفصل الثامن		في الجبابرة	١٧٦
الفصل التاسع		في النقاشين	١٨٥
الفصل العاشر		في آفات الاغتذآء	١٩٨
»	القسم الاول	في الزبالة المفرطة	١٩٩
»	القسم الثاني	في الهزال المفرط	٢٠٨
الفصل الحادي عشر		في البشر المدنبين	٢١٣

صفحة

الفصل الثاني عشر		في البشر المجترن	٢١٩
الفصل الثالث عشر		في البشر التهمين	٢٢٤
الفصل الرابع عشر		في البشر الغير المحترقين	٢٣٣
الفصل الخامس عشر		في الاولاد الوحشيين	٢٤٢
«	١	في الاولاد المتبنين من الدببة	٢٤٣
«	٢	في الابنة الوحشية في اوفر أيسل	٢٤٦
«	٣	في غلام هانوفر	٢٤٧
«	٤	في وحش افيرون	٢٤٧
الفصل السادس عشر		في الرجال الغواصين	٢٥٣
الفصل السابع عشر		في القوى العضلية	٢٦١
الفصل الثامن عشر		في البهلوانيين والعدّائين	٢٧٥
الفصل التاسع عشر		في المتكلمين من بطنهم	٢٨١
الفصل العشرون		في الرياضة البدنية	٢٨٦
الفصل الحادي والعشرون		في الكهربائية البشرية والحيوانية	٢٩٠
الفصل الثاني والعشرون		في حياة الجنين	٢٩٧
«	القسم الاول	في اعضاء الرجل التناسلية	٢٩٩
«	القسم الثاني	في اعضاء الانثى التناسلية	٣٠٠
«	القسم الثالث	في بيض النساء الشهري وحصول التلقيح في بوقي الرحم	٣٠٧
«	القسم الرابع	في التلقيح والكيفية التي يتم بها والنوادر التي تحدث معه	٣١٠
«	القسم الخامس	في حركة البيضة البشرية في اثناء حياتها داخل الرحم	٣١٣
الفصل الثالث والعشرون		في الاذكار والاناث والاسباب المعينة كلا الجنسين	٣١٩
«	القسم الاول	في الحمل الفضولي	٣٢٧

		صفحة
تابع للفصل الثالث والعشرون		
« القسم الثاني	في الولادة السابقة والمتأخرة	٣٣١
« القسم الثالث	في البلوغ العاجل	٣٣٣
« القسم الرابع	في التلقيح	٣٣٩
الفصل الرابع والعشرون	في عاهات الاعضاء التناسلية في كلا الجنسين	٣٤٦
الفصل الخامس والعشرون	في الانافروديزي او نقصان الشهوة التناسلية	٣٥٤
الفصل السادس والعشرون	في المنبهات والمقويات العصبية	٣٦١
« القسم الاول	في المركب العشقي	٣٦٤
الفصل السابع والعشرون	في افات الجماع والتهيج الشبقي	٣٦٧
« القسم الاول	في دآء الغلمة (النوفومانيا)	٣٧١
« القسم الثاني	في دآء الشبق (الساتيريازي)	٣٧٦
الفصل الثامن والعشرون	في العاهات الدماغية	٣٨٠
« القسم الاول	في السرسام القتال	٣٨٥
« ١	في سرسام المنتحرين	٣٨٨
« ٢	في دآء السودآء التي لم يسبق لها نقص في الادراك	٣٨٩
« القسم الثاني	في اختباط المؤثر العصبي	٣٩٢
« ١	في الوسواس	«
« القسم الثالث	في الرؤيا الباطلة ومدعيها	٣٩٤
« القسم الرابع	في السومنامبوليزم او الجولان في النوم	٣٩٨
الفصل التاسع والعشرون	في الاعتبارات الادبية والفيزيولوجية المختصة بالزواج	٤٠٢
« القسم الاول	في المزاج الدموي	٤٠٨
« القسم الثاني	في المزاج الصفراوي	٤١٠

			صفحة
تابع للفصل التاسع والعشرون			
»	القسم الثالث	في المزاج العصبي	٤١٢
»	القسم الرابع	في المزاج اللمفاوي	٤١٣
الفصل الثلاثون		في الدلائل الصحية المختصة بالنسل	٤٢٠
الفصل الحادي والثلاثون		في تأثير تصور الحامل على الجنين	٤٢٥
الفصل الثاني والثلاثون		في التغيرات التي تطرأ على المخلوق البشري من جرآء الغذآء والتطبع الجسمي	٤٣١
»	القسم الاول	في ادوار الحياة البشرية	٤٤١
»	١	سن الطفولية	»
»	٢	سن الحداثة	٤٤٢
»	٣	سن البلوغ	٤٤٣
»	٤	سن الشبوبية	٤٤٤
»	٥	سن الرجولية	٤٤٥
»	٦	السن المتوسط او الشبوبية الثانية	٤٤٦
»	٧	سن الكهولة	٤٤٧
»	٨	سن الهبوط	٤٤٨
»	٩	سن الشيخوخة الاولى	٤٤٩
»	١٠	سن الشيخوخة الثانية	٤٥١
»	١١	سن الهرم	٤٥٢
»	١٢	سن تمدد الاجل	٤٥٣
»	١٣	السن المئيني	٤٥٤
»	القسم الثاني	في تجدد الشباب عند بعض الشيوخ	٤٥٥
»	القسم الثالث	في مدة الحياة في العالم الحيواني	٤٦٥
»	القسم الرابع	في تمدد الحياة البشرية	
الفصل الثالث والثلاثون		في اشتعال الجسم البشري	٤٧٨

انتهى